

مطبوعات المجتمع العلمي العربي بدمشق

المهجر الألفي لأخي العلاء المعري

يشتمل على وصف المهجران الذي أفاضه المجتمع العلمي العربي
لذكرى مرور ألف سنة على مولد أبي العلاء
وما قيل فيه من القصائد والنظم

دار صادر
بيروت

المهرجان الألفي للأدباء العرب

يشتمل على وصف المهرجان الذي اقامه المجمع العلمي العربي
لذكرى مرور الف سنة على مولد ابي العلاء
وما قيل فيه من القصائد والخطب



دار صادر
بيروت

المحجرات الأربعة والعشرون

تسليم الحقوق المترجمة

الطبعة الأولى ٨٠٣٦٤ ٠١٩٠٥
الطبعة الثانية ٠١٥١٤ ٠١٩٩٥



ص.ب. ١٠ بيروت، لبنان / فاكس: ٩٢٠٩٧٨ ٠٤ ٩٦١-٠٠
هاتف: ٩٢٨٢٧١ ٠٤ ٩٢٢٧١٤ ٠٤ ٤٤٨٨٢٧ ٠١ ٤١٣٢٥٦ ٠١

المقدمة

لو لم يوجد ابو العلاء المعري ، اولو وجد ومات صغيراً ، لما قام مقامه احد ، ولبقي مكانه في ديوان الأدب العربي خالياً الى الآن ، والى ما لا يمكن تحديده فيما سيأتي من الزمان . والأدباء من هذا النوع قليل في كل امة ، بنفس الدهر بهم على البشر ، ولا يجود بواحد منهم الا نادراً في مئات السنين .

اجتمع في ابي العلاء من الخصائص ما يعز اجتماعه في اعظم الرجال : نبوغ فطري ، وذكاء نادر ، وشعور رقيق ، وعقل راجح ، وخلق كريم ، وترفع عن باطل الحياة الدنيا فوهب نفسه بما فيها من هذه المزايا للعلم والادب ، ففاز منها بأعظم نصيب .

وكانت الثقافة الاسلامية لعصره قد استبحرت وتشعبت فنونها تدويناً وتاليفاً ووضعاً وترجمة واقتباساً ، كما كانت اقراخ الأدبية قد جادت بروائع الشعر والنثر . فاطلع على كل ذلك اطلع تدبر ، واستوعبه واحاط به ، فكان تام الآلة كامل العدة لا ينقصه شيء من ثقافة عصره .

انصرف الرجل عن زخرف الحياة الدنيا الى العلم والادب والتفكير ، فنظم ونثر وآلف ودرّس ، مستقل الرأي ، حر التفكير ، يجهر بما

يعتقد ، ورائده الصدق ، وغايته الحقيقة ، ووسيلته الى ذلك ادبه المتميز
بالإتقان والإبداع وبروز الشخصية .

قد يكون في شعراء العرب من هو أشعر من أبي العلاء ، وقد
يكون في كتابهم من هو أكتب منه ، ولكن ليس فيهم من رمى
من وراء أدبه إلى غاية أنبل من غاية أبي العلاء الذي لم يكن أدبه
أدب المستجدين ، ولا أدب الغواة المستهترين الذين يهيمون بالفن للفن ،
بل كان أدب من يعتبر نفسه صاحب رسالة يدعو إليها ، ويناضل
عنها ، وبقيم الدليل عليها ، بمختلف الوسائل والأساليب ، شعراً ونثراً .
أدب أبي العلاء أدب إنساني سام شامل ، تغطي حدود الأجناس
والأديان والعصور ، فاشترك في اكباره جميع الأجيال ؛ وقد يفهم
منه ابن هذا العصر ما لم يفهمه القدماء ، وستفهم منه الأجيال الآتية ،
مالم نفهمه نحن في هذا العصر ؛ فكلمنا تحرر العقل ، وسمت المدارك ،
وتهذبت النفس ، ازداد الإعجاب بأدب أبي العلاء .

ليس في ديوان الأدب العربي ، مثوره ومنظومه ، - على عظمتها
وجلالته قدره - ما يجزي عن أدب أبي العلاء في نبل المقصد ، وتعدد
المناحي ، وقوة الشخصية ، وظهور أثر العلم ، واخضاع الشعر للعقل ،
أو العقل للشعر ، حتى تجارياً منسجمين ، وتبارياً مؤتلفين . ولعل الافاضة
في التعريف بجزاياه في هذا المكان ، من الزيادات التي يستغنى عنها ، بعد
أن جمع هذا السفر بين دفتيه بحثاً ودراسات قيمة ، لم ندع مقالاً لقائل .

في شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٣ مرَّ على مولد أبي العلاء الف سنة ،
 فرأى المجمع العلمي العربي في دمشق أن يجي من هذه الحادثة
 ذكرى تكون وسيلة للاستقصاء في دراسة أبي العلاء ، والتنقيب
 عن آثاره . فعزم على إقامة مهرجان أدبي عام يفتح في دمشق في
 اليوم الثامن من شوال سنة ١٣٦٣ (٢٥ ايلول سنة ١٩٤٤) ودعا
 اليه اقطاب العلم والأدب في الاقطار العربية ، وبعض الاقطار الشرقية
 والغربية من يمكن ان تبلغهم الدعوة في هذه الحرب الضروس . ولم يكد
 يعلن عزمه على ذلك ، حتى تجاوزت بهذا الخبر اقطار العالم ، وبالغت
 مصر في تأييد المجمع وموازرتة في هذا العمل ، حتى نزلت له عن
 هذا المشروع بعد أن كانت عازمة عليه .

ولما أظلم الوقت المعين ، وصلت الوفود إلى دمشق فاستقبلهم أعضاء
 المجمع ، واحتفت بهم دمشق حكومتها وشعبها أبلغ احتفاء ، وكانوا
 في مجالس اجتماعهم وندوات سمرهم يثلون المدينة الفاضلة بما بثوه في
 الجو حولهم من أدب المعري وأخلاقه .

وافتح المهرجان في دمشق تحت رعاية صاحب الفخامة رئيس
 الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي ، واستمر أسبوعاً أقيمت
 حفلاته الخطابية في دمشق ومعرة النعمان وحلب واللاذقية ، فشهدت
 البلاد أعظم حادث أدبي في تاريخ الأدب العربي ، وكان شغل الناس
 وحديثهم ، وموضوع الصحف وحديث الإذاعات اللاملكية .

حتى إذا انقضى ذلك الأسبوع البهيج وعادت الوفود إلى بلادهم ، ظلّ نبأ المهرجان حديث النوادي الأدبية في جميع الأقطار العربية ، وظلت الصحف والمجلات تتناول أخباره ، وتتناقل ما قيل فيه ، وتنتشر ما كتب عنه ، مدة لا تقل عن سبعة أشهر . وما نعرف حادثاً في هذه السنين مهما عظم شأنه ، لهج به الناس طول هذه المدة وعُنوا به هذه العناية .

أما ما أُلقي فيه وكتب لأجله من الدراسات والبحوث وانقصائد والخطب ، فمن خيرة ما جادت به قرائح أقطاب العلم والأدب في هذا العصر ، وهو في جملته أجمع وأمتع كتاب بحث عن أبي العلاء في كل نواحيه وأشاد بذكره ، وهو في الوقت نفسه صورة للأدب العربي المعاصر في نظمه ونثره وأساليبه بجمته وبيانه . وكل ذلك مجموع في هذا السفر .

ولئن كان في عقد هذا المهرجان وطبع هذا السفر محمداً ، فالفضل في ذلك لفخامة رئيس الجمهورية السورية ، فهو الذي استحسن الاقتراح ، وأمر بتحقيقه ، ورعاه بعنايته .

خليل مردم بك

الحفزة الاولى

في دمشق

لم يكبد المجمع العلمي العربي يعزم على اقامة المهرجان الاثني لأبي الصلاء المعري ، حتى ابتداء الاستعداد له في كل مكان . فهدد المجمع إلى لجنته الادارية في تنظيم المهرجان وتحديد أمكته ومواقيته وحفلاته ، فرأت أن يدوم المهرجان اسبوعاً كاملاً من ٢٥ ايلول إلى ١ تشرين الاول ١٩٤٤ ، وأن تشمل حفلاته مدن دمشق وحمص وحماة ومعرّة النعمان وحلب والاذقية . ودعا المجمع أعضاءه العالمين والمراسلين إلى الاشتراك في المهرجان ، وكلف بعضهم اعداد كلمة تلقى في الحفلات الخطابية . ودعت وزارة المعارف السورية وزراء المعارف في الدول العربية . فأرسلت الدعوة إلى وزراء المعارف في مصر ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، وشرقي الاردن ، ولبنان ، وتونس ، والمغرب الأقصى ، واليمن . ودعي أيضاً بجمع فؤاد الاول للغة العربية ، ورؤساء الجامعات العربية ، وغيرها ، وبعض المستشرقين ، ونقباء الصحف في دمشق وحلب وبيروت والقاهرة ، وممثلو محطات الاذاعة في سورية ولبنان وفلسطين ومصر . فابى كثيرون منهم دعوة المجمع .

ولم يحن موعد المهرجان ، حتى توافد المدعوون إلى دمشق ، وحلوا ضيوفاً على المجمع . والتقى أدباء مصر والعراق وفلسطين وشرقي الاردن وأدباء سورية ولبنان في مكان واحد . وكان هذا الاجتماع أعظم سوق أدبية شهدتها دمشق في تاريخها .

وكان وفد مصر مؤلفاً من السادة الدكتور طه حسين ، والاستاذ أحمد أمين ، والاستاذ عبد الحميد المبادي ، والاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والاستاذ أحمد الشايب . فقدموا إلى المجمع فور وصولهم هدية وزارة المعارف المصرية ، وهي « كتاب تعريف القدماء بأبي الصلاء » الذي طبعته مصر تخليداً لذكرى المهرجان .

وكان وفد العراق مؤلفاً من السادة الاستاذ طه الراوي ، والاستاذ مهدي الجواهري ، والدكتور مهدي البصير .

وحضر من فلسطين الاستاذ اسعاف النشاشيبي . ومن لبنان السادة فؤاد افرام البستاني ، والدكتور عارف العارف ، والاستاذ أنيس النصولي ، والاستاذ أنيس الخوري المقدسي ، ورئيس جامعة القديس يوسف ، والاستاذ رثيف خوري . ومن شرق الاردن الاستاذان أديب وهبه ومحمد الشريقي . ومن ايران الاستاذ عباس اقبال . ومن المستشرقين الاستاذان الفريد غليوم ، وهنري لاووست . ومن القدس السيد عزمي النشاشيبي ممثلاً للإذاعة والمطبوعات ، فضلاً عن الوفود الأخرى التي مثلت الاوساط العلمية في العاصمة والمدن السورية ، بمن سيأتي ذكر أكثرهم في الخطباء .

ولقد زارت الوفود في اليوم الاول من أيام المهرجان فخامة رئيس الجمهورية ، ومجلس النواب ، ودار الحكومة . والتى الدكتور طه حسين في مجلس النواب كلمة بأسم الوفد المصري ، أعرب بها عن اعتراف مصر بفضل سورية ، لاحتفائها بذكرى أبي الملاء . قال : « وكان طبيعياً أن تقوم سورية بهذا المهرجان الاثني ، فتدعو اليه سائر بلدان العالم العربي . فهي قد أعطت الأدب العربي أكبر شعرائه ، ولكن أعظم شاعر انساني انتجته سورية ، وحق لها أن تقدر به على العالم كله ، هو أبو الملاء . فلا غرو إذا سبقت العالم كله إلى الاحتفاء بذكره » . فرد عليه رئيس مجلس النواب السيد فارس الخوري بكلمة أشار بها إلى فضل مصر على العالم العربي بأدبائها المعاصرين ومفكرها ، الذين كان لهم أعظم الأثر في احياء تراثنا الأدبي وتوجيهنا الفكري .

ثم أقام المجمع مأدبة غداء في فندق (أوريان بالاس) أطلق عليها اسم « المائدة الملائية » ، طبخ بها الطعام وعولج على شرط أبي الملاء ، لم يكن فيه لحم ولا سم ولا بيض ولا لبن .

وكان موعد الحفلة الخطابية الاولى في الساعة الخامسة بعد الظهر في الجامعة السورية ، دعا اليها رئيس المجمع العالمي الاستاذ محمد كرد علي ووزراء دمشق ، وعلماءها ، وأدباءها ، وأديباتها ، ووجهاءها ، وكبار موظفيها ،

واساتذتها . واعد في بهو الجامعة للوفود واعضاء المجمع سدة خاصة حول منبر الخطابة . وربط المنبر بمحطة الاذاعة بدمشق . واتخذت جميع الوسائل الفنية لتسجيل الخطب وإذاعتها من محطة الشرق الأدنى . ونصبت علامة المهرجان في صدر البهو بين الاعلام السورية وأعلام الدول العربية . وعرضت آثار أبي الملاء وما كتب عنه في خزائن خاصة عند مدخل البهو ، كما عرضت بعض تماثيل وصور لأبي الملاء صنعها عدد من الفنانين . وكانت صدور اعضاء الوفود وأعضاء المجمع مزينة بعلامة المهرجان ؛ وكانت موسيقى الدرك السوري تستقبل كبار المدعوين بأنغامها .

ولما حان موعد الحفلة أقبل نخامة رئيس الجمهورية بمحاشيته الرسمية ، فجلس على سدة المهرجان بين وفود البلاد العربية وأعضاء المجمع . وبدأت الحفلة بالمشيد السوري . وكان برنامجها على الوجه الآتي :

- ١ - كلمة الافتتاح لحضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية
 - ٢ - كلمة وزير المعارف
 - ٣ - كلمة رئيس المجمع العلمي العربي
 - ٤ - كلمة الدكتور طه حسين رئيس وفد وزارة المعارف المصرية
 - ٥ - قصيدة الاستاذ مهدي الجواهري ممثل وزارة المعارف العراقية
 - ٦ - كلمة الاستاذ أحمد الشايب مندوب جامعة فؤاد الأول
- وكان الناس يستمعون الى الخطباء والشعراء بصمت عميق دلّ على تذوقهم للأدب وميلهم إلى رجاله . وفيما يلي نص الخطب والقصائد التي أقيمت في الحفلة الاولى .

جميل صليبا



كلمة مضمرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية

السيد شكري القوتلي

أيها السادة :

لقد أتيح لي في الشهر الفائت أن أفتح المؤتمر الاول للمحامين العرب ، وقد شعرت يومئذ باغتياب عظيم لمقد مثل هذه المؤتمرات العامة التي بتنظم فيها عقد الجماعات المختارة من الاقطار العربية ، فتتذكر شؤونها ، وتتداول أمورها ، وتحمل إلى ربوعها الدانية والقاصية ما شهدته من منافع لها وما حملته من ذكرياتها وآمالها .

ويسرني الآن أن أفتح هذا الحفل الكريم ، وأرحب فيه بفريق جليل من أعلام الأمة العربية ، وقادة فكرها ، وحملة أعلامها ، وأقطاب بيانها ، وكبار شعرائها ، ورجال من غير هذه الأمة أولعوا بأدبها ، ودرسوا تاريخها ، وكشفوا القناع عن آثارها ومفاخرها ، فانضم بعضهم إلى بمض لآحياء ذكرى عبقرية من العبقریات العربية مضى عليها الف سنة ، ولكنها عاشت أجيالاً طوالاً ، وستبقى أجيالاً طوالاً . هذه العبقرية هي عبقرية شاعر حكيم لنوي أخلى ذرعه للفكر ، وحبس نفسه للعلم ، فكان يمجّد ويدأب في استجلاء أسرار الانسان ، وإدراك كنه المجتمع ، ويستنبط من حوادث الدهر الفلسفة والسياسة والأخلاق ، حتى طارت نفسه في فضاء بعيد من سلطان العقل المطلق من قيود الالفة والتقليد ، وردد شعره فلسفة جديدة أنكرها فريق وأجلها فريق . ولكن مهما قيل فيها فلا شك في أن صاحبها أحب الحقيقة ، وجعلها شعاره ودناره .

لقد كان يدعوا إلى الزهد وينكر حب المال وحب الشهوات واستيلاء المطامع ، ويتبرم بالدنيا تبرم الكاره لها البمض لشرورها ، ويعجب لاستئثار

الحاكين الذين هم اجراء المحكومين ، ويصور في شعره خطرات النفس ودقائق
الشمور ، ويجاري الخطاطر في سيره ، حتى يكاد يلامسه ، ويسبح مع الكواكب
في أفلاكها ، والأطيار في أجوائها ، والاسماك في مسابحها ، والهوام والحشرات
في مساربها ومدارجها .

هذا هو أبو الملاء الميري الذي غاض ضياء عينيه ولكن ضياء بصيرته
كان يشق حجب الأستار، وبكشف جوانب الظلمات ، وبلغ ما تحار فيه
المقول من صحيح الرأي وعجب الظن ، والذي هو اليوم ومن قبل ومن
بعد لواء من الألوية الخفاقة ، التي تنفياً الأمة العربية ظلالها ، وتوحي اليها
ما توحيه من عناصر بعثها وتوحيد قلوب ابنائها . وفي هذا اليوم الذي تجتمع
فيه لتخليد هذه الذكرى المظلمة ، ذكرى أبي الملاء ، الذي تفخر أرض
الشام بأن يكون فيها منبته ، وان يشرق منها الهامه ، تجتمع في مصر العزيزة
وفود البلاد العربية للعمل على توثيق المرى بينها . وانها لمصادفة سعيدة أن
تجتمع في يوم واحد تهتف بنا غاية واحدة، وتحدونا دعوة واحدة ، وهي اجلال
التراث العربي واعلاء شأنه ورفع مناره .

كلمة وزير المعارف

منذ عشرة قرون خلت شهدت مرة النعمان مولد ابنها البار أبي الملاء
فما كانت لتعلم أو لتعلم أن هذا المولود سيكون له شأن كبير في عالم الشعر
والحكمة وفي دنيا الأدب وإن قصائده سيرتها كل لسان ينطق بلغة القرآن
ولم يخطر لها على بال أن ضريحه سيصبح في مستقبل الأيام مزاراً لأعظم
الأدباء وكبار الكتاب والبلغاء وفحول الفصحاء والشعراء يؤمنونه ليضعوا على
مرقدته أكاليل من أزهار الشعر وفنون الأدب جادت بها عقولهم وطبائهم
وصاغتها قرائهم الفياضة .

سادتي : ودعت دمشق عيداً لتستقبل عيداً جديداً نثرت عليه روعتها
الف عام . دمشق التي عرفت أمجاد بني أمية الأعظمين فاستمعت ربوعها
إلى شعرائهم الميامين . دمشق التي رددت جنباتها أصداء مجالس الخلفاء وحفلت
مغانيها بحلقات الأدباء ستزحف بمن اجتمع من أعظم رجالات الأدب والعلم
من كل قطر عربي إلى مرقد أبي الملاء لتؤدي فروض التكريم والاجلال لروح
هذا الفيلسوف الكبير اعترافاً بجميل الصنع وبيض الأيادي .

إن تكريم العطاء في حياتهم والاحتفال بذكراهم وإقامة مهرجانات لهم
بعد مماتهم سنة حسنة سنها السلف من أهل العقول الراجحة .

إن دمشق لترحب بجمهرة رجالات الأدب من الطراز الأول وتفتخر
لمرور هذه النجوم في سماءها ومن رأى في هذا اليوم البهيج بردى ونهيرات
التيرين تصفق بالرحيق ومن رأى حور دمر والفوطتين تتمايل بالقدر الرشيق
عرف أي تحية أكبار وأعجاب ترسلها دمشق إلى هؤلاء الضيوف الاختيار
وعرف أي عاطفة زهو وغبطة وخيلاء يبعثها هذا الحدث العظيم .

شرقم ياسادتي لتشاطرونا الاحتفال بهذه الذكرى فأهلاً ومرحباً بالزوار
الأكرام والضيوف الأعظم الوافدين من وادي النيل العزيز وأرض الكنانة

والقادمين من بلاد الرافدين وعاصمة الرشيد أهلاً بأعلام المشرق والمغرب ثم أهلاً فشكراً لكم وللقائمين على هذا المهرجان التاريخي في ظل حضرة صاحب الفخامة الرئيس الأول وفي عهده الميمون تحفّق له الأئفدة وترنو إليه الميرون .

سادتي الأكارم : هاهي ذي الف عام تنقضي على رسالة شيخ المرة وهي عامرة في نفوس الناطقين بالضاد باقية لتضيء سبل الأدب والحكمة خالدة على وجه الدهر . فهي خير ذخيرة لرواد الأدب تنير قرائهم وتلهب شعورهم وتصل عقولهم غذاها أبو الملاء من روحه وقلبه ونور بصيرته ستحملون يا سادتي هذا المشعل العظيم الذي خلفه الميري — ومن أخرى منكم بهذا الشرف — من عاصمة بني أمية إلى مرقد ابن الوليد ومن مدينة أبي الفداء الى مرقد الميري فحاضرة سيف الدولة ثم الى الشاطي السوري . وستشخص اليكم المروبة بأبصارها وتصيخ إلى كلّمكم بأسماعها .

سادتي : ما كان الميري يحفل بالتكريم في حياته ولكنه واجب في أعناقنا تؤديه نحو الأجداد ودرس يفيد منه الأفاضل نحفل بذكره اليوم فالذكرى تنفع المؤمنين وأي نفع عميم توحيه ذكرى الشيخ الحكيم .

ان ذكرى الميري توحى إلينا أموراً كثيرة من سياسية واجتماعية وثقافية وترشدنا إلى تقائص عديدة نحن بحاجة ماسة الى المبادرة لاستكمالها . أما السياسة فلها أربابها يعالجونها بقدر ما تسمح لهم الظروف وحسب مقتضيه المصلحة . وأما الناحية الثقافية فمن أجدر بها منكم فمعالجتها موكولة اليكم وفي ذمتكم وإيجاد الحلول الموفقة لها من خصائصكم . تنتظر الأئمة منكم تسيين المناهج لوحدة الثقافة في الأقطار الميرية ووضع المصطلحات العلمية والفنية وإيجاد معاجم لها على اختلاف أنواعها ورسم خطة رشيدة للأدب يمكن معها لجيلنا الحاضر أن يشق طريقه على نور هديها وغير ذلك .

كان الأدب ولا يزال القائد الأعلى المطاع في مارك الحرية ووثبات الشعوب .

فيا أمراء البيان وأئمة لغة القرآن عليكم المول في سد هذه الثلمات

واليك المرجع في تدارك هذه الحاجات فالشباب متمطش إلى ما تركم الحميدة ومتشوق إلى نتائج مواهبكم الحميدة .

سادتي : لم يكن للميري في حياته شغف في السياسة ولم يلتفت إليها بل كان منصرفاً بمجموعه إلى الأدب والشعر والفلسفة ولكن الأحداث والوقائع التي كانت تجري حوله لم يغب عنه أثرها ولم يكن مرتاحاً إلى نتائجها وعواقبها . كان يشعر بتفكك في عرى الوحدة العربية وبضعف في سلطان الخلافة والملك . فمن ذلك الضعف والتفكك نشأت دويلات عديدة كانت إلماً على بعضها . هذا ما أثار نفس أبي العلاء الحساسة وألهم شعوره فأرسل صيخته ندوي في الآفاق مردداً هذه الأبيات :

ولو أني حيث الخلد فرداً لما أحييت بالخلد اقترادا

فلا هطلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

هذه دروس ومواعظ القاها الميري على الناس وخلدها للأجيال القادمة فاستحق منها كل اجلال وتكريم واستحققت ذكراه التخليد والتأييد . إن عيدنا الأكبر يا سادة : هو اليوم الذي تتحقق فيه أمنية هذا الشيخ الحكيم ألا وهي الوحدة العربية الشاملة . فيرحمك الله يا أبا العلاء رحمة واسمة ويجعل مقرك الجنان وسلام الله على روحك الالية وسلام عليكم أجمعين .

نصري البخاري



كلمة رئيس المجمع العلمي العربي

سادتي ، سيداتي :

الاحتفاء بأبي العلاء ، والاشادة بذكراه ، دعوة إلى الأدب في أئبل غلباته ، وأعف مقاسده ، وإلى الأخلاق الكريمة ، والانسانية في مثلها العليا . فلقد كان أبو العلاء داعية رشد وسلام ، دعا إلى عالم يستعلي نظمه من عقل الحكيم ، وقلب الشاعر ، وورع الزاهد ، وتقوى العابد ، وتزاهة المخلص ، يظله الاخاء والسلام ، وينكر الظالم والظمام .

لقد مثل أبو العلاء الأدب العربي أشرف تمثيل في حياته وسيرته وآثاره ، وكافت ذكراه بعد الف سنة من مولده مظهرأ من أشرف مظاهر الأدب العربي ، اشتركت بها الدول العربية وسمى اليها وسام فيها الصفوة من أعلام العلم والأدب في الأقطار العربية ، وشاركهم في هذا العمل نجبة من كبار المستشرقين . فسيخطب الخطباء ، وينشد الشعراء ، ويتلو الباحثون العلماء في حفلات هذا المهرجان بدمشق والمرة وحلب واللاذقية ما لا يدع مقالاً لقائل ولا مجالاً لجائل في أبي العلاء وما اليه ، فضلاً عن البحوث والفصول والقصائد التي بحث بها من لم يقيسر لهم الحضور ، فلهم جميعهم جزيل الشكر ، من سمي بنفسه وتجنس مشاق السفر ، ومن بحث بالبحوث الممتعة .

لم يكند المجمع العلمي يقترح على الحكومة عقد هذا المهرجان حتى رحب به فضامة رئيس الجمهورية وشمله برعايته وعطفه وافتتحه بنفسه ، وشاء أن تسام يشرف الحفاوة به جميع البلاد الشامية ، لما في ذلك من تكريم الفضيلة والأدب ، وشد عرى التعارف بين مفكري العرب ، فأضاف إلى مآثره المدينة هذه المآثرة الجليلة .

كانت تباشير اجتماع كلمة العرب وجمع شملهم تلك الاسواق الادبية التي

كانوا يعقدونها قبيل الاسلام ، يتبارى فيها الشمرء والخطباء . وهذا المهرجان بما سطع فيه من مصابيح العلم والأدب في الأقطار العربية ، مجتمعين في صعيد واحد ، لغاية واحدة ، رمز لاجتماع الكلمة وجمع الشمل . « والتاريخ يعيد نفسه » كما يقولون ، « وما أشبه الليلة بالبارحة » كما نقول .

وانه لمن عين هذا المهرجان وسعد طالمه أن يتفق عقده في دمشق وعقد مؤتمر الوحدة العربية في الاسكندرية في يوم واحد ، وقد بدت تبشير السلام تكشف دياجير الحرب ، وتطلعت النفوس الى عالم كعالم أبي العلاء مبني على الحق والرافة والمواخاة الانسانية .

قال كارلايل في كتاب الابطال : (لو خیرنا بین أن نترك شكسبير أو بلاد الهند ، لقلنا سواء أحكنا الهند أم لم نحكمها فلا غنى لنا عن شكسبير . فسيجيء يوم يصبح فيه أبناء بريطانيا بعثرين في نواحي الكرة وحينئذ يكون شكسبير الملك الذي يضمنا جميعاً) .

وهذا يوم نرى فيه أدب أبي العلاء من شعر وثر ، وسيلة لاجتماع مفكري العرب ما بين المغرب الأقصى واليمن ، ورمزاً لتوحيد كلمتهم وانتظام عقدهم ، وآية لجمع الشمل ووصل الجبل ان شاء الله .

محمد كرد علي



الفصول والغايات

سيدري صاحب الغمامة الرئيس

سيداتي وسادتي

لو استشير ابو الملاء في هذا المهرجان الذي تقيمه الآن احتفالاً بميله
الالني لما حفل بالميدولا أقر المهرجان فقد كان ازهد الناس في هذه المظاهر
وأشدهم انصرافاً عنها ونفوراً منها . ولكنه من غير شك كان يرضى بعض
الرضى عن هذا الحفل الذي يقام لآحياء الأدب في ظل الدولة التي كان يتمناها
ويدعو اليها ولكنه لا يظفر بها ولا ينتظر أن يكون الظفر بها قريباً . في ظل
الدولة التي لا يظلم زعمائها الرعية ولا يستجيزون كيدها ولا يمدون مصالحها
وم اجراؤها .

أظن ان هذه الصفة من صفات المهرجان هي التي كانت ترضى ابا الملاء
وتعلاء قلبه الحزين البائس غبطة وسروراً . فقد كان أبو الملاء ابعد الناس عن
الاثرة وأقربهم الى الايثار وأشدهم نقداً للناس وأعظمهم رحمة للناس ايضاً .
ورحمته للناس وشوقه الى أن يراهم ناعمين في ظل العدل والامن والسلم هي التي
كانت ترضيه عن هذا المهرجان الذي تقيمه سورية في ظل حكومتكم العادلة
الكريمة الطامحة الى الهدى الموقفة من الخير الى ما تريد سورية وإلى ما يريد
العرب لهذا الوطن الكريم .

والواقع أن من حق سورية أن تقيم هذا المهرجان وان تحتفل بذكرى ابي
الملاء وتحيي عيده الالني . فأبو الملاء نايبة الادب العربي غير مدافع وهو فذ
في هذا الادب لم يسبقه مثله ولم يلحقه مثله ، وانما كان منحة فريدة اتيح
له أن يمتاز بشمره وعلمه وفنه وفلسفته وسيرته من جميع الذين سبقوه أو جاؤا
بعده من الابداء .

هو نائبة الأدب العربي غير مدافع وهو في الوقت نفسه سوري خالص تستطيع سورية أن تفاخر به لا ينازعها فيه قطر من أقطار البلاد العربية ولا مخصصها فيه مصر من أمصار البلاد العربية .

فقد كان لسورية قبل أبي العلاء حظ عظيم من المجد الادبي وفضل عظيم على الادب العربي . وكان لها شعراء يمتازون في تاريخنا الادبي الحميد ولكنهم لم يخلصوا لها كما خلص لها أبو العلاء . فلسورية أبو تمام والبحري بل يمكن أن يضاف اليها المتنبّي ايضا . ولكن هؤلاء الشعراء وغيرهم قد نازعت فيهم أقطار أخرى فابو تمام قد ذهب إلى مصر وإلى العراق والبحري قد ذهب إلى العراق والمتنبّي قد جاء من العراق وعاد اليه وكلهم تأثر بهذه البيئات البعيدة من سورية وأثر فيها بحيث استطاعت هذه البيئات ان تضيفه الى نفسها وان تفاخر به .

أما أبو العلاء فهو الشاعر السوري الخالص ولد في سورية ونشأ فيها وتوفي فيها ولم يغب عنها الا وقتا قصيرا ذهب فيه الى العراق ولكن دون ان يكون محتاجا الى هذه الرحلة لتكوين شخصيته او إتمام نضجه أو تحقيق شهرته . وأبو العلاء يحدثنا وهو صادق اذا تحدث بأنه لم يحتاج الى استاذ ولا معلم منذ بلغ العشرين ونحن نعلم انه رحل إلى العراق حين قارب الاربعين وان شهرته كانت قد سبقته الى بغداد قبل أن يصل اليها بزمن طويل .

فمن حق سورية اذن أن تستأثر بأبي العلاء وأن تفخر بأنها قد منحت الادب العربي نائبة الفذ . ولكن سورية كشاعرها الفيلسوف تكرة الاثرة أشد الكره وتحب الايثار اعظم الحب وهي من أجل ذلك لا تفاخر ولا تكأثر وانما تدعو الاقطار العربية وغير الاقطار العربية لمشاركتها في أحياء عيد أبي العلاء لا لأنه مجد سورية بل لانه مجد المروبة ومجد الانسانية كلها .

وقد أقبلت وفود هذه البلاد العربية تكرم أبا العلاء في سورية وتكرم سورية في أبي العلاء وإني يا صاحب القحطمة لمعظم الحظ من السعادة والنبطة حين أحمل اليكم وإلى سورية وإلى اخواننا الذين يشاركون في هذا المهرجان تحية مصر صادقة خالصة يملؤها الوفاء والاخاء . وحين أعلن ان مصر قد

قدرت من سورية هذه العاطفة الكريمة وهذا الوفاء النبيل للمجد العربي وهذا الحرص الكريم على احياء هذا المجد باقامة هذا المهرجان . وقد رأت مصر أن تشارك سورية في احياء هذا المجد العربي القديم مشاركة متواضعة فقررت حكومتها ان تنشر آثار ابي العلاء أو بعبارة ادق كل ما يمكن الحصول عليه من آثار ابي العلاء نشرًا علميًا صحيحاً وبدأت في ذلك بالفعل وحرصت على أن يأتي وفدها الى هذا المهرجان ومعه باكورة هذا العمل الذي لن يتم في عام أو أعوام قليلة ولكنه سيحتاج الى الجهد المتصل والوقت الطويل . . . وبسر مصر ان تقدم الى المهرجان أول جهدها في هذا الموضوع وهو هذا المجلد الذي يشتمل على ما أمكن جمعه مما كتب القدماء حول ابي العلاء .

فقد رأت مصر ان يكون هذا المجلد مقدمة صالحة لآثار ابي العلاء يستطيع العلماء ان يعتمدوا عليه إذا أرادوا أن يدرسوا حياة شيخ المعرة ويعرفوا آثار القدماء فيه . ثم رأت مصر ان تكون مشاركتها في احياء ذكرى ابي العلاء متصلة بشخصه وبلده وقد علمت ان سورية قد جددت قبر الشيخ وأقامت الى جانبه مكتبة فقررت أن تشارك في هذه المكتبة وكلفني وزير المعارف ان أعلن ان الحكومة المصرية تبرع بألفين من الجنيهات لتشتري بها الحكومة السورة بمض ما تحتاج اليه هذه المكتبة من الكتب .

والآن أريد أن أحدثكم عن كتاب الفصول والغايات وآسف أشد الاسف لأن الوقت لن يسمح لي بأن أحدثكم عنه فيما أحب من تفصيل بل فيما يستحق من تفصيل . فكتاب الفصول والغايات من أعظم آثار ابي العلاء خطراً في تاريخ الادب العربي ولعله أن يكون اعظم هذه الآثار خطراً في تاريخ الحياة اللائيه نفسها . وأول ما أحققه من ذلك هو أن كتاب الفصول والغايات ، يؤرخ لنا فلسفة ابي العلاء تأريخاً دقيقاً وليس هذا بالكثير القليل . فابو العلاء يبتئنا به قد كان ينتظر الخير ويرقه دون أن يظفر به حتى اذا بلغ الثلاثين ولم يبلغ ما كان يريد وجه حياته وجهة جديدة (١)

وإذن فلم يطلب أبو الملاء فلسفته في بفسداد ولم يجدها فيها وإن ارتحل بها الى بفسداد وعاد بها الى المعرة لم يصف اليها إلا هذه السيرة العملية الشديدة التي ألزمته داره . فاما ما عدا ذلك من فلسفته النظرية والعملية فأكبر الظن أنه قد دفع اليها شيئاً فشيئاً ثم ألزمها منذ بلغ الثلاثين أي قبل رحلته الى بفسداد ببضع سنين .

وهذه الفلسفة الملائية نفسها معروضة في كتاب الفصول والغايات عرضاً واضحاً أشد الوضوح غامضاً أشد الغموض أن صح هذا التعبير فأبو الملاء كما تعرفون رجل ألب نفسه وألب معاصريه وألب الناس بعمه وسيظل يتجههم الى آخر الدهر لأنه على صرامته وصراحته واستقامته في حياته العملية لا يسلك الطريق الواضحة المستقيمة في عرض آرائه وإنما يلتوي بها أشد الالتواء يصرح حيناً ويؤمى أحياناً وهو معلم بطبعه وهو شديد على نفسه وعلى الناس وكل هذا يجعل عباراته غامضة ملتوية ويشغلنا بالفاظه عن معانيه وبأساليبه عن آرائه وبفنه عن دخيلة نفسه ومع هذا كله فإن فلسفته معروضة في الفصول والغايات عرضاً حسناً للذين يستطيعون أن يصابروه ويحتملوا صحبته الحلو المرة اليسيرة الشاقة . وليست هذه الفلسفة الا فلسفة ابيقور قد لأم بينها وبين بيئته الاسلامية ملامة رائمة حقاً حتى خدع عنها كثيراً من الناس فظنوها اسلامية خالصة ورأوا فيها مذهباً موروثاً من مذاهب الزهد والنسك .

وأكبر الظن أن فلسفة ابيقور قد وصلت الى أبي الملاء من طريق الطب اليوناني ومن طريق طب جالينوس بنوع خاص فقد كان أبو الملاء معجباً أشد الإعجاب بجالينوس قرأ طبعه مترجماً الى اللغة العربية ومفصلاً في كتب الطب العربي وهذه الفلسفة الملائية الابيقورية تقوم قبل كل شيء على انكار الملة النائية التي يؤمن بها كثير من الفلاسفة وأصحاب الديانات جميعاً . فالأشياء لم تخلق بهذه الغايات التي نرى أنها خلقت لها . وكان من الممكن أن تخلق على غير صورها المعروفة ، وكان من الممكن أن ينظر الانسان بقدميه ويثم بمنكبيه

ويكي باصابعه . واذن فالعالم لم يخلق لنا والطبيعة لم تسخر لحاجتنا واذن فلا ينبغي ان نستحل منها كل ما نستحل ولا أن نستأثر بخيراتنا لانفسنا ولا أن نؤلم الحيوان لذتنا ولا أن نظامه لمنفعتنا . فليس حقنا في الحياة بأكثر من حقه وليس لنا عليه هذا السلطان الذي نتتحله لانفسنا .

انما هذا كله غرور جاءنا من هذه الاثرة التي خيلت اليها ان العالم خلق من اجلنا وسخر لمنفعتنا هذا هو الاصل الاول من أصول الفلسفة العلائية التي نجدتها في كتاب الفصول والغايات . والاصل الثاني هو أن من حقنا ان نستمتع بالذات الى أقصى حد ممكن ولكن هذا الاستمتاع لا سبيل اليه لانه لا يصح ولا يستقيم الا اذا خلا من الالم والظلم والمدوان . وليس الى هذا سبيل . واذن فالانصراف عن هذا الاستمتاع هو الخير كل الخير وهو الحق على الرجل الذي يعرف ما يأتي وما يدع . والاصل الثالث ان هذا العالم لم يخلق نفسه ولم يخلق عبثاً وانما خلقه إله ليس في وجوده شك وخلقته لحكمة ليس فيها شك ولكن عقولنا لا نعرفها ولا نستطيع ان نعرفها لانها لم تمنح وسائل هذه المعرفة كما ان اجسامنا لم تمنح السلم الذي يوصلها الى الثريا .

هذه هي الاصول الاساسية لفلسفة ابي العلاء وهي كلها معروضة عرضاً دقيقاً في الفصول والغايات وان كان الوصول اليها شياً* دونه أهوال . أهوال تأتي من اللغة ومن الاسلوب ومن حرص ابي العلاء على ان يكون معلماً وبراعته في هذا التعليم . فليس الفصول والغايات كتاب فلسفة فحسب ولكنه كتاب لغة قبل كل شيء* أو كتاب تعليم للغة . هو مذهب من مذاهب الأثالي والمقامات التي يقصد بها اصحابها الى استعمال الالفاظ في معانيها اللغوية المختلفة بحيث يكون استظهار الطلاب لها يسيراً . ثم هو بعد هذا كله أو قبل هذا كله ان شئت كتاب وعظ وارشاد وتعجيد لله وإشادة بقدرته وحكمته فليس فيه فصل الا وفيه كل هذه المعاني وليس فيه فصل الا وهو يقصد به الى كل هذه الاغراض والكتاب على هذا كله كتاب ادب بالمعنى الرفيع لهذه الكلمة . فيه فن رائع لا يجده عند غير ابي العلاء من الكتاب ، فيه تصوير للطبيعة على نحو ما صورها شعراء

الطبيعة من الجاهليين والاسلاميين ، وفيه تصوير للبناء على نحو ما صورها شعراء القدماء من جهة وأصحاب النجوم والفلك من جهة أخرى . وفيه تصوير للضمير ودخيلة النفس وما يثور في القلب من عاطفة وما يضطرب فيه من أماني وما يؤذيه من حرمان وما يخطر للعقل من خاطر وما يؤله من اليأس حين يعجز عن الوصول الى الحق وما يرضيه من هذه المتعة التي يجدها حيناً يظفر ببعض الحق . كل هذا في كتاب الفصول والغايات ، وفيه أكثر من هذا ، فيه التزام ما لا يلزم فتأليف الكتاب على حروف المعجم لم تدع اليه ضرورة وانما هو شيء فرضه أبو الملاء على نفسه لينتقصي ما يستطيع استقصاءه من الفاظ اللغة وليأخذ نفسه بهذه اللذة المؤلمة والمشقة الحلوة التي يجدها الانسان حين يكلف نفسه ما لا يطيق الناس ثم يرى انه ينهض بهذا التكليف في قوة وأيد وقهر للمصاعب واقتحام للعقاب .

وقولوا مثل ذلك فيما يلزمه في السجع والغايات من القيود المخرجة ، بل فيما يلتزمه حين يلائم بين الكلمات في أثناء الفصل الواحد من القيود التي لا تكاد تخطر لأحد منا على بال . ثم نسأل أنفسنا بعد ذلك عن شيئين أما أولهما فقد تساءل عنه القدماء واختلفوا فيه اختلافاً مصدره الحب والبغض وهو هل أراد أبو الملاء في كتاب الفصول والغايات إلى معارضة القرآن ! فأما أنا فأجيب على هذا السؤال في غير تكلف ولا تعمل فقد كان أبو الملاء أذكى قلباً وأرجح عقلاً وأنفذ بصيرة وأشد تواضعاً وأحسن علماً بطاقته من أن يحاول هذه المعارضة أو يقصد اليها . ولكنه كان كفيّره من أدباء المسلمين معجباً بالقرآن مكبراً له مقدراً لروعته الفنية فليس من شك في أنه كان يتمثل أو يستحضر بعض أساليب القرآن حين كان يفكر في كثير من الفصول والغايات . يذهب في ذلك مذهب كثير من أدباء المسلمين لا لا يجد فيه ولا يجد فيه نحن جرجاً ولا جناحاً .

أما السؤال الثاني فلا أعلم أنه خطر لأحد من القدماء وهو مع ذلك سؤال له خطره في تاريخ أبي الملاء . فأبي الكتاين سبق صاحبه الى الوجود ، وكان أصلاً له ومؤثراً فيه . الفصول والغايات ام اللزوميات . اما انا فأكاد

اقطع بأن الفصول والغايات هو الذي سبق إلى الوجود، وهو الذي أنشأ اللزوميات انشاءً وما بين أيدينا من كتاب الفصول والغايات كله يدل على ذلك دلالة قاطعة. فأبو الملاء يلتزم ما لا يلزم على نحو من الانحاء في الكتاب كله وفي قوافيه بنوع خاص. واكبر الظن أن أبا الملاء قد حاول التزام ما لا يلزم في كل شيء من حياته وفي إنتاجه الأدبي حتى أصبح هذا الفن له ملكة كأنه طبع عليها فكان يؤدي في هذا الفن ما يريد أن يؤديه من الماني شعراً أو نثراً ولكنه بدأ بالتزام هذا الفن في النثر رغبة في التعليم وتيسيراً على الطلاب. أترون أن أبا الملاء على كثرة ما اختلف الناس فيه قد كان فياسوف الرأي والحياة وكان مع هذا كله أديباً عالماً شاعراً كاتباً طرق من فنون الأدب والعلم العربي الاسلامي ما لم يتح لأديب غيره أن يطرقه فجنى بذلك على نفسه وجنى على الناس. جنى على نفسه حين حير الناس في أمره فزعم له بعضهم الفلسفة ونفى عنه الشعر وزعم له بعضهم الشعر ونفى عنه الفلسفة ويوشك قوم من الناس أن ينفوا عنه الشعر والفلسفة جميعاً وجنى على الناس بهذه الحيرة التي اضطرم اليها وورطهم فيها فاختلفوا وما يزالون يختلفون وسيظلون يختلفون في أمره. أشاعر هو أم فيلسوف! أكاتب هو أم عالم أم معلم! والواقع أنه قد جمع هذه الخصال كلها وجمعها على أحسن شكل وأجمل انسجام وأروع فأخذ من الشعر خلاصته ومن الفلسفة الانسانية صفوتها ومن علوم اللغة وآدابها ما لم يجتمع لأحد غيره من الملاء والأدباء وجنى على نفسه وجنى على الناس، ولكن أي نابغة لم يجن على نفسه ولم يجن على الناس. أليس الخير كل الخير أن يوجد النابغة ويشقى بنبوغه ليسعد الناس أليس الخير كل الخير أن يوجد النابغة ويشقى على الناس ويكفهم من أمره وأمرهم شططاً ليتبعوا ويمجدوا ويظفروا وينتجوا ويستمتعوا. وهل تظنون أننا كنا نستطيع أن نجتمع لهذا المهرجان لو لم يشق أبو الملاء على نفسه وعلى الناس.

طه حسين



الفيلسوف الحر

قف بالمرّة وامسح خدها التراب
واستوح من طيب الدنيا بحكته
وسائل الحفرة المرموق جانبها
يا برج مفخرة الأجداد لا تهني
فكل نجم تمضي في قرارته
والملهم الحائر الجبار هل وصلت
وهل تبدلت روحاً غير لاغية
وهل تخبرت ان لم يأل منطلق
أم أنت لاحقاً تدري ولا ممة
وهل تصحح في عقباك مقترح
نور لنا ، اننا في أي مدج

* * *

أبا العلاء ، وحتى اليوم ما برحت
يستنزل الفكر من عليا منازلها
وزمرة الأدب الكأبي بزمرته
تصيد الجاه والألقاب ناسية
من قبل الف لو انا نبنتي عظة
صناعة الشعر تهدي المترف الطربا
رأس ليمسح من ذي نعمة ذنبها
تفرقت في ضلالات الهوى عصبا
بأن في فكرة قدسية لقبها
وعظمتنا أن نصون العلم والأدبا

* * *

على الحصر وكوز الماء يرفده
أقام بالضجة الدنيا وأقمدها
ودهنه ورفوف تحمل الكتبها
شيخ أطل عليها مشفقاً حذبا

بكي لأوجاع ماضيها وحاضرها
وللكآبة ألوان وأفجها
تناول الرث من طبع ومصطلح
وألم الناس كي برضوا منبتهم
وان يمدوا به في كل مطرح
لثورة الفكر تاريخ يحدثنا
ان الذي ألهب الأفلاك مقوله
لم ينس ان تشمل الأنعام رحمته
حنا على كل منصوب فضمه

* * *

سل المقادير هل لازلت سادرة
وهل تصدت ان أعطيت سائبة
هذا الضياء الذي يهدي لملكته
فان فخرت بما عوضت من هبة

* * *

تلس الحسن لم يمدد بمبصرة
ولا تناول من ألوانها صوراً
لكن بأوسع من آفاقها أمداً
بعاطف يتدفق كل معتلج
وحاضن فزع الأطياف أنزلها
أهوى على كوة في وجهه قدر
وقال للعاطفات العاصفات به
الآن يشرب ما عتقت لا طفحاً
الآن قولي اذا استوحشت خافقة
هذا البصير يرينا بين مندرس
زبحية الليل تروي كيف قلدها

ولا امترى درة منها ولا حلبا
يصد مبتعد منهن مقربا
رحباً، وأرهف منها جانباً وشبا
خفاقه ويزككه إذا انتسبا
شفافه وحباها معقلاً أشبا
فُسد بالظلمة الثقبين فاحتجبا
الآن فالتمسي من حكمه هربا
يمحشى على خاطر منه ولا حيبا
هذا البصير يرينا آية عجا
رث العالم، هذا المرتع الخصب
في عرسها غرر الأشعار لا الشها

لعل بين العمى في ليل غربته
وساهر البرق والمار يوقظهم
والفجر لو لم يلد بالصبح يشربه
والصبح ما زال مصفراً لقرنه
وبين فحمتها من القصة نسا
بالجزع يخفق من ذكراه مضطربا
من المطايا ظاء شرعاً شربا
في الحسن بالليل يزجي نحوه العبا

* * *

يا عاريا من نتاج الحب تكومة
نموا عليك ، وأنت النور ، فلسفة
وحلوك ، وأنت النار ، لاهبة
لاموجة الصدر بالهدين تدفمه
ولا تدغدغ منه لذة حاملاً
حاشاك ، انك اذكي في الهوى نفساً
لا اكذبك انت الحب منهم
كم شيع الأدب المفجوع محتضراً
صرعى نشاوى بأن الخرد لعبتهم
ارتهم خير مافي السحر من بدء
عاني لظي الحب بشار وعصبتة
وهل سوى أنهم راحوا وقد نذروا
هل كنت تخذل اذ ذابوا واذ غبروا
تأبى التحللاً رسالات مقدسة

* * *

يا حافر النبع مزهواً بقوته
وشاجب الموت من هذا باسمه
ومخرج الموسر الطاغى بنعمته
والتاج اذ تتحدى رأس حامله
وهؤلاء الدعاة الماكفون على
وناصراً في مجالي ضعفه القربا
ومستنداً لهذا ظله الرجبا
ان يترك المصر الخاوي بمانها
بأي حق واجماع به اعتصبا
أوهامهم ، صنم يهدونه القربا

انخاطبون حياة الناس قد مسخوا
والحاكون بما توحى مطامهم
ماكان أي ضلال جالباً أبداً
على الجلود من التدليس مدرعة
اجللت فيك من الميزات خالدة
بجموعة قد وجدناهن مفردة
فرب ثاقب رأي حط فكرته
وأثقلت متع الدنيا قوادمه
بدا له الحق عرباناً فلم يره
وان صدقت فما في الناس مرتكب
هذا اليراع شواظ الحق ارهفه
ورب راض من الحرمات قسمته
أرضى، وان لم يشأ، أطاع طاغية
وعوض الناس عن ذل ومتربة
جيش من المثل الدنيا يمد به
آمنت بالله والنور الذي رسمت
وصنت كل دعاة الحق عن زيف
وقد حمدت شفيعاً لي على رشدي
لكن بي جنفاً عن وعي فلسفة
وأن من حكمة أن يجتنى الرطباً

ماسن شرع وما بالفطرة اكتسبا
مؤولين عليها الجسد واللعبا
هذا الشقاء الذي باسم الهدى جلبا
وفي الميوت بريق يخطف الذهبا
حرية الفكر والحرمات والفضبا
لدى سواك فما أغنيتنا اربا
غنم فسف وغطى نورها فخبسا
فما ارتقى صمداً حتى دنى صيبا
ولاح مقتل ذي بني فما ضربا
مثل الأديب أغان الجور فارتكبا
سيفاً وخائع رأي رده خشبا
فبرر الصبر والحرمات والسفبا
وحال دون سواد الشعب ان يلبا
من القناعة كنزاً مايجأ ذهباً
ذوو المواهب جيش القوة اللجبا
به الشرائع غراً منهجاً لجبا
والمصلحين الهداة المعجم والعربا
أماً وجدت على الاسلام لي وأبا
تقضي بأن البرايا صنفت رتباً
فرد بجهد الوف تملك الكربا (١)

محمد مرهري الجواهري

•••••

(١) تلك هذه القصيدة من بعض الصحف لأن صاحبها لم يبعث بها الى الجمع

أبو المراءى المصرى

شاعر أم فيلسوف ؟

- ١ -

بين الشعر والفلسفة صلة وثيقة . فكلاهما يمتد على الحقيقة . ويحاول إدراك الأشياء ادراكاً حراً صحيحاً عميقاً . ثم يعرضه بأسلوبه الخاص . فإذا كان الفيلسوف يحمل همه درس الأشياء ليعرف ماهيتها وما بينها من صلات بحيث يؤثر هذا الدرس في سلوكه ويكسبه براعة في فهم الأمور ومعالجتها فإن هم الشاعر أيضاً أن يظهر بهذا الدرس نفسه ثم يؤدي ثمرته فكراً سائياً وشعوراً صادقاً .

- ٢ -

هذا هو الأصل العام الذي يجمع بين الشاعر والفيلسوف . ومنه يظهر أن موضوعهما واحد : الله ، والانسان ، والطبيعة . وإذا كان هناك ما يميز بينها فذلك يكون في الطريقة . طريقة التناول والاداء . فالفيلسوف يؤدي الحقيقة عارية خالصة . والشاعر يؤديها مغمورة في الشعور .

والفيلسوف يتناول الأشياء مؤثراً باحثاً مقررراً والشاعر يتناولها متأثراً ناقداً مصوراً . كل منها يعالج الشعور الانساني . إلا ان الفيلسوف يدرسه مستقلاً عن عقله كأنه مادة خاضعة للتحليل الكيميائي ولكن الشاعر يعالجه ممزوجاً بعقله ويضيفه على فكره ليذيبه فيه . فالشعور عند الاول سيء خارجي بخلافه عند الثاني .

كذلك الخيال فإن كان فروضاً علمية فهو اداة الفيلسوف وإن كان 'مصوراً' مبداً كان لغة الشعور وميزة الشاعر ،

بقيت لغة الرجلين . فاللغة عامة رموز مبهمة قاصرة لا ضبط للمدلولاتها إلا في الأعلام وأسماء الأماكن . أما المدلولات المعنوية فلا تستطيع اللغة ضبطها ضبطاً دقيقاً بهذه الألفاظ . ومع ذلك فلغة الفيلسوف أدق دلالة وأضيق تحديداً وأكثر اصطلاحاً لاعتبارها على معانيها الوضعية أو القاموسية ، ولكن لغة الشاعر دونها في هذه الأوصاف لأنها تؤدي معاني ثانوية لازمة يحملها عليها الشاعر بما يتصوره في الأشياء ، لذلك كان من حق الشعراء أن يحوروا في مدلولات الألفاظ تحويراً واسعاً لتستوعب المعاني الفنية التي تدور في نفوسهم . ومن هنا كان الخطر الكامن في تفسير الشعر بهذه اللغة العادية التي ترد في المعاجم .

كل من لفني الشاعر والفيلسوف أدنى إلى القصد والابحاز إلا أن إيجاز الشاعر من باب الرمز والاكتفاء وإيجاز الفيلسوف من باب المطابقة والتحديد الدقيق . لغة الفيلسوف مقيدة لأنها وسيلة ولغة الشاعر أكثر حرية إذ هي عناية لا بد أن يتوافر لها قسط من الجمال الموسيقي الذي يلائم ما تؤديه من شعور صادق وحقيقة ناصعة . وأخيراً لا غنى للشعر عن الفلسفة ليكون قيم المعاني خالداً بجانب جماله الفني الأصيل وعلى الشاعر أن يكون فيلسوفاً أولاً ليقم فنه على أساس من الصواب والعمق ، فإذا ما دخلت الفلسفة مجال الشعر وخضعت لصياغته الفنية صارت سهلة مستساغة . وامتزاجهما معاً هو المثال الكامل في الآداب . وهنا نذكر مقالته ابن رشيق : « والفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر فإن وقع فيه شيء منها فيقدر . ولا يجب أن يجعل نصب العين فيكونا مثلك واستراحة . وإنما الشعر ما أطرب وهز النفوس وحرك الطباع . فهذا هو باب الشعر الذي وضع له لا ما سواه » . (١)

وهذا النص يوحى بنا بأمور :

منها أن مقياس الشعر الأول هو الانفعال وأما الثقافة أو الافادة فليست من باب الشعر على حد تعبير ابن رشيق .

(١) المدة ٤ ج ١ ، ص ٨٣ مطبعة السعادة سنة ١٩٠٧

ومنها أن الفلسفة لذلك أدب آخر غير أدب الشعر لقيامها على النفعية العقلية . وخير لها الاتصال بالشعر إلاماً ما دامت غير مؤثرة ولا مطربة . ومنها أن النقاد السابقين فهموا الشعر على أنه ضرب من التصوير غايته التأثير واتخذوا البحتري مثال ذلك بخلاف الحكميين أبي تمام والمتنبي . ولعل الجاحظ من شيوخ هذا الرأي .

وعندنا أن هذا الرأي يذكر للشعر صفة أساسية هي أظهر صفاته ولكنها ليست وحدها أهم ما فيه فإن جانب الفكرة خطير في الشعر لا يستقيم له تأثير بدونه . . . والواقع أن الشعر ضرب من التفكير والتصوير والتعبير . فإن أراد ابن رشيق بالفلسفة هذه الحكمة العارية والتقرير العلمي فله عذره ولا أدري إذا كان قد وضع نصب عينيه هو هذه الصور الثلاث في الشعر العربي

- (١) صورة البحتري بجمال تصويره وحسن تعبيره .
- (٢) وصورة المتنبي بحكمته الشائمة وعبارته القوية .
- (٣) وصورة المري بفلسفته الخالصة وأسلوبه التقريري .

- ٣ -

وإذا رجعنا إلى تاريخ الشعر العربي لم نجده يخلو من النظرات الفلسفية في كل خطواته لأن التفكير الشعري هو تفكير فلسفي أيضاً . ولكننا نقصد الآن إلى الإشارة الخاطفة إلى بعض المعالم الواضحة التي عالج فيها الشعر العربي رأياً واضحاً أو مذهباً مستوياً من جانب الفلسفة .

(١) ومن أقدم ما عرفنا من ذلك ما قال طرفة بن العبد في معلقته إذ تناول بأسلوبه الشعري مذهب في الاتحاد والشك في الآخرة والسخرية بالمتحرجين حوله . والحرص على اللذة متهاكاً عليها . ولقد كان طرفة في عرضه هذا مثال الشاعر الذي جمع بين وضوح المذهب وقوة العقيدة وصدق الشعور ، وكان لذلك صداه في أسلوبه الموسيقي الرائع . وكان امتزاج الفلسفة بالشعر عنده مثالا كاملاً عرفناه فيما بعد عند أبي نواس من المستهترين .

ومن المناسب ان نذكر هنا زهير بن أبي سلمى حين دعا إلى السلم أيام الجاهلية الحمراء ثم طائفة الصماليك من الشعراء الذين ناروا على اثره الاغنياء في الجاهلية وصوروا زعمهم هذه بشعر قوي جميل .

(٢) وفي القرن الثالث الهجري لما أخذ الشعر في سبيل الحضارة ظهر أبو تمام وأخذ يفلسف الشعر وإن لم يكن هو فيلسوفاً وبذلك صار رأس أصحاب المعاني في الشعر .

ظفر أبو تمام بثقافة ممتازة من فلسفة ولغة ودين ونحو وأدب وتاريخ وعقائد وقد ظهرت معالم ذلك في شعره .

ثم وهب ذكاء نادراً ، وحساً دقيقاً ، وإخلاصاً لفن الشعر عميقاً يتكى فيه على نفسه ويذيب له مخه في سبيل تنميقه وتجويده وتوليد معانيه ليكون فناً جميلاً نافعاً يجمع بين جمال التصوير وعمق التفكير .

لذلك شاعت في نظمه معان غريبة وحكم منشورة في ثنايا قصيده فمد بذلك أحد الحكميين وصاحب مذهب التجديد لما عد البحري شاعر المحافظة أو عمود الشعر .

ولكن أبا تمام أصيب بعد ذلك بالغلو في البديع فاعتمد على الجناس والطباق ، والاستمارة فوق الغريب من اللفظ والطريف من المعاني فأفسد بتكلفه هذا قسماً من شعره غير قليل ، ولعل هذا التكلف كان خطوة أولى للزوميات أبي الملاء وإن اختلف التكلف بينهما فردده عند أبي تمام الترقيش الفني وعند أبي الملاء الرصف اللغوي .

وبذلك اجتمع في شعر أبي تمام خواص كونت شخصيته الفنية من معان جديدة ، وصور بديمة . وألفاظ غريبة ونقل للشعر من فن للتصور إلى فن للتصور والتفكير . والذي يميننا هنا أنه كانت خطوة جريئة في استحالة الشعر العربي — أو الاسلامي — لما زواج بين الفكرة الفلسفية وبين الصياغة الفنية ولقي عناء ذلك لاأخذه المسألة بقوة صارمة ، فهذا شيء . . . وشيء آخر هو أن حكته قليلة منشورة في قصائده وأن الفلسفة عاشت عنده على هامش الشعر لم تفره ، وإن ذكاه كان العامل المباشر في معانيه التي

سماها الناس فلسفة ، وأنه لم يحفظ للشعر مكانته فتكسب به ، وإن حفظ له صنمته الدقيقة كما قال : —

خذها مثقفة القوافي ، ربها لسوانح النماء غير كنود
حذاء تملأ كل أذن حكمة وبلاغة وتدر كل وريد
كالدر والمرجان ألف نظمه بالشذر في عنق الكعاب الرود
كشقيقة البرد المنعم وشبه في أرض مهرة أو بلاد تزيد
(٣) وجاء القرن الرابع ومعه المتنبي تلميذ أبي تمام فظفر كذلك بثقافة
عريضة لغوية ، ودينية وصوغية وفلسفية فوق ما أفاد من تجارب وألم
من حكم أرسطو .

وقد تمثل هذه الثقافة في ديوانه وصارت الحكمة أو الماني الفلسفية
جزءاً من كيان فنه الشعري تحيا داخله وتقومه وبذلك نجد الفلسفة عنده
أدخل في الشعر منها عند أبي تمام كما نجدها محافظة على قواها إلى درجة
ملحوظة . فالتناسخ والحلول والمجوسية والماتوية وغيرها صريحة عنده يوردها
مرتبطة بماني الشعر على أنها أقيسة فنية أو براهين منطقية .

وكذلك الشأن في حكمته التي اكتسبها من تجاربه أو اقتبسها من المعلم
الأول ، فإنها ترد في ثنايا قصيده ذات اعتبارين : مستقلة أو كأنها مستقلة في
صياغتها الفلسفية فهذا وجه ، ثم هي خاضعة لتيار القصيدة العام ولجوها ، وهذا
من شأنه أن يكسبها إلغاً ويخفف من طبيعتها الأصلية .

وأسلوب المتنبي لم يسلم هو أيضاً من الغريب البدوي ، والاصطلاح العلمي ،
والشذوذ في العبارة حتى غاظ النحاة وأعنت اللغويين ، وصار له نحو خاص . . .
ذلك لانحراف عبارته عن الصياغة المألوفة حتى قال أنصاره إن صناعته كوفية . .
ولعل أبا الطيب كان يتعمد ذلك جرأة منه وتحدياً للنحويين .

وناحية هامة نشير إليها دون تفصيل أيضاً هي أن المتنبي كان أستاذ
أبي العلاء الأول المحبوب سواء في ناحيته الفنية والعسكرية أي أنه كان
أستاذه في الشعر والحكمة جميعاً ، فكان أبو الطيب مثال المعري في نظم

الشعر أيام صباه وشبابه . وإن كثيراً من المعاني التي احتفل بها أبو العلاء موجودة عند أبي الطيب .

إلا أن أبا العلاء كثيراً ما كان يأخذ المعنى وينحرف به عن طريق استاذہ لما كان بين المزاجين من فروق . . فالمرى مثالي والمتنبى واقعي .

وخلاصة ما نذكره هنا عن المتنبى أنه لم يكن فيلسوفاً وإن تفلسف في شعره ، وقد وردت حكته في مواطنها المناسبة دون أن تنظم فصولاً ومقطوعات ، وأن ذلك مع قوة صياغته جعلها مقبولة وكسا من عريها الفلسفي الأصيل .

المتنبى ضاعف ما سبقه إليه أبو تمام واجتمع في شعره أشياء كانت مقدمة التحول النهائي الحاسم الذي نهض به أبو العلاء في هذا المضمار .

- ٤ -

فماذا فعل المري؟ وبم امتاز؟

(١) حظي أبو العلاء بثقافة هي خلاصة الثقافة الإسلامية في القرن الخامس ، فكانت لغوية نادرة ، ودينية إسلامية ومسيحية ويهودية ومجوسية وأدبية وفلسفية وتاريخية ، فيها التنجيم والتصوف ، وفيها من كل شيء ، فكانت يونانية وفارسية وهندية مما فاض به شعره وثره .

(٢) بدأ حياته الشاعرة بتقليد المتنبى أستاذہ المفضل فأخذ يحذو حذوه منذ صباه وفي شبابه أيضاً ، وبدأت علامات هذا التقليد باستعمال الغريب وفي الأخذ بالبدیع ، وفي المبالغة وتناول المصطلحات العلمية والفلسفية والدينية . أنشأ أكثر سقط الزند في شبابه وبلغ في بعض قصائده درجة الشاعر المثالي وبخاصة في مراثيته الدالية المشهورة في أبي حمزة الفقيه لأنه زواج فيها بين الشعر والفلسفة مزاجاً خالصة دون أن تشوبها شائبة تفسدها من غريب أو بدیع أو التزام مالا يلزم فكانت هذه القصيدة من بين شعره

تاجاً على رأسه متألق الجواهر استوت بها عنده صنعة الشعر الأصيل ، فيها جمال الأسلوب الذي استهوى النقاد من البحري وجلوه من أجله الشاعر الفذ ، ثم تمتاز بمد ذلك بهذه المعاني الرائعة الدقيقة الميعة ، وبهذا الشعور السامي والاتق الواسع . وعندني أن أبا العلاء كان بهذه القصيدة يرثي الدنيا جيماً ويقف على هذا البرزخ بين الحياة والموت ، يبكي عدوان الآخرة على الأولى ويمجج لسلطان الموت وسطوته .

ولو أن أبا العلاء اطرده شعره كله أو أكثره على نسق هذه القصيدة ما قرن به شاعر عربي آخر . وإذا ، كان يكون أبو العلاء سيد شعراء العربية غير مدافع وأولام جيماً بالمكانة الأولى في هذا الفن الرفيع .

(٣) ولكن أبا العلاء حين اكتملت له شخصية الشاعر الكامل أخريات شبابه ، وانتهى عهد التقليد الفني نجده يتحول عن هذه السبيل تحولاً يكاد يكون عقوقاً لهذه الموهبة الرائعة كما يتحول عن حياته الاجتماعية ويمتاز لها رهين الحبسين أو الثلاث ويصبح في حياته الحسية والأدبية إنساناً آخر .

خضعت حياته الحسية لأوضاع فلسية صارمة من الحرمان والزهد في الطعام واللباس وبفض الزواج والنسل ولزوم البيت وتحامي الناس إلا أن يكونوا طلاب علم ، أو زواراً معجبين يلمون به لحظات ، أو يكتبونه مجادلين . . . حياة أساسها التشاؤم والسخط واحتقار الحياة وإذلالها .

وأما حياته الأدبية فكانت عكس ذلك تماماً ، حرية في التفكير لا حد لها ، وغنى نفسي عزيز صان به نفسه وأدبه ، وتأمل عميق قد يفضي به إلى الحيرة والشك حين يمجز العقل أمام المعضلات ، وهو شك يمس الدين والعقل والحس والخير ، وكانت مناقشاته للديانات تنطوي على سخرية بها وبالأوضاع الاجتماعية وبهذا النفاق الانساني العام .

(٤) وفي هذه السجون الثلاثة نظم أبو العلاء «اللزوميات» في تمجيد الله وتبئيه الناس وقد برأها من الكذب وتوخي فيها الصدق كما قال في

مقدمتها . ومع ذلك فقد ألم فيها بمسائل شتى من الفلسفة الطبيعية والرياضية والالهية ثم العملية فوق ما فيها من عظات .

وتأليف هذه اللزوميات — من ناحية الشكل فقط — خاضع لخطة مرسومة ذات أبواب وفصول ولكنها أبواب وفصول شكلية تقوم على حروف المهجاء ، فكل حرف باب من أبواب القافية ، فصوله حركات تلحق هذا الحرف رفقاً ونصباً وجرّاً ثم سكوناً .

وقد تكلف أبو العلاء في لزومياته أشياء أخرى منها اللغوي فلم يجد ديواناً جمع من غريب اللغة ما جمعت اللزوميات ، ومنها المروزي بالتزام حرف أو أكثر قبل القافية فهذه قسوة أدبية وسجن للمعاني والآراء .

ثم استخدم الجناس بين آخر الأبيات وحشوها في مواضع شتى ، وبذلك فلق جميع من سبقوه من أهل هذه الصنعة النظمية والنثرية أيضاً .

(هـ) والأمر الخطير أن هذا التعميد اللفظي لم يكن في صالح الفلسفة ولا الشعر ، إذا جاز لنا أن نعد اللزوميات ديوان شعر — ولعله لا يجوز — فقد كان أخرى بأبي العلاء الفيلسوف أو المتفلسف أن يؤدي آراءه أو مذهبه في عبارات مشورة واضحة قائمة على التقرير المعلي المنظم ليستطيع التشرح والتدليل ثم ليسهل على الناس الأخذ عنه بدلاً من هذا الاغراب اللغوي والتعميد اللفظي الشاذ .

ولكن أبا العلاء شاعر منذ حين فهل أبت عليه طبيعته أن يترك فنه الأول ؟ وإذا صح ذلك وكان لا بد من وصله بالفلسفة . . فما معنى هذا الترصيف اللغوي والبديهي ؟ ! هذا التعميد إنما يعجب به الكلفون بحل المعميات اللغوية والذين يطفون على أبي العلاء ولكنه إعجاب إلى حين يجد الجد وتطلب المعاني لدرسها وتقدها فاذا بهم يضيقون به ويمدون حائلاً صفيقاً بينهم وبين ما ينبغي وأبسط قوانين البلاغة ألا يحول اللفظ دون المعنى وإن يوفر جهد القارئ للدرس الأفكار وإدراك الصور لا غير ، فاللغة في

باب الفلسفة وسيلة خالصة وهي في الشعر جزء من الغاية على شرط ان تكون غابة من ناحية الوضوح والجمال لا من ناحية الاغراب والتعقيد .
وإذا كان قد سلم لأبي الملاء في لزومياته قطع تحققت فيها المزاوجة بين المامني الفلسفية والصياغة الفنية فإنها قليلة في هذا الديوان الضخم ، بحيث لا تضفي على صاحبه صفة الشاعر ، إذ غلب عليها التقرير والسرء ، والتكرار والوعظ حتى عاد ديوان نظم . . . وليته ديوان نظم فاسني خلا من هذه الكلف الكثيرة .

(٦) والذي فات أبا الملاء ، فلم يُعِن به ، أن الفلسفة بقيت في ديوانه هذا عارية في الخالب لم يلبسها ثوباً فنياً من أسلوب الشعر كما حاول هوفي بمض سقط الزند وكما حاول من سبقه إلى حد كبير . . . إذاً ، لبقيت للأسلوب روعته وقوته وذهب عنه الابتذال . والغريب ، أو الطبعي ، أن هذه الكلف نجدها في اللزوميات ولا سيما التكرار المنظومة كما نجدها في اللزوميات المنشورة — أعني الفصول والغايات — وفي اللزوميات المنظومة والمنشورة معاً (ملق السبيل) فلا أفكار معادة فيها جميعاً .

وقد أربى أبو الملاء على سابقه في استخدام المصطلحات العلمية واتخاذها أقيسة وبراهين ليس فيها جمال الشعر وإن كان فيها نظرف التحويين والفقهاء . لم أنس أن هناك نوعاً من الشهور يحسه قارئ اللزوميات دائماً ولكنه شهور مصدره العطف على الميري ، وجانب الحياة الحزن الذي سيطر عليه ففتى به آثاره ، وهذه المامني الحكمة السليمة . ولكن متى كان الحزن والياس والفشل غاية الأديب ؟ ومتى كانت الفلسفة سلبية دائماً هدامة ؟

— ٥ —

أمامنا الآن — في باب النظم الملائني — سقط الزند الذي يمد ديوان شعر أبي الملاء ثم اللزوميات ديوان فلسفته ، فأيهما يمد نصه الأصيل ؟ وبمباراة أخرى هل أبو الملاء شاعر أو فيلسوف ؟

يذكره فريق من المستشرقين شاعراً فيلسوفاً وإن اختلفوا بعد ذلك في تقدير مكانته ولاسيما في الناحية الفلسفية .

يرى نيكلسون Nicholson أنه شاعر فيلسوف سجل في آثاره ميول التشاؤم والحيرة لمصر الانحلال الاجتماعي والفوضى السياسية .

وفون همر Von Hammer يمدّه شاعراً كأبي تمام والبحري والمتنبي ويميزه بالفلسفة . وأما فون كريمير Von Kremer الذي عني بدرس اللزوميات فإنه يمدّ أبا العلاء من أعظم الأخلاقيين « فلاسفة الأخلاق Moralists » وإن رأى فيه مرجليوث رجلاً شاكاً حيران . أراؤه سلبية . وليست أخلاقياته شيئاً بجانب ما أصيب به من شك وبأس ثم يعود نيكلسون Nicholson فيلاحظ أن آثاره خالية من المنهج الفلسفي وإن أفكاره شتت غير منسقة . احتواها نظم ممعد . لا تخلو من تناقض (١)

أما طه حسين فيرى أنه قد كان فيلسوفاً حقاً (٢) وقد أوضح هذا الجانب وبين آراء المعري في كثير من المسائل الفلسفية بناء على ما استخرجه من اللزوميات وهي مسائل تدخل في أبواب الفلسفة الطبيعية أو العلم الأدنى والفلسفة الرياضية أو العلم الاوسط والفلسفة الالهية أو العلم الاعلى ثم الفلسفة العملية . وبين مصادر هذه الفلسفة وردها الى الحياة والفلسفة اليونانية والهندية والفارسية ثم إلى الكتب الدينية على اختلافها . . . وهكذا دخل أبو العلاء مجال الدراسات الفلسفية على أنه فيلسوف نظم فلسفته في اللزوميات ونثرها في الفصول والغايات وفي بعض الرسائل ومع ذلك فهناك مأخذ على أبي العلاء الفيلسوف :

(١) أول ذلك أن أبا العلاء لم يتنكر شيئاً في الفلسفة يمدّ رأيه أو مذهبه أثر به في مجراها العام فإن فلسفته إما مأخوذة من أصول قديمة اختارها وآمن بها وإما تأملات في الحياة مردها مألقي من تجارب وأحداث انتهت به إلى مثل

(١) رابع . Nicholson . Literary History of the Arabs pp - 313 - 320

(٢) ذكرى أبي العلاء . ص ٣٣٠ ط ١٩١٥ م

ما انتهت اليه عند الناس فكانت أفكاراً عامة .. ومهما يكن له من تسجيل لها وخضوع في حياته لسلطانها .. فهذه أقل درجات الفيلسوف .

(٢) ثاني ذلك حيرة أبي العلاء وتردده بين الآراء دون أن يقطع برأي في بعض المسائل أو في رؤوسها لذلك دعي عند بعض الأقدمين والمحدثين شاكا ، يؤمن بالعقل وينكره . ويقول بالجبر ثم بالاختيار ، ويتمنى الموت ويفزع منه ، ويتنظر البعث ويسخر به .. ولا يرد على ذلك اصطناعه التقييد والتعمية على الناس ، فهذا ليس شأن الفيلسوف على أن التردد إنما ينتاب الإنسان أول الامر ولا يلزمه .. والاصار لا أدريا .

(٣) ثالث ذلك طريقة الاداء وهذه لم تكن فلسفية بحال فقد رأينا أنه نظم فلسفة أو اختار النظم ليقيد بها آراءه والاصل أن تثر الفلسفة إذ كان النثر لغتها الطبيعية ولا يقال إنه نثرها في الفصول والغايات فإن هذا الكتاب أيضاً ليس إلا لزوميات ثرية أصابه من ضروب الإغراب والتعقيد والصنعة ما أصاب زميله . ومهما يمتدح أنصار الميري لهذه الكلف وذاك الغموض فإنها يقللان من قراء الميري وتلاميذه .

وهناك أمر آخر يتصل بطريقة الاداء هو تشتت الافكار وانتثارها هنا وهناك بحيث لا تجتمع الافكار المترابطة في باب . هي آراء قد تتفق وقد تتخالف مع ذلك مما يشبه للناس ان آراء الميري خطرات طارئة . بصرف النظر عن قيمتها الذاتية .

هذه الاعتراضات منهاها ان الناس يتقنون من أبي العلاء انحرافه عن السبيل الطبيعية وتمقيده حياته وأدبه وخضوعه لنوع من الاتكاس في عزله . ولكن هذا في الحقيقة أسف غير نافع . وخير لنا أن ننظر الى ابي العلاء كما وجد وان نتفجع به في حدود ماهي* له دون أن نرجو منه مثالا لم تحققه الأيام . ونتيجة ماسبق ان ابا العلاء متفلسف . وأن إطلاق لفظ الفيلسوف عليه يجب أن يفهم على وضع خاص هو انه درس الفلسفة واصطنعها في حياته لا انه ابتكر في الفلسفة أو أخضعها لسلطانها .

- ٦ -

وفى الجانب الممرى ىرى كثر انه شاعر ممتاز وربما عده بمضمهم خير شعراء العربفة مؤفدبن دعواهم ببراھبن :

منها انه الشاعر العربى الفذ الذى استطاع أن ینظم الشعر الفلفسفى أو ىزواج بین الشعر والفلفسة مزوجة نادرة . فى قسم من شعره حفظت للشعر قفمته والفلفسة شفوعها وسلطانها ذلك فى شبابه وأما شفوخوته فقد أثمرت لنا اللزوفیات . وفىها مقطوعات هى مثل فى ممانىها وعبارتها على الرغم مما قفدت به من لوازم .

ومنما صدق شعره الذى ىصور حفاته العقلفة والماطففة تصوفراً صحفحاً لارباء ففه . وصار الدارس غیر محتاج إلى مصدر آخر ىصحح به هذا المصدر الأصفل لفهم أبى العلاء ومنها انه نزه شعره عن الانحجار به فى سوق المذبح فحفظ لفنه مكاته . وهذه المسألة وان كانت شكلفة ولكن لها قفمتها فى فن الشعر أفضا مقى حفظت له حرفة وصديق شعوره وفتح بابه للفلفسة لىكون فنا نافعا جمفلا .

ومع ذلك فهناك من ىنكر على أبى العلاء شاعرفة :

ىقول ابن خلدون فى معرض التعرف بالشر ووجوب جرفه على أسالف العرب المروفة للشر : « كان الكثر ممن لقفناه من شفوخنا فى هذه الصنافة الادففة ىرون أن نظم المتنبى والممرى لفس هو من الشعر فى شىء لأنها لم ىجرىا على أسالف العرب . (١) »

وفىقول : « ولا فكون الشعر سهلا الا إذا كانت ممانفه تسابق ألفاظه إلى الذهن ولهذا كانت شفوخنا رحمهم الله فعمفون شعر أبى بكر بن خفافه شاعر شرقى الاندلس لكثرة ممانفه وازدحامها فى البفب الواحد كما كانوا فعمفون شعر المتنبى والممرى بعدم النسج على الاسالف العربفة كما مر فكان شعرهما كلاما منظوما نازلا عن طبقة الشعر والحاكم بذلك هو الذوق (٢) »

(١) المقدمة ص ٦٥٥ ط القدم (٢) نفس المصدر ص ٦٥٦

وقبل ذلك قال ابن رشيق إن الفلسفة باب آخر غير الشعر لأنه يقوم على التصوير والتأثير ومرد هذا كله ، هنا ، ان المري في اللزوميات ناظم لاشاعر لخروجه على الأساليب العربية لفن الشعر وإقحامه الفلسفة والحكمة فيه بدرجة جاوزت المألوف بل بدرجة أحواله نظماً ليس من الشعر في شيء .

ومعنى الأساليب العربية عند ابن خلدون هو الطبيعة التي جرى عليها الشعر العربي منذ نشأته إلى عهد أبي تمام ثم المتنبي والمري . وهي طبيعة غلب عليها جمال التصوير وحسن التعبير المفضيان بالشعر إلى أن يهز النفوس ويحرك الطباع ومثال ذلك عند هؤلاء النقاد هو البحري وأما المتنبي والمري فقد خرجا على هذه الأساليب بما أكثرا من الحكمة في الشعر أولاً . ثم بما أدخلها عارية أوتكاد محافظة على قوالبها العملية التقريرية ثانياً فماد بها قولها نظماً ليس من الشعر في شيء .

هذا المقياس كما قلنا ليس بخاطيء إلا من ناحية ضيقة وقصوره عن الشمول ولا سيما حين مثوله بالبحري تاركين سلسلة أبي تمام وصاحبه . فالشعر مقبول لحسن تصويره وجمال تعبيره كما هو الشأن عند البحري . ولكنه مقبول أيضاً لسلامة تفكيره وقوة أسلوبه كما هو الشأن عند الآخرين . . فهذا وجه . وأما ناحية التأثير التي جعلوها مقياساً لجودة الشعر فلا شك أنها تتوافر في شعر أبي تمام والمتنبي وقسم من شعر أبي الملاء .

المسألة ، إذاً ، مسألة هذه الفلسفة الملائية واحتلالها ميدان الشعر فأما إلى حد اتصالها بالشعر فهذا شيء طبعي بل هو الاصل وإنما الكلام بعد ذلك في مسألة السك والكيف . أي إلى أي مدى يتسع لها هذا الفن الرفيع ؟ وكيف يستسبها أو كيف يمرضها على القراء ؟

لا شك أن كثرتها تؤثر في جمال الشعر وقوة تأثيره وخير أن يأخذ منها هذا الفن باعتدال ، لا يقل حتى يمود الشعر صوراً وعبارات فقط كما قال الاقدمون ولا يكثر حتى يمود الشعر نظماً ثقيلًا مملولاً . . على أن المسألة في الحقيقة مسألة الكيف وهي طريقة المرض فإن كانت الفلسفة طرية خالصة

تقريرية كانت النتيجة ذلك النظم الذي يضيق به الناس جميعاً ويتجاوز دائرة الشعر، وإن كانت معروضة في صياغة فنية ، بحيث تذوب الآراء في أساليب الفن فانها تكسبه قوة ولا تفقده الجمال .

ولا شك أن الأقدمين كانوا على صواب حين وجهوا تقدم الى اللزوميات أو الى كثرتها على أساس المقياس الشعري فوجدوا فيها رسماً فلسفياً وقيوداً لغوية عروضية بديعية يمتقها الشعر ويمجها الذوق . . ولكنهم لم يضعوها على مقياس النظم الفلسفي ، ولعلمهم - لو فعلوا - كانوا يرون فيها رأياً آخر أدنى إلى الانصاف وأقرب إلى مزاج أبي العلاء وما أحاط به من مؤثرات . وعلى كل فهذا رأي القدماء في شعر أبي العلاء ، وهذا ما نراه نحن بحيال مارأوا ، فهل هذا كل ما يؤخذ على أبي العلاء في لزومياته ؟

هناك ما أخذ آخرى متصلة بأبي العلاء الشاعر . فإذا أخذنا اللزوميات جملة لاحظنا هذا التكرار الكثير الذي يصرف القارئ ويخيل إليه ان الميري ضيق المادة الفكرية ، وقد يكون من دواعي هذا التكرار اضطرار أبي العلاء أن يملأ فصول ديوانه التي أدارها على حروف الهجاء وحركاتها الأربع . ولكن متى كان التعميد مبرراً للتكرار ؟ ومتى كان عيب - يغيب عيباً ؟ وهناك التشاؤم الذي يطبع هذا الديوان طابعاً أسود ويشوه الحياة أمام الناس : أيصح أن يكون مادة لديوان كامل ، أم أن وظيفة الشعر تهذيب النفوس وحملها على الرضا واحتمال الحياة وإشاعة البهجة والسرور ، أم أن شيئاً من البكاء لازم لتصفية النفوس وتحقيق الاتزان في الحياة وبخاصة اذا كان ذلك عن طريق هذا الفن الرفيع ؟ مهما نقل من ذلك أو نبرره بأن وظيفة الشعر هي التعبير لا غير ، فإن أبا العلاء ساخط حزين يخشى أن يبعث اليأس في النفوس ، ويسلط عليها الأمل الضائع ، والألم المقيم . وقد ذكرنا هذا التعميد اللغوي والعروضي والبديعي . وما قد يجوز على المعنى فيقصر أو يتر في سبيل هذه الوازم ، وإنما نلاحظ مع ذلك أن معاني أبي العلاء المتناثرة التي حشدها في لزومياته أحالت قصائده مجموعات من الآيات المتناثرة أيضاً ، بحيث لا نجمهما ، في الغالب ، إلا وحدة البحر والقافية . وبحيث أثر ذلك على وحدة القصيدة وتنسيقها العام .

هذه المآخذ تؤثر حتماً في مكانة الميري الشاعر . وتجعلنا نسأل أنفسنا : هل تكفي بعض قصائد في سقط الزند لتضع أبا العلاء في صف الشعراء الممتازين ؟ هل نستطيع أن نعد اللزوميات ديوان شعر وبها يكون أبو العلاء من رجال هذا الفن الرفيع ؟ وهناك مستشرق آخر هو الاستاذ — دي بور De Boer — تناول أبا العلاء الشاعر الفيلسوف فقال : « غلا البعض في رفع شأن أبي العلاء الميري (٩٧٣ — ١٠٥٨ م) فعدوه شاعراً فيلسوفاً وجعلوه في مكانة لا يستحقها . نعم لأبي العلاء في بعض الأحيان آراء معقولة وعواطف خليقة بكل احترام ولكنها ليست فلسفة . وليس الغالب الذي صيغت فيه ، بما فيه من تكلف وبما يطلب عليه من ابتذال ، والذي يسمو إلى منزلة الشعر ، ولو أن أبا العلاء عاش في ظروف خير من التي عاش فيها [كان ضريراً ولم يكن غنياً] لكان من المحتمل أن يقدر على الاجادة في شيء من النقد الاولي الذي يقوم على نقد الالفاظ . وهو ، بدلاً من أن يدعو إلى محبة الحياة ، دعا إلى الزهد في ملذاتها ، وكان متبرماً بالأحوال السياسية بوجه عام ، وبآراء العامة في الدين ، وبمزاعم الخامسة في العلم . غير انه لم يستطع أن يأتي في ذلك بجديد . ويكاد ابو العلاء يكون خلواً من كل مقدرة على ربط الاشياء بمضاهيم . لقد كانت له مقدرة على التحليل ، أما التركيب ، فليس له منه نصيب . وتعاليم ابي العلاء عقيمة ، وعلمه كشجرة أصلها في الهواء كما قال هو في بعض رسائله وان لم يقصد أن يقول ذلك عن نفسه (١) »

لاشك ان دي بور وقف عند اللزوميات وأخذها جملة على أنها ديوان شعر ، ثم كان مثالياً في نقد أبي العلاء الفيلسوف الشاعر .

— V —

والآن نجد أبا العلاء حيران بين الشعر والفلسفة ، فأين نضعه ؟ قد يكون من السهل أن نجتمع له بين الوصفين . فعنده فياسوفاً لهذه الآراء التي أشرنا إليها ، ونعده شاعراً لقصائد في سقط الزند ومقطوعات من اللزوميات .

(١) تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ٢٧ من الترجمة العربية .

وقد يكون من الجائز أن تنفي عنه الوصفين ، لقلة روايته الشعرية مع كثرة آثاره
النظمية فلا يكون من الشعراء الممدودين ، وإن تقف عند تردده وعدم ابتداعه ،
فلا نمدّه من الفلاسفة الأولين .

ولكننا نمود فنسأل : لم يقرأ المعري ؟ أسلوبه الفني الرائع أم لأفكاره
وتأملاته ؟

لاشك أن الناس يقرأون أبا الملاء في الاصل والاكثر لجانبه الفكري ،
وحكمه الخالدة وشكوكه الرائجة . فهذا هو السبب الأساسي لإقبال الناس عليه
وصبرهم على لزومياته .

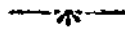
ونتيجة ذلك :

أنا إذا قسنا أبا الملاء بمقياس مثالي كان أبو الملاء متفلسفاً .

وأما إذا حكمنا عليه بمقياس مقتصد فإنه يكون فيلسوفاً .

أحمد السائب

أول شوال سنة ١٣٩٣ هـ }
القاهرة في ١٨ من سبتمبر سنة ١٩٤٤ م



الحفلة الثانية

في دمشق

لما انتهت الحفلة الخطابية الاولى عاد أعضاء المهرجان إلى فندق (اوريان بالاس)، حيث اقام المجمع العلمي لهم مأدبة عشاء دعا اليها أعضاء الحكومة والوزراء السابقين وعلماء دمشق وأدباءها ووجهاءها .

وفي اليوم الثاني أعد المجمع برنامجاً لزيارة الأماكن الاثرية في دمشق ؛ فبكر أعضاؤه إلى الفندق ، وصحبوا الوفود الى متحف دمشق ، والجامع الأموي ، ودار المجمع العلمي العربي ، ودار الكتب الظاهرية ، وقبر صلاح الدين الأيوبي ، وجامع الشيخ محي الدين بن العربي ، والبيارستان القيمري . ولما انتهت الزيارة عاد أعضاء المهرجان الى فندق (اوريان بالاس) لحضور وليمة الفداء التي أقامها وزير المعارف تكريماً لهم .

وما ان حان موعد الحفلة الخطابية الثانية في الساعة الخامسة بعد الظهر حتى توافد المدعوون إلى الجامعة السورية . وكان اقبال الناس على هذه الحفلة لا يقل عن اقبالهم على الحفلة الاولى . وكانت الخطبة تذاع من محطة دمشق ، وتنقل بمكبرات الصوت الى الاماكن البعيدة . أما برنامج الحفلة الثانية فقد كان على الوجه الآتي :

١ - الأستاذ أحمد أمين : سلطان العقل في نظر المعري

ممثل كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول
وجميع فؤاد الأول

٢ - الأستاذ محمد اسعاف المنشاشيبي : التفاؤل والاثريّة عند المعري
عضو المجمع العلمي العربي

- ٣ - الأستاذ محمد البزم :
عضو المجمع العلمي العربي
أبو العلاء « قصيدة »
- ٤ - الأستاذ ألفريد غليوم :
من جامعة اكسفورد
المعري في نظر المستشرقين
- ٥ - الأستاذ عارف النكدي :
عضو المجمع العلمي العربي
المعري من الوجهة الاصلاحية
وقد تخلل هذه الحفلة دور موسيقى غنت فيه فرقة الاذاعة بدمشق قطعة
من شعر أبي العلاء . وهي :
- يا ساهر البرق أبقر راقدا السمر
وان بخلت عن الأحياء كلهم
ويا أسيرة حجلها أرى سفها
ماسرت الاوطيف منك يصحفي
لو حط رحلي فوق النجم رافمه
يود أن ظلام الليل دام له
ولما انتهت الحفلة الخطابية دعي أعضاء المهرجان الى حفلة عشاء أقامها
المجمع العلمي في حديقة المتحف حضرها الوزراء ورؤساء المعاهد العلمية
ورؤساء المحاكم وكبار الأساتذة والموظفين .
وفيما يلي نص الخطاب التي أقيمت في هذه الحفلة :

جميل صليبا

سلطان العقل عند أبي العلاء

يرى الفارسي لثراث أبي العلاء — وخاصة اللزوميات — اشادة بالعقل واعترافاً بقوة سلطانه فهو أعز ما وهب الانسان .

والعقل أنفـس ما حـبـبـتْ وان يُضـمَّ يوماً يَضـمُّ ففوى الشـراب وما حـلـب وهو الهادي الوحيد لمعرفة الخير والشر والحق والباطل فلا حاجة الى انتظار امام معصوم يرشد الناس الى ما يعمل وما يترك فالعقل كفيل ببيان ذلك كله .

يرتجي الناس أن يقوم امام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا امام سوى المقـل — مشيراً في صبحه والمساء
ولكن الناس في كل زمان ما قدروا العقل قدره ولا وفوه حقه ولا عرفوا
كيف يتفعمون به .

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن الا وعندي من أخبارهم طرف
ينـجـر العقل أن القوم ما كرموا ولا أفادوا ولا طابوا ولا عرفوا
عاشوا طويلاً وماجوا في ضلالتهم ولا يفوزون — ان جوزوا — بما اقترفوا
بالعقل والتفكير الصحيح تنقشع الغيوم وتنجاب الظلاء وتهون الصعاب
وتنكشف الحقائق .

اذا تفكرت فكراً لا يمازجه فساد عقل صحيح هان ما صعبا

خذوا في سبيل العقل تهذبوا بهديه ولا يرجون غير المهيمن راج
ولا تطفئوا نور الملك فانه تمتع كل من رحى بسراج

فكروا في الامور يكشف لكم بهض الذي تجهلون بالتفكير
والدنيا مملوءة بالتجارب ولكن التجارب طير اختبأ في عشه انما يستطيع
أن يصيده من منح العقل والعمر

ان التجارب طير تألف الحرا يصيدها من أفاد اللب والعمر
والعقل هو المرأة الصادقة ترى فيها الحقائق ، لا كلام الناس والاخوان
أرى اللب امرأة اللبيب ومن يكن مرآته الاخوان 'يصدق' ويكذب
وانما يقيد العقل ويمتعه عن ادراك الحق والعمل به ماركب فيه من
طبع وشهوات فالعقل مغلولاً بالشهوات كالشمس يحجبها الغمام .

تجارب الطبع الذي مزجت به مهجُ الأنام ، وعقلهم ، فيغله
ويظلم ينظر ، ما سناه بنافع كالشمس يسترها الغمام وظله
حتى اذا حضر الحمام تبينوا ان الذي فعلوه جهل كله

واللب حارب فينا طبعاً يكابد حربه

* * *

والعقل أحسن هاد لفعل الخير وترك الشر وخير الخير ما أتاه صاحبه
لأنه جميل لارغبة في مشوبة ولا خوفاً من عقوبة
عليك العقل وافعل ما رأيته جميلاً فهو 'مشتار' الشوار
ولا تقبل من التوراة حكماً فان الحق عنها في قوار

فلتفعل النفس الجميل لأنه خير وأحسن لا لأجل ثوابها
وأخيراً فالعقل نبي صادق من اتبعه رشد ومن صد عنه غوى
أيها الثران 'خصمت بعقل فأسأله فكل عقل نبي'
وهكذا وهكذا ملئت اللزوميات بهذه المعاني وكررت على أشكال مختلفة
نكتفي منها بهذا المثل لندل به على قيمة العقل في نظره وسلطانه والاعتداد
به ولننظر بعد كيف استخدمه

لقد حمل على نضج عقل أبي الملاء ذكاؤه الفطري واطلاعه على الفلسفة
اليونانية وصداها في الفلسفة الاسلامية وطول تفكيره وتأمله الذي اعانه
عليه وحدته وعزله وتجرده من شواغل الدنيا ما استطاع .

وفي الفلسفة اليونانية لون زاه من ألوان العقلية والعقلية الذين يرون
للعقل الحق المطلق في الحكم على الاشياء والبرهنة على صحتها أو بطلانها ولا
يؤمنون بشيء ، ولا عقيدة ولا تقاليد ولا مواضع الا اذا قام البرهان العقلي

م (٤)

على صحتها ومالم يقم البرهان العقلي عليه لا يسلمون به مهما كانت السلطة التي تنجي به — وبذلك أخضع هؤلاء اليونانيون كل شيء للعقل وسلطانه ، فكما خلقوا العلوم الرياضية بمقولهم كذلك خلقوا الفضائل والردائل بمقولهم وقرروا النظم الاجتماعية وأشكال الحكم السياسية بمقولهم من غير ان تملئها عليهم أية سلطة خارجية فالعالم عندهم عالم عقلي والانسان ضال مالم يكتشف قوانين نفسه وقوانين الطبيعة حوله بفعله ويسر على القوانين التي توائم بين نفسه والعالم الخارجي كما يرشد اليه عقله .

قرأ أبو الملاء هذا وتأثر به تأثراً عميقاً يدل عليه ما أثرنا اليه قبل من تمجيد للعقل وسلطانه ولكنه من ناحية أخرى نشأ في الاوساط الدينية وقرأ تعاليمها وتعمق مبادئها وهي تقضي بأن وراء العالم المادي المنظور عالماً روحانياً غير منظور ، وإن كان السلطان في عالم المسادة للقانون الطبيعي يدركه العقل فالسلطان في عالم الروح حق وان كانت آلة العالم المنظور وادراك قوانينه هو العقل فآلة العالم الروحي وادراك قوانينه هو الوحي وفي هذا العالم الروحي الله لا العقل هو مصدر التشريع وهو المرشد الى الفضائل والردائل وهو واضع الشعائر الدينية وهو الذي ربط بها الثواب والعقاب وعلى الانسان ان يطيع أوامر الدين ولولم يهتد الى بمضها العقل لأن قوة العقل في الانسان محدودة ووراء قوة العقل قوة الوحي

هاتان الصورتان - الصغيرتان جداً - اذا انعكستا في النفس سببتا الحيرة والاضطراب والتقلق وقلماسلم من قلقهما الا من ألد جداً فلم يخضع الا للحكم العقل أو آمن جداً فأسلم عقله لأيمانه وهناك أصناف من المذاهب الدينية والفلسفية أرادت التوفيق بين هاتين الصورتين بأشكال مختلفة مما ليس مقصداً الآن .

فلننظر الى ابي الملاء المعري كيف وقف من هاتين الصورتين ، كيف كان موقفه من سلطان العقل وسلطان الدين

لقد أعلّى شأن العقل كما رأينا وأراد ان يستخدمه على طول الطريق فبدأ ينقد به الماديات والتقاليد ونظام الحياة الاجتماعية في عصره فكان في ذلك موفقاً كل التوفيق .

لقد نقد الملوك والامراء لانهم بوضعهم العقلي خدام الامة .

إذا ما تبينا الأمور تكشفنا لنا وأمير القوم للقوم خادم
فما بال هؤلاء الخدام يمدون عليها ويظلمونها
مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها
وهم يصدرون من الأوامر ما لا يتفق والعقل والمدل ثم ينفذون ما يأمرهم
بقوتهم وسلطانهم لا باقتناعهم فإذا نفذ أمرهم قيل ما أسوسهم
يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسه
فأف من الحياة وأف مني ومن زمن رياسته خساسة
وهؤلاء المسلطون على الناس لا عقل لهم ولا عدل عندهم شياطين في ثياب
ولاية لا يهمهم جوع الناس إذا ملئت بطونهم وخمرت رءوسهم
ساس الأنام شياطين مسطرة في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل بخص الناس كلهم أن بات يشرب خمرًا وهو مبطلان
وحول هؤلاء الولاية بطانة قد جحدت عواطفهم كأنها الحجارة أو اشد
قسوة لا يرحمون دمة مظلوم ولا صرخة مستغيث
يجور فينفي الملك عن مستحقه فتسكب أسراب العيون الدوامع
ومن حوله قوم كأن وجوههم صفًا لم يلين بالغيوث الهوامع
والتقضاة لا عقل ولا عدل
وأي امرئ في الناس ألني قاضيًا فلم يعض أحكامًا كحكم سدوم
وفقهاء صناعتهم الكلام ولا روح ولا أحلام
كأن نفوس الناس والله شاهد نفوس فراش ما لفت حلوم
وقالوا فقيهه والفقيه مموء وحلف جدال والكلام كلوم
ووعاظ يقولون ما لا يفعلون ويأتون ما ينكرون
رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصبياء صبحًا ويشريها على عمدة مساء
وشعراء ليسوا إلا لصوصًا يمدون على من قبلهم في سرقة أقوالهم ويمدون على
الاغنياء بمدحهم لسلب أموالهم

وما شعراؤكم الا ذئاب تلصص في المدائح والشباب
اضربت تود من الأعادي وأسرق للمقال من الزباب (١)
وقوم تسودم الخرافة فيلجثون الى المنجمين والمرايين والمعرمين وما لهؤلاء
بذلك من علم ولكن شباك تنصب لاستدرار الأموال من المغفلات والمغفلين
منسكهن ومنجم ومعرّم وجميع ذاك تحيل لمعاش

لقد بكرت في خفها وازارها لتسأل بالأمر الضرير المنجا
وما عنده علم فيخبرها به ولا هو من أهل الحجا فيرجا
ويوم جهال الهلة أنه يظل لأسرار الغيوب مترجا
ولو سألوه بالذي فوق صدره لجاء بعين أو أرمّ وجعجا

سألت منجمها عن الطفل الذي في المهد كم هوعائش من دهره
فأجابها مائة ليأخذ درهما وآتى الحمام وليدها في شهره
وبعد أن تقدم طبقات من الملوك الى القضاة الى الوعاظ الى التجار الى
النساء تقدم جملة فكل الناس في كل زمان ومكان لا يصلحون الا للفناء
وهكذا كان أهل الأرض مذفطروا فلا يظن جهول أنهم فسدوا

لو غربل الناس كيا يمدّمو سقطاً لما تحصل شيء في الفرايل
أو قيل للنار خصي من جنى، أكلت أجسادهم وأبت أكل السرايل

يحسن مرأى لبني آدم وكلهم في الذوق لا يمدّب
ما فيهم بر ولا ناسك الا الى نفع له يجذب
أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب
وسبب فسادهم أنهم منحوا العقل فلم يصفوا اليه ولم يلتفتوا له وتجاهلهم
عقل يرشد وطبع يغوي فجروا وراء طبعمهم وبصقوا على عقلمهم
فأوسع بني حواء هجرأ فانهم يسرون في نهج من الفدر لاحب

وان غير الاثم الوجوه فما ترى لدى الحشر الا كل أسود شاحب
إذا ما أشار العقل بالرشد جرم الى النفي طبع أخذه أخذ صاحب

واللب حاول أن يهذب اهله فاذا البرية مالها تهذيب
من رام إنقاء الثراب لكي يرى وضع الجناح اصابه تعذيب

الى الله اشكو مهجة لا تطيعني وعالم سوء ليس فيه رشيد
حجى مثل مهجور المنازل دائر وجهل كمسكون الديار مشيد

العقل ان يضعف يكن مع هذه الداء يا كماشق مومس تفويه
أو يقو فهي له كحرة عاقل حسناء يهواها ولا تهويه
فطبعك سلطان لعقلك غالب تداوله أهواؤه بالتشخص
سقيت شراباً لم تهناً بيرده فميت من بعد الصدى بالتفحص
وهكذا أفاض في نقد المجتمع ومظاهره ونظمه وأخلاقه وكان في ذلك
موفقاً كل التوفيق ومظهر توفيقه أنه استطاع في مهارة أن يدرك
عيوب المجتمع في جملة وتفصيله ويماذج ظواهرها ويمتق في النفس الانسانية
في دقة وتحليل ومظهر توفيقه أيضاً أنه لم يتناقض في هذا الباب ولم يضطرب
ولم يجمع وجرى على وتيرة واحدة في صراحة ووضوح وانسجام

وسبب نجاحه في هذا أمران - الاول - ان الامور الاجتماعية والاخلاقية
التي نقدها هي في صميم اختصاص العقل فالعقل أداة صالحة لربط الاسباب
بالمسببات والامور الاجتماعية والاخلاقية تجارب تحدث نتائجها تقلم
الملوك والحكومات فتسوء حال الأمة وتمدل فيصلح حالها وللوعاظ
غاية هي ارشاد الناس من طريق اعطائهم المثل بانفسهم والدعوة الى الخير
بالسنتهم فاذا لم تتحقق هذه الامور فالوعاظ شر وهكذا فكل ما نقده أبو العلاء
من هذا القبيل داخل في دائرة العقل والتجارب ، والاخلاق العقلية التي قررتها
الفلسفة اليونانية هي بسببها تقريباً الاخلاق الدينية لانها أيضاً نتيجة تجارب
لصالح المجتمع وقد نقدت مظاهر المجتمع والاخلاق من قبل أبي العلاء كما فعل

ابن المقفع مثلاً ولكن مهارته كانت في ابرازها ابرازاً فنياً رائعاً - والسبب الثاني في نجاحه في هذا الباب أن ناقد هذه الامور متمتع بكثير من الحرية فلا لوم على أحد اذا نقد المجتمع ونقد الاخلاق بل ان الناس يصفقون للناقد ويعلمون شأنه لأنه يدعوهم إلى الكمال المحبب إليهم من أعماق نفوسهم لذلك صرح بكل ما يريد في هذا الباب وهو آمن مطمئن ففتح .

بعد هذا انتقل خطوة أخرى في النقد أدق وهي تحكيم عقله في المسائل الدينية الشرعية الفرعية مثل اليد كيف تودى بخمسة دينار وتقطع في ربيع دينار . تناقض مالنا إلا السكوت له وأن نمود بمولانا من النار يد بخمس مئين عسجد وُديت ما بالها قطعت في ربيع دينار ومثل ان الاسلام جاء لمحو الأوثان والانصاب فكيف عظمت بعض شعار الحج كاستلام الحجر الأسود وتقبيله ونحو ذلك .

ما الركن في قول ناس لست أذكرهم الا بقية أوثان وأنصاب إلى نحو ذلك وهذا النوع قد عرض له أناس من أول عهد الاسلام أرادوا أن يحكموا العقل في التماثيل الاسلامية فصدوا كالتي سألت عائشة ما بال المرأة تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة فقالت لها عائشة أحرورية أنت ؟ وكالذي روى أن ربيعة الرأي سأل سميد بن المسيب عن عقل أصابع المرأة ما عقل الاصبع الواحدة قال عشرة من الابل قال فاصبعان قال عشرون قال فثلاث قال ثلاثون قال فأربع قال عشرون قال ربيعة فعندما عظم جرّحها نقص عقلها ؟ فقال له سميد أعراقي أنت ؟ انما هي السنة .

ومن أجل هذا روي عن علي أنه قال لو كان الدين بالعقل لكأن المسح على باطن الخفين خيراً من المسح على ظاهرهما فجاء أبو الملاء ينقد على هذا النحو فلم يرتج لقوله ورد عليه الشعراء المتدينون فيما قال . ثم خطوة أخرى أجراً وهي عرض الحديث والاخبار الدينية على عقله وصرخته بأن كثيراً منها لا يرتضيها العقل سواء في ذلك ما أتى به اليهود أو النصارى أو المسلمون .

وجاءتنا شرائع كل قوم على آثار شيء رتبوه
وغير بعضهم أقوال بعض وأبطلت النهى ما أوجبوه

جاءت أحاديث ان صحت فان لها شأنًا ولكن فيها ضعف اسناد
فشاور العقل وأترك غيره هدرًا فالعقل خير مشير ضمه النادي

هل صح قول من الحاكي فنقبله ام كل ذلك أباطيل وأسمار
أما العقول فألت أنه كذب والعقل غرس له بالصدق إثمار

ضلت يهود وانما توراتها كذب من العلماء والاحبار
قد أسندوا عن مثلهم ثم اعتلوا فنموا باسناد إلى الجبار
وإذا غلبت مناضلاً عن دينه ألقى مقالده إلى الاخبار

مسيحية من قبلها موسوية حكمت لك أخباراً بعيداً ثبوتها
وفارس قد شبت لها النار وادعت لنيرانها ألا يجوز خبوتها
فما هذه الأيام الا نظائر تساوت بها آحادها وسبوتها

تقوّة دهركم عجباً فأصغوا إلى ما ظل يُخبّر ، ياسهود
إذا افكر الذين لهم عقول رأوا نبأ يُحق له السهود
غدا أهل الشرائع في اختلاف تقض به المضاجع والمهود
فقد كذبت على عيسى النصارى كما كذبت على موسى اليهود
ولم تستحدث الايام خلفا ولا حالت عن الزمن العهد

دين وكفر وأبناء تقص وفر قات ينص وتوراة وانجيل
في كل جيل أباطيل يدان بها فهل تفرد يوماً بالهدى جيل

إذا رجع الحصيف الى حجاب تهاوت بالمذاهب وازدراها
فخذ منها بما أداه لب ولا يفسك جهل في صراها
والناس لا يحكون عقلهم في دينهم وانما هي تقاليد يتبعونها وعادات يجرون عليها.

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى بحجى ولكن يعلمه التدين أقبوه
وطفلُ الفارسي له ولّاة بأفعال التمجس دربوه

في كل أمرك تقليد رضيت به حق مقالك ربي واحد أحد
وقد أمرنا بفكر في بدائمه وأن تفكر فيه ممشر لحدوا
وأهل كل جدال يمسون به اذا رأوا نور حق ظاهر مجدوا

وقد سبقه المعتزلة إلى تحكيم العقل في الأحاديث وأنكروا منها ما لا يتفق
والعقل وخاصة النظام، فقد كان ينكر الحديث في صراحة اذا كان عقله
لا يقره، لا يكتفي في الحكم على الحديث بالوضع اذا ضعف اسناده ولكن أم
من ذلك اذا لم يصبر أمام العقل ولكن أبا الغلاء جرؤ على ما لم يجرؤ عليه
النظام وأمثاله وأراد أن يعرض الاخبار الدينية كلها أحاديث أو غيرها على
محك العقل وختم هذه المرحلة بقوله الشديد الجريء

تقدم صاحب التوراة موسى وأوقع في الخسار من افتراها
فقال رجاله وحي أمه وقال الآخرون بل افتراها
وما حجى الى أحجار بيت كؤوس الخمر تشرب في ذراها
اذا رجع الحكيم الى حجاجه نهات بالشرائع وازدراها
وقد كذب الذي يفتدو بعقل لتصحيح الشروع وقد أمرضنه

وقد قبلت أقواله في هذا الباب ببعض السخط ولكنه سار فيه أيضاً بخطى
ثابتة غير مضطربة وانما قلت ببعض السخط لأنه صاغها صياغة عامة يحتمل
كثير منها التأويل في جانبه

بعد ذلك نأتي الى المرحلة الثالثة في تقدمه العقلي، وهي أخطر المراحل
واشدّها وأوعرها وهي التي تعرض فيها لصميم الدين هل الله موجود أو لا
وهل هناك وحي أو لا وهل هناك حياة أخرى أو لا وهل الانسان في هذا العالم
مجبور أو مختار — ما الحق في ذلك كله وأين أجده وكيف أجده؟

هنا كانت تتراءى له صورتان السابقتان المتعارضتان صورة الفلسفة

اليونانية ومن لحا منحها وهي التي تصوّر أن العقل وحده أداة المعرفة وهو وحده الذي يستطيع الوصول إلى الحقائق في ذاتها والمعارف التي تصلنا عن طريقه هي وحدها الحق ولا حق غيرها والصورة الدينية التي تصور أن الحق يأتي من الله على لسان أنبيائه وأن مرد الحق إلى الوحي لا إلى الفلسفة وأن مركز الحق في القلب لا في الرأس — لم يستطع أبو الملاء التوفيق بين الصورتين ولا أن يكون صورة واحدة مؤلفة منهما ولا أن يضع لهذه دائرة اختصاص ولتلك دائرة انما تركها كما هاهي متركان وكل ما فعل أنه كان ينظر أحياناً إلى هذه الصورة فتعجبه ويستلهمها فتلهمه وينظر أحياناً إلى الأخرى فتعجبه ويستلهمها فتلهمه ، ان نظر إلى الأولى ألهمته الحاداً وان نظر إلى الأخرى ألهمته إيماناً ينظر إلى الأولى فيتوقد ذهنه فلا يرى إلا أسباباً ومسببات ومنطقاً ونتائج ومقدمات لاتسلم إلا إيماناً فينكر وينظر إلى الأخرى فيخفق قلبه ويرهف شعوره فيتربح من نشوة الايمان وهو في كلتا الحالتين صادق معبر عن نفسه أصدق تعبير وهذا الموقف ليس بعيداً عن حال كثير من المثقفين في كل عصر فكم منهم بحار ويصدق ، ويلحد ويؤمن كالنفس تشدو لها أنعاماً حزينة فتحزن وأنعاماً سارة فتسر ، « إن الانسان يطغى أن رآه استغنى ، وإذا أدركه الفرق قال آمنت أن لا إله إلا هو وأكثر مؤرخي أبي الملاء يخطئون لأنهم يتصورون في أبي الملاء وحدة الزمان والمكان والفكرة بل يتصورون نفسه الانسانية حجراً لاتمتريه حالات فمن اعتقد ايمانه تأول له آيات الكفر ومن اعتقد كفره لم يأبه بآيات الايمان والحق أن من أ كفره صادق ومن جعله مؤمناً صادق كلاهما يصوّر حالة من حالات نفسه وما أكثر حالات التغير في النفس الیقطة المتوثة ، ثم هو في حال إيمانه صريح لايحتاج إلى كناية أو مجاز فهو يتفق وآراء الجمهور وفي حال الحاد مضطر إلى الكناية والمجاز خشية من السوء ومع هذا فقد تستغويه الفكرة فلا يعبأ بالناس ولا يعبأ بموته أو حياته .

لاتقيد لفظي عليّ فإني مثل غيري تكلمي بالمجاز

وليس على الحقائق كل لفظي ولكن فيه أصناف المجاز

اصدق إلى أن تظن الصدق مهلكة وعند ذلك فاقم كاذباً وقم

لا تخبرن بكنه دينك معشراً شطراً وان تفعل فأنت مفرر
لنعد إلى موقف أبي العلاء من هذه المسائل الاساسية في الدين في
ضوء هذا الرأي هل الله موجود؟ اللزوميات مليئة بالاجابة بنعم .

إذا كنت من فرط السفاء معطلا فيا جاحد اشهد أنني غير جاحد
أخاف من الله العقوبة آجلاً وأزعم أن الأمر في يد واحد
فأني رأيت الملحد ين تمودهم ندامتهم عند الاكف الواحد

تعالى الله كم ملك مهيب تبدل بعد قصر ضيق لحد
أقر بأن لي رباً قديراً ولا ألقى بدائمه بجحد

للعليك المذكرات عبيد وكذاك المؤنثات اماء
فاللهلال المنيف واليدى والفرقد والصبح والثرى والماء
والثريا والشمس والنار والنشرة والأرض والضحي والسماء
هذه كلها لربك ماعا بك في قول ذلك الحكماء
خلفي يا أخي أستغفر الله فلم يبق في الا الذماء

ليفعل الدهر ما بهم به ان ظنوني بخالقي حسنه
لاتياس النفس من تفضله ولو أقامت في النار ألف سنه

هو الفلك الدوار أجراه ربه على ما ترى من قبل أن تجري الفلك
له المزم لم يشركه في الملك غيره فيا جهل انسان يقول لي الملك
الح الح

وأحياناً أخرى تجد له ما يجمع به في الانكار كقوله :
أما الاله فامر لست مدركه فاحذر لجلك فوق الارض إسقاطا

مق عرض الحجا لله ضاقت مذاهبه عليه وقد عرضه

هل الكون قديم أزلي كما قال أرسطو أو هو مخلوق فان كما يقول
الدين ؟ أحياناً هذا وأحياناً ذاك فمن ناحية يقول :

وليس اعتقادي خلودَ النجوم ولا مذهبي قدمَ العالم
ومن ناحية أخرى يقول :

إذا صح ما قال الحكيم فما خلا زماني مني منذ كان ولا يخلو
أفرّق طورا ثم أجمع تارة ومثلي في حالاته السدر والنخل

خالق لا يشك فيه قديم وزمان على الأنام تقادم
جائز أن يكون آدمُ هذا قبله آدم على إثر آدم
هل الانسان في هذا العالم مجبر أو مختار ؟
أما أكثر شعره فالقول بالجبر

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر

جيلة بالفساد واشجة ان لامها المرء لام جابلها
وأحياناً يميل إلى الاختيار ومسئولية الانسان

لا ذنب للدنيا فكيف تلومها والالوم يلحقني وأهل نحاسي
عنب وخمر في الاناء وشارب فمن الملوهم أعاصر أم حاسي
وأحياناً يرى التوسط بين الجبر والاختيار

لا تمس مجبراً ولا قدرياً واجتهد في توسط بين بينا
هل هناك بث حياة أخرى ؟

أحياناً نعم وأحياناً لا
فنعم كقوله

وما انا يائس من عفو ربّي على ما كان من عمد وسهو

أما الحياة فلا أرجو نوافلها لكنني لإلهي خائف راجي

أصبح في الدنيا كما هو عالم وأدخل ناراً مثل قيصرا وكسرى

واني لأرجو منه يوم تجاوز فيأمر بي ذات العين الى البسرى

خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبونهم للنفاد
انما ينقلون من دار اعما ل الى دار شقوة او رشاد

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت اليكما
ان صح قولكما فليست بخاسر او صح قولي فالخسار عليكما

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة ان يكوا
تخطئنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يباد لنا سبك
و لا كقوله

خذ المرأة واستخبر نجوما تمر بمطعم الأري المشور
تدل على الحمام بلا ارياب ولكن لا تدل على النشور

مالي بما بعد الردى مخبره قد ادمت الأنف هذى البره
الليل والاصباح والقيظ والابراد والمنازل والمقبره
كم رام سبر الامر من قبلنا فنادت القدرة لن تسبره

دفننا في الارض دفن تيقن ولا علم بالارواح غير ظنون
واخيراً هل هناك وحي وانبياء او لا

الجواب ايضاً نعم ولا

فنم في مثل قوله

ام الكتاب اذا قومت محكمها وجدتها لاداء الفرض تكفيكما
لم يشف قلبك فرقان ولا عظة وآية لو اطمت الله تشفيكما

افلة الاسلام ينكر منكر وقضاء ربك صاغها واتى بها
و لا في مثل قوله

افيقوا افيقوا ياغواة فانما دياناكم مكر من القدماء
ارادوا بهاجم الخطام فأدر كوا وبادوا ومات سنة اللؤماء

قالت معاشر لم يبعث الحكم
وانما جملوا للقوم مأكلة
الى البرية عيساها ولا موسى
وصيروا لجميع الناس ناموسا
ولو قدرت لماقبت الذين ظفوا
حتى يمود حليف النبي مرموسا

ان الشرائع اقلت بيننا احثاً
وهل ايجت نساء القوم عن عرض
واودعتنا افانين العداوات
للعرب الا باحكام النبوات

هفت الحنيفه والنصارى ما هتدت
اثنان اهل الارض ذو عقل بلا
ويهود حارت والمجوس مضلله
دين وآخر دين لاعقل له
وهكذا وهكذا

لقد فكر ابو الملاء طويلاً بمد هذه المرحلة الطويلة واستعرض ما فكر وما قال فلماذا رأى؟ رأى تناقضاً في الفكر، وفي القول، يسلمه التفكير يوماً الى الشيء انه ابيض فيعلمه ثم يسلمه يوماً آخر الى انه اسود فيعلمه فاذا هو آخر الامر يعلمه انه اسود وابيض معاً ومحال ذلك، أيها الحق اهو اسود ام ابيض، لا بد ان يكون اسود فقط او ابيض فقط أما اسود وابيض معاً فضلال، وما هذا العقل الذي يسلمني الى الشيء وقيضه؟ عند ذلك صرخ من اعماق نفسه بأنه حائر لم يوفق، ضال لم يهتد وان ليس في الناس من يستطيع هدايته فكلمهم اما عاقل لادين له او دين لاعقل له وهو يريد ان يكون ديناً عاقلاً، والمطمثون الذين استطاعوا ان ينجوا من الحيرة مقلدون لم يؤمنوا عن فكر وعقل ف هؤلاء ضالون لتقليد هم هؤلاء ضالون لحيرتهم فلا امل في هؤلاء هؤلاء ان تجد عندهم هادياً والعقل وما ادراك ما العقل؟ اسلمت له قيادي فلم يسلم لي قياده، وآمنت به كل الايمان وفضلته على كل الاديان وجعلته نبياً من الانبياء ونوراً يلعب في الظلماء فلم يؤد رسالته ولم ينقع غلته فلا كفر به كما كفرت بغيره ولا أنكر سلطانه كما انكرت كل سلطة ولا كسر قيادتي التي غنيت عليها في مدحه ولا أضع اناشيد اخرى في ذمه فهذا هو الجزاء الوفاق لمن وفيت له فلم يف لي واكبرت شأنه فأصغر شأنني وركنت اليه فحيرني جربت النقل فلم اطمئن اليه وجربت العقل فلم اطمئن اليه فلا أرفع علم الشك واعلن ان لا يقين.

سألت عقلي فلم يخبر وقلت له سل الرجال فما أفتوا ولا عرفوا
قالوا فمانوا فلما أن حدودهم إلى القياس أبانوا المعجز واعترفوا

أرواحنا معنا وليس لنا بها علم فكيف إذا حوتها الاقبر
سألغوني فأعيتني اجابكم من ادعى انه دار فقد كذبا

أصبحت في يومي أسائل عن غدي متحيراً عن حاله متندسا
أما اليقين فلا يقين وانما أقصى اجتهادي ان اظن وأحدسا

وقد علم التيقن في زمان حصلنا من حجاب على التظني

نفارق العيش لم نظفر بعمره أي المماني باهل الارض مقصود
لم تعطنا العلم أخبار يجيء بها نقل ولا كوكب في الارض مرصود

انما نحن في ضلال وتعليق فان كنت ذا يقين فهاته
ولحب الصحيح آثرت الروم م اقتساب الفتي الى امهاته
جهلوا من ابوه الا ظنونا وطلا الوحش لاحق ببهاته

وبصير الاقوام مثلي أعمى فهلما في حندس تصادم
لقد تركت الدنيا للدين والنقل للعقل ولذة المادة للذة الروح فلا افدت هذا
ولا ذاك واخيراً

رحلت فلا دنيا ولا دين نلت وما اوتي الا السفاهة والخرق

عقدة أبي العلاء اتت من عظمته وضعفه نبع من قوته - قد منح
عقلا قويا دائب النشاط يريد ان يطحن كل شيء يصل اليه ليعرف كنهه وشمورا
قويا رحبا بالانسان رائيا لبؤسه رحبا بالحيوان معذبا نفسه في سبيل الرحمة به ،
ومثل هذا الشمور القوي يريد ان يؤمن ومثل هذا العقل يريد ان يواصل هذا
البحث حتى يصل الى الحقيقة ، ولكن - وهنا موضع العقدة - انه يريد ان يؤمن

بعقله كما آمن بشعوره والعقل ليس أداة صالحة لأدراك الغيب - ادراك الله والحياة الأخرى والوحي والملائكة وما الى ذلك انما خلق ليكون أداة للحياة الدنيا ووسيلة لحفظها وبقائها ورقبها وهو عاجز كل العجز ان يرسم بريشته عالم الغيب المجهول الذي لا يخضع لقانون سبب ومسبب ومقدمة ونتيجة وزمان ومكان وحيز وحدود .

لقد شغلت الفلسفة القديمة بالبحث وراء المادة فدارت حول نفسها ولم تصل الى نتيجة حتى جاءت الفلسفة الحديثة وعلى رأسها « كانت » فتحول بعض فلاسفتها من البحث فيما وراء المادة الى البحث في العقل نفسه ومقدرته على المعرفة وحدود ما يمكن ان يعرف وما لا يمكن ان يعرف ، ان العقل انما يستمد معلوماته من الحواس وكل البحوث في سائر العلوم حتى ادق العمليات الرياضية والهندسية منشؤها الحواس تعمل فيها العقل بالمقارنات وما الى ذلك والحواس لا تدرك من العالم الا بقدر فاذا انخفض الصوت عن قدر معين أو ارتفع عن قدر معين لم تسمع وهكذا العين والشم واللمس فك في العالم من اشياء لم تدركها عقولنا لانها لم تدركها حواسنا - والعقل لا يستطيع أن يسير الا مستنداً على حواسه ولا يمكن أن يدرك من العالم الا مظهره هل يستطيع أن يدرك ما الضوء وما الكهرباء وما الجاذبية انما يدرك آثارها ومظاهرها هل يستطيع أن يدرك مركز نفسه وحقيقة شعوره كلا انما يدرك آثار ذلك في الحياة الخارجية - من أين أتينا أين كانت حياتنا قبل أن نحيا ماذا تكون حياتنا بعد ان نموت ما حقيقة علاقتنا بالعالم الخارجي حولنا كل هذه الأسئلة ومئات نحوها لا نعرفها ولا يستطيع العقل أن يعرفها ولم يتقدم العقل في ادراكها كما تقدم في العلم بقوانين المادة - كم في العالم من حجر مغلقة لم نعط مفاتيحها .

انما نشمر بالله وبالحياة الأخرى وبالمملكة الروحية من غير أن نعقلها وتطمئن نفوسنا اذا آمنت وتقلق وتضطرب اذا ألحدت ، « لقد ارتفع برجسون » (الفيلسوف المعاصر) الى أوج الشهرة في أعوام فلائيل لانه دافع عن الالمانى الانسانية وآمالها فك اغتبط الناس واطمأنوا اذ رأوا فيلسوفاً يصون لهم ما يرجون من خلود وما يمتقدون في إله وقال وليم جيمس « لقد بحثت في نفسي ولم أعلم ما هي وما شئها وأين تسكن وكيف تتغير وكيف تكون مجبورة وكيف تكون

مختارة ، وتغير نظرياتي في ذلك من وقت الى وقت ولكن مع هذا أؤمن بنفسى وأؤمن أنها مركز لكل ما أعرف عن العالم حولي ، كذلك الشأن في ادراك المبدأ والمنتهى والله والخلود ، انها عقيدة وإيمان لا قضايا منطق .

اعتبر الاديان كلها ، مبعتها ومظهرها ، تجدها تختلف باختلاف الالام ورفيها وطبيعتها وتتغلب عليها صفة من الصفات تكاد تكون كالمحور : كاللضحية ومعنى الابوة والرحمة والفران واطاعة الاوامر والفن والجمال وانكار الذات والاحسان الى الجميع والشفقة على الحيوان والشجاعة والجهاد في سبيل نشر الدعوة ولكن كل هذه الصفات على اختلافها من قبيل العواطف والمشاعر ولم نر ديناً أتى بفلسفة عقلية - لماذا هذا وقع في الحب وهام بمن يحب ولماذا هذا جمدت عواطفه ولم يحب ؟ لا ادري ولست تستطيع أن تقنع المحب بالحجج العقلية حتى يسلو ولا ان تقنع من جمدت عواطفه حتى يحب - ان عقله قد يقيم البرهان على خطأ الحب وقد يمنعه من الزواج ولكن لا يستطيع ان يمنعه من الحب وهكذا الشأن في كل المشاعر وهكذا الشأن في الدين الذي في القلب لافي العقل - اذا بحث الدين بالعقل المجرد لم تكن النتيجة ديناً ولا فلسفة وانما شيء تافه اسمه « علم الكلام »

وقد اراد ابو العلاء ان يضم الى ايمانه بقلبه ايمانه بعقله فلم يستطع ، وكانت العقدة . ولو نام شعوره وانتبه عقله لألحد مستريحاً ولو نام عقله وانتبه شعوره لآمن مستريحاً ولو صحا عقله وشعوره ورسم لكل حدوده وعرف لكل دائرة اختصاصه لاستراح أيضاً ولكنه اراد ان يصل الى الفاكهة المحرمة على العقل فلم يفلح وقلق واضطرب كما يقلق ويضطرب - كل من خرج على قوانين الطبيعة وحاول الخروج على طبائع الاشياء لأن الدين يفذي حاجة من حاجات النفس لاغنى لها عنه الا اذا مرضت هذا هو السبب في انه نقد المجتمع فنجح ونقد الاخلاق فنجح ونقد الاخبار فنجح ونقد الدين في صميمه فلم ينجح يعجبني وصف بعضهم لهيجل وصفا ينطبق على أبي العلاء انطباعاً تاماً اذ قال « انه رجل كفر عقله وآمن قلبه » كما يصدق عليه ايضا قول جوته عن « فاوست » « انه عقل طغى على القلب فاشق صاحبه » وايا ما كان فهذه الشخصية الفذة الشخصية المؤمنة الكافرة لشخصية الفلسفة الحائرة اخرجت كل ذلك وكل ما كان يتناوبها من نبضات قلب وخطرات عقل في صور فنية رائعة امتعت الناس وان اشقت صاحبها فرحمه الله ورحمه الله .

احمد امين

أبو المراء المصري

المتشائمون

التفاؤل والاشمئزاز في كلام الشيخ

١

كان النبي محمد، وكان هذا القرآن، هذا الكتاب المعجز، فكانت تلك الدنيا العجيبة العربية، وكان مع الهدى والخير ذلك العلم وذلك الأدب وتلك الفنون، وكان أولئك الأئمة وأولئك النابغون وأولئك المبقرين، وكانت تلك المؤلفات الفاتحات للحققات، وكان أولئك المؤلفون الراسخون في العلم المستبحرون. وكان هذا المبقر أبو المراء المصري (أحمد بن عبد الله ابن سليمان) رب هذا المهرجان. كانت الحضارة العربية وكانت هذه المدينة الغريبة ولن يقدر أن يكفر إفضال الفضيلين كافرون. فمحمد والقرآن هما شأننا هذا المجد، وهما القائدان، وهما الهاديان، وهما الشمسان الباهرتان ذواتا الضياء السرمدي في العالمين [كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا، ويزكيكم، ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون — فاذكروني أذكركم واشكروا لي، ولا تكفرون]. [سورة البقرة آ ١٥١]

* * *

دمشق عروس الشام المومقة، وواسطة عقدها المرموقة، في دمشق هذه التي قلت فيها — يا أبا المراء — قولك هذا في رسالتك إلى (أبي منصور محمد) قدمه المهرجانيون لك اليوم هذا المهرجان بعد ألف سنة من سعادتك بكونك وسعادة العربية بك. وإن أمة أقامت من بعدك هذا الدهر الأطول تصارع الكروب والخطوب، وتقارع تلك الهمجيات الشرقية

— ٦٥ —

م (٥)

٣ • المهرجان الألفي

والوحشيات الغريبة ثم لم تبد بل لم تهن ولم تستكن ، إن أمة وقاها كتابها ووقت
لقتها ولسان كتابها ، وعرفت قدرها في الأقدار ، وفضلها من قبل ، ومسامها
اليوم ، وأرادت ألا تزول وأن تكون فكانت ، أن هذه الأمة لقوية وعزيزة
وسائدة وخالدة في الخالدين .

* * *

بلاد الشام جلها ، ولا أقول كلها ، و « أن مع اليوم غداً يامسعدة (١) »
لا تردد كثيراً في هذا الوقت قول الشيخ :

ألفنا بلاد الشام ألف ولادة تلاقي بها سود الخطوب وحرها
فطوراً نداري من سبيمة ليها وحيناً نصادي من ربيعة نمرها
فالحال اليوم - يا أبا الملاء - متهدن ، والدهرمهاندن ، وفي الدار من قبلك صالحون
وصادقون ومخلصون و « ما الخلاص إلا في الاخلاص (٢) » ، كما يقول أبو منصور
الثعالبي ورئيس القوم (٣) ملائ من الفضائل الاسلامية ومن المرية والوطنية ،
وهو كما أحببت وكما أردت وكما قلت :
إذا ماتيننا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم .

لا يتركن قليل الخير يفعله من نال في الأرض تأييداً وتمكيناً .
وقد أتى بكثير الخير وأكثره ، ومهرجانك هذا هو حسنة من حسناته .

* * *

كونت المرية في اللغات تكوين الألباس (٤) والاراديوم في المدنيات .

[صنع الله الذي اتقن كل شيء]

وقله أن يفضل لساناً على لسان ، وأن يحظي انساناً على انسان (٥)

[ورفنا بعضهم فوق بعض درجات]

(١) من امثالهم

(٢) في كتابه (المبهج) ورواه في كتابه (الايجاز والابحار) .

(٣) صاحب النخبة السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية .

(٤) هو الألباس والمهزوة واللام فيه اصلتان ، ولم يصب المجد في قوله : « ولا تقل الماس فانه

من لحن العامة » وقد وجدت (الألباس) في الناقص ج ١ ص ٣٣٦ وفي النهاية لابن الاثير .

(٥) أحطيت فلائاً على فلان من المظوة والتفضيل (التخصيص) .

والشيخ يقول في (الفصول والنهايات) : « وربك خص بالفضيلة من اختار »
 وإذا قال المبقرى ابن جني : « انني اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة
 اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والركة ما يملك على جانب الفكر
 حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر » فما غالى بما قال ولا بالغ بل كان من المقتصدين
 وهذا شيخ العربانيين العلامة الكبير (نليتو) الذي حذق لغات متقدمين ومتأخرين
 من الغربيين والشرقيين بما لن في خطبة غير متمسح في الكلام ولا مصاد بأن
 « العربية تفوق سائر اللغات رونقاً وغنى ، ويمجز اللسان عن وصف محاسنها ،
 « لغة العرب ، أفصح اللغات وبلاغتها آتم البلاغات (١) » ولو تمثلت لغة غادة
 لأنشد المنشدون :

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت فلو جن انسان من الحسن جنت (٢) .

فنت هذه العربية (أبا الملاء) فتوناً وسحرته فنونها ، فأقبل رجلاً
 مسحوراً . شغف بكتابتها (قرآنها) ذاك الشغف ، وكلف بقريضها أي كلف ،
 وهام بالفاظها هيامه بأقوالها .

« ان هذا الكتاب الذي جاء به محمد كتاب بهر بالعجاز . . . ما حذى على
 مثال ، ولا أشبه غريب الأمثال . . . جاء كالشمس الأمتعة . . . لو فهمه الهضب
 الراكد لتصدع (٣) [وتلك الأمثال فضر بها للناس لعلهم يتفكرون] وإن الآية
 منه أو بعض الآية ليعترض في أفصح كلام يقدر عليه المخلوقون فيكون فيه كالشهاب
 المتلألئ في جنح غسق [فتبارك الله احسن الخالقين] (٤) .
 « أجدني ركيكاً في الدين وكاكة أشعار المولدين (٥) »

ومن علق بأقوال العرب الأقدمين من الجاهليين أو المخضمين أو الاسلاميين
 استنزل كلام المحدثين ، وقضى قضاء أبي الملاء . والكلام العربي القديم سلطان قاهر

(١) الزمخري .

(٢) الشفري الأزدي في مفضله (اسبكرت) طاك وامتدت ، والمعنى . . . كما يقول الانباري
 شارح المفضليات - : دقت في حسناتها وجلت في خلقها .

(٣) الكتاب يقول : لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله . . .

(٤) أبو الملاء في (رسالة الغفران) .

(٥) أبو الملاء في (الفصول والنهايات) .

إذا استمكن من نفس خطبته سحره عما سواه (١) ، فلا يتقبل إلا إياه . ولولا أن عبقرية أبي تمام وعبقرية المتنبي جهرتا الشيخ وبهرتاه ما كان "نغم حبيباً في (رسالة الفران) ذلك التفخيم مشيراً إلى مقصدهات له فاقته ثم قال : «إني لأضن بتلك الأوصال أن يظل جسدها وهو بالموقدة صال ، لأنه كان صاحب طريقة مبتدعة ، وممان كاللؤلؤ متبعة ، يستخرجها من غامض بحار ، ويفض عنها المستنقلى من المحار (٢) وما كان افتتن بأبي الطيب تلك الفتنة . وسبك حبيب - وإن كان محدثاً - عجيب . ولفته قد ضارعت أو قاربت في القوة قديمة مطبوعة .

* * *

ذكر صاحب (النيت المسجّم في شرح لامية المعجم) جماعة من «الذين رزقوا السعادة في أشياء لم يأت بدم من نالها» فلما جاء إلى الشيخ قال : «أبو العلاء الميري في الإطلاع على اللغة» . يقول الأمام الشافعي في (رسائله في أصول الفقه) :

«لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها الفاظاً ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه انسان غير نبي» . ولو أحاط انسان غير نبي بجميع هذا العلم لكان الشيخ أبا العلاء ، وإن لم يحط به كله فقد أحاط - كما يخال - بجمله وتليذه أبو زكريا التبريزي يقول كما ذكر ابن المديم في كتابه (الانصاف والتحري) : «مأعرف أن العرب نطقت بكلمة لم يعرفها الميري» .

* * *

عبقرية عربية ثرت فهرت ، ونظمت فمجبت ، وفكرت خيوت ، وأبدعت وتفننت إذ قالت وألفت فأدهشت . وعلمها في كل فن من فنون اللغة في وقتها علم إحاطة (٣) علم الحفي (٤) المحيط لا العالم التتفة (٥) . وإذا لم نر (الايك والنصون)

(١) سحره من الشيء : سرفه عنه .

(٢) المحار جم المحارة : الصدفة .

(٣) علمه علم إحاطة إذا علمه من جميع وجوهه لم يفته منه شيء .

(٤) الحفي : الذي يتعلم الشيء باستقصاء .

(٥) التتفة : الذي يتقن من العلم شيئاً ولا يستغنى به . وكان أبو عبيدة يقول في الاصمعي

ذاك رجل تتفة .

— وهو نحو من مئة جزء — وغير الايك والفصون ، ومؤلفات الشيخ كثير (١) فقد رأينا المطبوعات المروقات ، واستدللنا بما حضر على ماغاب ، ولم نستبعد ماروى ابن القارح في رسالته : « الشيخ بالنحو أعلم من سيبويه وبالألف والمروض من التحليل » ووجدنا ابن القارح هذا من المقتصدين حين يقول : « ... لقد سمعت من رسائله عقائل لفظ ، ان نعمتها فقد عبتها ، وإن وصفها فما أنصفتها . وأطربتني (يشهد الله) لإطراب السماع . وبالله لو صدرت عن صدر من خزائنه وكتبه حوله يقلب طرفه في هذا ، ويرجع الى هذا ... لكان عجيباً صعباً شديداً . والله لقد رأيت علماء ، منهم ابن خالويه اذا قرئت عليهم الكتب ولا سيما الكبار رجعوا الى أصولهم كالمقابلين . يتحفظون من سهو وتصحيف وغلط . والعجب العجيب والنادر الغريب حفظه لأسماء الرجال (٢) ، والمنثور كحفظ غيره من الأذكياء المبرزين المنظوم . وهذا سهل بالقول ، صعب بالفعل ، من سمعه طمع فيه ؟ ومن رامه امتنعت عليه معانيه ومبانيه . »

واني لأقول : انه لمن النادر الغريب أن يحتاز الأديب عبقرية ثرية ، وعبقرية شعرية كما احتاز هذا الشيخ وإذا كانت الاجادة لاتتفق في في المنظوم والمنثور معاً الا لالأقل — كما قال ابن خلدون — فكيف حال العبقرية ؟ وهذان الشاعران البقريان أبو تمام والمتنبي لم ترو لنا كتب الادب والسير من ثمرهما إلا رسالة قصيرة للأول سطرها البديهي في (هبة الأيام) ورسالة أقصر منها للثاني أوردها ابن خلكان في (وفيات الأعيان) وأما البحري المسكين فكان لا يستطيع أن يخط في النثر سطرأ ، وإذا خاطب احداً في شأنه وجه اليه شعرأ . قال الشيخ في احدى رسائله : « روي ان البحري كان لا يقدر على كتب رقمة ، فيجعل المنظوم عوضاً عن المنثور . »

وأية محلوفة بالقرآن وإعجازه لو أن هؤلاء الشعراء الثلاثة ، وهم عند ابن الأثير وغير ابن الأثير أشعر العرب « هؤلاء لات الشعر وعزاه ومنااته الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته » مشوا في عرض (المروض)

(١) قالوا : انها مئة مجلد .

(٢) رسالة أبي العلاء الى أبي القاسم بن - بيكنة يعزبه بأخيه - تؤيد قول ابن القارح .

المتشعبة ومناحي (النحو) المتفرقة المتصعبة كما مشى الشيخ ، وتقبوا مثلما تقب واستظفروا من مقالات الفلاسفة والمتكلمين ومصنفات الفقهاء وأهل النحل بعض ما استظفروا — لا جيلوا اجبالاً^(١) أو غث كلامهم وجاؤا في القريض قرازيم^(٢) . لكن عبقرية الشيخ قوية جنية قد تسيطر على كل فن ، ولم يسيطر عليها فن ، ولم يزل نظيمها وثيرها من عليائها في وقت ، ولم تبدل لها دياجاة أو بهجة

* * *

إذا قال أبو الطيب :

مابه قتل اعاديه ولكن يتقي اخلاف ما ترجو الذئاب
فقطّ وشطّ وبدت (فاعلن) في المروض (فاعلاتن) في حين أن المتنبي —
كما قال الشيخ — : « كان شديد التفقد لما ينطق به من الكلام . يغير الكلمة بمد أن تروى عنه . ويفر من الضرورة وان جذبه اليها الوزن^(٣) » . وإذا قال (الوليد) البحتري :

وكان الأيام أوتر بالحسن عليها يوم المهرجان الكبير^(٤)
فكسر وجاء نقص من الزيادة . وإذا قال حبيب بن أوس :
بالقائم الثامن المستخلف انطأدت قواعد الملك ممتداً لها الطول^(٥)

(١) أجبل الشاعر : أضعف .

(٢) القرازم . الشاعر الدون ، وهو يقرزم شعره يميّ به رديئاً .

(٣) رسالة أبي العلاء الى أبي الحسين أحمد بن عثمان النسكي البصري .

(٤) مراجع (الموشع) للمرzbاني ، وذكر الشيخ في رسالة الى النسكي أن البحتري كسر في قوله :

ولماذا تقيم النفس منه شيئاً جعل الله الفردوس منه جزءاً

(قلت) : رواية البيت في ديوانه المطبوع في بيروت هي :

ولماذا تقيم النفس .. شيئاً يجعل الله الفردوس منه بوا .

(٥) تراجع (المثل السائر) : النوع الأول معرفة علم الرينة من النحو والتصريف .

(قلت) في الديوان المطبوع في بيروت : (اعتدك) مكان (انطأدت) واليقين ان ناسخاً

قديمأ أراد اصلاح الكلمة ولو اعظم حبيب على ما جاء به هذا الوراق أو التاسع ليج وضج ، وأثر خطأ على هذا الاصلاح وأين كلمة من كلمة ؟ ...

فهو (١) البيت في اللغة بـ (اتطادت) ولم يتطد .
 اذا جازف في اللغة المجازفون وطفف المطففون « ويل للمطففين » فعند الشيخ
 الموازين القسط ، عنده القسطاس المستقيم ، وميزان الصيدلاني (٢) الحكيم .
 « موازين صدق ، كلها غير عائل (٣) » .
 ثم أبو العلاء مترسلاً ومسجماً فبذ النائر في وقته والذين من بعده
 كلهم أجمعين ، وشعر فتبدى في سماء القريض شمساً علائمة لاتأفل ما كان القرآن ،
 وكان هذا الاسان المبين .
 ولقد أصاب الشيخ وأطاب (٤) حين حاش في رسائله ودواوينه وكتبه
 الكلمات الغريبات ، بجمع ناديات شاردات لم نر كثيراً منهم في مجمع من المعجمات .
 وإن غريبات قديمت نشأت في (الجزيرة) مع أخوات لمن - لحريات أن يظهر
 وأن يمرفن . وقد برع أبو العلاء اذ نص تلك الغرائب في حلل عدنيات (٥) من
 المبارات كأنهن عرائس قعدن فوق منصات . ولأن تجتاف لفظه غريبة جملة أو
 بيتاً خير من توحيد (٦) . ولكل لغوي في التصنيف نمط . واذا احسن المعري
 فقد أجاد ابن سيده ، وأجاد الجوهري وابن دريد .

لم يكن الشيخ من المبكرين الملمين بل كان من المبكرين الدارين المدركين ،
 تعلم واستعلم فلم ، وسأل واستفهم ففهم . وللقائل الملم حال ، وللدارس حال ،
 ولذا وحي ، ولهذا مقال ، والوحي لا يحصل ، ولا يؤازره مؤازر .
 وقد استهام الشيخ بلغة العرب ، وكان متمناه في دنياه أو مرجاه (٧) الأسمى

(١) نهج : اتهدم

(٢) الصيدلاني والصيدلاني - منسوبان الى الصيدل والصيدن وهما أصول الاشياء وجواهرها
 والثون للمبالغة (الفائق) .

(٣) عائل : مائل .

(٤) أطاب : جاء بغير طيب .

(٥) عليه عدنيات أي ثياب كريمة ، وأصلها النسبة الى عدن ، تقول : مرث جوار مدنيات

عليهن رباط عدنيات (الاساس)

(٦) وحد الشيء : صار على حدته .

(٧) استعمل اللفظة أبو الطيب المتنبي وقال سمعتها من العرب .

أو مثله الأعلى أن ينبغ فيها وفي علومها فنبح ، وبلغ حيث بلغ . فهو به (١) هو هذه اللغة ، وفنون زمانه التي شاء عرفانها هن للمهوي تبع .

وإذا تبادى الشيخ في إعجابه بالعرب الأقدمين ، وتطربه سجع محدثين مسجعين فقلد فقد أفتن في تقليده واجتهد ، فعد في الشعراء والكتابين من المبدعين . وتذرع أبو الملاء بالله وتحاميده وتمسحيده فنظم (اللزوميات) وصاغ أوحاك (الفصول والغايات) والمقاصد لغوية لألمانية (٢) ، لادينية ، وإن اشتملت على أشياء منوعة مهولات (٣) ملونات قد بدت مثل (صندوق العجب) . وما كان يغرب حين يغرب حتى يعمي مقالة ولكن ليعلم قدرة وبراعة . وكيف يكفر معني قصده وقد أصحبه شرح الغريب من ألفاظه .

ومؤلفات الشيخ البقرية هن بنات القصد والتكلف وبنات الأثرية .
« . . . وقد تكلفت في هذا التأليف - يعني اللزوميات - ثلاث كلف ، الأولى أن ينتظم حروف المعجم عن آخرها . والثانية أن يحجي رويه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك . والثالثة أنه لزم مع كل روي فيه شيء لا يلزم من ياء أو ثاء أو غير ذلك من الحروف » .

ولو لم يجب الشيخ داعي أثرته ، ويحقق قوله في (لاميته) ويقصد ويتكلف ما كانت أمثال (اللزوميات ، والفصول والغايات ، والأيك والفصول) مما عرفناه وحرمانا إياه جهل الجاهلين . وضلال الصليبيين وتثنية التثرو حوادث الأيام ، وما كانت العربية ازدادت ثروة بآهرات عبقریات تباها بها ، وباهت غيرها من اللغات ، وإذا هجئن في العلم والأدب تكلف الضعفاء العاجزين حين يتكلفون فتكلف العباقرة القادرين يحل عن كل تعيب أو تهجين .

* * *

حرث أبو الملاء القرآن حرثاً (٤) عجياً ، وسيط هواه بلحمه ودمه ،

(١) هو به : محبوه ، مشوقه .

(٢) هذه نسبة الى اسم الله عز وجل إلا أنه وقع فيها تغيير من تغييرات النسب وانقصاب صيغة ، ونظيرها الرجولية في النسبة الى الرجل والقياس اليه ورجليه (الفائق) .

(٣) ورد المهورل في شعر تقديم رواء المختص وفي أمثال العرب .

(٤) في حديث ابن مسعود : احرثوا هذا القرآن . وفي [الاساس] : وحرث القرآن

أطلك دراسته وتدرسه .

واستهداه فهداه وذهن او ادرك من الهية (الكتاب) وسماويته ومن عربيته الناصمة الصافية ذات الاعجاز ، وبلاغته الخارقة المادة ما دركه الفصحاء البلغاء من العرب في عهد النبي او كاد يدرك ذلك . ولا تستقلن هذه الكبدودة . وفصنف الشيخ (تضمين الآي) « وهو إن لم نره فقد سمعنا خبره (١) » يبين أنه بلغ في علم (الكتاب) المبالغ - كما يقول الزعشمري - ولا يضمن مثل ذلك التضمنين الفائق البديع الا من خرجه (القرآن) هذا التخرج العظيم البليغ . [ومن يهد الله فهو المهتدي] .

بصر الكتاب الالهي المحمدي (أحمد بن عبد الله بن سليمان) بمجائبه وآياته فاستيقن واستبصر ، وارتوى الشيخ من كوتر البلاغة القرآنية فأزهر الكلام الملائني ونور .

نور القرآن قولاً فعلاً وسما صاحبه في القائلين . انما القرآن هدي الناطقين ، انما القرآن نور العالمين . غث قول لم يهذه (الكتاب) .
والقرآن ، القرآن ذلكم الكتاب المعجب المبين ؛ إنه يراه نابضة الأورسين الأديب المبقر العظيم (جان ولقنغ غوت) قد أعطى فيه كل مقام حقه ، وأخذ كل معنى من مقاصده لفظه كما يراه قوياً ، عظيماً ، سامياً ، متعالياً ، رائماً مهيباً قد خرق المادة ، فلا غرو أن يبلغ أثره في العالم - كما قال - حيث بلغ . ألا إن القرآن في الكلام مثل محمد في الأنام . فان وجدت لمحمد خطيراً (٢) ألفيت للقرآن نظيراً .

[قل : لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً] .

دعاكم الى خير الأمور محمد وليس العوالي في القنا كالسوافل
حداكم على تعظيم من خلق الضحى وشبه الدجى من طالمات وآفل

(١) مقتبسة من البديع المهداني ولشبل الدولة في الزعشمري :

زعشمري فاضل أنجه زعشمري

كالبهر إن لم أره فقد أناني خبره

(٢) خطير الشيء مثله [المضمحل] وفي اللسان : فلاز ليس له خطير أي ليس له نظير ،

وهذا خطير لهذا أي مثل له في القدر ، ولا يقال للدون الا للشيء السري .

وألزمكم ما ليس . يمجز حمله
وحت على تطهير جسم وملبس
وحرم خمرأ خلت أبواب شربها
فصلى عليه الله ما ذر شارق
أخا الضعف من فرض له ونوافل
وعاقب في قذف النساء الفوافل
من الطيش ألباب الندام الجوافل
وما فت مسكاً ذكره في المحافل^(١)

* * *

أبو العلاء « هو جوهرة جاءت الى الدنيا وذهبت ^(٢) » .

٢

لما شاء الله أن يثب قبيل من نامية^(٣) الله تلك الوثبة ، أن يطفر تلك الطفرة ،
وليست الطفرة على ذي القدرة والحول بمحال ، واعتدلت القامات [ولقد خلقنا
الانسان في أحسن تقويم] وتحركت الألسنة بعد حين من الدهر طويل
بتلك اللهجات اليبينات ، وكرّم الله اناسي^{*} كثيراً على سائر المخلوقات بالذي دعت
اللغات (العقل) وهو نعمة الله الكبرى ، وفضيلة الانسان على غيره العظيم .
[ولقد كرّمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ،
وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً] .

« الباب أهل الأبواب ، ولكل حيوان حس ولكن الله فضل الناطقين ^(٤) » .
لما كان الذي سمته الافرنجية (Evolution) وجرنا الى أفق الانسانية الذي
ذكره ابن خلدون ووضحه وفصله النشويون تفصيلاً [وقد خلقكم أطواراً]
ونجم في الأدمغة ذلك (الفكر) المضي^{*} ، وهو خير مافي الدنيا بل هو كل مافي

[١] أبو العلاء .

[٢] قال الصفي في [نكت المبيان في نكت العبيان] : « حكى لي عن الشيخ كمال الدين

ابن الزملاكاني أنه قال في حقه هو جوهرة النخ » .

[٣] خلقه لأنهم ينون .

[٤] في (الامتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي : فأما أنفس أصناف الحيوان كالفرس
والحمار فأما أنفس ناضجة غير كاملة ، وهي ضئيلة لأنها لم تجد إلا الاحساس والحركات ، ولم
يشم فيها نور النفس الشريفة ، ولم يثبت فيها شعاع العقل الكريم فوجب من هذا الوجه أن
تكون تابعة لأبدانها جارية على فسادها وطلانها لأن الحكمة انتهت الى ذلك الحد في كونها حشواً
لهذا العالم وزينة ومنتافع ومبالغ الى غايات وأغراض .

الدنيا — كما يقول العلامة بوانكريه — وعمل العقل (الدماغ) كما ذهب الى ذلك أبو حنيفة وأرنست هيكل لا القاب كما ظن الشافعي . واستنبط الحجي معاني للأشياء كانت خافية قبل ذلك (الارتقاء) وهشت النفوس وبشت بما نرى الميون ، وأقبل (الادراك) وآتى (الفهم) فأدرك المحسوس أو المحس ، وفهم المنظور ، والمحس البحث والنظر الصرف كما يشمر غير الناطق ويلمح من دون فكر وفهامة هما كلاشي ، كونهما مثل العدم ، إن الهناء والسعادة في البصيرة لا البصر .

لما ارتقيننا وعقلنا وعلمنا وبيننا وحضرنا وغرسنا وتلونا :

[هو أنشأكم من الأرض واستمركم فيها] .

[هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً] .

وقال الشيخ أبو العلاء :

« إن شاء الملك قرب النازح وطواه حتى يطوف الرجل في الليلة الدانية بياض الشفق من حمرة الفجر — طوفه بالكعبة — حول قاف^(١) ثم يؤوب الى فراشه واليلة ما همت بالأسحار ، ويسلم بمكة فيسمعه أخوه بالشام ، يأخذ الجرة من تهامة^(٢) فيوقد بها ناره في بيرين^(٣) وقاصية الرمال^(٤) ، فحققنا قوله ، وطار في الجو أو في السهمي^(٥) مثل الطيور الطائرون ، وسمنا في دمشق سرار القوم بله الطنطنة^(٦) في برلين وفي لندن وفي باريس وواشنطن وبله العططة^(٧) في ميادين القتال . وأورى (مركوني) ما أورى وهو في سفينته في بحر الروم فأضاءت (سدني) في أقصى الأرض [ويخلق ما لا تعلمون] .

(١) قاف : جبل يحيط بالأرض . . . وقاف في سلم الذي هو جبل في المدينة : يثرب .

(٢) تهامة : مكة ، وبلاد شمالي الحجاز .

(٣) بيرين : من أصقاع البحرين ، وبيرين قرية من قرى حلب .

(٤) رويت هذه الشذرة في إحدى مقالاتي في [الرسالة] ٢٥٠ س ٦ في ١٧ صفر ١٣٥٧ ،

وهو ان المقالة [المحترقات وكتاب الفصول والعابات] .

(٥) السهمي : الهواء ، الجو .

(٦) الطنطنة : كثرة الكلام والتصويت به .

(٧) العططة : تنابع الأصوات في الحرب وغيرها .

لما قطعنا ماقطعنا ، وبلغنا مابلغنا ، ومشينا اليقدمية (١) وحمدنا وشكرنا
و [الحمد لله رب العالمين] طلعت علينا أجواق نذم الوجود ، وتهجو الحياة ،
وتطري العدم ، وتلعن الدنيا ، وتكنيها بألم دفر وألم دروب ، وتصفها بأنها دار
قلمة (٢) ، منزل قلمة (٣) ، وتسمى خيراتها حطاماً . وجاء فوج أنكر كونها .
ولم يجد لها مثلاً ؛ « قيل لبعضهم : كيف ترى الدنيا ؟ قال : وما الدنيا ؟ لا أعرف
لها وجوداً » « وقيل لآخر : مامثل الدنيا ؟ قال : هي أقل من أن يكون لها مثل »
وتعادي محمد بن واسع في استحقاقها بل جاز المدى « قيل له : فلان زاهد ، قال :
وما قدر الدنيا حتى يحمد من يزهد فيها » وأقبل الحاجاج بن يوسف متقرئاً
متحتشاً (٤) فقال في احدى الخطب : « والله ما أحب أن ماضى من الدنيا بماضي
هذه . ولما بقي منها أشبه بما مضى من الماء بالماء » وتالله لو أن هذا الكهاكه - وكان
الحجاج قصيراً أصفر كهاكه (٥) - أبدى الى العرية تلك اليد ، وتقرب الى
(الكتاب) ذاك التقرب الكريم المشتهر ، وولع بالقرآن ولماً كبيراً حتى قال عمر
ابن عبد العزيز : « ما حسدت الحاجاج على شيء حسدي اياه على حبه القرآن وإعطائه
اهله » لولا كل ذلك لسخطنا واطلنا القول فيه . وبدا (الوليد) متحذلقاً متفلسفاً
في هذه المقطوعة التي اخرجته من بغداد :

اخي ، متى خاصمت نفسك فاحتشد لها ، ومتى حدثت نفسك فاصدق
ارى علل الأشياء متى ولا ارى التسجعجع الا علة للفرق
ارى الدهر غولاً للنفوس وإنما بقي الله في بعض المواطن من بقي
فلا تتبع الماضي سؤالك لم مضى ؟ وعرج على الباقي وسائله لم بقي ؟
ولم ار كالدنيا حليلة صاحب محب متى تحسن بعينه تطلق

[١] اليقدمية : التقدم بالهمة والأفعال . وفي [الثالث] في حديث ابن عباس ان ابن أبي
العاس منى اليقدمية وأن ابن الزبير منى القهري . أي المشية اليقدمية التي يقدم بها الناس أي
يتقدمهم وروى بالناء غلطاً .

[٢] قلعة : إفتلاح ، تحول وارتحال .

[٣] منزل قلعة : المنزل الذي لا تملكه والقلعة من المال مالا يدوم .

[٤] [القري] المتك [المتعنت] المتبد .

[٥] [الكهاكه] هو الذي اذا نظرت إليه كأنه يضحك وليس ضاحك من الكهاكه [الثالث]

تراها عياناً (وهي صنعة واحد) فتحبها صني لطيف وأخرق (١)
ومن قوله له :

ان الزمان زمان سو وجميع هذا الناس بو .

وأطل علينا أحمد بن الحسين الكندي جمهوراً هذا الكلام (٢) :

إذا كان الشباب السكر والشباب هما فالحياة هي الحما

هل الولد المحبوب إلا تلة وهل خلوة الحسنة إلا أذى البمل

وما تسع الأزمان علمي بأمرها وما تحسن الأيام تكتب ما أملي

وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشاق فيه إلى النسل

يقول ابن الاثير في كتابه (الوشي المرقوم في حل المنظوم) :

د كنت سافرت إلى مصر سنة (٥٩٦) ورأيت الناس مكبين على شعر

أبي الطيب المتنبي دون غيره ، فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك ،

فلم يذكروا لي في هذا شيئاً ، ثم إني فاوضت عبد الرحمن بن علي اليبساني

في هذا فقال لي : (ان أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس) ولقد صدق

فيما قال ، فهل نطق المتنبي بتلك الأبيات عن خواطر الاناسين أم لغائها

عن سوانح الشياطين ، انهم الشعراء يفتلتون (٣)] ألم تر انهم في كل واد

يهيمون [و د الشعر للخلد (٤) مثل الصورة لليد ، يمثل الصانع ما لا

حقيقة له ، ويقول انخاطر ما لو طولب به لا تكفه (٥) . . د وإذا رُجع

(١) في أمالي المرضى : قيل : ان السبب في خروج البحري من بغداد هذه

الآيات ، فان بعض أعدائه شتم عليه بأنه تنوي حيث قال (صني لطيف وأخرق)

وكانت العامة حينئذ غالباً على البدة ، فضاف على نفسه ، وقال لابنه أبي الفوت :

تم يا بني حتى نطق هذه النائرة بخرجة فلم بها شتا ونمود ، فخرج ولم يمد .

(٢) جهود الكلام : فضه .

(٣) الفتنة الكلام يتم من غير أحكام وقد افنته وفي الأساس : افنت الكلام :

ارنجل . وكل شيء فنته فنته قد افنتك .

(٤) (الخلد) القلب ، النفس .

(٥) أبو العلاء في مقدمة (سقط الزند) .

إلى الحقائق فنطق اللسان لا ينفي^١ عن اعتقاد الانسان^(١) .
ودعنا ابن الشبل البغدادي هتاتاً^(٢) جدافاً^(٣) يردد هذا الشعر :

صحة المرء للسقام طريق وطريق الفناء هذا البقاء
بالذي نفتني غموت ونحيا أقتل الداء للنفوس الدواء
فبح الله لذة لأذانا نالها الامهات والآباء
نحن لولا الوجود لم نألم الفقد فابجادنا علينا بلاء
ليت شعري وللبلى كل ذا انطلق بماذا تميز الانبياء
موت ذا العالم الفضل بالنطق وذا السراح اليهم سواء
لاغوي لفقده تبسم الأثر ض ولا للتقي تبكي السماء
انما الناس قادم إثر ماض بدء قوم للآخرين انتهاء

بربك أيها افلك المدار أقصد ذا السير أم اضطرار
مدارك قل لنا في أي شيء ففي أفهامنا منك انهيار
وعندك ترفع الأرواح أم هل مع الأجساد يدرسها البوار
ودنيا كلها وضعت جنيناً غذاء من نوائبها ظوار
هي المشواء ماخبطت هشيم هي العجاء ماجرحت جبار
نماقب في الظهور وما ولدنا ويذبح في حشا الأم الحوار
وننتظر الرزايا والبلايا وبعد فبالوعيد لنا امتظار
ونخرج كارهين كما دخلنا خروج الضب أخرجـه الوجار
فماذا الامتنان على وجود لغير الموجدين به الخيار ؟
وكانت أنما لو أن كوناً نخير قبله أو نستشار

لقد استأسد ابن الشبل على الحق وبالغ في المفلطة والسلطة^(٤) ، ولقد

(١) أبو الملاء في (رسالة القرآن) في أثناء حديث عن المثلي .

(٢) هتات (مهذار كثير الكلام .

(٣) جدف بسم الله : كفرها واستغلا . ولي حديث : لا تعبدوا بسم الله .

(٤) (المفلطة) تخليط الخبر (والسلطة) الكلام على غير نظام .

عجبنا اذ سمعنا المقترح ، وأطلنا الكركرة والقهقهة . إنَّ على مبدعنا أن يستشير تلكم الذريرات (أعني الاناسية) في الكون أو في العدم ، ويقول لها : « أنت على المتخير ، أنت بالمتخار ، أنت بالخيار . ولها أن تنعم أو تلالى (١) . [وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ، سبحان الله وتعالى عما يشركون] .

« ذرية الانس ، لا تمزها فانكم ذرا تمدون أو نملاً تضاهونها (٢) »
ان الاناسي لم يمثلوا بشراً أو أبشاراً أسوياء إلا من بعد آلاف من الحقب ومن بعد أطوار مختلفات كثيرات لا يعلم عددها إلا الله . ومثل ابن السبل انما نشأ ذرية لا تكاد ترى بالهجر [ثم أنشأناه خلقاً آخر] درجته سنة الله إلى حيث انتهى أو ارتقى . وكان لا يحس في وقت ولا يسمع وما عقل ان عقل — إلا بالأمس ، ففي أي طور وفي أي حين يجير أو يستشار ؟ . [ان الانسان ليظنى أن رآه استغنى] او رآه قد احتس من بحر علم الله حسوة . !

ان قوماً لم يريدوا ان يكونوا ، وما احبوا ان يكون غيرهم ، فذموا الدنيا ذاك الذم ، وصبغوها للناظرين بأردى صبغ بأشبع صبغ « غرارة ضراوة ، جائلة زائلة ، نافذة بأمدة ، أكالة غوالة (٣) » كما يقول قطري ، ان كان قال هذا . وهجوا قطين الأرض ، أهل الدنيا شر هجاء .

(١) تلالى : قول : لا ، لا .

(٢) أبو اللا .

(٣) من خطبة أوردتها الجاحظ في (البيان والبيان) وابن عبد ربه في (القدر) وروى بعضها ابن قتيبة في (صيون الأخبار) وعزاها هؤلاء الى قطري بن العجاة . ورواها الرضي في مجموعة (النج) وقال شارحه ابن أبي الحديد : « قد رأيتها في كتاب (الموفق) لأبي عبد الله المرزباني سرودة لأمر المؤمنين (عليه السلام) وليس يبعد عندي أن يكون قطري قد خطب بها بعد أن أخذها من بعض أصحاب أمير المؤمنين ، فان الحوارج كانوا أصحابه وأنصاره . وقد لقي قطري أكرم » قلت : سائها عندي مجهول .

خذ جملة البلوى ودع تفصيلها مافي البرية كلها لإنسان (١)

أتعنى على الزمان محالاً أن ترى مقلتي طلعة حر (٢)

زمان يمر وعيش يمر ودهر يكر بما لا يمر

وحال يذوب ، وم ينوب ودنيا تناديك أن ليس حر (٣)

واذا سمعوا المتفائلين الخلفى يقولون : (ليس في الامكان أبدع مما كان)
تحدوهم صائحين : (ليس في الامكان أقبح مما كان) وما النجاة عندهم لمرئجي خلاصه
مما يقاسي ويرى الا في الانتحار .

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا (٤)

ولهم في قتل الناس نفوسهم وتزيينه أقاويل ، شرحها طويل . وهؤلاء القوم
الذين سماهم المصطلح العربي بالمتشائمين واسمهم بالفرنجي (بسيمسم) إما أن يكونوا
الهيمن ومؤمنين ، وإما ان يكونوا دهرين طبيعيين .

[وقالوا : ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر ، وما
لهم بذلك من علم ، ان هم الا يظنون] .

ودان أناس بالجزاء وكونه وقال رجال : انما أتم بقل (٥)

« ضل الذي قال : البلاد قديمة بالطبع كانت والأثام كنتها

وأماننا يوم تقوم هجوده من بعد إبلاء العظام ورقتها (٦)

(١) ابن الهبارية .

(٢) البديهي من شعراء القيمة .

(٣) ابن مقفة .

(٤) التثني .

(٥) و (٦) ابوالعلاء ، قال شارح (سقط الزند) : « هنا رد على الدهريين الذين يقولون :
أن العالم قديم بالطبع لم يزل كذلك ولم يحدث بأحداث محدثوا الناس كتابات يشنون ويعودون بالموت
هشياً ، وهذا كفر مريب وضلال جيد بل الحق أن العالم محدث مخلوق أحدثه الواحد الحق بقدرته » .
وفي « شرح التمج » لابن أبي الحديد :

« قال قاضي القضاة : انه أحد من العقلاء لم يذهب الى قبي الصانع للعالم ، ولكن قوه من الوراثة
اجتمعوا ووضعوا بينهم مقالة لم يذهب أحد إليها وهي أن العالم قديم لم يزل على هيئته هذه ، ولا
إله العالم ولا صانع أصلاً ، وانما هو هكذا ما زال ولا يزال من غير صانع ولا مؤثر . وأخذ ابن -

فلن كانوا من الأولين فهل يحق الا الإيقان كل الإيقان بأن ليس -
ثمة الا الحكمة التامة والاتقان .

[ماترى في خلق الرحمن من تفاوت] .

[صنع الله الذي اتقن كل شيء] .

[الذي أحسن كل شيء خلقه] .

[صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟] .

والله أعلم من كل عليم وأحكم من كل حكيم [أغسبتم انما خلقناكم عبثا]
وان كانت برهمية وبوذية تريان الكون شراً ، فليست البرهمية والبوذية
على شيء . ولا يحتسب بمثلها . وان عدما (أرثر شوبنهاور) أكل الاديان
طراً من أجل هذا المعتقد .

نعم « ما الدنيا إلا عمري »^(١) ولا خلود إلا في الآخرة^(٢) ، وه الدنيا
قطرة الآخرة ، لكن هل علينا أن نغمد في القنطرة نشق وزعق ،
ونخمش الوجوه ، ونلطم الحدود ، ونلدم الصدور حتى يجيء الأجل ،
حتى يجيء وقت النقلة و (الكتاب) يقول :

[ولا تنس نصيبك من الدنيا] .

ونطق (الكتاب) فصل الخطاب .

وان كان القوم المتشائمون من الآخرين فسوف يسألون : هل علمتم
كيف كنتم ؟ هل علمتم كيف كانت داركم ؟ إنما كانت داراً تستمر استعماراً
ولم تزل بقايا خبايا في الزوايا تضطرم . فافرموا تأريخها واقروا تأريخكم ، وفنشوا
صحائف الأنساب .

— الراوندي هذه المقالة قصصها في كتابه المعروف بكتاب « التاج » . قلت : ذكر الشيخ ابن الراوندي
وتاجه هذا في (رسالة النيران) وما قاله : وأما ابن الراوندي فلم يكن الى المصلحة يهدي ، وأما
تاجه فلا يصلح أن يكون نهلاً وهل تاجه الا بما قالت السكاهة : اف وثف ، وجورب
وخب

(١) المرمى مانجمله للرجل طول عمره أو عمره . قال تلب أن يدفع الرجل الى أخيه داراً
فيقول : هذه لك عمرك أو عمري ، أينا مات دفنت الدار الى أهله ، وكذلك كان فلم في الجاهلية
(الساد) .

(٢) الزمخشرى .

م (٦)

[هل أتى على الانبئان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً] .
وانظروا كيف عادت (١) (محلة) (٢) كيف عادت هذه (الفراء) ،
وانظروا كيف عديم بشرأ ، وكيف سديم أقرين وأبعدن . وان تأخر
من عترتكم متأخرون اذ تقدم متقدمون فتعالموا أن السابقين والمتوقعين
المتكئين لم يبرحوا في البدء ، لم يبرحوا في أول الطريق ، لم يبرحوا
في الطور الشنبزي كما قال توماس أديسون :

تشبه بعض بعض فما تزال الشائل قرديه (٣)
فأجدر بالدهرين الطيبين الذين ينشدون :

خذ من الدنيا بحظ قبل أن ترحل عنها
فهي دار لا ترى من بعدها أحسن منها (٤)

فلا يرون أن هناك دارين ، وأن هناك معنيين : معنى هذي ، ومعنى تلك
بل يقولون : كل شيء معناه ومنتهاه فيه — أجدر بهؤلاء ألا يكونوا من
المتشائمين في حين . ومقالهم هذا المقال .

* * *

ان الفقى بكونه سعيد ، بكونه حسب قد سعد بما وجد — كما يقول
الانكليز — فذروا التشاؤم في الحياة يا أيها الناس ؛ وأبهجوا أنفسكم
واجتذلوها لعلكم لا تحزنون . كونوا من المتفائلين ، من أهل الفؤول (٥) ،
ولا تشاموا ولا تطيروا وتمثلوا بهذا البيت وقد تمثل به رسول الله كما ذكر
الشيخ في رسالة الغفران :

تقابل بما تهوى يكن فلقلما يقال لشيء كان إلا تحققا

(١) المود بمنى الصبرورة ، وهو كثير في كلام الرب كثره فاشية لانكاد نسهم
يستملون صار ولكن عاد ، ماعدت أراه ، عاد لا يكلني ، ماخاد لفلان مال (الكشف) .

(٢) محلة : الأرض ، وكحلة السماء .

(٣) أبو الملاء .

(٤) رواها صاحب (فتح الطبيب) ولم يسم فائلها .

(٥) جمع الفأل .

وكان (صلى الله عليه وسلم) كما روت أحاديث — يتعامل ولا يتطير .
 وكونوا إشاريين أثريين في هذا الوجود كما تقوا أنفسهم ، وكي تصونوا
 جنسكم ، وتسمدو وترتقوا . إن الآثية والآثية هما الفضيلتان العظيمتان
 متحدتين لامتزجتين ، وأولى لأثري كفر بالآثية ثم أولى ! وأولى لا يثري
 لم يؤمن بالآثية ثم أولى ! إن الأول شرير شيطان من الشريرين ،
 وإن الثاني — إما كان — لذو جنة في المجانين .

واستمعوا لما يقول شيخنا أبو العلاء فقد أعلنت أقواله الحقيقة ، وهدت
 إلى الطريقة ، وعززت شريعة المتفائلين ، وفندت مذهب المتشائمين ، وبيّنت
 للناس كيف يحيون ، وكيف يقوون ، وكيف يسرون في هذا الوجود .
 ولو اطلعنا على أكثر مما اطلعنا عليه مما أملاه الشيخ لروينا من هذه
 المعاني كتباً كبيرات لاصفحات معدودات ولكن قد حال بيننا وبين المراد
 جهل الجاهلين وجرم التثر والصليبين — كما ذكر ذلك من قبل — فاجتزأنا
 برواية تنقذ من الأقل الباقي .

٣

الآمل :

لي أمل ، فرقانه محكم أقرؤه غصاً كما أنزلا

أجرى من الخيل آمال أصرفها لها بحقيّ قريب وإخباب^(١)

لا تقنطن أيها الانسان ، فإن بلغتك^(٢) عند الله الكريم ، والرزق يطلبك
 وأنت تبصر الأحلام ، لو أن للرزق لساناً هتف بمن رقد ، أو يداً لجذب
 المضطجع باليد ، أو قدماً لوطي على الجسد . لا يزال الرزق مرتقاً على الهامة
 ترنيق^(٣) الطير الظاء على الماء المطمع^(٤) .

(١) التريب والحجب : ضربان من سير الفرس في الأصل .

(٢) البتة ما يبلغ به من العيش ولا فضل فيه ، وتبلغ بكذا اكتفى به .

(٣) رفق الطائر خلق بجناحيه في الهواء ودرغف ولم يطير .

(٤) المطمع الذي أطعمها في النزول عليه (أبو العلاء) .

سمّ الهلال إذا عاينته قرأ إن الأهلة عن وشك لا تقار

وقد يخمل الانسان في عنفوانه ويبنه من بعد النهى فيسود

أحسبت الخير ليس بمشمر؟ بل . ان للخير ثمرة لذت في المظم ،
وتضوعت لمن قسم ، وحسنت في المنظر والمتوسم ، وجاوزت الحد في المظم ،
فما ظنك بشمرة هذه صفتها ؟ .

هون عليك :

الأمر أيسر مما أنت مضمره فاطرح أذاك وهون كل ماصبا

إذا تفكرت فكراً لا يمازجه فساد عقل صحيح هان ماصبا

الملم كالقفل ، ان ألقيته عسراً نقله ثم عاوده لينفتح

دع ماضٍ وصعب ، إلى مانع وهان . وارك المضلة إلى المرشدة فان
طرقات الخير كثير .

لا طيرة

الأيام كلها لله ، وربما ساءتلك عروبة (١) ، وسرك الخيس . وإذا نزل
بك نازل في يوم فلا تمقته لذلك .

بركات الله ورحمته

يسث الله في نهار وليل بركات من رزقه مدروره (٢)
غشيت رحمة الله كل الحيوان ، وتكفل بالرزق لكل المتغذيات .

(١) الجلبة ، في «النهاية» : هو اسم قديم لها وكأنه ليس بمرمي ، يقال : يوم عروبة
والعروبة والأصح ألا يدخلها الألف واللام .

(٢) « مدرورة » كثيرة ، في الأساس : ومن الهجاز : دوت الدنيا على أهلها
إذا كثرت خبرها .

فرح الملا^(١) بالكلا^(٢) وحق لهم أن يبتهجوا برزق الله الكريم . جاء البيا^(٣) وذهب الوبا^(٤) ، فسيحان الله العظيم ! يا خصب ، تب لتراق الكتب^(٥) على الكتب^(٥) وعلى الله رزق العالمين .

والشمس تفرح أهل الأرض مصلحة ربك جسوماً وفيها للميوت سنا طهت لك الشمس ما يغني اخادعة عن أن يكون له في الأرض طاهونا
الاقدام، الجسارة :

واني رأيت الصعب يركب دائماً من الناس من لم يركب الغرض الصعبا والميش جسر ، نال من هو جاسر أو كاد فيه وخاب من لم يجسر .
ويحمد الصابر الموفي على غرض لا عاجز بمرى التقصير معقود
ينبني للمسبوق ألا^(٦) يؤثر بصبوح ولا غبوق^(٦) ، فليستحي المتأخر أن يفتخر
الخفيف من رأي السخيف ، فاجر على معارنك في تقوى الله ؛ والخيل
بفوارسها منطرات^(٧) .

انما نحن في أحلام نائم لأحلام ذوي الغزائم ، وقد يرى الراقد نفسه مع

(١) الكلا : المشج أكلا .

(٢) البيا : البين ، أوله .

(٣) بالقصر والمد .

(٤) الكتبة الطائفة من طعام أو غيره ، القليل من البين .

(٥) الكتيب : التل من الرمل .

(٦) الصبوح كل ما أكل وشرب غدوة وهو خلاف النبوق : شرب العشي « الحسان » .

(٧) الخيف : جم خيفة ، (المطر) العادة « منطرات » جم منطرة وهي المجتهد في

المدح . والتفسير للشيخ .

الفراق ، فاذا استيقظ رآها بالجدد (١) .

وكن في كل نائبة جريئاً تصب في الرأي ان خطي* الهدان (٢)
وسائل من تنطس في التوقي لأية علة مات الجيان (٣)

اشجع فان أقدار الله لاتمجل الى الشجاع . صل على الظالم بالمتصل (٤) .
الدنيا ، الحياة :

خلقت من الدنيا وعشت كأهلها أجد كما جدوا وألهو كما لهوا

أمور دنيائك سطر خطه قدر وحبها في السجايا أول السطر

ولا تظهرن الزهد فيها فكلنا شهيد بأن القلب يضر عشقها

نفسى بها ونفوس القوم ملهجة ونحن نخبر أنا لانباليها (٥)

أمرتنى بسلو عن خواصها فانظر هل أنت مع السالين ساليها؟

ولا ترى الدهر إلا من يهيم بها طبعاً ، ولكنه باللفظ قاليها

فترو من هذي الحيا ة لكي تموت النفس ريا

* * *

الموت ، كرهه

والنفس آفة الحياة فدمعها يجري لذكر فراقها منهله !

ولم أرد المتية باختيارى ولكن أوشك الفتيان سحبي (٦)

(١) « الجدد » : الارض .

(٢) الهدان الضيف الجيان الذي لايتدي لأموره . (شرح السقط) والهدان اللاحق التقبل .

(٣) تنطس في كل شيء اذا ادق فيه النظر (الاستاس) .

(٤) المتصل - بضم الميم والصاد ، وضم الميم وفتح الصاد - السيف . في التاج : قال ابن

سيده : لانعرف في الكلام اسأ على فعل وفعل الا هذا وقولهم منجل ومنجل .

(٥) ملهجة : مولدة .

(٦) الفتيان الليل والنهار .

ولو خبرت لم أترك محلي فأسكن في مضيق بمدرحب !

فليت الفقى كالبدنر جدد عمره يمود هلالاً كلما ففي الدهر !

أحسن بدنيا القوم لو ان الفقى لا يقتضى ، وأدعه لا يحلم (١) !

تضاعف همي أن أتني منيتي ولم تقض حاجي بالمطايا الواقص (٢) !

فواهاً لأشباح لكم غير أنها تبدل من أوطانها برموس !

أنبأنا اللب بلبيا الردي فالغوث من صحة ذاك النبأ !! !

موت البطولة

هناك ضرب من الموت لا يكره ولا يذم بل يحب ويعظم ، وهو موت البطولة في الوغى . وقد حرض الشيخ عليه ، والحرب شرعة العربي :

إذا المرء لم يفش الكريمة أوشكت جبال الهويى بالفقى أن تقطعا (٣)
والجهاد من دين المسلم :

[كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم ، وأنتم لا تعلمون] .

[واجاهدوا في الله حق جهاده] .

[واجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون] .

[انفروا خفافاً وثقالاً (٤) ، واجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون] .

(١) يقتضى : يطالب كأن الحياة دين عنده فأذا جاء الأجل انتضاء يقتضى .

(٢) رقص البير يرقص رقصاً - محرك القاف - اذا اسرع في سيره . ولا يقال يرقص الا للامع والابل وما سوى ذلك فانه يقال : يقفز وينتز (السان) .

(٣) الكعبة الرقي في مفضلية .

(٤) خفافاً من السلاح وثقالاً منه أو ركبناً ومثاقاً أو شاباً وشيخاً أو صحاباً ورمضاناً (الكشاف) القصد بالآية المحدث على الفرع على كل حال نصب أو تسهل (مفردات الراغب) .

وإذا كان الحال كما قال الشيخ :
وما سلّ المهند للتوقي كسل المشرفية للتشفي
فلموت يومئذ خير من ألف حياة ، خير من الخلود .

* * *

من السعد في دنياك أن يهلك الفتى بهيجاء ينشئ أهلها الطمن والضربا
فإن قبيحا بالمسود ضجعة على فرشه يشكو إلى نفر الكربا

كل يحاذر حثفاً وليس يقدم شربه
ويتقى الصارم المضرب أن يباشر غربه
والترع فوق فراش أشد من ألف ضربه

لقد ركزوا الأرماع غير حميدة فبعداً خليل في الوغي لم تطارد
وما يجمع الأشتات إلا مهذب من القوم يحمي بارداً فوق بارد (١)

لضربة فارس في يوم حرب تطير الروح منك مع الفراش (٢)
أخف عليك من سقم طويل وموت بعد ذاك على الفراش

ألا تنهض للحرب وتدعو للوغي شوسك (٣) ؟
وقد علمت وغيري عن مشاهدة أن الملا الفقوم في الوغي ليس (٤)

وجدتك اعطيت الشجاعة حقها غداة لقيت الموت غير هيوب

من السعادة أن يموت القوم كراماً .

(١) (البارد) السيف ، البوارد السيوف القواقل (الأسان) يحمي السيف فوق الدرع
أو السيف فوق السيف .

(٢) فراش الرأس : نظام رفاق تلي التحف .

(٣) الأشوس : الجري على القتال الشديد (الأسان) .

(٤) رجل أليس من رجال ليس وهو الذي لا يبالى هولاً ولا يروعه شيء (الأساس) .

للحديد الملا على سائر الجوهـ — ذلّ المدى وعزّ الضيوف

فوارس خيلكم تمطي منهاها إذا دُمى نواجذها الشكيم (١)
وفي بيض السيوف يياض عيش بذلك — فاعلموا — نطق الحكيم

* * *

القوة :

يخضع الطغي الأضعف (٢) ، ويتنصر الليث المهتصر .

* * *

المال ، ثميره :

والمال خدن النفس غير مدافع والفقر موت جاء بالاهمال
أو ما ترى حكم النجوم مصوراً بيت الحياة يليه بيت المال

ما اليسر كالمدم في الاحكام بل شحظت حال المياسير عن حال المحاويج

أنفق لترزق فالثراء الظفر ، ان يُترك يشن ويمود حين يُقلم

يفني لمن يرث أن يحترث ، وإلا في التراث .

جل من سخره لقضاء الحاج

أعتمد على ذي وجهين ، ما عرف قط بالمين . لو كان رجلاً لكان ناسح
الجيب . . . سبح ربه مذ خلق ، اذا انطلق به فهو منطلق . ومتى بُعث في المآرب
قضاها ، والله بلطفه أمضاها . ثم يُحبس ولا دنب له ، سجن فهو طول الدهر
مستريح ، لا تلج عليه الشمس ولا الريح . لا يأكل ولا يشرب . . . له منزل

(١) الشكيمة في اللجام الحديدية المترمنة في فم الفرس التي فيها الفاس . وفأس اللجام الحديدية

القائمة في الحنك .

(٢) الأضعف الذي في عقه خضوع خفة (أبو الملا) . رجل أخضع : راض بالذل (الاماس)

مادخله الهم . . . اذا غاب الحافظ عنه فله الختم ، وليس ذلك من القضاء الختم . . .
 شخص بالمر الطويل ، وتناسخه جيل بعد جيل ، فظهر في الأكاليل ، والاسورة
 والخلاخيل ، والكأس الدائرة بشارب الكرم والنخيل ، ماشاب ولا هرم ، ولا
 درم (١) للكبر ولا دريم (٢) ملكه قوم فدفنوه ، فتناولت في الأرض سنوه ،
 ثم ظهر ما نسي اسمه ، ولا تغير جسمه . . . به صفرة من غير الضرب ، ظهر بها في
 الشرق والغرب . . . تلقاه معلماً بالتوحيد ، وليس بالعالم ولا البليد ، ولكن الله
 أنطق بعظمته كل جماد . . . جل من سخره لقضاء الحاج .

* * *

العمل :

تروم رزقاً بأن سموك متكللاً وأدين الناس من يسمى ويحترف

لا تقومون في المساجد ترجو بها الزلف
 معملاً بسط راحتك الى نائل يلف
 ورم الرزق في البلاد فان رمته ازدلف

يعرى الفقير وبالدينار كسوته وفي صوانك ما أعداده خرف

أملك من شداد بن عاد ساعة تفتقر الأملاك رجل اشترى كرام (٣) ،
 وقصد منابت الشجر محتطباً ، فرجع بالمضد (٤) متكسباً ، فأحل في المكسب وأطاب .

لا يصبرن فقير تحت فاقته ان السباريت جابتها السباريت (٥)

(١) درم من الدرمان وهو تقارب الخطو .

(٢) درم من الدرهم وهو سقوط الاسنان ، ومن ذلك قيل : كذب درم ، والمني ان تشد ام
 يزل وخشوته ام تخلص (أبو البلاد) .

(٣) السكر : الحبل ج كرور .

(٤) المضد : ماخذ من الشجر ، وعضده قطعه بالمضد وهو كل ماخذ به الشجر (الاسان) .

(٥) (الساريت) القلوات [جابتها] قطعتها [السباريت] الساكنين والمحتاجون ، هم
 سيروت وسجريت . وفي نقائض [جبر والاخلط] لأبي تمام : صدك الرجل وسبرت اذا افتقر .
 وفي [الحاج] سبرت الرجل تم وتمسكن .

من في اللجة يغبط السائر على المحجة، والمسافر يغبط المقيم، والغنيمة مع الظاعنين.

العمل - وان قل - يُستكثر اذا اتصل ودام .

من سهر في الليالي السود فأحر به أن يسود .

يُبلغ أمل بعمل ، وأهل التقصير بلا عون ولا نصير .

أجد عملك وجدّ فيه .

طدّ بناءك على أس .

* * *

الشعر ، النبات :

فاذا ملكت الأرض فاحم ترابها من غرسه شجراً بغير ثمار

اذا رملة لم تحيي بالنبات فقد جهلت إن سقتها السواني (١)

* * *

الفلس ، الزواج

والنسل أفضل ما فعلت بها فاذا سميت له فمن عقل

إذا شئت يوماً ان تقارن حرة من الناس فاختر قومها ومجارها

اذا خطب الحسناء كهيل وناشي فان الصبا فيها شفيع مشفع

ولا يزهدنها عدمه ، إن مُدّه لا بُرك من صاع الكبير وأنفع

وما لاخي الستين قدرة سائر اليها ولكن عجزه ليس يُدفع

ويخفف في كل المواطن ذمه وان كان يُدنى في المحل ويرفع

اذا ما ابن ستين ضم الكعاب اليه فقد حلت البهلة (٢)

(١) الثانية : السابقة ، من بالسواني السحب .

(٢) الآية - بالنفع ويضم - اللحن ، ومنه حديث أبي بكر : من ولي من أمر الناس شيئاً

فلم يظلم كتاب الله فليبه به آفة .

هو الشيخ لم يرضه أهله ولم يرض في فعله أهله (١)
 فلا يتزوج أخو الأربعين إلا مجربة كهـله
 رأى الشيخ في عارضيه المسن فتم القرين له الشله (٢)
 اذا كانت لك امرأة عجوز فلا تأخذ بها أبداً كما يا
 فان كانت أقل بهاء وجه فأجدر أن تكون أقل عابا
 وحسن الشمس في الأيام باق وان مجت من الكبر اللعابا
 ومن جمع الضرر يطلب لذة فقد بات بالأضرار غير سديد

* * *

معاملة الصغار

ورققاً بالأصغر كي يقولوا غدونا بالجيل معاملينا
 فأطفال الاكابر إن يوقوا يروا يوماً رجلاً كاملينا
 لا تزدون صفاراً في ملاعبهم فجاز أن يروا سادات أقوام
 وأكرموا الطفل عن نكريقاله فان يمش يدع كهلاً بعد أعوام

* * *

... وبألو الدين احسانا

العيش ماض فأكرم والديك به والام أولى باكرام وإحسان
 وحسبها الحمل والارضاع تقدمته أمران بالفضل نالاكل انسان

(١) والشيخ :

وواحدة كفتك فلا تجاوز الى اخرى نجي بمولات
 ولا يتأهلن شيخ مقل بمصرة من المتنهات
 فان الفقر عيب إن أضيف إليه السن جاء بمولات
 (٢) الشله : نصف المائة ، المحوز وذلك اسم لها خاصة ، واسراء ذلة كهة ، ولا يقال :
 رجل شله كهل ولا يوصف بذلك إلا أن ابن دريد حكى : رجل شله كهل .
 والشيخ :

اذا خطب الزمراء شيخ له غنى وناسه عدم آثرت من نفاق

تحمل عن أهلك الثقل يوماً فان الشيخ قد ضمفت قواه
أتى بك عن قضاء لم ترده وآثر أن تقوز بما حواه

* * *

حفظ الصحة

دار نفسك وان بلغت سن الهرم كما يدارى الوليد .
إفراط الشبع آفة على كل حيوان .

سنة خير لك من درة زهراء تعشي أعين الناظرين
عجبت للضارب في غمرة لم يطلع الناهين والآمرين
يكسر بالؤلؤ من جهله خشباً عتت عن أعمال الكاسرين

تجزأ ولا تجعل لحفك علة باكفار طعم ، ان ذلك لوم (١)
لا تزلن وكن رثيال مأسدة ان الرشاد ينافي البادن الربلا (٢)

* * *

الشبية

إذا ما حبت نار الشبية ساءني ولو نص لي بين النجوم خباء
ان الشبية نار ان أردت بها امرأ فبادره ، ان الدهر مطفئها

* * *

السفر

لو ملكت الرحيل جولت في الآفاق حتى يملني التجويل .

* * *

- (١) تجزأ بالى : قطع بالى . واكتفى به . اكتف بجزء من أكله .
(٢) الرثالة : كثرة الهم وهو ديل ودبل .

أدب السلوك

الكتاب المختوم يشتمل على سر مكتوم ، فإن فضضته ولم يأذن من أمرك عليه فقد أوضحت (١) في سبيل الخائنين .

لا يبصر القوم في مفناك غسل يد على الطعام إلى أن يرفع السور (٢)
ولا يكن ذلك إلا بعد كفهم أكفهم ، ويسيرُ الفعل ميسور
فإن تقرب خدام الفقى حرصاً والضيف يأكل رأي منه محسور (٣)

* * *

لكل زمان ما يشاكله

أعدو لكل زمان ما يشاكله ان البراقع يستتبّين بالشيم (٤)
فإن ضربت بسيف الهند في ومد سيف افرنجة الخبوء للشيم (٥)

* * *

المرء شبه زمانه

وإن الفقى فيما أرى بزمانه لأشبه منه شيمة بأبيه (٦)

* * *

الناس

والناس بالناس من حضر وبادية بمض لبعضـ وان لم يشعرواـ خدم (٧)

(١) مشيت .

(٢) سور بمعنى عرس ووليمة (شفاة النليل) وفي النهاية (في حديث جابر أن رسول الله (ص) قال لأصحابه : قوموا فقد صنع جابر سوراً أي طعاماً يدعو الناس إليه ، واللفظة فارسية .

(٣) المرض : الأشتان تسلبه الثياب والأيدي على أثر الطعام .

(٤) الشيامان خيطان في البرقع تشده المرأة بهما في قفاها .

(٥) (ومد) حر (الخبوء) المد المدخر الشيم (البرد) .

(٦) في (امالي القاضي) : هشام بن عروة : الناس بزمتهم أشبه بأبائهم وروى ابن حنبل في كتابه (الكلم الرومانية في الحكم اليونانية) لافلامون : لا تحمروا أولادكم على آدابكم فانهم يحرقون لزمان غير زمانكم .

(٧) قالوا : الحضر ، محرقة فهل سكنت ضرورة ؟

ان خالفوك ولم يجبر خلافهم شراً فلا بأس ، ان الناس أخياف (١)
 قال الخليفة العظيم عمر : « أعقل الناس أعذرهم للناس »
 ومن عرف الناس وتاريخهم ووراثتهم القرية والبعدة (L'atvisme)
 ومنشأ ما يسمى (رذائل) وأسبابها عذر ولم يستعجب مما يشاهد . يقول الشيخ :
 يلقاك بالماء النير الفتي وفي ضمير النفس نار تقد
 يعطيك لفظاً ليناً مسه ومثل حد السيف ما يعتقد
 وهذان اليتان ان دل ظاهرهما على معائب في الناس ففيها ما ينبغي بارتقاء لهم
 عجيب ، فقد أسمى هذا الفتي الذئب الجشع الحاسد المحتقد سافك دم أخيه من أجل
 ثعلب ظفر به أو يربوع ومن أجل مستنقع يردده أو عطيفة (٢) - قد أسمى هذا
 الفتي وارث الفرائز يلقاك أحسن لقاء ويخاطبك خطاباً جميلاً وفي الضمير والمعتقد
 ما أبان الشيخ . فاذا طال تكلفه ما يشكفه ، واستمر اعتياده ما يعتاده « وعادة المرء
 تدعى طبعه الثاني » كما يقول شيخنا حكى بعد أدهار باطنه ظاهره ، اشبه جوانيه
 برانيه ، وحسبك منه اليوم ذاك اللقاء وذاك العطاء وان كان في ضمير النفس نار تقد ،
 وساء ما يعتقد .

... كذلك سخرناها لكم :

قال الامام ابن قيم الجوزية في كتابه (طريق المهجرتين وباب السمادتين) :
 « ... ولما انتهى أبو عيسى الوراق الى حيث انتهت اليه أبواب المقالات طاش عقله ،
 ولم يتسع لحكمة إيلام وذبحه صنف كتاباً سماه (النوح على البهائم) فأقام عليها
 المآتم ، وناح وباح بالزندقة الصراح » .
 وقال العلامة الفيومي في المصباح :

ويحرمون - يعني البراهمة - لحوم الحيوان ، ويستدلون بدليل عقلي فيقولون :
 حيوان بري من الذئب والمدوان فايلامه ظلم ، خارج عن الحكمة . وأجيب بظهور
 الحكمة ، وهو أنه استسخر للانسان تشريعاً له عليه ، واكراماً له كما استسخر
 النبات للحيوان تشريعاً للحيوان عليه . وأيضاً فلو ترك حتى يموت حتف أنفه مع

(١) من الهجاز : هؤلاء أخياف أي مختلفون .

(٢) المطيطة : الماء المختلط بالطين الذي يتعاطى أي يمدد لخثوته [الفائق] .

كثرة تناسله أدى الى امتلاء الأفنية والرحاب وغالب المواضع ، فيتغير منه الهواء ، ويكثر به الفناء ، فيجوز ذبحه تحصيلاً للمصلحة وهي تقوية بدن الإنسان ، ودفعه لهذه المفسدة العظيمة . وإذا ظهرت الحكمة انتفى القول بالظلم والبث .

وشيخنا الميري يقول داعياً الى الارتفاق به :

يأكل أطايب الأعفاء من سمح بالرسل في أيام السفاء (١) ، ويلج النار باذل السمار (٢) ، وتنفى الضيفان على الجائد بمل الجفان . لا يثني عليك فصيل بالأصيل . ومن اخضرت شربته (٣) بالواد أكانت مرهده بالتمر الجلاد (٤) . ومن ركب العامة (٥) في طلب الصيد كانت بطون عياله قبوراً للحيتان . ومن تتبع بقوسه موارد الوحش كثر في منزله الوشيق (٦) .

وقال (الوليد) : النبع ليس بعشمر وأخطأ سرب الوحش من تمر النبع (٧)

(١) [الأعفاء] جمع ففو وهو المجيش [السفاء] قلة اللبن ، يقال : ناقة سفي وهي ضد الصفي ، والمعنى أن من سقى فرسه اللبن في أيام قلته طرد عليه الوحش فصادها [أبو العلاء] .
الفو : المجيش سمي به لأنه يعني عن الركوب والأعمال [الفائق]
(٢) [النار] جمع غمرة وهي الشدة [السمار] اللبن المذيق ، والمعنى أن من سقى فرسه ساراً وثق ببحره فوج غمار الحرب [أبو العلاء] .

(٣) اخضرت شربته أي صار عليها طعاب من كثرة الماء وادمان السقي (أبو العلاء) القرية مثل الحويص يجر حول النخلة والشجرة ، يملأ ماءً يسع فيها فتتروى منه ، والجهد شرب وشربات (التاج) .
(٤) أكانت المراد أي صار فيه ثمر يوصف بالكثرة ، والقرب نصف الثمرة بالكثيث ، والجلاد جمع جلدة وهي الثمرة الشديدة التي لا تتوسف أي تنقص (أبو العلاء) .

(٥) العامة ضرب من السفن (أبو العلاء) وفي الأساس : وركبوا العام أي الامرات الواحدة عام لأنهم قوم في الماء وفيه : وركبوا الرمث في البحر وهو الطوف : وهو من قرب منفوخ فيها .
(٦) الوشيق اللحم المقدد طولاً ، والنظمة وشيقة (أبو العلاء) .

(٧) (في شرح سقط الزند) :

» أراد الوليد بن عبيد البحرني وذلك أنه قال في شعره :

وعيرني خلال الدم آونة والنبع هريان ، ماني حوده ثمر

بني بالنبع الشجر الذي يصل منه السقي ، قال البحرني : (ان النبع لا ثمر له) وقد أخطأ في قوله فان قطع الوحش التي تصاد من الظباء والحر والبقير الوحشية - من ثمار النبع ، وذلك أن السقي إنما يجرى من النبع ، ويرى الى الوحش ضياء ، وتصاد بها ، فالوحشي اذن من ثمر النبع «...»
و (هريان) معروف ، وقد ترك البحرني مرثه ضرورية .

حلة ابلك وعشارها (١) أروت ضيفك غزارها ، وملأت جفانك وذارها (٢)
لن تبكيك بكارها اذا السنة كثر قطارها ، ودُبح في الروضة فارها (٣) ، واعتم
بالروضة بهارها (٤) . سأم ابلك شرارها .

* * *

الاثريّة ، الايثارية .

ان ترد أن تخص حراً من الناس بخير يخص نفسك قبله .

اذا لم يكن لي بالشقيقة منزل فلا ظهرت عزاقها والشقائق (٥)

اذا كان اكرامي صديقي واجباً فاكرام نفسي - لاهالة - أوجب

ومن أطال خلاجاً في مودته فحجره لك خير من تلافيه (٦)

اذا ولي صديقك قول عنه ، فانما ينزل بالوادي ذي الشجر والروض الميم (٧)
ويقدم بزند المغار (٨) مادام واري النار ، فاذا خبت ناره بطل اختياره ، واذا
السقام لم يحسك الماء فهو زيادة في مشقة المسافر .

(١) « الجلة » المسان - الكبار - من الأبل يكون واحداً وجمعاً وهم على الذكر والأنثى
« انسان » عتراء - أنثى - على حلقه عتراء أشهر والجمع عتراء ومثله قساو وقاس ، ولا تالك لها « المصباح »

(٢) وذارها جم وذرة وهي القطعة من اللحم « أبو الملاء » .

(٣) ذبح القار لاسك وهو هنا استعادة لروض « أبو الملاء » .

(٤) اهتم التبت اذا طال وكثر [أبو الملاء] . [البهار] : تبت طيب الريح : المراد .

(٥) [الشقيقة] الفرجة بين الرمال [البزراء] المطر الشديد الوابل [الشقائق] سعائب تهب

بالامطار النقية ، والشقائق هو هذا الزهر الاحمر المعروف .

(٦) [خلاجاً] نزاعاً : جناباً .

(٧) كل ما اجتمع وكثر عيم والجمع عيم ، والميم الطويل من الرجال والبنات [انسان] .

(٨) النار شجر ينضج منه الزناد ، المرخ والطار شجرتان فيها نادر ليس في غيرها من الشجر

[انسان] وفي أمثالهم : (في كل شجر نار واستجد المرخ والطار) وقد دوا - اليهاني وترحه .

(٧) ٢

٤ . المهرجان الألفي

لاتاو (١) لمفسد تاو (٢) ، فان الذيب جدير بالتعذيب .

آخ في الله الاخوان ، ولا تقل لبميرك : إخ في دار الهوان (٣) .

ادفع الشر اذا جاء بشر وتواضع انما أنت بشر

بأي لسان ذامني متجاهل علي ، وخفق الريح في ثناء
تكلم بالقول المضلل حاسد وكل كلام الحاسدين هراء

اذا ماقلت شرأ أو نظيماً تتبع سارقو الألفاظ لفظي

كأنني اذا طلت الزمان وأهله رجعت وعندي الألفاظ طوائف (٤)
وقد سارذكري في البلاد فمن لهم باخفاء شمس ضوءها متكامل
واني وان كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطع الاوائل
وطال اعترافي بالزمان وصرفه فلست أبالي من تفول الفوائل
فلوبان عضدي ما تأسف منكبي ولو مات زندي ما بكته الاوائل

وكم من طالب امدي سيلقي دون مكاني السبع الشدادا
ويطمئن في علالي وإن شسي ليأف أن يكون له بجاداً
ويظهر لي مودته مقالاً وينغضي ضميراً واعتقادا
لي الشرف الذي يطل الثريا مع الفضل الذي بهر العبادا
وأحسب ان قلبي لو عصاني فساود ما وجدت له افتقادا

تعاطوا مكاني وقد قهم فما أدركوا غير لمع البصر
وقد نبجوني وما محبتهم كما ينبع الكلب ضوء القمر

* * *

(١) أوى له : دق ورث له ، وأشفق عليه ، يأوي مأوية ومأواة .

(٢) تاو : هاتك ، توي كزني يتوي وطلي تقول : توي كسي .

(٣) إخ - يسكون الحياء ويصعها - صوت اناخة الجبل ، ولا فعل له .

(٤) طلت : قمت (الطوائف) ج طائفة : التراتل الذحول .

وأفعل بفيرك ماتهواه يفعله وأسمع الناس ماتختار مسممه (١)
ولو أني حببت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفراداً
فلا هطلت عليّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلاداً
فيا وطني ، ان فاتني بك سابق من الدهر فلينم لساكنك البال
وما سرني أني أصبت معاشراً بظلم واني في النعيم غلداً
فانفع اخاك على ضعف تحس به ان النسيم بنفع الروح هباب
كيف لا يشرك المضيقين في النعمة قوم عليهم النعماء
أنجد أخاك على خير بهم به فالؤمنون لدى الخيرات أنجاد
فجد بمرف ولو بالزرر محتسباً ان القناطير تحوى بالقراريط

(١) هذا البيت يشمل الاثرية والايثارية معاً . ولحكماء الافريق قبل التاريخ الميلادي بخمس
مئة سنة وفي الانجيل والحكيم الصين ما يشبه قول الشيخ . وروى البخاري في جامعه : « لا يؤمن
أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » والحديث « الكريم - كما ترى - هو أنري ايثاري .
ولأنني الناهية .

ولا خير فيمن ظل يفي لنفسه من الخير مالا يمتني لأخيه
وروى البعزي في حاشية لعبد الله بن معاوية الجعفري .

ارض للناس ما رضيت من الناس والا فقد ظلمت وجرتا
وروى السبكي في طبقات الشافعية الكبرى لأبي سليمان الخطابي :
ارض للناس جميعاً مثل ما رضيت لنفسك
اخا الناس جميعاً كلم أبناء جنسك
ظلم نفسك كنفسك ولهم حسن كحك

وفي (كامل) المبرد هذا القول : « خير الناس للناس خيرهم لنفسه » قال أبو العباس : وذلك أنه
إذا كان كسيفك اتقى على نفسه من الرق لثلا يقطع ومن القتل لثلا يقاد ، فسلم الناس منه باتفاقاً .
على نفسه .

فدار خصمك ان حق أنار له ولا تنازع بتمويه واجلاب
اذا ماتينا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم
لا يتركن قليل الخير بفعله من نال في الأرض تأييداً وتمكيناً

أضيء بالمعروف وأتلق ، وأطلق يمينك فعداً تنطلق .

انظر بين يديك ، واجمل الشر تحت قدميك ، واذا دعا السائل فقل ليك ،
واذا الجأعدوك الدهر إليك فانس حقودك الغبرات (١) ، أطمع سائلك أطييب طعاميك ،
واكس العاري أجد ثوبيك ، وامسح دموع الباكية بأرفق كفيك .
الرجل كل الرجل من آتى الزكاة ، ورحم المسكين ، وتبرح بما لا يجب
عليه ، وكره الحنث ، وكفر عن اليمين .

لتكن سماؤك نرة (٢) ، وثرى (٣) أرضك قريباً ، فنعم التي الثراء لمن
كسا العاري وأطعم السفبان .

ذرت (٤) البركة في طعام أكل منه الضعيف ، وزعت البركة من طعام
خص به الغني دون الفقير ، والله مطعم المطمئين . وزر حرام يوقع الحققة
في قميص اتسج من حل ، وقطرة الدم تقع في المزادة (٥) فلا يحمل منه الطهور .
أرى نارك لطارقك (٦) ، ولا تؤرها لاحراق الجار ، والله جار (٧) من

(١) الغبرات . القديمات ، ومنه غير الجرح اذا انتفض لفساد فيه قديم (أبو العلاء) .

(٢) عين نرة غزيرة الماء ، وكذلك الصحابة ومطر ثرواسم القطر (اللسان)

(٣) الثري : التراب الندي ، والثرى الندي (اللسان) وفي الاساس : وبانت ثرى فلا اذا أدركت
ما تطلب منه .

(٤) ذرت نفرت ، بذرت .

(٥) المزادة ظرف من جلد يحمل فيه الماء .

(٦) أرى ناره تأريه : أشعلها ورفضها .

(٧) جاره : مجيره .

لا جاره من المستضعفين . وبرّ في قلبك خير من برّة (١) في يدك ، فاتق الله ،
وكن من الأبرار الطاهرين .

قد نفسك إلى الواجب ولو بجزير ، وكد مهاديك بأن تجتنب أفعال
الكافرين ، ودل السائل لتكون نعم الدليل ، ودم على ما قربك من الأبرار
الطيبين ، ودن من فعل خيراً ممك فانك مدين .

بإفاعة الأنام ، وولاء أمور الانام ، مرتع الجور وخيم ، وغبه ليس
بحميد ، والتواضع أحسن رداء ، والكبر ذريعة المقت ، والمفاخرة شر كلام .
كلنا عبيد لله .

من بخل بطعام ، فقد بخل بقليل الانعام .

بمدت رائحة قنار ، تظهر تارة بمد تار (٢) . ثم لا ينال خيرها الفقير .

النفاق يلبسك ثوب الاشفاق ، والافتقار يذهب الاحقاد ، والأشر
يهلك البشر ، لا كتبنا الله مع الأشرين .

مارياً فطر (٣) ورائحة حبيب عطر بأطيب من ثناء مستطر (٤) يشقي به
بر على مبر (٥) .

* * *

تلك طائفة من أقوال الشيخ ، وفيها التفاؤل كله في الحياة ، وفيها
الآثية — كما أن فيها الإيثارية — وكان شيخنا د يلبس بالشرنج والورد
ويدخل في كل فن من الجد والهزل ، كما روى الصفدي في (نكت الهميان)
وكان خفيف الروح يدعب وبفاكه ، ومن فكاخته في إحدى رسائله إلى

(١) البرّة حقة من سوار وقرط ، وخلخال من فضة أو ذهب .

(٢) في (الصحاح) : ورجا قالوه بمحذف الهاء قال الرازي : بالويل تارا والبيور تارا .

(٣) القطر - بضم الطاء وسكونها - المود الذي يقطر به ، وقد قطر ثوبه ، وتقطرت المرأة ،
والمود في المقاطر : الجاسر .

(٤) مكتوب .

(٥) أبر الأمور : طلب بها البر والاحسان إلى الناس والتعرب إلى الله تعالى .

أبي الحسين أحمد بن عثمان النكفي البصري وقد غير هذا اسمه ، وقصر كنيته — هذه النبذة :

«... وأهل البصرة^(١) (سلمهم الله) ينسبون إلى قلة الحنين ، أليس قد مرت به هذه الحكاية وهي انه وجد على حجر مكتوب :
ما من غريب وان أبدى تجلده إلا سيذكر عند العلة الوطن
فكتب تحته إلا أهل البصرة . فاذا كانت تلك سجينهم مع أهلهم وأوطانهم فكيف بالذين عرفهم من اخوانهم ؟ والدليل على ماقلت أنه — ادام الله عزه — لم يثبت^(٢) اسمي ، جعلني محمداً واسمي أحمد... وله أن يقول انه تشبث بالكنية فاستغنى بها عن الاسم . فأما أنا فحفظت اسمه وكنيته ونسبه ، ولم أنس أيامه ولا مذاكرته ، وقد جعلت جواب كتابه نائماً مناب الاجتماع معه... وما عبت على أهل البصرة قلة التفاتهم إلى الأوطان وانما وصفتهم بقوة القلوب والأكباد لأن العرب تصف نفوسها بذلك ، أليس قد بلغه قول قتادة ابن مسleme الحنفي :

يبكي علينا ولا يبكي على أحد لنحن أغلظ أكباداً من الابل
فكيف استجاز أن يقصر كنية صديقه ؟ أما السمة فغيرها ، وأما الكنية فقصرها ، فان الله وأنا إليه راجعون ! هذا أمر من الله ليس هو من ضعف الشاعر ولا وهن القائل ولكنه من سوء الحظ لمن خوطب والاتفاق الردي لمن سمي وذكر... وانما تفوت من ذلك لاني قصير الهمة قصير اليد مقصور النظر أي مكفوف ، مقصور في البيت أي لازم له فكأنني محبوس فيه . فما كفاني ذلك مع قصر الجسم حتى يضاف إليه قصر الاسم ، لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . لو كنت أطول من ظل الرمح لصرت أقصر من سائلة الذباب^(٣) ، قد كدت أمصح في الارض كما تمصح الظلال^(٤)... وقد مدحني بما ليس في ، ولكنه في ذلك على مذهب الخطباء والشعراء ،

(١) البصرة : مثناة والفتح والكون اللفظة العالية والنسبة اليها بكر الباء وفتحها .

(٢) أثبت النقي : عرفه حق المعرفة . وفي الأساس : أثبت الذي معرفة اذا غلظ علماً .

(٣) السائلة : جانب النقي .

(٤) مصح الظل : ذهب .

وزعم صاحب المنطق في كتابه الثاني من الكتب الأربعة أن الكذب ليس ببيع في صناعة الشعر والخطابة ، ولذلك استجازت العرب أن تقول فتفرط . . . ، وما (رسالة النفران) المبقرية إلا كتاب أماليح وأفأكيه وأهاكيم (١) . وكان الشيخ كلفاً بالحمد والمجد ، والثناء على الرجل أحسن الملبوسات (٢) ، وغير ملوم من عشق الثناء لأنه أحسن حبيب مزور وأبقى بنفس مذكور (٣) ، وقد أعلن ذلك ابن القارح في رسالته المشهورة إلى أبي الملاء :

« . . . ويعلم الله الكريم (تقدست أسماؤه) أنني لو حننت إليه (أدام الله تأييده) حنين الواله إلى بكرها ، أو الحمامة إلى إلفها ، أو النزالة إلى خشفها — لكان ذلك مما تغيره الليالي والأيام والمصور والأعوام لكنه حنين الظآن إلى الماء ، والخاصة إلى الأمن ، والسلام (٤) إلى السلامة ، والفريق إلى النجاة ، والقلق إلى السكون بل حنين نفسه النفيسة إلى الحمد والمجد ، فاني رأيت نزاعها إليهما نزاع الاسطفسات (٥) إلى عناصرها ، والأركان إلى جواهرها . . . »

* * *

وإذا أقام أبو الملاء في عرينه مضرباً فيه (٦) ، فقد كان معللاً على الدنيا — وإن خيل أنه تخلى منها — وما كان أخا زهد (٧) فيها ، لافكر له في شيء . وكانت شؤون أمته تمنيه أعما عناية ، والمتشائم لانهمه حالة ، ولا يبالي بأمر بالة . كتب إلى أبي الحسين بن سنان ، وقد أودم على نفسه الحج (٨) ، والعدو يزأر في الثغور :

(١) جمع أهكومة والأهكومة كالأنجوبة من التعجب .

(٢) أبو الملاء في « الفصول والتأيات » .

(٣) أبو الملاء في رسالته إلى بعض أولياء السلطان يشتم في صديق له كان عاملاً يعرف بالحسين ابن عتبة . والمفسر كالنفس ، نفس نقاسة وأغس نقاساً .

(٤) السليم : الأديع ، وأغما - هي الأديع سليماً لأنهم تطيروا من الأديع فقبلوا المنى كما قالوا العجبي أبو البيضاء . وكما قالوا لثلاثة مفازة فمادوا بالثوز وهي مهلكة (السنان) .

(٥) العناصر الأربعة في مذهب القدماء وهي الماء والنار والأرض والهواء . . .

(٦) أعزب في بيت : لم يرح .

(٧) كل من نسب إلى شيء فهو أخوه كقولهم أخو سفر وأخو عزمات وأخو قنار وأخو خر وأخو ،

لذة (الخصم) .

(٨) أودم على نفسه حباً أوجه وهم به أبو صيد : وأودم على نفسه سراً أوجه (الخصم)

«... وسفر مولاي إلى الحج في هذه السنة حرام بسل... وهل سمع في أخبار الصحابة (رحمهم الله) أو التابعين أن رجلاً خرج من مصافة (١) المدو يريد بيت الله الحرام... وهو (أدام الله تمكينه) أمين من أمانة المسامعين، يرهف الشوكة (٢)، ويستجيد الأمانة (٣)، ويحصن ماوهي من سور... البيت العتيق منذ عصر آدم زار ويحج، ماخيف عليه انتقال ولا تحول، ولا غيره عن المهد منبر... أما يعلم أن لأهل البلد أنساً برؤية شخصه واستماع قوله. وما ينبني أن يكون كما قيل في المثل: (لج الحج) ولو قال وليد لوليد في ليل داج وهو عنادت محاج: من يؤجر في مقامه في الديار أضعاف أجره في حج واعتار؟ فقال الوليد الآخر: (محمد بن سعيد) لوقع سهمه غير بعيد. وحماية الذمار (٤) أولى من حج واعتار...، ولما صبأ الفتى طارق (خلده الله في جهنم).

وفارق دين الوالدين برائل ولولا ضلال بالفتى لم يفارق (٥) أرسلها (نزومية) صاعقة مجلجلة أحرقت ذاك المضلل. وهذه اللزومية — وهي واحد وعشرون بيتاً (٦) — توضح فرط عنايته بأمنته واستمسكه بنحلته، وتنبئ بأنه كان يداخل القوم في أحوالهم وإن كان جليس نفسه (٧).

* * *

اقرأ كلامي إذا ضم الثرى جسدي (٨) فإنه لك عن قاله — خلف (٩)

محمد اسعاف النسابي

- (١) صاف فهو صاف إذا رتب صفوفه في مقابل صفوف العدو، والمصاف — بالفتح وتثنية الفاء — جمع مصف وهو موضع الحرب الذي تكون فيه الصفوف (الاسان).
- (١) الشوكة: السلاح. رهف السيف وأرهنه: رقق حده، شحذه.
- (٣) الأمانة: الدرع المحسكة المثقفة.
- (٤) الذمار كل ما يلزمك حمايته والدودعه. في الأساس: هو حامي الذمار إذا حمى ما لو لم يحمه لم يهتف من حماه وحر به كقولهم حامي الحقيقة.
- (٥) أبو العلاء.
- (٦) ذكر الشيخ طارفاً هذا في لزومية أخرى وفيها التوبيخ الشديد والذم البالغ.
- (٧) فلان جليس نفسه إذا كان من أهل العزلة.
- (٨) أبو العلاء.
- (٩) شاء صاحب هذه الكلمة أن يثار في الحفلة فنبأ منها لأن الوقت لا يسمح لتلاوتها كلها.

أبو العلاء

١ - مهرجانه

أجل هو يوم الشعر تطنى عباقره
مشي مهرجان الدهر فيه مباحراً
وقام جلال الحق يسعى وأقبلت
وودت دهاقين القرون لو أنها
ولولا حياء الليل نصت مواكباً
نوى ربه من سدره الخلد سدة
شهاب تحاماه الرجوم وساطع
وسيف جلالة الدهر دهرأ فلم يجد
أذاب اختيال الدهر في كبرياه

وتعلا أسمع الخلود مناره
فخفت له الأفلاك نشوى تباره
وفود انتهى من كل صوب تسايه
ميامنه في جيشه ومياسره
عذارى الدجى في حشده وحراره
يلوذ بها ناهي الزمان وآمره
من الفجر مغمور به من يناكره
له دولة تسطو به وتشاوره
فدانت له أسراره ومجاهره

٢ - ذكاؤه وقوة طبعه

هو الشاعر الأعلى فمن ذا يكابره
وماذا يقول اليوم فيه مفوه
ولو نشرت آي النوايح جملة
له يقظات توقف الوقد في الصفا
وجذوة طبع ترك البحر مارجاً
وطبع علا السبع الطباقي فأسلست
يطأطى من تيه الكواكب وادعاً

وقد طبق الدنيا فمن ذا ينافره (١)
وقد أثقلت ظهر الزمان مفاخره
لأربت عليها آيه ومآزره
وتبعث ميت الروض يهتز ناضره
وبصر فيها الليل أين غاطره (٢)
له رهبة أو رغبة لا تماكره
فتمنو له طوع الهوى لا تمارسه (٣)

- (١) في المروي أن شعر أبي العلاء بلغ مائة ألف بيت وإن كان المدون منه دون ذلك بكثير.
(٢) المارج : الشمة الساطع ذات الالهب الشديد أو النار بلا دخان . وغاطره : مالهكه وطرقه .
(٣) أكثر أبو العلاء ، من ذكر النجوم ومظاهر ذلك والشمس والقمر وألوان الطبيعة ووصف الكواكب ومصيرها ، فرادى وجماعات ، أكثراً أبر به على كل شاعر . —

تتيه بذكراء الليالي وتنتشي حنادسها ما طربّ الحفل ذاكره (١)
فلا تدعوا في الوسع طوقاً فكلنا رعيته في حفله وعساكره

٣ - ثورته على الملوك

تأنق في إكليل مجدك ضافره فرفت على هام العصور ضفاره
ولو ملكت زهر النجوم قيادها لأهوت اليه النيرات نصاهره
تهاداك أعناق القرون ، فتارة نهوضاً وأخرى يدرك الجد عاره
وما كنت الا الشمس إن غال عارض سناها فمن وشك يدد غامره
ترفت عن صوغ الحال وأكبرت لها تك ميناً فافتكت جراره
وأسمعتهم سجع الحمام فردّوا زئير الضواري العاديات هزابه (٢)
فأصليتهم نار القوافي ورعتهم بكل حديد الطرف قُبْ خواصره (٣)

— قال : سبحان من برأ النجوم كأنها در ظفا من فوق بحر مانج
وقال : وفي كل شهر تصرع الدهرجة فتقد فيه بالهلال التمام
وقال : زحل أشرف الكواكب داراً من لقاء الردى على ميعاد
(١) قال : بنافس يومي في أمسي تشرفاً ونحمد أرحم الراحمين
(٢) قال أبو العلاء وقد استشفع به أهل المرة إلى صالح حين زوله بجيشه عليها فشفه بهم
ورحل منها بعد أن وهبهم له :

ولما مضى العمر إلا الأقل وآن لزومي فراق الجسد
بنت شفيماً إلى صالح وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام وأسم من زئير الأسد
(٣) القب : جمع أقب وهو الضامر من الخيل وموثة قبا ، والمعنى أن كل بيت من شعر أبي
العلاء يصير بعبوب الملوك يكشفها لئلا سرهم إلى هناك فضايقهم سرعة الجبول الضامرة . فن ذلك قوله :

وأرى ملوكاً لا تنسوس رعيه فعلام تؤخذ جزية ومكوس
وقوله :

ساس الأنام شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان
وقوله :

رئس الناس بالدهاء فابنفسك صر بنقاد طوع دها

إذا زار مختال الملوك تضاءلت عليه ثياب الملك وارتاع طائرته (١)
وممت به أجناده وتنكرت بشاشتها أبهاؤه ومقاصره
فما في بني حواء غيرك شاعر يهاب وتخشى وهو عفّ بوادره

٤ - هو والناس

ولو كنت ذا زين لأن لذي الحجا ولكنه ظلم الورى ليس للورى
م'الناس ما أعطوا أنا الحق ذرة من الحق الا مصلتات حناجره
فكم ضاع فجر في ظلام نفوسهم وغاب أصيل مشرقات زعفره
وكم ضل في دهمهم رائد الضحى وأخطأ بحجاً قصده ومساره
ولولا الحقوق المستكنات لارتوا سراب الفلاحت لمياً هواجره
فما أبعد القطب المدى في سموه عن الأرض لولا الشر منهم يحاذره

٥ - بيازه وغفرانه

طلعت على الدنيا ظلاماً فشقه بيانك حتى أسلعته دياجره
ضربت على الجحآن جزية قاهر لجأت بأخبار السماء تواتره
وأفضت اليك الحالكات بنسبها مكشفة أحنائه وضمايره
فهللت جلباب الحقائق فانبرى أخوها يباديها الهوى وتجاهره
كأن البيان الحر قبلك ما ضفت على أحد ، حتى أتيت ، مآزره
ولو كان وحي بعد وحي محمد لما كان إلا وحيك السح هامره
جلوت به الاخرى نعماً وجاحماً وصورته حتى كأنك طامره (٣)
وخلدت من «غفرانك» الفذلورى مناهل وحي مفعم من بناظره

(١) وقال :

مل المقام نكم أحاسر أمة أمرت بنير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

(٢) قدر الله التي كقدره تدبراً أي قضاء .

(٣) في رسالة الفتران .

٦ - أنفثه وشموخه

لكل عظيم جنده ومعاشره
ونحن بني الآداب جندك لم يكن
جلالك في كل القلوب موطد
وتاجك ممقود على الدهر خالد
وما زال ركب الدهر حيران ناهياً
تجاوزت طوق الحاسدين فأقلعوا
وأثقلت للأحرار عرشاً على السهى
وأنهضت للأخلاق مجداً وعزة
تركت المني للساهرين مع المني
وأعرضت عن دنيا الإثام محلقاً
فما صحت في أعقاب ماض ولا هفا

تمز به طوراً وآناً تضافره
لذي صولجان مثله إذ فكأثره
مكين إلى أن يبعث الخلق ناشره
يزان به تاج الدجى ويؤاصره
يبحرك لا تلغي ملاذاً مواخره
وأنى لجتاز الخضم قناطره
تعاورته في كل عصر أخايره
يحن لها من محور الزهر دائره
وصعدت للهم البعيد تساهره
إلى الملاء الأعلى يتاجيك كابره
بليك للأوطار سؤل تداوره

٧ - اشفاقه على الانسان والحيوان

وسمت الورى نوراً وطرفك موصد
فلو جمعت خيل الصباح جذبتها
وطفت على الدنيا تواسي حريمها

على النور فياض الجوانب ناره
أعنتها كي ينقذ الكون باكره
وتأسو جراح البؤس تدمى معاقره (١)

(١) قال : أسأت بيدك في صيد
وسوف يجازيك رب السماء
وقال : إذا كسر البرد الأثام ضدّه
وقال : وابك على طائر رماه فتى
أو صادته حباله نصبت
بكأر يبنى المائز مجتهداً
كأبه في الحياة ما فرح الله
وقال : يا ضارب الآود البطي وظهره
أدق به فشهدت أنك ظالم

وحملت يدك عالم يطق
فشم لا يحسبناه وانتطق
أذا له إن الإثام إلى كسر
لاه فأوهى بغيره الكفنا
نظل فيها كأننا كفتا
نقص عند الفروق أو نتجا
نصن فتى عليه أو حفا
لاوزر يحميه كعزد الضارب
في ظالمين أباعد ما ظلم

أَلَمْتَ لِدِيدَانِ الثَّرَى فِي حِشَا الثَّرَى يَلْمِلُهَا وَقَدْ الظُّلْمَا وَتَجَاوَرَهُ (١)
وَلَمْ تَنْسَ عَيْرًا يَقْرَعُ الضِّمِيمَ ظَهْرَهُ وَأَشْفَقْتَ لِلْبَرْغَوْتِ يَمُورُ طَامِرَهُ (٢)
وَقَمْتُ بَعْدَ ذُرِّ اللَّيْلِ يَقْتَاتُ طَائِعًا جَبَلْتَهُ فِي فَرْسِهِ مَا يَسَاوَرَهُ (٣)
وَسَاحَتْ ذَنْبُ الْقَفْرِ بِالشَّاةِ سَاغِبًا يَمْزَعُهُ نَابُ الطَّوَى وَأُظْفَارُهُ (٤)

٨ - خلوده

صَحَا الدَّهْرُ إِلَّا بَعْضَ مَسِيٍّ يَخَامِرُهُ لَذَكَرَاكَ وَارْتَادَ الْحُجْبَةَ سَادِرُهُ
فَلَيْسَ عَلَى النَّبْرَاءِ أَوْ فِي سَمَائِهَا كَجَدِّكَ مَجْدٌ لَا تَبِينُ مَفَاوِرُهُ

(١) قال في الفصول والنباتات : لتكن أفضاك لوجه الله ما استطعت وعزير ذلك على سكان الأرض ، ولكن توجد من وراء اجتهاد . وإذا فشتك الشدائد إلى المفازة وممك خيط من الأبق - أي القتب - وممسك ماء وفشرت لك اليداء فم جفر - بشر - فأصبت منه ببيتك ، فاصنع حوضاً ولو قيد قر فألقى فيه من تريم ذلك الجفر فإصابه من وحش أو إنس أو ذي جناح فلك من الله الثواب وإن كنت على أوقاض - بحلة - فاسق الأرض لينتفع به ولو بنات الصق - الدود - ولا ترض جزاء على الحسنة بثلاث .

(٢) العبر : الحمار . قال في القزوم :

لقد راينى مفدى الفقير بجعله على العير ضرباً ساء ما يتخذ
يعمله مالا يطيق فلون وفى أحال على ذي فترة يتجعد
وقال : تسريح كفى برغوئاً ظفرت به أبر من درهم تحليه عتاجاً
كلاهما يتوق والحياة له حبية وروم العيش . يتاجاً

(٣) قال في القزوم :

وما ذنب الفراغم حين صيفت وصير قونها مما تدمي
لقد جلت على فرس وخرس كما جبل الوقود على التمي

(٤) قال في عذر الذئب ، وذؤالة علم له :

ولولا حاجة في الذئب تدمو لصيد الوحش ما اقتصر الغزال
وما لذؤالة المسكين صبر فيعرفه عن الحمل الهزال
وقال : ولو علمت بما في الذئب من سب إذن لساعتم بالشاة للذئب
وقال : كم قال طاهيك من ضراء فاردة وذات لونين صارت قوت مكسال
وقد ضننت بشاة وهي مرضمة على أزل قتيد القوت حسال
بخلت أن ينفذى طفله دمها وأنت شارب لذالطعم سلال

ودنياك دنيا لا يحيط بكنها
صليب قناة النفس ما أضمرت وى
عدوت مدى الاملاك ذكر أو سودداً
فما ألف نعمان وكسرى وقصر
وأى لظى في ساطع الشمس ساطع
وقد عز ابليساً على الفخر آدم
كلا عزت المرباه اذ قام أحمد
فلا زال بمجد الاحمدين مرفراً

بيان وكون لاتناهى عباقره
لذي لجب مهوى المنايا بواتره
وجزت لما يستطيع مجدك كافره
يضاهيك مها عز في الارض ناصره
له لجب مها تعالت مساعره
بمجدك واستعلى على الجن فاخره
بني الارض واجتاحت دنياها صوامره
على الضاد نهاضاً بها لا تدابره

٩ - شعره لله والخير والحق والاخلاق

مضى بالقرىض الناس في كل مهيع
سموت به عن كل سؤل سوى الملى
فلله والاخلاق والبؤس بعضه
لا وشك أن تنسى به الاسد بطشها
ورد على المحروب ماز غاصب
وأبت خطى الاقدار يقضى رفيقة
وقوم من زيغ الزمان فلم تدّر

وسخرته للحق يسطع باهره
يساقطها بث الجوى وتشاطره
وللخير والآلام والنبل سائر
ويسمى الى الموتور بالثأر واتره (١)
وأصبح عاني الطير عفماً مناسره
وراجع نياه القضاء بصائر
بشر على أهل الزمان دوائر

١٠ - الدنيا وحقائق الكون في شعره

قرىضك تيار الحياة أية
ويت يحج العقل في كل ساعة
طويت به الدنيا فضاقت ولم يضق

يموج به منها على الدهر زاخره
اليه نبيل نُسكه ومشاعره
فيمت شطر القيب تجلى سرائره (٢)

(١) قال :

أيسكون ربح للزور فيتمى

(٢) قال :

ان لم يكن في ساء غوقنا بشر
وقال: يجوز أن تطفأ الشمس التي وندت
فإن خبت في طوال الدهر حرثها

فاو ويقع بالنبات الضيفم

فليس في الأرض أو ما تحتها ملك
من عهد عاد واذكى ناورها الملك
فلا محالة من أن يفضى النك

- فلم يترك برأ ولا قاع لجة
ولو كان مابعد التجوم مسافر
لما أعبت عليه مسافره
فما اضطربت في خاطره سائحة
من الفكر الا في قريضك ساحره
ولا قذفت كف القرائح معجبا
وما في حشا الاحقاب منحى يروده
من العلم الا في لزومك سافره
خيال ولم تهتك لديك ستائره

(١) قال في سقط الزند :

بخرق يطيل المنع فيه سجوده
ولو نشئت نشأ هناك بناته
وللأرض زي الزاهب المتعد
وتسكنتم فيه العاصفات قوسها
لانت ولم تتم له صوت منشد
ظرو صفت بالتهت لم يتأود

(٢) قال في بقاء المادة وأن لا فنا في السكون :

جسد سوى إن تفرق اجزائه
ولرب أجساد جذيرات الثرى
لم ينأ عن فلك عليه مدار
وقال : مضى الأنام ظولا لهم حالهم
بالصوت عادت في طلاء جدار
في الملك لم يخرجوا عن ولا انتقلوا
لقلت قول زهير أية سلكوا
منه فكيف اعتقادي أنهم طسكوا ؟

(٣) قال في أن الاجسام ليس في طوعها الخروج من الفلك :

ولو طار جبريل بقية عمره
وقال في وحدة مادة العالم :

وبعض ذا العالم من بعضه
وقال في أن السكون والظلمة سابقان الحركة والنور في الوجود :

سكون خلت أقدم من حراك
والنور في حكم المواهر محدث
فكيف يقولوا حدث السكون
والأولي هو الزمان المظلم

(٤) لم يرض الباحثون عن ناحية في عظيم إمراسهم عن الخيال في شعر أبي العلاء ونثره ، ولا اتفادت الطبيعة لخيال شاعر في قديم ولا حديث ، هربي أو غير هربي اتقيادها لخيال أبي العلاء الجبار وإن من البلا أن يذهل الباحثون في شأنه عن هذه الناحية فيه على كثرتها واستفاضتها في شعره بل نثره . قال في سقط الزند :

وكم يندف الشام والسكرخ منهلاً
كأن الصبا فيه ترائب كأنها
موارده مبرجة بسامه
ير به رآد الضعي متسكراً
ينور إليها من خلال إكاته
نخافة ان يتتاله بقتامه
نهاراً كان البدر قاسى مجبره
فعداد بلون شاحب من سهامه —

فان نهلت منه العقول وأنهلت
فما في سوى العرياء شعر على الثرى
وأخصب ماضي الشمر منه وحاضره
أوائله طوع لمن أواخره
١١ - شعره دهقان العقول وعلم اقوة

وشمرك دهقان العقول وأنها
يشير بها كبراً ويمت نخوة
تدوب به الشكوى وينفي به الكرى
جبانك من صافي الظلي حاكها على
سرايل أعيت كف داود فأنبرى
صواعق تنتاب الطفاة وتتوي
وما فتئت جياشة مزبنة
يعاقرها خمر النبي وتماقره
عن الهون وثاباً بها لاتحاوره
ويصحوا الهوى من بعد ما اشتد جائره
بريق الدراري أحوذي تياسره
لها هبرزي لاتجاري خواطره
الى سدة الجبار جبراً تتاوره
على الظالم المزهو سطواً تاقره (١)

١٢ - سقط الزند

وسقطك مياس الماطف حالياً
ترق حواشي الليل منه وتفتني
تجلجل في سمع الزمان أساوره
برود الدجى شفافة لاتساره (٢)

بلاد يضل النجم فيها سيبه
حادس منفي الموت لولا انجياها
رجا الليل فيها ان يدوم شبابه
وفي القروم :

ودل هجير في زمانك انه
(١) قال :

فشان ملوكهم حرف وترف
وم زعيم اتياب مال
وقال : يسوسون الأمور بنير لب
فأف للحياة واف مني
(٢) قال :

وليل طلى قاراً بقار وأسكه
إذا نشأت فيه الفاسه خلها
وقال يصف البرق :

حسب الليل زنجياً جريحاً - إذا ما احتاج امر مستطيراً

أغار على الأفلاك لم ينس شارفاً
تعاثقه المنقاء شوقاً وتقي
إذا مر طيار النمان تلفت
مشى بالقرون القهقري فتساقط
وناسم عصر الجاهلية فانبثرت
كأن ربي يجد غذته ولاحه
إذا قنع الشيب الجديدين وارتنى م
ولا آفلا لم تنتظمه مغاوره (١)
مما رجه أنى ترامت مطافره
بحجوم وعزى عائر البرق زاجره
خطاها إلى حيث استقرت مصادره
يجاذبها أطواقها وتخاصره
هجير الصحارى مانجات ظهائره
السها هرماً بحت شائناً مهاصره

١٣ - المروبة

ملأت خياشيم المروبة نمرة
وسمرت في احشائها الوجد للذي
على أنها العرياء ما كانت ضارعا
إذا هز من عطفه زهواً تلفت
وانسل سيفاً في على العرب أسرعت
لممرك ما العرياء الا بقية
وذروة صرح من الجاه ونهضة
تنوخية يزهي بها من تخامره
يرد لها عرياءها لا تنأظره
أخوها ولا لانت لغمز مكاسره
إليه طلى الاقدار طوعاً وتؤامره
إليه المنايا باسمات تباصره
من المجد طاح الذوائب غابره
من الغز لا يستطيعه من يكابره

- وقال: فكأنني ما فلت والليل طفل
لبقي هذه عروس من الزمان
وقال: ومنهل زرد الجوزاء غمرته
وردته ونجوم الليل وانية
وشباب الظلماء في صفوان
سج عليها قلائد من جمان
إذا السها كان شطر المغرب اعترضها
تفكر إلى الصبح أن تعلم الفضا
(١) قال :

وسيل كرجة الحب في اللو
مسجد كأنه الفارس المسلم يبدو مراض الفرسان
قدماء وداء وهو في العجز كساع ليست له قدمان
يرجع الملح في احرار كما تسرع في الملح مقلعة الضبان
ضرجة دماء سيوف الأحادي
نبتت رحمة له الشريان

م (٨)

١٤ - وفاة الشام للعروبة

ليبتك أن الشام يقضى مساعره
حفي بما يرضي العروبة ناهض
منيع النرى الأعلى من يؤصره
يكفكف من طفو الطنأة فان عتوا
يعير نفوس العرب في كل مريض
وكانت له في دولة الشعر دولة
تلاقت على عربائها فهي "ززع"
وهب به من عبد شمس وهاشم
شرى مائج باليعربية لم تلذ
قضى حقها طلق الخطى جاهلية
ولم ينس للانجيل حقاً ورجبت

وفي بهد الضاد رتيا أوأصره (١)
بأجادهما باده غفوا وحاضره
ويأسوه في لأوائه ويؤازره
ترا فاستقلت بالطنأة مقابره
اباء ويمروري الممالك حاسره
حمي سرحاني الشرق والغرب شاعره (٢)
الى عزها امصاره وعشائره
وغسان ارض واقداث مشاعره
بغير حماها منذ سكنت معاشره
وعزت يأتي الذكر منها منائره
بتوراتها عطفاً عليه حظائره

١٥ ترفعه عن الالحن

أنفت لذات الضاد لحناً وركعة
فجنته والمرء ماشاء هاجره (٣)

(١) قال :

إذا الشرى البانية استنارت
فلشام الوفاء وإن سواء
فجدد للآنية الودادا
توافق منقطاً غدر اعتقادا

(٢) المراد الشعراء الثلاثة : أبو تمام والبحري واللتني الشامي بلسانه وثقافته وأدبه وجيانه
إلا مولده في الكوفة فكل واحد من هؤلاء كان شاعر عصره :

(٣) قال :

كلت بالحن أهل الحن أونهم
إذا كان صبي عند النوم إمرائي

وقال :

أين امرؤ التيس والذاري
استبط العرب في المواي
إذا مال من نحه النيط
بسدك واشرب النيط

وقال :

نشابه البحر فالرومي منطه
فند الأثر كنه فازكوا الاء
كنطق العرب والطائي رطبان
فإن الفصاحة اليوم لمن

- (١) فهجت حوك البحري واحمد وهجت حبيباً لآقيقه معاذره
فلو نهضت قحطان غضبي لفصحها لكنت فتاها الاحوذى تظاهره

١٦ - ثورته على النحاة

- تلاعب بالنحو النحاة فصرفت قضاياه في اغراضهم وعناصره
تواصوا بالآ تستباح سرائره وأن يتوارى لبه وجواهره
أقاموا له منهم شداً تحوطه وتسهر في ارهاقه وتباكره
عنت لهم الدنيا ملوكاً وسوقه به وزهت بالنابسين محاضره
وسيقت الى داراتهم مطبنة زبارج تبر رائثات محاسره
وأصبح نحو العرب في حوز عصبه شعوية أرباحه ومتاجره
فكشفت من احوالهم كل فاضح وأحلت كلاً حيث تبدو متاحره (٢)
وسلطن أقحاح البداه عليهم لدى موقف ينسب به الوزر وازره
وفقهت أقيال الملائك بالذي أنامت حيازيم النحاة محابره (٣)
وبصرتهم بالقول قدأ وحكمة وفلسفه حتى استمرت مرائره
وأوسمت سكان النعيم مادياً يحقق شعر العرب فيها أكابره (٤)
هززت جنوب النائمين فلبصرت عقول وكانت في دجى عز حاسره

١٧ - أنا والنحاة بعده

- وأسهرت من جفني عشرين حجة بهم ولهم أحيى الدجى واحاضره
وأظفرتني منهم بما لا تسرني به متع الإبريز تزجى غرائره

- (١) إشارة الى [ذكرى حبيب] و [عبث الوليد] و [معجز أحمد] ثلاثة كتب
للمري في النقد على دواوين الشعراء الثلاثة المذكورين أبي تمام والبحتري والمتنبي .
(٢) أكد هذا — غير ما في اللزوميات وما يمكن أن يكون في كتابه [الحقيق النافع] —
في رسالتي الفرقان والملائكة فما قاله في اللزوم :

- أرى ابن أبي اسحق أسحق الردى وأدرك عمر الدهر نفس أبي عمر
تباها بأمر صبره مكاسباً فساد عليهم بالحسب من الأمر
بكسوة برد أو باعطاء بلغة من البش لا جم الطاء ولا عمر
ولم يصنوا شيئاً ولكن تنازهوا أباطيل فضحي مثل هامة الجمر

(٣) في رسالة الملائكة .

(٤) في رسالة الفرقان .

فذلك منه كل أصيد شامس . . . ودمشته حتى تألف نافرته
وعقلته بمد الجنون كأنني . . . ولم ابتدع فيه الرجاحة فاطره
وأعطى يداً بعد الجمال فاذعنت . . . شواخه واسترجع البشر زائرته
على أنه مازال من أجراءهم . . . عباديد تخشى أن يحدد دائرته
سجية شرٍ بارحي يثيرها . . . على الضاد ثأراً لا توارى فوارته

١٨ - الختام

إليك إمام القاصرين تساوقت . . . تتجاوز طوق المدعي وتصابره
فلو أبصرت عينك حالي وقد بدا . . . سهيل وشاب الليل الا غداثره
أصادي من أسراب القوافي كئيباً . . . يسادرنى أباؤها وأبأدره
لا يفتن أتي قد سررت وخلفت . . . خول عن الاوج الذي أنا سامره
وأن لشعري في الصفا متفجراً . . . يهب له من راقد الترب ناخره
وما صدقت رب القريض قريحة . . . تجشمه شم الذرى وتغادره
على أنه والدهر لا تنقضي له . . . عجائبه قد يكسر الشعر جابره
تناهت الادواء ذهني فلا تلم . . . براعي فقد نلت عليه ضارته
وأخذت طبعاً كان مرتاد قابس . . . ونجمة مغوار تلظي مخامره
وما كان شيطاني بليداً ولا هوى . . . الى وطير تنمي عليه معابره
أبح ما وراء الغيب وهمي لعله . . . يعاود طبعي وقده وبواكره
وحكم بناني بالشموس فرانداً . . . وبالفلك الدوار ترغو هوادره
فما في قريض الارض أوفي لغاتها . . . معاذ لمن يوفيك ماهو ناذره
وما أنا الا صوبُ مزنك هامراً . . . وروض توالث بعد عد مواطره (١)
نقمت غليلي من خضمك حقبة . . . أتت بالربيع الفخم ترهو جباثره
فان جئت سباقاً فشكر زججته . . . وقدماعرفنا أكرم الروض شاكره
وعلمتني أن أصحب اليأس راضياً . . . سميذاً وبمض اليأس ينم ذاخره
يمزق جلد الصبر صبري على الاسى . . . كأن الاسى في مهجتي شب عاصره
فواهاً لا حرار القريض وحرة . . . على الشعر عفاً لا تصان مخادره

محمد البرزمي

(١) الريد بكسر العين الماء الجاري الذي له مادة لا تنقطع ومثله الدنان غير أن العامة تنطقه على وزن فدان .

المري في نظر المستشرقين

أيها المحفل الكريم

ان المجمع العلمي العربي قد اكسبني شرفاً عظيماً بدعوته الكريمة لأخاطب هذا الجمع الراقي في دمشق او هذا المجمع العلمي الكبير لان هذه المدينة القديمة هي مجمع العلم العربي حقيقة كما كانت بآيام الشاعر الكبير الذي نحي ذكره اليوم . واذا لم يكن لي أمل في أن أزيد على علم العلماء أو أضيف الى معرفة العارفين فاني أرجو ان يكون باستطاعتي ان أجيء بما يساعد على فهم هذه الشخصية المقعدة .

أبو العلاء بنظر مستشرق

وكان يجوز أن أتناول هذا الموضوع من جهتين أولاً من وجهة نظر المستشرقين كمرجليوث ونيكلسون وفون كريبم وآخرين من الدارسين والباحثين في الغرب . أو نانيا من وجهة نظري الخاص . أما المسلك الأول فالأدباء في الشرق منذ سنين كثيرة قد عرفوا دروس هؤلاء المستشرقين والاستاذ طه حسين تكلم فيها بكتابه المشهور . لذلك أستغني عن ذكرها هنا . اما المسلك الثاني فله فائدة واحدة وواحدة فقط وهي أن تكون هذه الكلمة محاولة مخلصه لتقدير عبقرية أبي العلاء وأهميته لهذا القرن ولا مناص للمستشرق حين يدرس كتب المري من أن يتعرض للمناء والجهد ليمده عن اسلوب هذا الأديب الغريب وتممقه الشديد : لأنه رمز الى كل فتيون العلم من عادات الجاهلية وأخلاقيها الى مجادلات الفلاسفة في عصره . ويجب على الباحثين ان يكون لهم علم بالفقه والتوحيد والفرائض والنحو والعروض والتأريخ . فاني بعد ما جتهدت غاية الاجتهاد شعرت بقصور الذي أعتذر عنه : ومع ذلك فمن حسن الحظ ان كل شاعر كبير لم يكن يقصر شعره على امته وجيله فقط بل كان يكتب شعره لكل الناس بكل الازمان . وإن يكن أبو العلاء شاعراً عربياً فهو شاعر عالمي ايضاً واسمه وصيته

مشهوران في الغرب لذلك رغبنا عن الصعوبات المشار إليها فباستطاعة المستشرق ان يكونَ نَفْطَرَةً عنه إن لم تكن شاملةً فهي عامة على الأقل وباستطاعته ان يقدرَ عبقريةَ وحفه ومكانته بين الشعراء الذين كان شعرهم ورسالتهم الى كل العصور وكل الاعمر . والمستشرق لا يزعمه جحدُ أبي الملاء لصحة النبوات والديانات عامة لانه يعرف سوء حالة الحياة الدينية والخلقية في عصره . ومن يدرس شعرَ المعري لا يغنيَ له عن الشهور بهيمومه وأحزانه اذا كان يريدُ ان يستفيدَ من فكره المبيق ، ويجب ان يتمقَ هذا الشهورُ بالباحث حتى يصلَ الى شخصية الشاعر وقسه : فيرى كمن لم يرضَ بدنياء ولم يجدْ عُذراً للتناسل ولا سلوى بديانات عصره . وليس على القاري شريعاً كان ام مستشرقاً الذي ليس له عطف على عبقرى غارقٍ في بحر الظلمة والشك إلا ان يطوحَ باللزوميات فهي مُضرةٌ له لا نافعة . والمالمُ الذي يدرس هذا المبقرى روح المطف يقوم قائلاً إن هذا الرجل ليس من القرن الرابع للهجرة بل من الرابع عشر . يذكر ذلك المالمُ ان هذا الشاعر لم يرَ ولم يقرأ كتب ادباء زمانه مثل أبي علي بن سينا والبيروني وبديع الزمان الحمداني والثعالبي وابن حزم والباقلاني وآخرين . ولكن على هذا فما أكثر أدبه وما أعلمه فانه بكل حياته ما استغنى عن قاري ولا فاته حفظُ ماسمع ؛ بينما لنا نحن في هذا الزمان كتب ومكاتب ودائراتُ معارف وقواميس . ولكن لا ينبغي أن اطيل الكلامَ بسمى الشاعر لان زماننا كرم بكاتب (ويبقى الدهر ما كتبت يداه) نكلم من سجن أبي الملاء كلماتٍ تستحق إعجابنا واحترامنا .

اما أبو الملاء فإن احوالَ عصره قد نبضته الحياة . سفكُ الدماءِ مَسْغِبٌ رُعبٌ كانت حوله دائماً . قال الثغري ردي : « عمّ الوباء والقحطُ بغداد والشام ومصر والدينا وكان الناس يأكلون الميتة » (١) ولكن بمد سنين قليلة مات رجل وترك وصيةً على ألف دينار غير المتاع والقماش والجوهر (٢) هذا بما كان سبباً لتشاؤم أبي الملاء ويمكن ان الزلازل التي هدمت ابنية الشام وقتلت سكانها آتت تشاؤمه وقال :

لم يقدر الله تهديساً لمانسا فلا ترومن للاقوام تهديساً
ولا تصدق بما البرهان يُبطله فتستفيد من التصديق تكذياً

(١) النجوم الزاهرة ٢٤٢١٩

(٢) ٢٤١٠٩

إنَّ عَذْبَ أَقْبَى قوماً باجترامهم فما يريد لأهل المدل تمديداً
تُظهِرُ هذه الايات تمرداً على قدر الله او على الاقل تقدّر تصرفه تعالى في
حاله . فإن لم يقدر الله تهديدا للعباد فلماذا ارسل انبياءه ورسله (عليهم السلام)
وإن لم يمتدب قوماً باجترامهم فيلزم ان يقال هلكت عاد وثمود بأسباب طبيعية وقد
سلك المري مسلك من نفى ان سبب الألم هو الإثم والمعصية لأن المادل يُمتدب
مع الظالم بلا فرق . ويكون هنا مشكلة قديمة وجدت بأسفار البابليين اعني لماذا
يُمتدبُ المادلُ في الدنيا ولماذا أفلحَ الظالم . وتكون هذه المشكلة موضوع كتاب
أيوب باللغة البرانية ويقول :

« انَّ الكاملَ والشريرَ هو يُفنيها ،

وكلاهما راما ان لم يولدا

وليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من امه النفساء
وأيضاً

والحال ضاقت عن ضمها جسدي فكيف لي ان يضمه الشجب
ماوسع الموت يستريح به الجسد ثم المعنى ويخفتُ اللجبُ
وقال أيوب :

« لمَ لم أمت من الرَّحِمِ عندما خرجتُ من البطن لمَ لم اسلم الروح . لماذا
اعطني الركبُ ولمَ القديُّ حتى أَرْضِعَ لاني قد كنت الآن مضطجماً ساكناً .
حينئذٍ نمتُ مستريحاً . »

إنَّ روحَ المري لم تكن روح مؤمنٍ بالنبوات : وروح النبي أيوب لم تكن
روح مؤمنٍ بل إنَّه لم تتجَّ عن الخطيئة ضرورةً . وبلغ كلاهما غاية واحدة وهي
الله تعالى وتبارك . ولقد قال النبي أيوب بعد الرؤيا « بسمع الأذن قد سمعتُ عنك
والآن رأيتُك عيني . لذلك أرفض وأنتم في التراب والرماد . »
وقال المري : أزول وليس في الخلاق شك .

ولاختصر فلان أسوأ القول الافراط إذ لا يمكنني بحديث قصير ان أذكر الا
مسائل قليلة من أدب المري وهذه المسائل تتضمن بكلمة واحدة كان المري
محدثاً . وكل عبقرى يولد قبل زمانه وما كان المري شاذاً . فيلوح انه كان شاعر
المستقبل باعتبارنا تلميذ العقلي والاخلاقي والسياسي والديني .

العقل

مدح العقل وكرمه بقوله :

إذا تفكرت فكراً لا يمازجه فسادُ عقلٍ صحيح هان ماصعباً
ويقول :

نهاني عقلي عن أمور كثيرة وطبى إليها بالفرزة جاذبي
ومما أدام الرزة تكذيب صادق على خبرة منا وتصديق كاذب
وأيضاً :

ولا تطفثوا نور المليك فانه ممتع كل من حجبى بسراج
ومع ذلك ما كان المعري مصلحاً فقد منعه من ذلك عماه فزاد تشاؤمه :
واللب حاول ان يهذب أهله فاذا البرية ما لها تهذيب
من رام إنقاء الغراب لكي يرى وضع الجناح أصابه تعذيب

الأخلاق

ان الأحوال الاجتماعية في عصره قد بفضت أبا العلاء في الدنيا ولكن لم تبغضه في الإنسان بل بالعكس زيد رفقته به . اما نفسه فقد كان أله ضروريا من طبيعته ورجا مكافأة في الآخرة .

أخشى عذاب الله والله عادل وقد عشت عيش المستضام المذب
واما الناس عامة فله نظران متناقضان في أمرهم أولا أنه أصلح لهم أن لم يولدوا وثانياً أن السعادة في الدنيا ممكنة لهم إن أصلحت أحوال الحياة وترتبت أخلاقهم على اصول العدل والالطف والحقيقة . فعذاب أبي العلاء الضروري بنقض اليه عذاب الناس اللا ضروري وهجم على كل من أضر الناس على أي وجه من الوجوه . ملاحمهم على المفتري والواشي والنمام والفتان الذين أثاروا عدواة بين الناس بالسنتهم المسمومة .

لسان الفتى يدعى سناناً وتارة حساماً وكمن لفظة ضربت عنقا
وقال ايضاً :

يقول لك انم مصباحاً متودد اليك وخير منه أغلب أصبح
فيظهر من البيت التالي أنه لو كان للمعري استطاعة لكان مصلحاً فمالاً لا ناقداً محضاً .

لو كان لي امر يطاوع لم يمش ظهر الطريق يد الحياة منجم

فوصفه لهذه النور من خاصية سحرية مع بنفسه للخدعة والكذب .
 سألت منجها عن الطفل الذي في المهد كم هو عائش من دهره
 فاجابها مائة ليأخذ درهماً وآتى الحمام وليدها في شهره
 وسخر من التجار في الاسواق الذين ضايقوا الفقراء واعتذروا عن
 غلاء بضائعهم وقال :

يا تاجر مصر ما انصفت سائمةً كذبتها في حديث منك منسوق
 إن تشك قطع طريقك بالفلاة فكم قطعت من قبل طرق الناس في السوق

السياسة

وما من شك ان أبا العلاء كان ديمقراطياً عصبياً وبيان ذلك بما قال في الملوك
 وأولي الامر وهو أن يجلسوا على كراسيهم ليهدي رعيتهم ويحق عليهم إصلاح
 الرعية فليسوا الا نوابها . وليس من المستحيل ان هذه الروح كانت احياء
 الديمقراطية القديمة المرية ولكن على كل حال تجسست هذه الروح بصورة حادثة
 في قوله :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها
 واما البيت التالي فلو كان كتب باللغة الانكليزية لقال القاري هذا من شعر
 شاعرنا ملتون وتاريخه القرن السابع عشر .
 وأرى ملوكاً لانهبوط رعية فعلام تؤخذ جزية ومكوس
 أو

اذا ماتينا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم لا قوم لاقوم خادم
 وقد تكلم كثير من الكتاب في حقوق الملك على رعيته وحقوق الرعية على
 ملكها ولا أعرف من يشارك المري في هذه الجزاء . فمن الواضح انه إن يدفع
 القوم اجرة للملكهم فيمقدورهم ان يحرموه منها ويحللوه . وهذه ديمقراطية
 محضة ولكن أبا العلاء ما كان فوضوياً بمعنى انه كان عدو الحكومة ذاتها فذكر
 الناس أن اولي الامر كانوا ناعمين رغماً عن معاليهم .

واخشى الملوك وبأسرها بطاعتها فالملك للارض مثل الماطر الساني
 ان يظلموا فلهم نفع بعاش به وكم حوك رجل أو بفرسان
 فلمري نظراً سليم بالهيئة الاجتماعية وعلم الناس ان الهيئة الاجتماعية يجب

عليها أن تكون جسماً واحداً لأن الجسم مركب من أعضائه المختلفة وإن بعضاً واجب لبعض وإن لم يشعر بتعلقه أو ملازمته المتبادلة والمشاركة وتراه يقول :
والناس بالناس من حضر وبادية بعض لبعض وإن لم يشعروا خدماً
وكل عضو لأمري ما يمارسه لا مشي للكف بل تمشي بك القدم

الدين

كان أبو العلاء محدثاً في فكره. وفأدته وخدمته للحياة الدينية هابتشديده على التسامح والتحمل فكراً وعلى الإخلاص عملاً. لذلك نظر الفرق بين الفرق والاختلافات بين الديانات نظرة عاقل إنساني وفي رأيه أن الاختلافات بين المذاهب المختلفة والفرق كالاشاعة والمعتزلة والجبرية والمرجئة تدل على وجوب تردد العاقل في قبول أخبارها ، فليست الاختلافات بين الديانات مهمة حذاء الأصول الأساسية وهي الاعتقاد بالله والعمل بالعدل والمعروف . ويظهر أحياناً أنه شك في حقيقة الديانات كلها .

هفت الحنيفة والنصارى ما أهدت ويهود حارت والمجوس مضله
اثنان أهل الارض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له
وقبل أن نذمه يجب علينا ذكر ما قاله الإمام الغزالي : الشكوك هي الموصلة
الى الحق فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يصبر ومن لم يصبر بقي في العمى والضلال .
ومع ذلك ما بقي الميري في عمى وضلال فقال بنفسه .

ازول وليس في الخلاق شك فلا نبكوا على ولا نبكوا
خذوا سيري فمن لكم صلاح وصلوا في حياتكم وزكوا
ولا تصفوا الى اخبار قوم يصدق منها العقل الارك

ويظهر لي ان الميري كان بموضع كثيرين من المتقنين اليوم بأنه مدح دينه خاصة وفضله على الاديان عامة ومع ذلك اعتبر ان ليس في الدنيا دين بقي على مازكه نبيه . وكل الاديان نمت وتغيرت بتاثير الاخبار والمادات والنواميس وهي اثار الحروب والعداوة : واما الانبياء فهم اتفروا الناس بها . لذلك الميري هاجم اخبار الاولين من جهتين (اولاً) نفى صحيحها تاريخياً وعقلياً (وثانياً) قال بانها اسباب الحروب بين الأمم يجب عليها احترام بعضها لدين البعض الآخر واما الاول فقال :

جاءت احاديثُ إن صحتْ فإنَّ لها
فشاور العقل واترك غيره هدرًا
شأنًا ولكنَّ فيها ضعفٌ إسناد
فالعقل خيرٌ مشيرٌ ضمه النادي
وأيضاً .

هل صحَّ قولُ من الحاكي فنقبه
أما المقولُ قالت أنه كذبُ
أم كلُّ ذاك باطلٌ وأسمارُ
والعقلُ غرسٌ له بالصدق إثمار
وأما الثاني فقال :

إن الشرائع ألقت بيننا إحناً
وأورثتنا أفانينَ المداواتِ
وأيضاً

غدا اهلُ الشرائع في اختلافٍ
فقد كذبت على عيسى النصارى
تقضى به المضاجعُ والمهودُ
ولم يستحدثِ الأيامُ خلقاً
وما كان نظر المري في الدين الصحيح ؟ وما كان أمله للمستقبل ؟ وبكلمة
لقد كان رأيه الاعتقاد بالله تعالى هذا الاعتقاد الذي يُظهر بالإنصاف والمدلول المعروف
الدينُ إنصافك الاقوام كلهمُ
وما هذا الا معنى الامام الغزالي بقوله ومن ظن ان سعادة الآخرة تُنال
بمجرد قوله لا اله الا الله دون تحقيقه بالمعاملة كان كمن ظن ان الطبخ يحلو بقوله
طرحته السكر فيه دون أن يعطره . فسخر المري المتمسك بظاهر الدين
دون حقيقته وقال :

توهمت بامفرور أنك دين
تسيرُ الى البيت الحرام تنسكاً
على يمين الله مالك دين
ويشكوك جارٌ بالسُّ وخدينُ
وأخيراً تسمعُ اشتياقه لهيئة اجتماعيةٍ سالحةٍ مطهرةٍ من الظلم والمداوة .
مضى يقوم امامٌ يستعيدُ لنا
فتعرف المدلُّ أجيالُ وغيطانُ
وأيضاً .

مرآةُ عقلك إن رأيت بها سوى
أسنى فعالك ما أردتَ بفعله
ما في حجابك أرتبه وهو قبيح
رشدًا وخيرُ كلامك التسبيحُ
فلتكن كلمةُ التسبيح آخر كلمةٍ أقولها والسلام .

الفرير غليوم

أبو العلاء المصري

آرائه في الإصلاح الاجتماعي

في الحق من الذهب ثلاث خلال ، حسنه ، وتقله ، وبقاؤه على الأبد بغير تغيير ، إلا أن الذهب كثير الرغب ، والحق قليل الراغبين .

لقد صدق شيخنا المصري - رحمه الله - فإن الحق على حسنه ، ثقیل على النفوس ، قليل الراغبون فيه من الناس ، لذلك كان المصلحون قليلاً عديدهم ، لأنهم يدعون إلى الحق فتثقل دعوتهم على النفوس ، وينصرف عنهم الناس ، ويكثر الطاعنون فيهم ، المفتاتون عليهم . فيجب عن قول الحق والدعوة إلى الإصلاح ، الأمن أو تي الايمان الصدق ، والمقيدة الحق . وهؤلاء قليل مام ، في كل قرن وعند كل جيل .

والزمن يدور دورته ، ويسير الناس قدما في قافلة الأيام ، لا يمكن أن لا يكون لأنفسهم تفكيراً مستقلاً ، ولا وعياً صحيحاً ، وتغلب عليهم العادات الموروثة ، والتقاليد الجارية ، على ما فيها من ضرر وسوء ، وعوج وامت ؛ حتى يصبح الناس وكأنهم قطع الآلة الصماء ، لا يعون ولا يعقلون ينبغ الظلم بكل كلفة على الصدور ، فتستكين له صابرة ، وتتحكم المادة في العقول ، فيؤمن بها الناس متعبدين ، ويفسد رجال الدين والإمامة والسياسة ، فيستسلم لهم الجمهور مذعنين ، ويكون للهوى القلب على العقل ، فيتبع الناس أهواءهم ، ويتنكرون لمقولهم . وتسير هذه القافلة سيرها الخبيث إلى الهوة السحيقة لا يقفها واقف ، ولا يعترضها معترض .

ومن ذا الذي يجزو في زمن الضعف والحوّل ، وغلبة الهوى على العقل ، أن يقف في وجه الظالم المستبد ، أو السياسي المشعوز ، أو المتدين المتلبس ، أو المتمول المتلاعب ، فيقول له : لا ؟ !

انه ان فعل محقه الظالم بظلمه ، وغلب عليه المشعوز بشعوزته ، ورماء المتلبس بالدين ، بالكفر والزندقه ، ومالك عليه صاحب المال قوته ، ففزعزمه ، وشل عمله . وأشق ما يلقاه المصلح في اصلاحه ، ان الأمة التي تحتاج إلى المصلحين ،

يقفون دونها وقفة المدافع الجبار ، يذرون سبيلها ، ويرشدون عقولها ، ليسيروها في الطريق السوي ، تكون هي نفسها حرباً عليهم ، يملكون على حياتها ، فتعمل على القضاء عليهم . تقبل على المصل ، فتستمع له ، وتعرض عن المرشد وتضم أذنها عنه . غير أن المصلح المؤمن ، يمضي في اصلاحه ، ويستمر على دعوته ، لا يدفعه عما وطن عليه نفسه دافع ، ولا تقفه قوة من قوى الظلم والشعوذة والمال . تسمو نفسه فوق ما في هذه الحياة من مغريات ، فيأنف أن يلتفت اليها . من هذه الطبقة المصلحة كان شيخنا المري . ومن الحق ، ان لا تعرض لمبادئ المري الإصلاحية ، ولا لآرائه الفلسفية ، قبل أن تلقي نظرة عجيلى على المصر الذي عاش فيه .

عصر أبي العلاء :

أسس العرب ملكهم في الاسلام على العدل : العدل المطلق ، الذي لم تعرفه امة من الأمم عرفها التاريخ في غايته وفي حاضره . وكانت الولاية عملاً دينياً يراد به وجه الله وخدمة الأئمة ، لا الزعامة الدنيوية واختزان الدرهم والدينار . ثم جعلت هذه المبادئ الدينية الاخلاقية تضعف مع الايام ، وزاد في ضعفها ، انتقال الحكم الفعلي من العرب الى غيرهم من الشعوب والجماعات ، التي دخلت في الاسلام ولم يدخل الاسلام في قلبها فتعرف حقيقته وروحه ، معرفة العرب لها . فلما كان القرن الرابع الهجري ، كان الأمر قد ساء من جهة نواحيه . وغلب على الخلفاء ، الملوك والأمراء والرؤساء ، فاستبدوا بالأمر دونهم ، واكثروا من الظلم والعدوان ، حتى كان منهم من يعمل بالسيف في الناس فيقتل الألوف الكثيرة ارضاء لتزعة الشر في نفسه . فاذا رفع له رافع المصحف وقال له : اتق الله وارفع السيف عن هؤلاء الذين لا دنب لهم ولا جنسية يستحقون بها منازل بهم . كان جزاءه : ان يؤخذ منه المصحف فيضرب به وجهه ، ثم يؤمر به فيذبج . وقد بلغ الظلم ببعض هؤلاء الامراء ، ان كان يحبط السروج عن الدواب ، ويجملها على ظهور الناس ، يقادون بالارسان كما تقاد البهائم . اما انتهاب هؤلاء الملوك والامراء والعمال والرؤساء للاموال ، وانهايتها جماعاتهم وبطاناتهم ، فقد جروا عليها على ما يجري عليه الحاكم الغريب ، في البلد الغريب . أو المتحكم في قومه لادين له ولا وطن .

وكان من جراء الاسراف في الظلم ، والرغبة في كسب المال من أي وجه كان . واستبداد كل قائد أو أمير بالناحية التي هو فيها ، أن تجزأت المملكة فصارت دولاً بمد أن كانت دولة واحدة ، وانتهى الامر بهذه الدويلات الهزيلة أن طمع فيها الاعداء ، فارتدوا إليها ، واستولوا على كثير من أجزائها ومدنها وأمصارها ، جاعلين من هذه الدول المنفصل بعضها عن بعض مستقراً لهم ، وممرّاً منها إلى ماوراءها من البقاع . وهل تجزأ وطن من الاوطان أو تغرق قطر من الاقطار إلا ليكون للاستعمار مرقراً ، وللمستعمر ممرّاً ؟ .. ويصف المسمودي (ضيف الاسلام في هذا الوقت وذهابه ، وظهور الروم على المسلمين ، وفساد الحج ، وعدم الجهاد ، وانقطاع السبيل ، وفساد الطريق ، وانفراد كل رئيس ، وتنبه على الصقع الذي هو فيه ، كفعل ملوك الطوائف بمد مضي الاسكندر ... ولم يزل الاسلام مستظهِراً إلى هذا الوقت ، فتداعت دعاثه ، ووهي أسسه ، وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة . . . والله المستعان على ما نحن فيه .)

الوجهة السياسية :

بيد هذه الفترة ، وفي مثل هذه الحال السيئة التي وصفها المسمودي ولد أبو الملاء المري .

رأى الظلم يحين بقومه فثار عليه وعلى الظالمين :
وما سرتني اني أصبت معاشراً بظلم واني في النعيم غلدا
ونمي على الظالم ظلمه ، وفضل عليه المظلوم :
خير من الظالم الجبار شيمته ظلم وحيف ظليم يرتمي الذُّبحا
ورأى الاثرة وجب الاستملاء قد ملكا على الناس نفوسهم فراح يدعو
إلى المساواة الحق . يسوي بين الهاشمي — وم بيت النبوة ، والخليفة القائم منهم —
وبين الرجل من نسل البربر : الحق واحد ، والناس أمام الحق سواء :
لا يفخرن الهاشمي على امرئ من آل بربر
فالحق يحلف ما علي عنده الا كقنبر

ويؤكد هذه المساواة بان يكشف عن حقيقة الناس ، وانهم خدم بعضهم لبعض ، وان الاعمال موزعة بينهم توزيعاً لا يستغني منه واحد منهم عن أخيه
وم أعضاء جسم واحد لا يشرف احد منهم احدا .

الناس بالناس من حضر وبادية بعض لبعض وان لم يشعروا خدماً
وكل عضو لأمر ما يمارسه لأمشي للكف بل تمشي بك القدم
ولا يخرج الملك عنده ، عن أن يكون عملاً من جملة الاعمال الموزعة
التي يشير إليها ، ويجعل الملك خادماً للقوم وأجيراً ، لاسيداً وأميراً .
إذا ماتينا الامور تكشف لنا وأمير القوم للقوم خادم
ويمود فيؤكّد هذا مرة أخرى بقوله :

مُلءُ المقامُ فكُم أعاشر أمة امرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها
ولا يقف عند هذا ، بل يحاول أن يدخل اليأس في قلوب الملوك ،
ليخفف من هذا الصلف في نفوسهم ، ويضعف من هذا الصيد في رؤسهم :
وكم تزل القِيْل عن منبر فساد إلى عنصر في الثرى
واخرج من ملكه طاريا وخلف مملكة بالمرأ
ويقول فيهم :

أفضل من أفضلهم صخرة لا يظلم الناس ولا يكذب
ويتحداهم بالدهر :

وارى الملوك ذوي المراتب غالبوا أيامهم فانظر بنفسك من غلب
ثم هو يهون ما هم فيه من ملك ، تهوئناً يقيم دأعته على الآباء المحض فيقول :
لكون خلّك في رمس اعز له من أن يكون مليكاً عاقد التاج
الملك يحتاج الأفاً لتصرّهُ والميت ليس إلى خلق بمحتاج
ويزيد على ذلك في تهوين شأنهم فيساوي بين الملك والمحطاب :
ما عاقد الجبل يعني بالضحى عضداً إلا كصاحب ملك عاقد التاج
ويذهب به الفلو في حب المساواة ، حتى يقابل بين الملك واضف الحشرات
« البرغوث » ويجعلها سواء في حب الحياة ، وطلب العيش :

لا فرق بين الأسك الجون أطلقه وجون كندة امسى يعقد التاج
كلاهما يتوقى والحياة له حبيبة وبروم العيش مهتاج
ويقرع الامم على تهديسهم الملوك ، وهم قد تكبوا الشعب بما نكبوه به من
ظلم وعدوان ، وابتزاز أموال وتمزيق سلطان .

ما أجمل الامم الذين عرفتهم ولعل سالفهم أضل وانبر
يدعون في جماعاتهم بسفاهة لا يبرم فيكاد يسكي المنبر
ويقول :

ككذب يقال على المنابر دائماً أفلا يمد لما يقال المنبر
ويبيع الشعب عليهم ، بما يتزونه من أمواله في سبيل لهوم وشهواتهم :
فشان ملوكهم عزف وتزف وأصحاب الامور جباة خرج
وينادي بفضل الاخلاق وشرفها على الملك ، وانها خير منه وأبقى على الدهر .
أسران كنت محموداً على خلق ولا أسر باني الملك محمود
ما يفضل الراس بالتيجان بمقدتها وانما هو بعد الموت جلود
هذا إلى كثير من مثل هذه الآراء التي كشف فيها عن حقيقة أصحاب التيجان ،
وانهم من الشعب لا يختلفون عنه في شيء ، الا في هذا الحكم الذي يتولونه ، ومن
حقه عليهم أن يكونوا لشعوبهم خداماً مخلصين ، فيشرفوا بعملهم ، لا بملكهم .
وهذه الآراء ، قد سبق المري فيها غيره من رجال القرون المتأخرة وفلاسفتها ،
الذين قاموا بالتورات على العروش العاتية ، فدكوها وأقاموا على انقاضها اسس
الحرية والاخاء والمساواة .

وأبو الملاء في كل ما يقرره من آرائه الفلسفية الإصلاحية ، يبنى قوله فيه
على الحق والعقل والمنطق ، لا على النزعة الصاحبة ، والهوى الجامح .

الوجهة الدينية :

واذا كان أبو الملاء ، يرى في الملوك الذين وصفهم ، هذا الشر المستطير
الذي أذل نفس الامة ، ومزق وحدتها وسلبها مالها وثروتها ، فهو يرى أن
رجال الدين — الاقلهم — قد خرجوا عن الدين السوي المستقيم بما ابتدعوا
من آراء ، وبما احدثوا من مذاهب وطرق ، لاعهد للدين بها ، ولا يرجى
صلاح ولا خير معها ، بل هي فيها كل البلاء والشر .

انما هذه المذاهب أسبا ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرقو ن لدمع الثناء والحنساء
وهو يرجع أصل الخلافات الدينية ، والانقسامات المذهبية إلى التنافس في الدنيا
وإلى حب الرئاسة :

لولا التنافس في الدنيا لما وضعت كتب التناظر لا المغنى ولا العمد
قد بالغوا في كلام بارت زخرفته يوهي العيون ولم تثبت له عمده
وما زالون في شام وفي يمن يستنبطون قياساً ماله أمد
فذرهم ودنياهم فقد شغلوا بها ويكفيك منها القادر الصمد
ويحذر الناس من المتلبسين بالدين أن يقعوا في شبا كههم :

فلا يفرنك من قرائن زمر يتلون في الظلم الفرقان والزمر
يقامرون بما أوتوه من حكم وصاحب الظلم مقمور إذا قرأ
ييدي التدين محتالاً ضمائر غير الجليل إذا ما جسمه ضمرا
يشدو مزامير داوود ويفضله في النسك نافع مزمار له زمرا
وهو يحمل حملة منكرة على من يحمل من دينه تجارة يتكسب بها :

ولا تطمين قوماً مادياتهم الا احتيال على اخذ الاتاوات
وانما حمل التوراة قارئها كسب الفوائد لاحب التلاوات
ويدعو الناس الى الحرب بدينهم منهم :

فأهرب بدينك من اولئك انهم حربوك واحتربوا على الدنيا به
وبهاجم الذين يخادعون الناس ، يغلونهم مكرأ ورثاء. وينهونهم عما هم أقسم فاعلوه :

رويدك قد غررت وانت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الذهباء صباحاً ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفي لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفقى ماعنه ينهى فمن جهتين لاجهة أساء
ويرى في الدين وسيلة لا غاية ، يراه طريقاً الى تهذيب النفوس ، وتنقية الضمائر
ويرى ان العبادة شيء لا يطلب لنفسه ، بل هو مالاخير فيه اذا لم يرافقه العمل الصالح :
(اذا صمت عن المآثم ، فمعد ذلك صم عن الطامم) .

وعنده : (طهارة الخلد - اي القلب - ابلغ من طهارة الجسد) .

(احمج - كف - كلوم جرائمك ، فاذا برئت فاحجج)

ويرى الصوم ، في صون اللسان عن المحال ، وعن التعرض للناس بالأذى .

اذا القوم صاموا فافوا الطعام وقالوا المحال فقد افطروا
ويقول :

ان صمت عن ما كل العادي ومشربه فلا تحاول على الاعراض افطاراً
وتارك الصلاة عنده خير ممن يراني فيها :
اذا رام كيداً بالصلاة مقيمها فتركها عمداً الى الله اقرب
ورأيه في الدين يلخص بقوله :
ما للدين صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على جسد
وانما هو ترك الشر مطرحاً ونفضك الصدر من غل ومن حسد
وان :

اخو الدين من عادي القبيح واصبحت له حجة من عفة وإزار
وان :

الدين انصافك الاقوام كلهم واي دين لآبي الحق ان وجبا
هذا هو الاصلاح الديني الذي دعا اليه أبو العلاء الميري ، بعد ان رأى كثيراً
من رجاله قد فهموا الدين على غير حقيقته ، وجملوه شركاً يتصيدون به
منافهم في هذه الحياة . رمى به الى تفهيم الجمهور روح الدين وسره ، وان الدين
جوهر يقوم بما يدعوا اليه من خير وصلاح ، لا بما يتلبس به منتحلوه من حلة وشاح .

الوجهة المالية :

ورأى الميري ان الناس قد غالوا في حب المال ، حتى بلغوا من حبه له مبلغ
العبادة . وليس من شك في ان حب المال هو العامل الأكبر الذي قامت عليه الرغبة
في الزخامة والشهرة والمتاجرة في الدين ، واصطناع المذاهب والطرق وخلق الرئاسات
وتحطيم الدولة وتمزيقها ، لذلك أراد أن يكون المال وسيلة أيضاً لا غاية ؛ فدعا
الناس الى الزهد فيه والتخفيف من تقديره :

وأفضل من عيش النقي عيش فاقة ومن ذي ملك رائق ذي راهب
وهو يقول لهم :

أغنى الأنام بقي في ذرى جبل رضى القليل وبأبي العيش والتاجا
وأقفر الناس في دقيام ملك يضحى الى اللجب الجرار محتاجا
وفي رأيه :

يكون أخو الدنيا ذليلاً موطناً وان قيل في الدهر الامير المؤيد

ويريد للناس أن يكون كسبهم حلالاً :

إذا فانتك الأثراء من غير وجهه فان قليل الخلل أولى وأبرك
ويزهد في المال فيقول :

إذا كان جسمي من تراب ماله إليه فما حظي بأني مترب
ولا يرى العزة بالمال ، والذلة بالفقر . لذلك ينصح الفقير أن لا يهون لفقره ،
والغني أن لا يتجبر ليسره :

وإذا افتقرت فلا تهين وإذا غنيت فلا تحير

وفضيلة الرجل ، وقيمة آرائه ، أنه إذا دعا الناس الى أمر من أمور الإصلاح ،
بدأ بنفسه أولاً . فهو اذ يدعو الناس الى نبذ المسال ، يعيش عيش الكفاف
(ينفق على نفسه من دخل معاشه نفقة طفيفة ، وما يفضل عنه يفرقه على
أخيه وأولاده والأئذنين به وعلى الفقراء والقاصدين له من الغرباء) .

قدم عليه الخطيب التبريزي وأقام عنده مدة يقرأ عليه ، وأعطاه صرة فيها
ذهب وقال له : أوتر من الشيخ أن يدفعها الى بعض من يراه ، ليشتري
بها خبزاً ولحماً ، وما تدعو حاجتي اليه ، ويجري ذلك علي في كل يوم ، لا تناوله مدة
مقامي عنده للقراءة ، وأتوفر بذلك على الاشتغال ، ويتفرغ لي للاستفادة فلا يكون
لي شغل غير ما أنا بصده .

فأخذ أبو العلاء الصرة منه ، ووضعها عنده ، وأجرى للخطيب ما تدعو اليه
حاجته مدة مقامه بمرة النعمان ، والخطيب يظن أنه ذهبه الذي دفعه إلى الشيخ
فلما أراد الانصراف دفع اليه أبو العلاء صرته بعينها .

ولم يقبل هدية ولا صلة من شريف ولا وضيع ، وبذل له الوزير الفلاحي
خراج مبرة النعمان وكتب له سجلاً بذلك ، فأبى أبو العلاء واستغنى من
ذلك كله .

قلت : يستمد أبو العلاء آراءه الفلسفية من العقل فيجمله المشير الهادي .
عليك العقل وافعل ما رأه جميلاً فهو 'مشتار الشوار'
ويقول فيه :

يرتجى الناس ان يقوم امام ناطق فى الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا امام سوى العقل مشيراً فى صبحه والمساء
فاذا ما أطلعت جالب الرحمة عند المسير والارساء
ويقول :

اذا الانسان فض انقل منه فما فضل الائيس على الهال
ويريد الناس على أن يحكموا فى أمورهم عقولهم :
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة اذا لم يؤيد ما أتوك به العقل
ويقول لهم :

لا يدنبون بالمقول ولكن بأباطيل زخرف كذبوه
وخلاصة ما يقال فى آراء شيخنا الممرى ، انه أراد للانسان أن يكون حرّاً
كل الحر ، لا عبداً ملك ، ولا مال ، حتى ولا للدين ؛ بل عبداً لله وحده :
« كلنا عبيد الله ، فما بال الرجل يقول : عبدي فلان ، والبودية فى عنقه
الزم له من طوق الحماة ؟ »
نحن عبيد الله فى أرضه وأعوز المستعبد الحر

الانسانية وعمل الخير :

وهو يدعو الى انسانية مخلصه ، وغيرية صادقة ، بعيدة عن الآثرة وحب الذات ،
قائمة على الايثار ، وعمل الخير .
أسمعه يقول :

« أعلم سائلك اطيب طعاميك ، واكس العاري أجدر ثوبيك ، وامسح دمه
الباكية بارفق كفيك » .
ولا يرى الكرم ولا الخير ، فى هذه المآذب تقام للأغنياء بطراً وسمحة ، بل يراها
فى اطعام الفقير .

« وأعلم ان الفقراء بطعامك احق من الأغنياء »
ويقول :

« انظر بين يديك ، واجمل الشر تحت قدميك ، واذا دعا السائل فقل لبيك ،
واذا الجأ عدوك الدهر اليك ، فانس حقوقك القبرات ،
وبحس الناس على عمل الخير جهدم :

فانقع أخاك على ضعف تحس به ان التسم ينفع الروح هباب
ويكرر ذلك فيقول :
جد بعرف ولو بالنذر محتسباً ان القناطر تحوى بالقراريط
ويريد للانسان أن يفعل الجليل لأنه حسن في نفسه ، لا لأجل ما وراءه
من ثواب . وهذا أسمى ما يكون من فعل الخير .
فلتفعل النفس الجليل لأنه خير وأحسن لا لأجل ثوابها
وان يخفي احسانه :
والزكاة ، تذهب عن المال الشكاة . فاذا زكيت أموالك فاخفها كل الاخفاء .
وزيد على هذا فيريد للمحسن أن ينسى احسانه :
إذا ما فعلت الخير فانسَ فضاله فانك ما تنسا احبي له ذكرا
واذا كان يريد المحسن على أن ينسى احسانه ، فهو يريد المحسن إليه
أن لا يكون كفوراً ، فيذكر الخير لصاحبه :
عندي خللي اعظام لمتته وانني للذي اوليه محقر
حضه على العمل :

وبعض الناس على السبي والاحتراف ، ولا يريد لهم الكسل والتوكل
باسم الدين :
تروم رزقاً بان سموك متكللاً وادين الناس من يسمى ويحترف
ترغيه في الفلاحة :

وينكر على الناس أن يترفوا عن الفلاحة والعمل في الأرض ،
فيؤنبهم بقوله :
اكرهت ان يدعى وليدك حارثاً يا حارث بن الحارث بن الحارث
تلك الصفات لكل من وطئ الحصا ما بين موروث وآخر وارث
بل يرفع العامل في الملك ، على العامل في الملك (١) : (حارث الارض عند ربه
اوجه من الحارث الخراب (٢) .)

(١) الملك (بالضم) السلطان (وبالكسر) ما يملكه الانسان .

(٢) هو ملك من ملوك كسندة .

ويحترق الصناعة واهلها ، ان يجملوا منها عدة للحرب :
(فما فضيلة الصنعة ، اتخذ قميصاً للحرب ، كبارد الحبيب أو برد الحباب. (١))
تواضعه وأدبه :

ويزين هذا الشيخ في دروس الإصلاح التي يلقها ، هذا التواضع في النفس ، وفي العلم ، يكثر عليه الدليل في شعره وفي ثمره . والتواضع الحق صفة من صفات المصلحين . فمنها قوله في ذلك :
« ان مما يجي لكثير ، فجاز مولاي بالاحسان رجلاً اعلمني بعيب في : اما غيرته ، واما سترته ، او عرفت مكانه فاضمرته . لقد من " علي " ذا كره منة الا ضبط على الرباب ، وقوله :

من لي ان لا اقيم في بلد
يظن لي اليسر والديانة والعلم
اذكر فيه بغير ما يجب
ويضي ويثني
اقررت بالجهل وادعى مهمي
قوم فامري وامرهم عجب
والحق اني وانهم هدر
لست نحياً ولا هم نجب

ويقول :

او كان كل بني حواء يشبهني فبئس ما ولدت في الحضن حواء
هذه لمحات موجزات عن آراء شيخنا الميري في الإصلاح الاجتماعي من نواحيه السياسية والدينية ، والاقتصادية ، لم يتسع الوقت المضروب ، للاكثر منها ولا التبسط فيها . وهي آراء لا تزال الى يومنا هذا ، على جدتها وطرافتها . ولا تزال نحن في أشد الحاجة اليها والى من يبعثها فينا ويحمل بها صادقاً مخلصاً . فيكبح من جراح المستقبل ، ويأخذ على يده - فرداً كان هذا المستقبل ام جماعة - ويحد من سلطان القوي على الضيف ، ومن تحككه فيه ، ويدفع الضالين المضلين من رجال الدين والسياسة عن ضلالهم وتضليلهم ، ويقف عباد المال من عبادة المال عند حد لا يتجاوزنه ، وينبه الشعوب الى حقوقها والى حرياتنا .

ان آراء الميري حق . والحق - على ما قال - كالذهب حسن ، وتقليل ، ولكنه خالد على الدهر .
عارف التكري

(١) الحب ، طرائق الماء ، الحباب جلد الحية .

الحفلة الثالثة في معرة النعمان

على ضريح أبي العلاء

في اليوم الثالث من اسبوع المهرجان (يوم الاربعاء في ٢٧ ايلول ١٩٤٤) أخذ اعضاء المجمع اهبثهم للسفر الى معرة النعمان ، فبكروا الى فندق (اوربان بالاس) حيث اعد المجمع لهم عشر سيارات . فلما تم عددهم وانتظم أمرهم غادروا دمشق مع اعضاء المهرجان في الساعة العاشرة صباحاً . ومضت قافلة السيارات تصعد جبال (القلعون) ، وتقطع أوديتها ، وتتلوى في معاطفها ، حتى بلغت بلدة (النبك) ، فأحب الركب أن يستريح من عناء السفر ، فجلس المسافرون حول عين الماء في حديقة البلدية ، وشربوا القهوة في ظلال الاشجار . ثم انهم لما أخذوا قسطهم من الراحة غادروا (النبك) وانحدروا الى حمص ، فمروا بها — على نية العودة اليها — ، ووصلوا الى حماة في الساعة الثانية بعد الظهر .

وكان السيد خالد الداغستاني محافظ مدينة حماة قد خرج لاستقبالهم ، فاجتمع بهم عند مدخل المدينة ، ودعاهم الى زيارة دار العلم والتربية ، فداروا اليها على الاقدام بين الجماهير المحتشدة في الشوارع ، واستمعوا هناك كلمة الترحيب التي القاها المحافظ باسم مدينة حماة . ثم عادوا الى فندق ابي الفداء حيث اعدت لهم مدينة حماة مأدبة غداء فاخرة القيت فيها كلمة باسم بلدية حماة ، وتكلم فيها الدكتور طه حسين ، والاستاذ أحمد أمين ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والاستاذ طه الراوي ، والاستاذ اديب وهي ، عن مدينة حماة ومهرجان ابي العلاء والجامعة العربية والصلات الروحية والمادية التي تجمع اقطار العالم العربي بعضها الى بعض .

ولما انتهت مأدبة الغداء غادر اعضاء المهرجان في الاصيل مدينة حماة ، فوصلوا الى معرة النعمان في الساعة السادسة قبيل غروب الشمس . وكان نائب المرة السيد حكمة الحراكي قد أعد لهم احتفالاً شعبياً رائعاً . فاستراحوا قليلاً في دار السيد طالب الحراكي عند مدخل المدينة . ثم ساروا الى ضريح أبي العلاء مشياً على الاقدام والجماهير تصفق لهم وتحييهم . وبلغوا القبر في العشية يحيط بهم اهل المدينة

كبارهم وصغارهم في موكب مهيب لم تشهد معرة النعمان مثله ، وترمقهم اعين النساء من شرفات المنازل بنظرات ملؤها الفرح . ثم انهم جلسوا على المقاعد التي اعدت لهم حول الضريح ، وبدئت الحفلة بمشعر من القرآن الكريم اوله : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عندنا الله اتقاكم ، ان الله عليم خبير » . ثم القى الدكتور طه حسين كلمة بدأها بتلاوة آيات من قصيدة ابي الملاء الخالدة .

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح بك ولا ترنم شاد
واشار فيها الى مذهب ابي الملاء في اعتزال الناس ، واقتفائه الوحدة وحرصه عليها . قال : لقد وجد ابو الملاء ان خير ما يصنعه لنفسه في الحياة عزلة تبعده عن الناس . ولكنه لم يكف يدأ سيرته في الاعتزال حتى اخذ الناس يسمون اليه ويلتفون حوله . فشقي في حياته بالناس . وها هو يشقى بهم بعد موته ، ويخفق في طلب العزلة . لقد سجن نفسه في بيته حباً بالزهد واعراضاً عن المجد ، فهل يرضيه ان يجتمع الناس حول قبره ويقيموا له هذه الاحتفالات لا للمعري لو ترك الأمر لأبي الملاء لما اراد شيئاً من هذا .

ولما انتهى الدكتور طه حسين من مناجاة ابي الملاء تلا السيد محمد الشربقي قصيدة الاستاذ معروف الرصافي وعنوانها « شاعر البشر » ، وكان شاعر العراق قد أرسلها الى المجمع ، وقد حال المرض بينه وبين حضور المهرجان لتلاوتها بنفسه . ثم القى الدكتور مهدي البصير كلمة عنوانها : على قبر ابي الملاء . ولما انتهت الحفلة الخطائية دعي اعضاء المهرجان الى مأدبة عشاء أعدها لهم السيد حكمة الحراكي فساروا في القبة الى بيته وشهدوا عنده من صنوف الكرم العربي ما يعجز القلم عن وصفه . ثم ان اعضاء المهرجان ساروا بعد ذلك الى حلب في ليلة قراء ساكنة ، فوصلوها بعد منتصف الليل . وكان محافظ المدينة لا يزال واقفاً بانتظارهم ، امام فندق (بارون) ، مع لجنة الاستقبال . فاستقبلهم بحفاوة بالغة ، ثم أوى كل واحد منهم بعد فترة قصيرة من الزمان الى الغرفة المدة له في الفندق ، فتوسد الراحة بعد عناء السفر الطويل . وفيما يلي قصيدة الاستاذ معروف الرصافي وكلمة الدكتور مهدي البصير .

جميل صليبا

شاعر البشر

حيّ هل يا أخا مضرٍ ندّكر خير مدّكرٍ
 ندّكر شاعر البشرٍ خير من قال واftكرٍ

حيّ هل ايها الملا نحّي ذكرى ابي الملا
 شاعر شعره اجتلى صوراً كلها غرورٍ

فكره يعلّو الفضأ نفسه صعبة الرضا
 دونه كل من مضى دونه كل من غبرٍ

هو بالفكر مدّ سما كان من نوره العمى
 طاول الأرض والما شارف الشمس والقمرٍ

حلّ في ذروة الادبِ آتياً منه بالمجبِ
 لا تقل شاعر العربِ انه شاعر البشرِ

جعل الشعر وحيه موقظاً فيه وعيه
 ما ورى فيه وريه قبله كل من شعرٍ

حكّم العقل واجتهد وتعالى عن الفندِ
 هو في القول ما اعتمد غير ما ذاق واختبرِ

شعره شف عن دها ما له فيه منتهى
 ذو معان هي التهى وحروف هي الدرّ

جعل الصدق ديدنا تاركاً هذه الدنى
 ان تنامى او ادنى فهو للحق ينتصرِ

عيشه عيش زاهد نفسه نفس واجد

فكره ففكر ناقد مبعد الفكر والنظر
صبر الحق ذوقه باذلاً فيه طوقه
شاعر ليس فوقه شاعر من بني البشر
خطاً سفيراً به ابتغى غنية الروح بالرغى
جامعاً افصح اللغى حاوياً اكبر المعرى
شاعر الارض والسما هو بالذكر مذ سما
ابصر الحق بالمعى لم يضره عمى البصر
هو بالشعر ان شدا يتجلى لك الهدى
'مدركا' أبعد المدى بالمعاني التي ابتكر
جانب الناس واعتزل قائلاً انهم حمل
شرم غير محتمل خيرم غير منتظر
ما بهم غير حاسد دائب في المكائد
مبتغى كل واحد منهم الجور ان قدر
ليس للصوت عنده من تقاريع بده
ان عرا الحى رده فاقد الحس كالحجر
شعره شعر متقن فيه شك لموقن
فيه كفر لمؤمن فيه ايمان من كفر
نحن اسرى ذواتنا خشية من مماثنا
كم وكم في حياتنا مبتدا ما له خبر

معروف الرصافي

على قبر أبي العلاء

سيدي حكيم المعرة بل حكيم العرب قاطبة .

ألا ليأذن لي السادة المحترمون الذين حملهم الإعجاب بك والاكبار لك على أن يحجوا إلى قبرك في هذا الموكب الحافل بمناسبة مرور ألف سنة على ميلادك ، أن أفرغ لمناجاتك ، وأتجرد لمخاطبتك ، وما أظن بأن الدقائق القليلة التي يسمح لي بها حجاج قبرك الكرام والتي أستطيع فيها أن أناجيك وأن أخاطبك تكفي للاعراب عما توحيه إلي في هذه الساعة ذكراك الخالدة ويشير هذا المشهد الرائع على قبرك في نفسي من شتى الخواطر والافكار وضروب الأحاسيس والانفعالات .

سيدي أبا العلاء

إن العراق الذي تجشمت اليه الأخطار وركبت له متون الأهوال وقصبت في ربوعه زمناً غير قليل وعاشرت علماء وأدباء وشعراء معاشرة طويلة فعرفتهم وعرفوك وأحببتهم وأحبوك رفع لك على لسان هذا العاجز خالص ولائه وصادق إعجابه راجياً جميل صفحك إن كان قد وقع له معك في اثناء زيارتك له ما لا يرضيك عنه أو ما لا يرضيه هو عن نفسه شاكراً

كريم إحساسك ورقيق شعورك نحوه في قولك مودعاً أبناء عاصمته :

أودعكم يا أهل بغداد والحشا على زفراء ما بنين عن اللذع
وكان مرادي أن أموت لديكم حميداً فما الفيت ذلك في الوسع

وقولك متشوقاً إلى أصدقائك الأوفياء فيه واليه :

سلام هو الاسلام زار بلادكم ففاض على السني والمتشيع
كشمس الضحى أولاه في النور عندكم وأخراه نار في فؤادي واشتلي

يفوح إذا ما الريح هب نسيمها شامية كالنبر المتضوع
 نعم حبذا قيظ العراق وإن غدا يؤجج ناراً في مقيل ومضجع
 فكم حله من أصمغ القلب آيس بطول ابن أوس فضله وابن أصمعي
 أحسن لذكره وأحفظ غيه وانهض فمل الناسك المتخشم
 إنه لفخر للعراق يا سيدي الحكيم ما بعده فخر أن يترك هذا الانطباع
 الحميد في نفسك وأن يحتل هذه المكانة الرفيعة من قلبك وأن يظفر بهذا
 النصيب من ثنائك وتقريظك .

ايها الفيلسوف الكبير

إن الشرق العربي الذي أقت نفسك مصباحاً له تنير أمامه السبيل
 وأنت تحترق فجل فضلك وأنكر فلسفتك واتهمك في دينك وطاردك في أيام
 حياتك وبعد مماتك ما وجد إلى مطاردتك سيلاً، قد أدرك اليوم خطأه وتبين إسراره
 على نفسه فلستمأض عن خطأه بصوابه وعن ضلالته بهداه وعن غيه برشده
 وهو اليوم يؤمن بمبادئك ويصدق بتعاليمك ويشمر من أعماق نفسه أنك
 رسول أمين من رسل المحبة والحنان والرحمة . على أنه إن آمن بمبادئك وصدق
 بتعاليمك فأتما يؤمن بما فيه خيره ويصدق بما فيه صلاحه وفلاحه . وقد
 يدهشك يا سيدي الحكيم أنه لم يصحح رأيه فيك إلا بعد مرور ألف سنة
 وقد تقلقك منه هذه الأناة في تصحيح الاخطاء فأطمئنتك بأن ثقافته قد
 تقدمت وأن معارفه قد اتسعت وإنه سيقضي من الآن فصاعداً في تصحيح
 الخطأ الواحد أقل من ألف سنة .

ايها الفيلسوف الكبير

إن القرون العديدة التي مرت منذ وفاتك لم تزد مبادئك إلا سمواً
 وتعاليمك إلا قوة ورسوخاً ، « فديكارت » لم يزد على أن كرر للعالم مادعوته
 إليه مائة مرة من تقديس العقل وتمجيده وتحكيمه في كل صغيرة وكبيرة من
 شؤون الدنيا والدين على السواء ، وكلمته الشهيرة (أنا أفكر ، إذن أنا
 موجود) ليست إلا تكراراً غير مقصود لكثير من أمثال قولك :

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهداً وارحل عنهما إمامي سوى عقلي
 « وروسو » لم يزد في دعوته الى الإصلاح السياسي على أن أيد آراءك

وكرر أقوالك ودما الناس إلى اعتناق تعاليمك ، إذ كل مادما اليه في هذا الباب أو جله هو أنت يتمتع الناس جميعاً ببحرية الفكر والقول والعمل وأن يكونوا متساوين في الحقوق والواجبات وأن يكون الشعب مصدر السلطات جميعاً اليه يرجع الحكم فيما يدبرون من مشؤونه ويصرفون من أموره. لأمره يخضعون وبرأيه يهتدون ، وقد سبقته إلى تقرير هذا كله في لزوم ما لا يلزم . فما أعرف كلمة أبلغ في انكار التحكم في الحريات من قولك :

إذا قلت المحال رفضت صوتي وإن قلت اليقين اطلت همسي
ولا اعرف كلمة أبلغ في تقرير المساواة من قولك :

لا يفخرن الهاشمي على امريء من آل بربر
فالحق يحلف ما علي عنده إلا كقنبر

ولا أعرف كلمة أبلغ في تحديد علاقة الحاكمين بالحكومين من بيتك الجاري على كل شفة ولسان ألا وهو :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها
وسبقك الى ما جاء به ديكارت ورسو يعني انك تمثل ببقرتك التي لا حد لها مدمستين ها من اعظم المدارس الادبية في العالم انت لم نقل اعظمها ، هاتان المدرستان هما اللتان تدعيان « الاتباعية والابتداعية » ، وأخيراً أقفل تولستوي في تنازله عن املاكه ومشاركته المال والفلاحين في حياتهم المشقة الا ما فعلته في تنازلك عن مال المرة عندما آل أمرها اليك وانفاقه على الفقراء وذوي الحاجة من أبنائها وانت تقول :

سولت لي نفسي أموراً وهيها ت لقد خاب ذلك التسويل
ويقول النواة خولك الا ————— كذبتهم لغيري التخويل
ان حباك القدير كالنيل تيراً فليفضه العطاء والتويل
لا تمول على اختزان فما للبــــــــــــــــــــدر الصفر أثر ميت عويل

أما رأيك في الناس فلا يمر عصر أو جيل — أستغفر الله — بل لا يمر يوم حتى يقوم البرهان تلوا البرهان على انه صحيح كل الصحة مصيب كل الإصابة فليس من شك في أنهم اليوم كما كانوا على عهدك وكما كانوا منذ

وجدوا على ظهر هذه البسيطة أهل لما سددت اليهم في سقط الزند ولزوم
 مالا يلزم من سهام فقدك الجارج خلقاء بما وصفتهم به من حرص على المال وتهافت
 على الجاه وتكالب على المطامع والشهوات . لم يعصمهم علمهم من رذيلة ولم يعطهم على
 فضيلة ، قد كبرت عقولهم وصغرت نفوسهم وانسعت مداركهم وضاعت افئدتهم ،
 وحسنت مظاهرهم وساءت سرائرهم ، وقد جرفتهم مطالبهم الأشعبية فزجت بهم
 في حرب قضت على جانب كبير من عمران مجتمهم وذبحت بحياة الملايين من رجالهم
 وسبيت الشكل واليتم للملايين كثيرة من نسايتهم واطفالهم وحرمت المجتمع ملايين
 عديدة من الأيدي العاملة وانحنت جسم المدنية بجروح قد لا يشفى منها الا بعد
 عشرات الأعوام . وقد كانوا على عهدك يكتفون بالنشابة سلاحاً وبالحرية اداة
 فتك وبطش ، اما اليوم فهم يترامون بالقذائف المحرقة في اعماق البحار ويتراشقون
 بها في جوف السحاب ، ماذا أقول لك ، بل أنهم يقصفون المدن الآمنة ويضربون
 النساء والشيوخ والأطفال بقنابل زنة الواحد منها اربعة اطنان حيناً وستة اطنان
 حيناً آخر ، اي أن قنبلة واحدة من هذه القنابل لو سقطت على المرة لاصبح الله
 لتركها أثراً بعد عين .

وما احدثك به عن الناس من بعدك احدثك به عن الحياة وهي على كل حال
 حياتهم وثمره جهادهم ، وتفكيرهم ونتاج أخلاقهم وعاداتهم واعمالهم واحوالهم فما
 عسى أن تكون بعد ذلك ومع كل ذلك ورغم كل ذلك يمكنكني أن اروي لك خبراً
 مفرحاً جداً ، خبراً يملأ قلبك سروراً ونفسك حيوراً ، هذا الخبر ياسيدي
 الحكيم هو خبر اجتماع مندوبي الأمم العربية في الأسكندرية للتشاور في اعاده
 تنظيم الوحدة العربية ، وانه لمن بدائع الصدف ومحاسن الاتفاق ان تفتح هذه
 المفاوضات في نفس الوقت الذي يحتفل فيه العرب بمرور الف سنة على ميلادك
 كأنهم بذلك يقيمون البراهين المختلفة على حيويتهم وفاعليتهم في وقت واحد . أجل
 ياسيدي الحكيم ان العرب الذين ساءك تواكلهم وتخاذلهم والاحلال ملكهم وسطوتهم
 فندبت سوء حفظهم في العراق والشام لملاقاة المباشرة بهذين القطرين بقولك :
 ان العراق وان الشام منذ زمن صفران مافيهما للملك سلطان
 قد دشروا اليوم بدم الحياة يجري في عروقهم مرة اخرى فاتففوا من مراد

الحول ونهضوا من كبوتهم البميدة المدى وراحوا يملون بكل ماوتو من قوة على
 لم شعثهم ورأب صدعهم واصلاح بلادهم وتنظيم شؤون مجتمهم وهم مقتنمون في
 قرارة نفوسهم بأن توحيد بلادهم بشكل من الاشكال هو الطريق الوحيد لتحقيق
 كل هذه الأغراض وبلوغ كل تلك الغايات لذلك يجتمع مندوبهم ورؤساء
 حكوماتهم اليوم في ارض الكنانة ليعملوا على تحقيق هذه الرغبة الشاملة التي
 مضت عليها الأعوام الكثيرة دون أن تخرج من حيز الأثماني والأحلام . هذا هو
 احسن خبر يمكنني ان اروي به لك عن هذه الدنيا الغانية ، فان شرك واطمأنت اليه
 ففسك وهذا مالا اشك فيه فسل ربك ان يشد ازر القائمين بالدعوة الى الوحدة
 العربية وان يثبت اقدامهم ويكمل جهودهم بالتوفيق الكامل والنجاح التام ، فان في
 ذلك فوائد لا تحصى ومنافع لا تحصر لعشرات الملايين ممن يتكلمون لغة اللزوميات
 ورسالة الغفران .

الا لتمش ذكراك ايها الفيلسوف الأكبر ، ولتمش الوحدة العربية .

مهدي البصير

الحفلة الرابعة

في حلب

في الساعة العاشرة من يوم الخميس في ٢٨ ايلول ١٩٤٥ زار أعضاء المهرجان قلعة حلب ، ومتحفها ، ومكتبتها الوطنية ، وغير ذلك من الأماكن . ثم زاروا دار الحكومة في الساعة الثانية عشرة ، فحيتهم موسيقى الدرك عند وصولهم ، واستقبلهم محافظ حلب السيد احسان الشريف استقبالاً رسمياً ، ثم عادوا بعد ذلك الى فندق (بارون) ، حيث تناولوا طعام الغداء على الانعام الموسيقية التي عزفتها فرقة دار الايتام . وكانت لجنة المهرجان قد أعدت المدة لاقامة الحفلة الخطابية الرابعة في باحة مدرسة التجهيز . فلما دنا موعد الحفلة ، زار أعضاء المهرجان ضريح المنفور له الزعيم ابراهيم هنانو ، وانتقلوا منه الى مكان الحفلة . وكانت باحة مدرسة التجهيز مزينة بالاعلام السورية ، واعلام الدول العربية ، والانوار الكهربائية على أشكال هندسية مختلفة ، فلما دخلها أعضاء المهرجان استقبلهم المدعوون بالتصفيق ، فجلسوا على المقاعد الخاصة المدة لهم حول منبر الخطابة ، وكانت اللجنة قد نصبت حوله مكبرات الصوت لإذاعة الخطب على الجماهير ، وعرضت امامه تمثالاً كبيراً لأبي الملاء صنمه احد الفنانين في حلب . وكانت باحة المدرسة غاصة بالمدعوين ، وكلهم من عليّة القوم ، جلسوا على صفوف دائرية متوازية تلتقي اقطارها في المحل الذي اقيم عليه المنبر . واحاطت الجماهير بمدرسة التجهيز من كل جانب لاستماع الخطب حتى زاد عدد الشهود على ثلاثة آلاف .

وبدئت الحفلة بالنشيد السوري في جو ملؤه الروعة والجلال ، فالتى محافظ حلب كلمة ترحيبية أشار فيها الى حق مدينة حلب في الاحتفال بذكرى أبي الملاء لقرىها من معرة النعمان ، ولصلة صاحبها صالح بن مرداس بابي الملاء وما كان من شفاعته ابي الملاء عنده . قال : وان الشهباء عاصمة سيف الدولة التي كانت تظل المعرة بظل وارف ، وتكلؤها بعين رؤوم ، لتفخر اليوم بشاعرها الحكيم ، وفيلسوفها العميق ، كما انها ترحب باعلام الفكر الذين وطئت اقدامهم ارضها لمشاركتها في الاحتفال بذكرى شاعرها .

وتتابع الخطباء بعده على الوجه الآتي :

١ - الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني أبو الملاء شاعر انساني

- ٢ - الأستاذ طه الراوي
ممثل وزارة المعارف العرفية
- ٣ - الأستاذ عمر أبو ريشه
الفيلسوف (قصيدة)
- ٤ - الأستاذ سامي الكيالي
الاضطراب السياسي في عصر
أبي الملاء وأثره في بيئته وشعره
- وطلبت لجنة المهرجان في نهاية الحفلة الى الدكتور طه حسين أن يتكلم فألقى
كلمة بليغة عن فن أبي الملاء أشار فيها الى قدرة أبي الملاء على استعارة المعاني
والاصطلاحات من علماء الشعر والصرف والمروء والفقه والفلسفة ، وحذقه في
قلب هذه الاصطلاحات المستعارة الى تشبيهات شعرية جيدة مع انها في نفسها ابعد
ما تكون من ظرف الشعراء . كقوله :
- مالي غدوت ككاف رؤبة قيدت في الدهر لم يقدر لها اجراؤها
وقوله : اعللت علة قال وهي قديعة اعياء الاطبة كلهم ابراؤها
- قال : لقد ظلم الناس ابا الملاء في حياته ، وظلمه الأدياء بعد موته ، فمن قائل
انه فيلسوف لاشاعر ، ومن قائل انه شاعر لا فيلسوف ، ومن قائل انه لاشاعر ولا
فيلسوف ، وعندي ان ابا الملاء يسمو على كل هذا لانه جمع من صفات البقرية ما لم
يتح لغيره ان يجمعه فتمنيز ذلك تحليل شعره وورده الى اصول معروفة وقوالب موصوفة .
- وتخلل الحفلة قطعة موسيقية رمزية للاستاذ سامي الشوا استمع اليها الجمهور
بصمت عميق . وكانت حفلة حلب من أجمل الحفلات التي تجل فيها الذوق والشعر
والموسيقى في أجلى مظاهر السحر والجمال .
- ولما انتهت الحفلة الخطابية ، دعي الأعضاء الى حفلة عشاء ، اقامتها لهم مدينة
حلب في فندق (بارون) ، حضرها وجهاء حلب ، وعلمائها ، وأدباؤها . ثم اجتمع
الأعضاء بعد حفلة العشاء على سطح الفندق ، وشهدوا العرض الكشفي الذي اقامته
فرق الكشف في حلب ، بموسيقاها الكشفية ، ومشاعلها النارية ، في نظام حسن
وترتيب مهيب . واحتشدت الجماهير بعد ذلك امام الفندق ، فحلا العرض الكشفي
مهرجان شعبي دل على مشاركة مدينة حلب كلها في مهرجان ابي الملاء ، وفرحها به
وحبها للعلم والأدب ، وميلها الى تكريم رجاله وابناسهم .
- وفيا يلي نص الخطب التي القيت في الحفلة الرابعة .

جميل صليبا

م (١٠)

أبو المراء شاعر انساني

اصمحوا لي — قبل أن أدخل في الموضوع — أن أتوجه بالشكر الى المجمع العلمي العربي الموقر على تفضله بدعوتي ودعوة نقابة الصحفيين المصرية التي أولتني شرفاً عظيماً بندي لتتميلها في هذا المهرجان التاريخي . وكنت لما تلقيت دعوة المجمع الكريمة منذ شهر لا أرى أن الحال تسمح بتليتها ، ثم رأى مجلس النقابة أن ينييني عنه ففاجأني مفاجأة سارة فله مني الشكر على ما أعان ويسر . ولعل ممسا يسركم أن أبلغكم أن رجال الصحافة المصرية مجتمعون اليوم . وفي هذه الساعة بناديبهم بمصر وان كلتي تتلى عليهم الآن لا لقيمتها بل على سبيل التأكيد لشاركتهم لكم في الاحتفال بذكرى هذا الشاعر الجليل .

والشكر أولاً وآخرًا . لحكومة سورية الشقيقة على ما الطفتني به وخصنتي من التسهيل والتذليل . وما نفعتني لا مسئولة ولا مكلفة . ولو لا حسن صنيهما لكان الأرجح أن لا أدرك الاحتفال في حينه .

وأرى بعد ذلك واجباً أن أصحح خطأ غير مقصود . مرجعه الى آفة لا بُدَّ لي منها على ما يظهر . فقد كنت كتبت قبل حضوري الى الاستاذ الجليل محمد كرد علي بك رئيس المجمع الموقر أقول له أن عنوان موضوعي هو « أبو المراء شاعر انساني » والواقع اني كنت الى ذلك الوقت حائرًا لا أهندي . ولا أدري أية ناحية من أبي المراء يحسن بي أن أتناولها . وزاد حيرتي علمي أن معظم أعلام الادب قد وفدوا على دمشق ليقولوا في الميري . ويقيني انهم لم يتركوا لي باباً أدخل منه أو كوة صغرة أنفلت منها . وكان الوقت قد ضاق . والمراجعة الواجبة طويلة . والمشاكل لا هينة ولا قليلة . والعنوان آخر ما أكتب . وهو على كل حال شيء لا أحسنه . ولقد أخرت كتابا لي في المطبعة سنة كاملة حتى وقفني الله فاهتديت الى اسم له . وأصارحكم اني ماتسنى لي أن أكتب كلتي هذه الا قبل مقدمي اليوم

واحد فأنا لهذا أخشى أن يكون عنوان كليتي مضللاً أو اسماً على غير مسمى ولهذا وجب التنبية وإبراء الذمة - أما الموضوع الذي سأتلوه فلا أدري ماذا أدعوه وكل ما أدريه اني أحوم فيه وألوب حول أبي العلاء .

يرجع عهدي بأبي العلاء الى أيام الطلب والتحصيل - أي الى نحو خمسة وثلاثين عاماً أو تزيد - ولعل الاصح أن أقول الى بداية أيام الطلب فما اعرفها تنتهي أو تنتهي الحياة نفسها . وما زالت الدنيا مدرسة لا يتخرج فيها المرء ولكن يخرج منها . وما فتئت أرجع اليه حيناً بعد حين . حتى تقضى من المعرفه شطراء وأطيهما . وأطولهما فيما أخشى . فما يتكافأ شطران من عمر تكافؤ شطرى بيت منظوم . ولا يلتزم ربنا معنا ما يلتزم شمرأونا من الوزن والقافية . فلا تنفك أوزاننا تتغير وتتغير وتتفاوت . ولولا ذلك لضقنا بانفسنا وسئمنا أن تجري حياتنا على استواء . وعسى أن تكون هذه حجة لمن يضجره استواء البحور العربية .

وأذكر أننا كنا في الفرقة النهائية للتعليم الثانوي . وكنا ذات يوم نمر ب أيباناً للمعري في الفخر - ما أقل ما كان يفخر - فدخل علينا المرحوم عاطف بركات باشا - وكان يومئذ مفتشاً للغة العربية . وكانت فيه صراحة تلتبس بالفاظظة والجفوة - وقال : « اسمعوا . هذا الشعر يصلح للإعراب ككل شعر آخر . ولكنه من أردأ ما قال المعري وسأحدثكم عنه حديثاً وجيزاً أوجهكم به اليه . فانه شاعر جليل القدر . مني في حدائته بذهاب بصره فخل بينه وبين السمي والتصرف وعكف على الدرس لا يشغله عنه شاغل وتوفر على ما كان في زمانه من علوم وآداب وفنون . حتى الرياضيات والموسيقى والفلك . فلم يكدر يفوته شيء . ولزم بيته وسمى نفسه رهين الحبسين . محبس الدار التي لا يفارقها . والعمى الذي لا يفارقه . وراح يتفكر ويتدبر . ويملي ما يدور في خاطره ويضطرب به فؤاده . فله شأن غير شأن من سبقوه وتلوه من الشعراء الذين يتكسبون بالشعر ويتخذونه أداة للرزق . وقد جرى غيره قليلاً في البداية ثم كف وأقصر . وستحتاجون وأنتم تقرأونه الى المعجم فان الشيخ كان يتكلف الإعراب . على أن المعجم لاغنى عنه لقاري الأدب العربي وستجدون أبا العلاء فيما عدا ذلك أصفى من الجدول الرقراق »

فكان أن اقتنيت سقط الزند والذروميات وعكفت عليها . وما أظن به الا أنه قوى في نفسي ميل في أيام الشباب الى التشاؤم . وأعداني بخواطره السود .

ولكنه علمني أن أنظر بعيني . وأفكر بعقلي . وصدني عن التقليد والمحاكاة . وحبب إلي الخير والرحمة والانصاف . وبنض إلى الظلم والبنى وأن كان لم يهديني . وله المنر فما كان اهتدي حتى يهتدي سواء .

ولم يتغير رأيي فيه بمد أن زدت خبرة بالحياة وتجربة للدينيا . واطلاعا على الأدب . فما زال عندي في المحل الأول بين الشعراء . وإن كان لا يمجني بأسه من الخير والصالح . وعزوفه عن الدينيا . ونكوصه عن الضرب في زحمة الحياة . ولكني أفهم دواعي ذلك وأعذره . ولا شك في أن الزهد والاعتزال ينافيان الطباع حتى في الحيوان . ولكنه لم يكن زاهداً وإنما كان يتزهد . ويشيح بوجهه عامداً . وروض نفسه على الحرمان . أو كما يقول الميحي في « روض نفسه وقنمها على الكفاف فماد شماسها انقياداً . وألقت اليه مقاداً . » ولا بد أن تطلع نفسه وفيه بقية من حب الدنيا وليس هذا بصحيح كل الصحة أعني أن نفسه لم تلق اليه مقاداً ولم يمد شماسها انقياداً . كما سنرى .

وقد عرف عنه أنه في سباه كان يلهو ويمث . ويلعب الشطرنج والترد . وهو القائل بعد أن تقضى الشباب :

ألم ترني حميت بنات صدري	فما زوجتهن وقد عفسنه
ولا أبرزتهن الى أنيس	إذا نور الوحوش به أنسنه
وقال الفارسون حليف زهد	واخطأت الظنون بما فرسنه
ورضت صماب آمالي فكانت	خيولاً في مراتها شمسنه
ولم أعرض عن اللذات الا	لان خيارها عني خلسنه
ولم أر في جلاس الناس خيراً	فمن لي بالنوافر ان كفسنه

فهو كما ترون يخطي* أهل الفراسة الذين يزعمونه حليف زهده . ويقول إنه راض صماب آماله فظلت كالفرس الشمس الذي يمنع الراكب ظهره . وما أعرض عن اللذات الا لأن خيارها تقوته . وهو يشتهي أن يأنس بالناس ولكنهم كالظباء النافرة التي تدخل كناسها . وكان واسع المطامع ففاته أن يكون بميث يحب فنفر وآثر العزلة .

وقد صاح مرة :

أبائي نبي يحمل الحجر طلقه فتحمل ثقلاً من همومي وأحزائي ؟

ثم أتم الاحتشام والتحمل وكره لنفسه أن يسكر ويخف عقله فقال :
 وهيات لو حلت لما كنت شارباً مخففة في الحلم كفة ميزاني
 وهو كثير التحديث لنفسه بالخر . يأسف مرة على حرمانها فيقول :
 تمنيت أن الخمر حلت لنشوة تبهاني كيف اطمانت بي الحال
 ونارة يكرر بغير داع أنها لو كانت حلالة لما شربها . فيقول :
 لو كانت الخمر حلالة ما سمحت بها لنفسي الدهر . لا سراً ولا علناً
 فليغفر الله . كم تطفئ مآربنا وربنا قد أحل الطليات لنا
 وهو في رسالة الففران يصف مجالس الخمر والمناذمة عليها ويقول انما لذة
 الشرب فيما يعرض لهم من السكر . ولو لا ذلك لكان غيرها أعذب .
 وهو القائل أيضاً :

ولولا أنها باللب تودي لكنت أذا الندامة والنديم
 وقال في ذمها والتحذير منها :
 البابلية باب كل بليّة فتوفين هجوم ذاك الباب
 جرّت ملاحاة الصديق وهجره وأذى النديم وفرقة الأحباب
 أم الحباب . وان أميت لهيها بمزاجها وافق كأم حباب
 هتكت حجاب المحصنات وجشمت مهن المبيد تهضم الأرباب
 وتوهم الشيب المدالف أنهم لبسوا على كبر برود شباب
 واذا تأملت الحوادث الفيت صهب الدنان أعادى الألباب
 وقال أيضاً في هذا المعنى :

هي الراح . أهلاً لطول الهجاء وان حصها معشر بالمدح
 فلا تمجبتك عروس المدام ولا يطرنبك من مدح
 ومن يشقّد له ساعة فقد بات فيها بمخطب مدح
 قبيح بمن عدّه بعض البحار تفريقه نفسه في قبح
 وقال في الدنيا التي عالج الانصراف عنها

أها الدنيا لحالك له من ربة دل
 ما تسلي خلدي عن ك وان ظن الأسلي

وقال أيضاً :

طالب صبري فليل أكنم شبعاً ن وإني لمنطو طيان
أي جائع متمدد للجوع .
وقال يصف مجاهدته نفسه

مهجتي ضد يحاربني أنا مني كيف احترس ؟
وقال :

حبستك أقدار ذوتك عن المنى فضى الصحاب وأنت ناو جالس
وقال :

وما يترك الانسان دنياه راضياً بمن ولكن مستضماً على قسر
وقال :

والعز في الثروة . والعيش في الـ حبرة . والحرفة في الهبرة
وقال :

تنازعني الى الشهوات نفسي فلا أنا منجح أبداً . ولا هي
وقال :

أريد ليلان العيش في دار شقوة وتأتي الليالي غير بخل وايان
ويعجني شيطان . خفض وصحة ولكن ريب الدهر غير شياني
وما جبل الريان عندي بطائل ولا أنا من حود الحسان بريان
وفي رسالة الغفران . مجمل ابن الفارح يلتقي باثنين من الحور من الضرب
الذي نقله الله من الدار العاجلة لما عمل من الأعمال الصالحة . فيقبل على كل واحدة
منها يتشرف رضاها فيبيحه ذلك الى ما به . ويصبح . ان امرأ القيس لمسكين .
مسكين . تحترق عظامه في السعير وأنا أتمثل بقوله :

كأن المدام وصوب الغنام وريح الخزامى وصوب القطر
يعمل به برد أنيابها اذا غرد الطائر المستحر
ولا يزال الميري في هذه الرسالة يلتفت الى مواضع مينة في جسد المرأة ولا
يخلو هذا من دلالة .

وفي « الفصول والغايات » تقرأ له كثيراً من أمثال هذه الكلمات .
« يا أرض ، لا قرض عندك ولا فرض . أودعت المال فرددته سالماً . والخليل

فأكلته راغماً . ليتك أكلت المال ورددت الخليل . انما أنا كرجل يلي بالصدى
(المعطش) لا يجد ورداً ولا مورداً . فهو ظآن أبداً .
أي لا يجد نصيبه من الماء ولا موضعاً يردده فيطفيء ظمأه .

وان الله خلقني لأمر حاولت سواه فألفيت المبهمة بغير انقراج . وغطام ابن
المامين أيسر من فطام ابن الأعوام . وأعيى تأديب الهرم على الأدباء . وقد
صرفت نفسي في الشبية فألفيتها صاحبة جماع . فالآن وقد اسمأت الظلال
(قصرت) ان تركتها أسفت . وان زجرتها فلا انزجار . كأن كلامي سفير
الريح (ماتكنسه من الورق) ملها اليه التفات . وقد سئمت الحياة . وأخاف
أن أقفل فأقدم على ماحزن وساء . وأنا أغفلت الحزم ملت عن الجدد ومشيت في
الخباء . وقد خلصت من الجبال فكيف عدت . وعلى علم وضعت القدم في النار .
أحلف يانفس . ولك الحلف . لقد ضيعت آخرتك ودنياك . ما فوق رجل امن الله
وخشي الناس . اسمى للنفس فيما تكره كأنني لها غاش . أنا وهي شيء لا يناز . تتراد
الملامة كأننا اثنان . تلك محارة في حور . ان جنت علي . أو جنيت كيف يقع
القصاص ؟ أفنيت الشبية سوى سواد قد آن له أن يبدل بياض . . الخ

ولا داعي للاكثار من الشواهد . فان أبا العلاء انسان . وليس بإنسان من
لا يشتهي الحياة الرضية . والمتعة المرضية . والسلامة من اليأس والضراء . وأن أبا
العلاء لانسان عريق في الانسانية . يحب الحياة كأنحبها جميعاً . وبفزع المصير
الذي لامه مني عنه ولا مهرب منه . تأمل قوله :

وكلكم ييدي لدنياه بفضه على أنه يخفي بها كمد الصب

وقوله :

تبني الثراء فتعطاه وتحرمه وكل قلب على حب النقي جبلا
لو أن عشقك للدنيا له شبح ابدقه لملأت السهل والجبلا

وقوله :

اشربت جبك لا ينفيه عن حسدي سوى ثرى لدماء الانس شراب

وقوله :

وصدقت هذا العيش في حيي له واغترني بخداعه وكذابه

وقوله :

شقيناً بدنينا على طول ودنا فدونك مارسها حياتك راشقها
ولا تظهرن الزهد فيها فكلنا شهيد بأن القلب يضم عشقها
وقوله في « الفصول والغايات » أيها الدنيا البالية . ما أحسن ما حلتك الحالية .
ابن امك الخالية . ان نوبك لتواليه . والنفس عنك غير سالية .
« كسيت الحدادة فأبليت . واعطيت الصحة فعمليتها . ما خلوت من الجرائم ولا
خليتها . قلنتي دنياي فما قليتها . اكلتها فما اكلتها (راقبتها فما اصبحت شيئاً)
« اسب نفسي وتسبني . واريد الخير لا ينجيني . احب الدنيا كأنها تحبني .
والحرص يوضعني ويخني . والمزينة عن الرشد تذبني »
« ويحي كل الومح . أحب الدنيا وآلتها ليست في » . وقد يشت من بلوغها
والياس مريح . فالام التشوف الى الضلال »

ومن فرط حبه للحياة وتعلقه بها وحرصه عليها وأسفه على ما فاتته فيها وحرمة .
كان جزعه من الموت . واستهواله له . وطول تفكيره فيه وفيما يليه . وحيرته بين
الجبر والاختيار ، وشكه في كل شيء* الا أن الموت حق ومصير محتوم :
إذا ما تباشر أهل الغلام به فالتباشر معنى هلك
ألم تريا أن سلك الزمان أفنى السليك وأفنى السلك؟
يمر الحول بعد الحول عني وتلك مصارع الأقوام حولي
كأنني بالأولى حفروا لجاري وقد أخذوا المحافروا تحوالي
سيسأل ناس ما قریش ومكة كما قال ناس ماجدیس وما طسم
أرى الوقت يفني أنفسا بفنائها فيمحو . فما يبق الحديث ولا الرسم
تبكى على الميت الحديث لأنه حديث وينسى ميتك المتقادم
لو كان ينطق ميت لسألته ماذا أحسن . وما رأى . لما قدم
إذا الحي ألبس أكفانه فقد فنى اللبس واللبس
ويلى الحميا فلا ضاحك إذا سر دهر . ولا عابس
ويجس في جدث ضيق وليس بمطلقه الحابس

فما هو في سلف سائر ولا هو في حنّس قابس
 يجاور قوما أجادوا المظلات وما فيهم أحد نابس
 أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا
 ومدّ وقتي مثل القصر غابته وفي التراب تساوي الدر والبرد

ففي الواتر والموتور . وعند الله علم المذهبين

ولا آخر لقوله - شمراً وثراً - في الموت والفناء . حتى الكواكب لا منجاة
 لها من هذا المصير .

يجوز أن تطفأ الشمس التي وقّدت من عهد عاد وأدّى نارها الملك
 فان خبت في طوال الدهر جهرتها فلا محالة من أن ينقض الفلك
 زحل أشرف الكواكب داراً من لقاء الردى على ميعاد
 ولتار المريح من حدثان الدهر مطف . وان علت في انقاد
 والثرى رهينة بافتراق الشمل حتى تعد في الأفراد
 وقد زعموا ألا فلاك يدركها البلى فان كان حقاً . فالتجاسة كالطهر

وما مصير من يفكر على هذا النحو ؟ مصيره ولا ريب الى اليأس . والى أن
 يستوي عنده الجهل والعلم . والهدى والضلال . وإلى حيرة مضنية لا يخرج منها .
 ولهذا تراه لا ينفك يني ويثبت . ويقول بالرأي وتقيضه .

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر
 ومن يظفر بأمر يبتغيه فأقضية المهيمن وفقته
 ما باختيارى ميلادي ولا هرمي ولا حياتي . فهل لي بعد تخيير ؟
 تتخيرين الأمر كي تحظي به هيات ليس على الزمان تخيير
 لو ينطق السيف نادى ليس لي عمل اذا قضى ملك الأفلاك أنضاني
 وان كهت فأمر الله اكهم في وان مضيت فأمر الله أمضاني
 وهو مغلوب على أمره في كل شيء .

من وسخ صاغ الفقى ربه فلا يقولن توسخت
نهاني عقلي عن أمور كثيرة وطبى اليها بالفريزة جاذب
فضى الله فينا بالذي هو كائن فم . وضاعت حكمة الحكماء
وهل يابق الانسان من ملك ربه فيخرج من أرض له وسماء؟
ولكنه يمود فيقول بالاختيار :

تقلدن المآثم باختصار أوانس بالفريد مقسلمات
تخير . فلما وجدة مثل ميتة وأما جليس في الحياة منافق
لما أذنب الدهر الذي أفت لأثم ولكن بنو حواء جاروا وأذنبوا
ثم يتردد ويضطرب ويختار فيقول :

تخالفت الأشياخ في عقب الردي وتلك بحار ليس يدرك عبرها
وقيل نفوس الناس تطيع فعلها وقال أناس بل تبين جبرها
ارى شواهد جبر لا احققه كان كلا الى ما ساء مجرور
قالت معاشر . كل عاجز خرج ما للخلائق . لا بطاء ولا سرع
مدبرون فلا عتب اذا خطئوا على المسي . ولا حمد اذا برعوا
وقد وجدت لهذا القول في زمي شواهداً ونهاني دونه الورع
وحار في الثواب والعقاب . ورأى ان من الظلم عقاب المجبر . ولم يعلمن الى
الجبر . فطمع في الغفران . وآمن بالمقل وكفر به

جاءت أحاديث ان صحت فإن لها شأنا ولكن فيها ضعف اسناد
فشاور المقل واترك غيره هذرا فالمقل خير مشير ضمه النادي
والمقل غرس له بالصدق اثمار

ثم يرجع فيقول :

هي الافهام قد صدئت وكلت ولم يظفر لها أحد بصقل
وقد أعمل الناس أفكارهم فلم يفهم طول أعمالها

وبصير الأقوام مثلي أعمى فهاؤوا في حنّس تصادم
 سالتوني فأعيتني أجابتكم من ادعى أنه دار فقد كذبا
 انما نحن في ضلال وتعليل فان كنت ذا يقين فهاته
 أما الحقيقة فهي اني ذاهب والله يعلم بالذي أنا لاقى
 أنا أعمى فكيف اهدي الى المة هج والناس كلهم عميان
 فهم الناس كالجهول وما يظا فر الا بالحسرة العلماء

وحسبنا هذا القدر من الشواهد

وقد قيل ان علة الملل هي عماء . وان هذه الهنة هي التي حملته على التزهّد
 وإيثار العزلة . ورياضة النفس على الكفاف . وان آفته هذه هي مفتاح شخصيته .
 فلا سبيل الى فهم المرعي على حقيقته الا اذا رددنا كل عمل او قول له الى هذه
 المصيبة التي اصابته في طفولته لغير ذنب جناه .

وغير مردود ولا منكور ان ذهاب البصر محنة . ولا سبيل الى الشك في ان
 المكفوف لا يسمعه الا ان يشعر بما حاق به من المكروه . وما حرم من المزية . والا
 ان يأم ويأسف ويتحسر ويتلهف وان اظهر الجلد وابدى التشدد . ولا يمكن
 ان تخلو خسارة هذه الجارحة النفيسة من اثر عميق في نفس المرء وتفكيره واتجاه
 عقله ونوع احساسه بالحياة والناس .

كل هذا مسلم لا خلاف عليه . فما يستوي ان تكون او لا تكون للانسان
 هذه الجارحة والا كان خلقها عبثا . وزائداً لاداعي له . ولكني لا اري راي
 القائلين برد كل شيء الى فقدانها . ولا انها هي مفتاح شخصية المرعي . فليس من
 الحتم ان يحدث ذهاب البصر هذا الاثر . وقد عمي بشار جنيينا ولم ير ضوء النهار
 وتحسر وتأم . وتقم وسخط . ولكنه لا تزهد ولا اعتزل . بل تزل الى المعترك .
 وخاض الغمار . وضرب في الزحمة وكان حيواناً كبيراً . وروى يترك الأديب
 الانجليزي المشهور في كتابه « الجليل والجميل » انه يعرف عالماً أعمى كان أستاذاً

لعم الضوء في الجامعة . وهو قد ولد مكفواً . وقرأت منذ شهور كتاباً اسمه « العالم تحت أناملي » لكاتب أمريكي حديث اسمه « كارستن اونستاد » ذهب بصره وهو طالب في مدرسة عالية . أي بعد أن أمتع بنعمة البصر نحو عشرين عاماً . فالتسارة افدح . والحرمان أوجع . وقد ترجم في هذا الكتاب حياته . ووصف ما كان من أمره بعد هذه المحنة . وكيف غالبها فقلها . وهو لا يعتمد الا على العصا ولا يحتاج الى من يأخذ بيده ويقوده ولا يرضيه الا أن يعامله الناس كأن ليس بينه وبينهم فرق . فلا هو أعمى ولا هم بصراء دونه . وكيف كان يشارك الطلبة في المأههم ومنازراتهم . حتى الزحلقة على الثلج في الجبال .

وعندني أن ذهاب البصر لا يورث صاحبه ما عزوه في المعري اليه . الا اذا اجتمع أمران على الخصوص : حس مرهف دقيق في المكفوف . ومجتمع لا يزال يشمره انه مكفوف كأن يبدى المطف عليه . أو يعيره . أو يتعجب لما يكون منه مما يعد مستعصياً أو مستكثراً على مثله . واحسب ان عامل المجتمع اقوى الاثنين فاذا تلقى الناس الكفيف على نحو طبيعي . وعاملوه كأنه مثاهم بلا فرق . وتزهوه عن المطف والتمير والتعجب . فان أثر العمى في نفسه على الرغم من دقة الشعور به ، يمكن أن يخف جداً لأن الجماعة تصبح عوناً له وتشجعه على مغالبة رزئه والتغلب على قيده . وتقيه بسلوها نحوه من التهويل بمصابه على نفسه .

ومن المحقق على كل حال أن ذهاب البصر ليس هو الذي حمل المعري على اعتزال الناس ورفض الحياة . وإثارة الوحدة والمزوبة . وكراهية أكل اللحم وذبح الحيوان والطيور . ولو شاء المعري لتولى القضاء في المرة أو حمص كما تولاه أبوه أبو محمد عبد الله . وعمه أبو بكر محمد . وجده سليمان . وابن أخيه أبو اليسر ولو شاء لا حرم نفسه طيبات ما أحل الله . بل لو شاء أن ينهز مع القواة بدلائهم ويسيم سرح الالهو مثلهم لفعل . فما حال العمى أو الصمم أو الكساح بين أحد وبين ما يشتهي من ذلك . فاذا قيل أنه كان حساساً جداً وأنه يستنكف ويكره لنفسه أن يراه أحد خفيف الحلم أو على حال تزي به . وان شعوره بكرامته كان يأبى له أن يطلب فيمنع ويشتهي فيحرم . قلنا أن هذا ليس من العمى . بل من دقة احساسه المرهف وفرط شعوره بنفسه .

ودع هذا واسأل ماذا حرمه الممى ؟ انه شاعر أديب وعالم متفلسف .
وقد عرف له أهل زمانه ومن جاء بعدهم من الأجيال غزارة الفضل ووفرة العلم
وحدة الذكاء . وسمة الاحاطة باللغة . والحذق بالنحو . وجودة الشعر . والالام
بكل علم معروف في عصره . وكان تلاميذه يمدون بالمثلين . ويذمون داره .
ولا مات أنشد على قبره المراني أربعة وثمانون شاعراً . فهو قد فاز في حياته
بالحظ الأجل من الشهرة والتوقير . ولا يزال الى يومنا هذا في المحل الأول
والأرفع بين شعراء العربية . أما فيما عدا ذلك مما هو من الحياة الخاصة الشخصية .
فما حرم شيئاً أو كانت الآلة تموزه فيه كما يقول وإنما حرم هو نفسه وآثر
لنفسه العزوف وأبى عليها كل متعة . فالأمر مرجعه الى ارادته لا الى عماء .
واذا قلنا ارادته فقد قلنا ما ينزع به اليه مزاجه السوداوي الخاص وما
بني عليه من الطباع . وهذا عندي هو مفتاح شخصيته والذي أرد اليه ما كان
من سيرته . وقد جاءت عوامل أخرى فقوت استعداده الخاص فقد نشأ في
بيت علم وفضل وتقوى . وكانت لأسرته مكانة عالية ومنزلة ملحوظة في بلده
الصفيرة . وحسبك من شعوره بكرامته وكرامة بيته في هذا البلد أنه وهو
عائد من بغداد بعث الى أهل المرة بكتاب ينبهم فيه أنه اعترم أن يلزم داره
ويعتزل الناس . كما يفعل الحاكم أو القائد حين يقدم على بلدة فيدع كتابه أو
« منشوره » يسبقه اليها ببلاغ منه . وكان هو إلى ذلك عالماً ضليماً وأديباً رفيعاً .
فاجتمعت له كرامتان : كرامة علمه وأدبه وفضله . وكرامة بيته وآله . وخلق
حساساً جداً حتى لكأنما يحس الدنيا بأعصاب عارية لا يسترها لحم ولا يقبها
جلد . فهي أبداً مكشوفة معرضة للمؤثرات مباشرة . ولهذا كان يحجل أن يرى
وهو بأكل غفافة أن يرى منه ما يعاب . ومثله يحرص على اجتناب ما يمرضه للمهانة
أو الزرابة أو السخرية . ومن هنا لجأته في تنقص نفسه وقوله إنه كلب لئيم
وإنه جاهل وناقص وإنه أعمى ضال كأنما يريد لفرط شعوره بذاته أن يسبق
الناس إلى ذمه . ولا بدع لهم ما يقولون فيه أو يسميونه به . ومثله ينزع الى
العدل والانصاف . لأن الانصاف سبيل النجاة والأمن لمن كان يظن فطنته
الى مواطن ضعفه وقصوره ويحس بها احساسه . حتى لقد عرف الدين بأنه

إنصاف الناس . ولا عجب بعد ذلك أن يكون رقيق القلب رحيمه . وإن كانت
رحمته مفرطة - حتى ليقشعر بدنه حين يقدمون له فروجاً أوصى له به الطبيب
في مرضه . ويقول : « استضعفوك فوصفوك . فهلا وصفوا شبل الأسد ؟ »
وقد ثقلت عليه محنة العمى وشقت جداً لأنها ظلم حاق به بنير ذنب . فظل نائراً
على هذا الظلم كثورته على كل مظاهره الأخرى في الحياة . ولم تكن
ملازمته داره واقتصراره على أكل البقول ونفوره من اللحم . إلا ضرباً من
التحامل على النفس وتمذيبها لا يستغرب . فإن تمذيب النفس نوع من إثبات
القوة فكأنه لما أنس من نفسه المجز عن أن يكون ذا بأس وصولة بين الناس
تحول الى نفسه وحمل عليها وعالج رياضتها لينعم بالشعور بالقوة والاقدار . وكل
امري يتزع بطبعه الى تعويض النقص الذي يعرفه أو يحسه ولو احساساً
غامضاً . وتلك حقيقة لا تحتاج إلى بيان . وأحسب أن مما يجري هذا المجرى
شدة تكلفه في اللزوميات وإلزامه نفسه فيها ما لم يلزم أحداً ، وإكثاره من
الغريب فيها وفي ثره . وتجرية الوحشي وغير المأنوس من الألفاظ . حتى كتاب
« الفصول والغايات » جعله فصولاً غاياته أحرف مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة .
وذلك كله لأنبات القدرة والرسوخ في العلم والاستبحار فيه . بل التفوق والتميز .
وهنا موضع سؤال : ماذا أحب المري أبا الطيب المتنبي كل هذا الحب ؟ وأعجب
به وأكبره الى هذا الحد ؟ حتى تعرض للأذى من أجله ؟ وألف فيه كتاباً سماه
« معجز أحمد ؟ » لقد كان يتمصب له تمصباً عجيباً وليس هو بالذي يخفى
عليه أن هناك شعراء آخرين لا يقلون عنه شأنًا . وإن معاني المتنبي ليست
كلها مما ابتكر وإن كثيراً منها يوجد في أشعار غيره . ولقد ألف في أبي
تمام كتاباً سماه « ذكرى حبيب » فما هو سر هذا التمسب المفرط ؟
عندي أن السر هو شخصية المتنبي لاشاعريته . فقد كان المتنبي يمثل كل
ما ينقص المري . أو ما يحس المري أنه ينقصه : الجرأة . والاقتراف .
والثقة بالنفس . والأطمئنان الى صواب ما يرى . والجزم في الأمور والفحولة
التي تخرج المعنى مخرج المثل السائر وتجعل منه عملة . وعلى الخصوص اليقين
الجازم . والثقة بالنفس . واتقاء الحيرة والاقتناع بأن فهمه للناس وللحياة

صحيح لا يرتقي اليه الشك . وكل هذا ينقص المعري . فهو أبداً مضطرب
لا يستقر . وحائر لا يهتدي . لا يطمئن الى رأي . ولا يثق بصواب .
ولا يرضى عن نفسه . ولا يحول عينيه عما يدركه من قصورها وعيوبها .
يحس أن في وسعه أن يجتري ويلقي بنفسه في عباب الحياة ويفرق تياره
الى حيث يتطلع ويرجو أو يراه من حقه .

وأحسب أن كل من قدم بفكر ويتدبر على نحو ما يفعل المعري . لا بد
أن يضطرب اضطرابه . ويضل ضلاله . ويقع في مثل حيرته . فإن هذه
أمر أشكال لاسبيل الى الاهتداء فيها الى ما يفتح العقل . وليس المعري
يبدع في هذا فإن له لأمداً كثيراً في الشرق والغرب .

ولقد كنت منذ أيام أراجع رواية هملت لشكسبير الشاعر الانجليزي .
فاذا بي أقرأ هملت وهو واقف مع حفاري القبور . وفي يده حجمة
« أنظن أن الاسكندر كان هذا منظره في الأرض ؟ »

فيقول رفيقه هوراشيو « تماماً »

فيقول هملت « وكانت له هذه الرائحة ؟ أف . »

هوراشيو « كذلك ياسيدي »

هملت « إلى أي درك نصير يا هوراشيو . . لماذا لا يتعقب الخيال رفات
الاسكندر النبيل حتى يجده يسد ثقب برميل ؟ . . مثلاً : مات الاسكندر .
دفن الاسكندر . عاد الاسكندر تراباً . والتراب من الأرض . ومن الأرض
نصنع الصلصال . ومن هذا الصلصال الذي تحول إليه ماذا يمنع أن يصنعوا
منه ما يسد برميل بيرة ؟ »

فأذكرني هذا قول أبي العلاء :

ثم أقفد أوصابي وأمراسي	إذا غدوت ببطن الأرض مضطجعا
بمد الحمود يوافيني بأغراسي	تيمموا بترابي علّ فملكم
يقضي الظهور فاني شاكر راضي	وان جمعت بحكم الله في خرف
	والبيت الأخير هو الشاهد
	وتأمل صيحة هملت بأوفيليا حبيبته

« إلى الدير .. لماذا تريد أن تكوني أما لآمين ؟ اني أنا نفسي رجل شريف إلى حد ما . ومع ذلك أستطيع أن أتهم نفسي بأشياء يبدو معها انه كان خيراً لو لم تلدني أمي . وأنا رجل متكبر جداً وبني من المغريات بالشر فوق ما يحيط به الفكر ويصوره الخيال أو يتسع لارتكابه الزمن . ماذا يصنع أمثالي وهم يزحفون بين الارض والسماء ؟ اننا جميعاً أوغاد أشرار . فلا تصدقي أحداً منا . »

ثم يقول لها « إذا كان لابد لك من الزواج فتزوجي مفعلاً . فان العقلاء يعرفون كيف تخليتهم وحوشاً شنيعة . إلى الدير . اذهبي بسرعة . »
وأما أكثر ما أبدا المعري وأعاد في هذه المعاني . وما أشبه رأى هملت في المرأة برأي شاعرنا الذي يمد النساء فوارس فتنة وأعلام غي .
وتأمل مناجاة هملت لنفسه « تكون أو لا تكون ؟ هذه هي المسألة . »
وهي مشهورة . يقول فيها أن الموت رقدة تنتهي بها آلام القلب وجراح الجسم وأوجاعه كما يقول المعري « انما الموت رقدة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد » ولكن الموت قد تتخلله الأحلام . فأني أحلام نراها ياتري إذا سلبتنا الحياة . كما يتساءل المعري « كيف لي بمخبر . يتمام نقائس ما أخطر عليه . يعلمني بعد الموت كيف أكون ؟ » وكما يقول :
وبين الردى والنوم قربى ونسبة وشتات براء للنفوس واعلال
إذا نمت لاقيت الأحية بعدما طوتهم شهور في التراب وأحوال
وكما يسأل

« سبحانك مؤبد الآباد . هل للعنية نسب الى الرقاد ؟ »
ولا يزال هملت يلهج بمحنة الحياة . وسهام القضاء . وسيط الزمن وظلم الظالمين . وصلف المتكبر . وبطء تحقيق العدل . ووقاحة ذوي الأمر وبنيهم واحناء الظهر تحت أثقال الحياة . واحتمال ذلك الشقاء فزما بما بعد الحياة ومن بعدها مجاهل لم يعد منها مسافر . وهذا خوف يفل العزم وبغري المرء بالراضى بالآلام يعرفها واتقاء ما يجبل — وذلك كله ما كان يلهج به المعري .

ويتكرر مثل هذه الآراء في الناس والحياة ومصائر الخلق في روايات أخرى مثل تيمون الأثيني وماكبث والملك لير وغيرها .
 ونفع شكسبير وما يجريه على السنة أبطاله . وننتقل الى جوتيه الشاعر الألماني وروايته فوست على الخصوص . وهي كما وصفها الشاعر « جولة بين الأرض والسماء » وفوست رمز للإنسان الذي ينشد المعرفة ويبني أن يحيط علماً بسر الحياة وقد وجد أن المعرفة الاستفادة من بطون الكتب التي كان يمكن عليها لاقيده يقيناً ولا تكشف له عن سر ولا تبجحه مجهولاً أو مضياً . وقد بلغ من يأسه أن باع الشيطان نفسه . وعاهده أن يسلمه روحه اذا وسع إبليس أن يفيده الدعة والاطمئنان واليقين فبدأ معاً رحلة طويلة لاداعي لوصف مراحلها فان القصة مفروقة . وقد ذاق في رحلته مرارة الندم وضاق به القضاء الرحيب فالتمس ما وراء ذلك لعل الخيال يفي حيث لم تكن الحقيقة . وقد أعياه على الرغم من مقدرة الخيال أن ينجي الأستار المسدلة . ولم يجده رفع طرفه الى السماء ومحاولته أن يطوف في الأبد ويجوبه . ولم يقنعه أن يتقبل الحياة كما تحيي . وان كانت لا ترضيه . وأشقاء عقله الذي طغى على نفسه ولم يستفد الا الحيرة اللازمة وادراكه مبلغ جهله . ولم يصل الى شيء من ثلوث افلاطون — ثلوث الحق والجمال والخير — واستدان بالشيطان على ضمفه البشري فأب بالندامة والخسار .

وليست هي إلا قصة أبي العلاء في حيرته ونشده الحقيقة واليقين في كل ما يستجليه ويفكر فيه . بل قصة كل مفكر من بني الانسان في هذا العالم . وقد ترجمت منذ ربع قرن وزيادة قصة روسية اسمها « سائين » وقد سميتها ابن الطليعة . وهي لها ترب شيق . ومن أشخاصها من يدعى يوري يشهد جنازة منتحر فيستهل أنه لم يمد موجوداً . وانه كان شيئاً فأصبح لا شيء . ذهب كالتراب المكسوس ولم يبق منه إلا القبة على النش . وفتح الانجيل فيقرأ فيه أن من يهبط الى الأرض لا يصعد أبداً فيقول :

« ما أصدق هذا وأحكمه . حلم فظيع . هذا أنا أعيش وبلغ بي الظلم إلى الحياة واللذات . ثم أقرأ هذا القضاء المبرم ولا يسمني حتى أن أحتج عليه » .

ويناجي القوة الخفية فيقول :

«ماذا جنى الانسان عليك حتى تسخري منه هذا السخر ؟ إذا كنت موجودة فلماذا تحفين نفسك عن عينه ؟ لماذا تبجليني إذا آمنت بك لا أو من بإيماني ؟ (كأبي العلاء تماماً) وإذا أجبتني فكيف أعرف أنت الهية أم نفسي ؟ وإذا كنت على حق في رغبتني في الحياة وطلبي لها فلماذا تسلييني هذا الحق الذي منحتني إياه ؟ إذا كانت بك حاجة إلى آلامنا فدعينا نحملها من أجل حبنا لك . ولكننا لانعرف أيها أعظم قيمة : الشجرة أم الانسان . ان الشجرة دائمة الأمل . إذا قطعت استطاعت أن تقوم مرة أخرى وأن تسترد الخضرة وتفوز بحياة جديدة . أما الانسان فيموت ويزول برقد فلا ينهض مرة أخرى . ولو أني كنت على يقين من اني سأحيا مرة ثانية بدم ملايين السنين . لرضيت أن أنتظر في صبر كل هذه القرون في الظلام . »
وهذه معان تقرأها كلها في الميري ثراً وشعرا فقد مزق قلبه بها طول حياته .

ومما يستحق الذكر أن بطل هذه الرواية « سائين » يبدي رأياً في يورى هذا الذي يعذب نفسه بالتساؤل الذي لايجدى . فكأنه يديه في الميري وذلك حيث يقول :

« ان الانسان لا يمكن أن يكون فوق الحياة لأنه جزء منها وقد يسخط ولكن مرجع السخط الى نفسه . فهو اما لا يستطيع أو لا يجرؤ أن يأخذ من خيرات الحياة ما يسد حاجته . ومن الناس من يقضون حياتهم في السجون . وهناك آخرون يخافون أن يفروا منها كالطائر الأسير يفرق في الطيران إذ يطلق له والجسم والروح يكونان كلا متجاوبا لا يزججه الا دنو الموت الرهيب . ولكننا نحن نقضي على هذا التلاؤم بسوء فكرتنا عن الحياة . فقد زعمنا أن رغباتنا الطبيعية حيوانية . وصرفنا لحسن العار والحجل منها ونحفها في صور وضيمة والضماف منا لا يفتنون لهذا بل يقضون حياتهم في الاغلال المضروبة عليهم . أما الضحايا فأولئك الذين تقدمهم آراؤهم المقلوبة . ولا شك أن القوى المبهوسة تتطلب منفذاً . وان الجسم ينشد السرور واللذة . وانه يتمتع

من جراء عجزه وقصوره . فهؤلاء وأمثالهم حياتهم صراع دائم . وشك مستمر
يتعلقون بكل ما يقدر أن يعينهم ويفضي بهم إلى نظرية أخلاقية أحدث وأجد .
ولا يزالون كذلك حتى يموتوا وهم يخافون أن يعيشوا وبحسوا .
هذه حال المري وصفها أدب روسي على لسان شخص متخيل أصدق
وصف . أراد أن يخلق فوق الحياة فمعجز . لأن ذلك مستحيل لا يستطيعه
إنسان . وتهيب الحياة ففر من ميدانها . وخاف نفسه فألجمها وألزمها القيد
فانتقمت منه وتأثرت لنفسها القوى التي حبسها وسد عليها كل فج . فتعذب وراح
يتساءل لم ولماذا ؟ ويبحث عن الحق والخير والعدل . ويحاول أن ينفذ ببصيرته
من أستار غيب الله المسدلة وهي كثيفة فما اهتدى إلى شيء يستريح إليه
العقل وتطمئن به النفس . وصار كما يقول بطل هذه القصة يخاف حتى أن
يعيش ويحس . . لأنه يتألم . ولأنه يجهل المصير .

وبعد فإن مجال الكلام ذو سعة . ولكني لست الوحيد الذي قال أو يقول
في أبي الغلاء . وليس من حق ولا في مقدوري أن أحاول الإحاطة بكل
جانب وأن ألم بكل ناحية . لحسبي ما قلت على القصور فيه والعجز . واني
لشاكر لكم صبركم وسعة صدركم . ومعتذر اليكم من التقصير . والسلام عليكم .

ابراهيم عبر الفادر المازني

سر الخلود في شعر أبي الملاء

أيها الحفل الكريم :

جياكم الله بالحسنى . أرجو أن تسمحوا لي قبل الاضافة في الموضوع أن احيي حاضرة بني حمدان ذات التاريخ الالامع ، والمز الراسخ الشامخ ، أئكة أبي الطيب التي اكثرت فيها التفريد وأطال فيها التشيد ، وروضة الحارث بن سميد التي صدح فيها بالمفاخر وغنى بلجليل من المآثر . وان احيي البهليل من غطارقها الصيد الذي وصلوا طارف مجدم بالتليد .

أما بعد فاني كنت شديد الرغبة في أن اتحدث اليكم عن « أبي الملاء في بغداد » ، لاني احب أبا الملاء واحب بغداد واحب أن اجمع بينها ، ولكن سبق لي أن تحدثت بهذا الحديث في عاصمة فيصل الثاني ايده الله وحاطه برعايته وقديماً قيل : الماد معاد وعلى هذا وقع الاختيار على « سر الخلود في شعر أبي الملاء » ودكنت اؤثر أن اتبسط في هذا الموضوع واشبعه تحقيقاً وتمحيصاً ولكن حديثاً لايزيد عمره على نصف الساعة لايمكن أن يتسع للتحقيق والتمحيص واستخلاص النتائج من المقدمات ولهذا اجدني مضطراً ان اقتصر على شيء وأترك اشياء فأقول :

مضى على الناس زهاء الف عام وهم يتناقلون شعر أبي الملاء ويتدارسونه ويحرصون على اقتنائه وهم في ذلك فريقان : فريق يرفعه الى اسمى مراتب التظيم والتكريم ، مؤمن بما يدعو اليه مكبراً لكل ما يثني عليه ، وفريق آخر يمتدح أن هذا الشعر خليط من حق وباطل وشك ويقين وأن الكثير منه يدعو الى الانحراف عن الصراط السوي صراط الله العزيز الحميد . وكلا الفريقين يجمع على ان هذا الشعر وليد المبقرية الفذة وتاج العقليّة الجبارة وكلاهما حريص على اقتنائه واستظهاره وجعله موضوعاً للنقاش والاستشهاد

في مجالس المسامرة والمذاكرة وفي المساجلات والمطارحات . فما هو السر
يأتري في كل هذه العناية والرعاية مع تباين الانظار فيه وتضارب الأفكار
حوله ؟ ... يمكن الجواب على هذا السؤال بكلمة واحدة فيقال : ان السر
في ذلك « جودته » عشيّاً مع قانون بقاء الأسلمح . ولله اخو خزاعة
حيث يقول :

يموت ردي الشعر من قبل اهله وجيده يبق وإن مات قائله

ولكن هذا الجواب لا يقنع السائل وله أن يسأل ماسر الجودة في الشعر ؟
أفي الفاظه ؟ أم في معانيه ؟ أم في اغراضه ؟ أم في اوزانه وقوافيه ؟ ...
والجواب على هذا أن شعر أبي الملاء يتحلّى بكل هذه المزايا ، فهو
جيد في الفاظه جيد في معانيه جيد في اغراضه . فان سمة اطلاع أبي
الملاء على اسرار العربية مكنته من ترصيع شعره بالبارع من الألفاظ الناصع
منها . وانا زعيم بأنه لو جمع جامع ما جاء في شعر أبي الملاء من فرائد
الألفاظ ونوابغ الكلم لاجتمع له معجم طريف في بابيه يغني الناظر فيه
عن الكثير من معاجم اللغة . أما المعاني التي طرّقها أبو الملاء فهي غاية في
الدقة والطرافة والابداع والاختراع مع الكثرة في التنوع والتفرع والتوليد
والتجديد . وأما الأغراض فقد نهج فيها منهجاً اختطه لنفسه وابتدعه
ابتداعاً خالف فيه من قبله ولم يلحقه فيه من بعده .

وهنا يمكن أن نقسم شعر شاعرنا الى قسمين : القسم الأول شعره
في الشطر الأول من حياته والثاني شعره في الشطر الثاني منها .

أما القسم الأول فهو فيه متبع أكثر منه مبتدعاً فقد رمى فيه الى
الأغراض التي كان يرمي اليها شعراء زمانه ومن سبقهم على انه تنكب
بعض الأغراض التي تصم الشعر وتحط من كرامة الشاعر ، مثل الجون
والهجاء وغزل المذكر والأعائث التي كان يتعاطاها الخلفاء من الشعراء ،
على أن الناقد البصير ليجد في شعره الأول نفحة تنم عن اتجاّاه الفلسفي

فإننا نجد عندنا يطلق لنفسه السير على سجيته تندفع به في مسالك عميقة من الفلسفة قل أن سمنا بمثلا من شعراء زمانه . خذ مثلاً على ذلك ما جاء في صدر مريته لأبيه وصدر مريته لصديقه الفقيه وهما من أوالي شعره في الأولى يقول :

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذي	يراد بنا والعلم لله ذي المن
إذا غيب المرء استسر حديثه	ولم تخبر الأفكار عنه بما ينبغي
طلبت يقيناً من جبينه عنهم	ولن تخبريني يا جبين سوى الظن
فإن تعهدني لا أزال مسائلاً	فاني لم اعط الصحيح فاستغني
وإن لم يكن للفضل ثم مزية	على النقص فالويل الطويل من الغبن

وفي الثانية يقول :

صاح هذي قبورنا تملاً الر	حب فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما اظن اديم الأ	رض إلا من هذه الأجساد
خلق الناس للبقاء فضلت	امة يحسبونهم للفساد
انما ينقلون من دار اعما	ل الى دار شقوة أو رشاد
ضجعة الموت رقدة يستريح	الجسم فيها والعيش مثل السهاد

وهذا يترجم عن نفس ألقها الشك في أمور واطمأنت الى اليقين في أمور ، فهي في الحالة الأولى تلح في التسأل وفي الحالة الثانية تطمئن الى برد اليقين . أما القسم الثاني من شعر شاعرنا فقد سلك فيه مسلكاً خاصاً ابتدعه لنفسه ابتداءً تكب فيه جميع الافتراض التي كان ينظم فيها المتقدمون من الشعراء والمتأخرون واتجه الى درس أمور لا عهد للشعراء بدراساتها واتخذ في ذلك من عقله اماماً مرشداً ومناراً هادياً يعرض عليه جميع ما يعن له من شؤون الملكوت في السموات والأرض فيقر ما يقره وينفي ما ينفيه ويقف موقف الشك فيما يميز العقل عن البت فيه :

يرتجي الناس أن يقوم إمام	ناطق في الكنياسة الخرساء
كذب الظن لا امام سوى العقل	مشيراً في صبحه والمساء

فاذا ما أطمته جلب الرحمة عند المسير والارساء

نهاني عقلي عن أمور كثيرة وطبي اليها بالفرزة جاذب

والعقل يسمى لنفسي في مصالحها فما لطع الى الآفات جذاب

تركت مصباح عقل ما هتديت به والله أعطاك من نور الحجى قبسا

فشاور العقل واترك غيره هدرًا فالعقل غير مشير ضمه النادي

وصرف جل جهوده في دراسة أحوال الانسان لخلل غرائزه وطباعه
كما حلل أخلاقه وعاداته ، وأنعم النظر طويلاً في أديانه ومعتقداته كما أنعم النظر
في حياته ومماته وأولية أمره وآخرفته . وإذا كان لا بد لنا من ضرب الأمثلة
في هذا الباب فهاك طرفاً منها :

انتهت به دراساته للغرائز البشرية الى أن هذا المخلوق المسمى بالانسان
معبوع على الشر مجبول على العدوان وإذا صدر منه الخير فأنما يكون ذلك لعله :

شر اشجار علمت بها شجرات أثمرت ناسا

حملت بيضاً وأغربة وأتت بالقوم أجناسا

كلهم ضمت جوائحه مارداً في الصدر خناسا

أقبحتم الساج في لجه ورعتم في الجودات الجناح

هذا وأنتم غرض للردى فكيف لو خلدتم يا قباح

ما أنتم بالنبات الحميم د ولا بالنخيل ولا بالهشيم

ولكن قتاد عديم الجناة كثير الاذاة أبى غير شر

ما فهم بر ولا ناسك إلا الى نفع له يجذب

أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

أما المعتقدات فقه طاف بها طواف خير بصير فأنتهى به المطاف الى
الاعتقاد بوجود خالق حكيم متصف بجميع صفات الكمال منزّه عن جميع
صفات النقص :

اثبت لي خالقاً حكيماً ولست من مشر نفاة

عجبي للطيب بلحد في الخا لق من بعد درسه التشريحا

إذا كنت من فرط السفاه معطلاً فيا جاحد اشهد أنني غير جاحد
اخاف من الله العقوبة آجلاً وازعم أن الأمر في يد واحد

الله حق وابن آدم جاهل من شأنه التفريط والتكذيب
واللب حاول أن يهذب اهله فاذا البرية ما لها تهذيب
أما النبوات واليوم الآخر فانه كان يدور فيها في ليل من الشك
فتارة يقف على مطمئن من الاثبات وتارة يندفع الى شفا الانكار فيينا
نسمه يقول :

دعاكم الى خير الامور محمد فليس العوالي في القنا كالسوافل
حداكم على تمجيد من خلق الضحى وشبه الدجى من طالعات وآفل
فصلى عليه الله ماذر شارق وما فت مسكاً ذكره في المحافل

ويقول :

أحسن بهذا الشرع من ملة يثبت لا ينسخ فيما نسخ

ويقول :

وجدنا اتباع الشرع حزمًا لذي النهى ومن جرب الأيام لم ينكر النسخا
ومن ينف عن ذنب ويسخ بنائل نفاقنا اعنى وراحته اسخى

ويقول :

وقدرة الله حق ليس بمعجزها حشر خلّوق ولا بث لاأموات
ولا تطيعن قوماً ما دياتهم إلا احتيال على أخذ الاناوات

ويقول :

ما اقدر الله أن تدعى بريته من تربهم فيعودوا كالذي كانوا
قديمكن البعث ان نادى المليك به وليس منا لدفع الشر امكان

ويقول :

وان طال الرقاد من البرايا فان الراقدين لهم مهب
فبيننا هو كذلك اذ نسمة يقول :
إن البيانات القت يتنا احنا وعلمتنا افانين المداوات

ويقول :

إن يصحب الروح عقلى بمد مظنها للموت عني فأجدر أن ترى عجا
وإن مضت في الهواء الطلق هالكة هلاك جسمي في تربي فوا شجبا

ويقول :

واوصال جسم للتراب مأكلا ولم يدرك دار اين تذهب روحها
ويقول :

قلعت ظفري تارات وما جسدي الا كذاك متى ما فارق الروحا

ويقول :

ايرجوت ان اعود اليهم لا ترجوا فاني لا اعود
ولجسي الى التراب هبوط ولروحي الى الهواء صعود

ويقول :

وروح الفقى اشبهت طائراً اطير فما عاد لما نقر

ويقول :

وجبر وكسر له في الزمان وبكسر يوماً فلا ينجبر

ويقول :

سنؤوب في عقبى الحياة مساكننا لاعلم لي بالأمر بمد ما بها

ويقول :

لو جاء من اهل البلى مخبر سألت عن قوم وأرخت
هل فاز بالجنة عملها وهل نوى في النار نوبخت

ويقول :

لا حس للجسم بعد الروح نعلمه فهل نحس اذا بانث عن الجسد

ويقول :

أرى قبساً في الجسم يطفئه الردى ومبا دمت حياً فهو ذا يثلهب
وفي هذا ما فيه من الحيرة الحائرة التي تهجد العقل وتكده ثم تتركه
يدور في متاهات المجهولات وآخر ما قرأت له في هذا الباب قوله :
اقم خمسي وصوم الدهر ألفه وأدمن الذكر ابكاراً بأصال
عبدن افطر في عامي اذا حضرا عيد الأضحى يقفو عيد شوال
واعبد الله لا ارجو مثوبته لكن عبادة اكرام واجلال
اسون ديني عن جعل اؤمله اذا تعبد اقوام بأجمال
على انه كبير الثقة بأن الدين بمجموعه إنما هو وسيلة تهذيب النفوس
وصقلها وتصفية الأرواح من ادراك الشرور والسمو بالاخلاق الى اوج
الكمال :

صم ثم صلّ وطف بمكة زائراً سبعين لا سبعا فلست بناسك
جبل الديانة من اذا عرضت له اطاعه لم يلف بالمتهاسك

ما الخير سوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وانما هو ترك الشر مطرحاً ونفضك الصدر من غلٍ ومن حسدٍ

توهمت يا مغرور انك دين عليّ عين الله مالك دين
نسير الى البيت الحرام تنسكاً ويشكوك جار بالئس وخدين

لعل اناساً في المحارب خوفوا بأي كناس في المشارب اطربوا
اذا رام كيداً في الصلاة مقيماً فتاركها عمداً الى الله اقرب

والدين انصافك الاقوام كلهم واي دين لأبي الحق إن وجبا
ونظر في الحياة فرأى انها صلة بين روح وجسد وانها عبء ثقيل وانها

بجموعة من التكاليف المضنية وان التخص منها ربح وفوز مبين :
وما العيش الا علة برؤها الردى نفل سبيلي انصرف لطياتي
ويقول :

كأس المنية اولى بي واروح لي من أن اكابد اثراء واحواجا
ويقول :

العيش افقر منا كل ذات غنى والموت اغنى بحق كل محتاج
اذا حياة علينا للاذى فتحت باباً من الشر لاقاه بارتاج
ويقول :

رب روح كطائر القفص المسجوز ن ترجو بموتها التسريحا
ويقول :

مق الق من بعد المنية اسرتي اخبرم أي خلصت من الأسر
ويقول :

صمت حياتي الى مماتي لعل يوم الحمام عيد
ويقول :

ان السيوف تراح في اغمارها وتظل في تعب اذا لم تقمدا
ويقول :

ضجة الموت رقدة يستريح الـ جسم فيها والعيش مثل السهاد
ويقول :

تعب كلها الحياة فما اء جب إلا من راغب في ازدياد
ويقول :

إن يقرب الموت مني فلست اكره قربه
من يلقه لا يراقب خطباً ولا يخش كربه
ويقول :

ايا جسد المرء ماذا دهالك وقد كنت من عنصر طيب
تصير طهوراً اذا ما رجعت الى الاصل كالطر المصيب

ويقول :

إذا افترقت اجزاؤنا حط ثقلنا ونحمل عباً حين يلتئم الشعب
ونظر في موقف الانسان تجاه سائر انواع الحيوان فحكم على الانسان
بأنه معتدٍ أثيم لا يشبعه الكثير منها كثر ولا يقف في وجه مظلومه واقف
مهما قوئى يفترس الوداع من الحيوان ويمتدي على دره ويضنه وسائر متاجه
واعلن أن عمله هذا ظلم مشين واعلن أكثر من هذا لغرض الغراب على
مقابلة الاعتداء بالاعتداء قائلاً :

جريا غراب وأفسد لا ترى احداً الا مسيئاً واي الخلق لم يحجر
نخذه من الزرع ما يكفك عن عرض وحاول الرزق في الأعلى من الشجر
لو كنت حارس اثمار لهم ينمت ثم اقتربت لما اخلوك من حجر
بل اعلن المظف والرقه على الحشرات المؤذية فهذا هو يقول :
تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا
لا فرق بين الأسك الجون تطلقه وجون كندة امسى بمقد التاجا

ولسنا نريد استقصاء آراء ابي العلاء في الانسان وما يحيط به من
الموارض وانما نريد أن نشير الى أنه نهج في شعره نهجاً مبتكراً واتخذ
له موضوعات حية باقية بخفاء شعره جامعا بين الابتكار في الموضوع وبين
العمق في التفكير والصراحة في التعبير والبراعة في التصوير وان شعراً
يجمع بين هذه العناصر الحية الجدير بالبقاء ما بقيت اغراضه وموضوعاته حية
مائلة وما بقي الفن الذي ابرزه حياً مائلاً ، وليس غرضي أن أقصر الخلود
على شعر شاعرنا الفيلسوف وانما اريد أن اقول ان كل شعر يجمع بين
العناصر التي جمعها شعر ابي العلاء من حيوية الموضوع وعمق التفكير
وصراحة التعبير وبراعة التصوير فانه لخليق بالمش الطويل .

سلك ابو العلاء هذا الوادي من الشعر وترك الشعراء في اوديتهم
يهيمون بحبرون قصائد الثناء استدراراً لا كف اهل الثراء ويطيلون الهجاء
لمن يمنهم المطاء ويرثون من لا يعرفون ويتهاقون في البعث والمجون تركهم

في ذلك وانصرف الى درس احوال الانسان وما يحيط به من خير وشر فأخذ يقرر ويصور ويخترع ويبدع ، فمات الكثير من شعر اولئك الشعراء المنطوي على الثناء الزائف والمهجاء الباطل والرثاء الكاذب بموت اولئك المدحون والمهجون ، وبقي شعر شاعرنا حياً يطاول ويصاول ويجاهد ويجهاد ، فان رأينا بعض شعر المدح والمهجاء والرثاء والمجون يعيش فاعلمنا ذلك لما يحمل معه من نادر الصفات الفنية وطريف المعاني الأدبية أو لما يتخلله من الموضوعات الخالدة الباقية فاني ازعم أن قصيدة المتنبي التي هجا بها ابن كيخلع :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم عرضاً نظرت وخلت اني اسلم
لم تداولها الا لسن إلا لما انظرت عليه من بارع الحكم ذات الموضوع
الحمي الباقي وما عليك إلا أن تنظر في قصيدة ابي الملاء نفسه التي مطلعها :
غير مجدٍ في ملقي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شادي
فانك تجدد جبهة المتأدين بحفظون صدرها ولا يعرفون من سائرها
إلا التزر اليسير وما ذاك إلا لأن صدرها حيوي الموضوع خالد الأثر
على الزمن واما باقيا فانه كسائر شعر الرثاء يزيد عليه أو يساويه .
واني لأزعم أن الكثير من شعر أبي الملاء لم تنكشف مخبآت معانيه
لمعاصريه لبعدهما بين عقليته وعقليتهم وفرق ما بين نظراته ونظرتهم خذ مثلاً
على ذلك قوله في ساسة زمانه :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم اجراؤها
فان كلمته هذه مع صراحتها لم يتوضح معناها جلياً الا في هذه المصور
التأخرة عندما ذكر قرن الديمقراطية في الغرب ثم في الشرق مع أن
رجال النهضة الاسلامية الاول كانوا يدركونها ويمثلون بمقتضاها ولكن
تتابع القرون وتتابع الكوارث طلست معاملها حيناً من الدهر . وسيتبقى
كثير من شعر أبي الملاء كامن المعاني الى أن تفسره اعمال الاجيال المقبلة
واحوالها لأن الرجل كان ينظر الى الحقائق بعجبر متقن الصنع فيرى

الكثير مما يخفى على غيره ولا يظن ظاناً أننا عندما نذكر في أبي العلاء عقله الجبار وعبقريته الفذة ندعو الى اعتناق مذاهبه كلها لاننا اذا اكبرنا فيه اكباره للعقل وشغفه بالخير ودعوته الى الحرية على اختلاف ضروبها والعدالة والمساواة بأدق مقاييسها والى التحلي بكل خلق كريم والتخلي عن كل عمل رذيل . واذا اكبرنا فيه اتساع معارفه في علوم الكون والشرائع وفنون الآداب فاننا لا ندعو الى اعتناق مذاهبه في الحياة المتكشفة الجافة وهجر جميع متع الحياة البريئة والدعوة الى الزهد في زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق والتبرم بالحياة واستتقال اعنائها فان الأحوال التي اكتنفت حياته جعلته جزوعاً كثير الضجر عديم الامل رزيء التي وهذه كلها من خوصصات نفسه لا يجمل بأبناء هذا العصر ولا سيما الناشئة منهم أن ينحدروا معه ويتخذوا منه قدوة فيها فان الله جل وعلا خلق لهم مافي الأرض جميعاً ليتمتعوا بالحلال الطيب وينعموا بالعيش الرافه الهنيء . قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق ، ..

طه الراوى

الفيلسوف

ملعب الدهر لو ملكنا هدايا لبلغنا من الحياة مُنايا
 سبقتنا إليك احنحة الشوق وشقت لنا سبيل خطانا
 وتلقيننا بسمه إشفاق وطوقتنا رضى وحنانا
 ودرجنا مع الشروق نغماتك ونسقي سمع الدُّنَى ألحانا
 وحنين المجهول ، أخيلة تفتت من كل صخرة ريحانا
 أي زاد سوى الظنون حملنا ؟ وتركنا الى هواها العنانا
 كلما اوغلت ركائبنا ضاق على زحمة الدروب مدانا
 واحتوانا من كل صوب ضباب يرجع الطرف خاشعاً حرانا
 أتريد الوجودَ منهتك السَّترِ يرينا اسراره عريانا
 ويغض القدم عن قلبه السمح ويجريه للعطاش دنانا
 لو بلغنا ما نشتهي رأينا الله في نشوة الشعور عيانا
 نحن نسج الثرى فما لأمانينا على كل كوكب تنفان
 تلك اقدامنا نثر بالاءـشاب حيناً وبالحمى احياناً
 وظلال الغروب ، دون مدى الطرف ، الى رهبة اللقائتداني
 نشطت قبلنا مواكب شتى وزامت خضية خذلانا
 وبقايا اشباحها من رؤى المـحـموم اوهي تماسكاً واقترانا
 تنمز الهاجس الرهيف فما يـلـغ صدقاً منها ولا بهتاناً
 وخفي الوجود ما انفك لا يـلـغ بض قلباً ولا يرف لسانا
 طلبته عين انطياح ولما لفته تصكرت أجفانا

ملعب الدهر إن رجح حنين من اقاصيك اوهف الآذانا
 واستغفر الاجيال من هجرة النـيب فهت تمزق الاكفانا

وتهادت ثقل موكب فكر يسحب الشهب خلفه اردانا
قام عنه ابو الملاء ، وقام الموت مستترف الابهاء جيانا
قد طواه الزمان حتى اذا الخلد اجتباه أطل بطوي الزمانا
ذاك تجواله كأن انطلاق الروح فيه لم يستطب ميدانا
بين شك مروع ويقين مطمئن ما يأتي حيرانا
وهو في حالتيه قيثارة زهراء تروي نشيدها الفتانا
وقف الشرق بمدلاي لتذكا رصدها مرصحا نشوانا

يا أبا الحكمة السنية هل نلت على سدة الخلود أمانا
كيف ألفت علما لم يفتح مرود النور جفنه الوستانا ؟
هل محاسبة الكتابة عن فيك واردي في صدرك الاحزانا
وهدي خاطرا ، وزان لسانا وسبي مقلة ، وارضى جنانا
كم تهاوت من دونه روحك الحري وسالت جراحها الحاننا !
عالم الوم نحن صفنا رؤاه واردها ان يكون فكنا !
لست نستطيع ان تكون إلها فاذا اسطمت فلتكن إنسانا

لمن الارض إن سلاها بنوها وتناسوا سخاءها الهتانا
وهبتنا من قلبها خفقة القلب وشدت بساعديها قوانا
واباحت لنا جناها واعطت فوق ما افق حلمنا اعطانا
فهي مرآتنا ، ومرآة مسرا نا ومرآة سخطنا ورضانا
ما بكينا نغارها إنما المجرز على صرخة الحنين ، بكنا
اي قلب حملته بين جنبيك ووالاك طيما اسوانا
طالته الحياة مشبوبة الانفاس تذكي دماءه اشجانا
مر من وهجها الملح فما هد هد شوقا ولا شقى حرمانا
كنت في حبك المجرد لا تحبس عن كل معنف احسانا

أمنَ الحبَّ أنْ تدارَ عليكَ الكأسُ ملائى وتشتي ظمآنَا
 ما العزاء الذي نَحَرْتَ لَهُ الممـــــرَ وقدمتهُ لَهُ قربانَا ؟
 أنصباك موردُ من ° وراءَ الســــفـــــيبِ تفتى نعيمه جذلانَا
 كنتَ تدري أنْ الهناءةَ طيرُ لآحَ في دوحَةِ الحَيَاةِ وبانَا
 يالزهو الصبا نظرتُ بينيه إلى العيشِ مورقًا ريانَا
 ما عرفتُ ارتعاشةَ الكفِّ بالكأسِ إذا كانتِ المني نعمانَا
 هيكلِي الرحب كل أهواءِ نفسي في ذراهُ افتتها أوثانَا
 سوف امضي كما مضيتَ وتدري في حمى الروحِ اينَا اشقانَا

يا أبا الحكمة السنية هلْ منك التفاتُ إلى صدى بحوانَا
 سلسلتها على الخناجرِ ذكرا كَ وقُرَّتْ في كلِّ سمعِ بيانَا
 منك اشراقها ، ولولا الجذور الخضرُ ماهزَّتِ الصبا اغصانَا
 أتخافُ الاصفاء انْ يخرجَ الهدأةَ او انْ يصوغها اشجانَا
 قدْ يحنُّ الطريدُ للربيعِ مها سامهُ الربيعُ شقوةً وهوانَا
 هذه الدارُ كم شئتُ بها الميـــــســـــشَ وكَم ذقت مرَّها ألوانَا
 سرحتُ في ضلوعها شيعُ النســــلِ فنزتُ ضلوعها ادرانا
 وتمالتُ صبحاتك الحمرُ تهدي لو أصابتُ اصداؤها آذانَا
 وتلقيتها اسىً قتلقتُ اسداً في قيوده غصبانَا
 فتواريت عنْ عيونِ مراضٍ خلتَ الحاظِلها عليك سنانَا
 وطويتُ الايامَ في عزلة الرهــــبانِ لم تحتسبْ لها حسابنا
 قدْ نجفُ الحَيَاةُ ، إلا وريداً ويضيقُ الوجودُ الا مكانَا

كيف تفتُرْ عنْ رضى وليالِيك اقامتْ عليك حرباً عوانَا
 وعجافُ الرجال ارفعُ قدرا منك في غيهمْ وابنه شانَا ؟
 طالما كنتَ مبصرًا في دياجِيـــــك وكانوا في نورهم عيمانَا

اسرجوا صهوة المذلة واقضوا على مشخر الجراح طمانا
 واستباحوا مال الضيف عتوا واهانوا حرماه طمينا
 وأزاحوا عن المنابر احرارا فزرت اعوادها عبدانا
 وتمشوا لدى الاعاجم حملان وسابوا في قومهم ذؤبانا
 هذه الزمرة التي في حماها وقف الملك مطرقا خزيانا
 ما ظن المصور مرت عليها فلفت اما تراها الآنا ١١١

يا فتوادا من المراحم نبضات ومن جامد السن شريانا
 مرجل الحقد لم تلامسه كف الحب الا ادمى لظاه البنا
 لم يزل شرب النجيع سكارى يبارون حوله عدوانا
 طرفوا مقلة السماء وأدموا كبد الارض عتيرا ودخانا
 ما ألانت قلوبهم ادمع الاب تمام او هزم انين الحزاني
 فضحاياهم تمور على الرمل المدى وتمتلي صلبانا
 كلهم في وليمة البني يخشى أن يرى جوف غيره ملانا
 والحجى بينهم شراع على الدماء لا يرتجي له شطانا
 قل لتلك الحائم البيض طيري فلتخطايا تدقت طوقانا ١١١

أناجيك يا نجي الداراي وأغنيك أغنياتي الحسانا
 إن آفاقك البعيدة لا تطلق للخاطر الحبس عسانا
 حسبك المجد ان ترى كل يوم لاغانيك عنده مهرجانا ١١

عمر ابو ريشه

الاضطراب السياسي في عصر أبي العلاء

وانه في بيئته وسمره

عاش شاعرنا الفيلسوف في فترات الانهيار السياسي — في تلك الفترات السود التي تصدعت فيها السيادة العربية على مذبج الشهوات التي كانت تضطرم في صدور المتغلبين من الديلم ومن إليهم من الأعاجم المتسلطين . نعم ، عاش شاعرنا في نهاية هذه الفترات والبلاد العربية تمصف بها الزنازع وتهزها الاغصير . فكان الحكم في بغداد غيره في مصر ، وفي بلاد الشام غيره في القطرين المتناذرين ، وهو في أقصى المغرب ، في الاندلس ، وفي شمال افريقية غيره في الاقطار العربية الثلاثة — كل شيء قد تمرض للميوعة والتفكك ، ففسدت الحياة السياسية ، وفسدت الحياة الاجتماعية حتى أصبحت الدنيا العربية وكأنها على بركان . . دول مختلفات المنازع والاهداف قد انتشرت في الرقعة الاسلامية الكبرى ، نزعات فردية في إهاب من المطامع الصارخة تجيش في كل صدر ، جمعيات سرية تستهدف غايات مربية ، مذاهب جديدة هدامة ترمي إلى نزعات سياسية خطيرة — كل شيء قد فسد واضطرب ، وأبو العلاء ينظر إلى هذه التيارات الجارفة نظرة الفيلسوف الانساني المتألم وقد أشفق — وهو الحكيم البعيد النظر — ان تنهار هذه الامبراطورية الكبرى في الفترة التي وصلت فيها الحياة العقلية إلى الذروة ، وأن يكون لبيئته النصيب الأوفر من مأساة هذا الانهيار . .

ولعل من أدق الأمور التي تستدعي انتباه الباحثين أن تجري أحداث الحياة منذ فجر التاريخ الاسلامي في الاقطار العربية الثلاثة — مصر والشام والعراق — على غرار واحد من الانشاء أو التهديم ، من النظام أو الفوضى فما يجري اليوم مثلاً من تجاوب بليغ للنهوض والتحرر والتطور والتاسك كان يجري بالامس ، في تلك الفترة ، وفي نفس هذه الاقطار بالصد ،

من تنافس وتناحر وتنازع وتحاذل وثورات وفتن أدت إلى انهيار سحيق ذاق العربُ مرارته طويلاً عبرَ القرون .

هذا التنازع الذي كان طابع الحكومات الاسلامية في عصر آبي الملاء هو الذي قضى على ما كان للخلافة من السلطان السياسي — ذلك السلطان الذي تجاذبته مصر وبغداد مدةً غير قصيرة .

كانت بغداد خاضعةً للديلم أو للأسرة البويهية التي حكمت العراقَ وفارسَ حكماً اوتوقراطياً فيه هذا التكالبُ على السلطةِ والمال ، وهذا التزام على المجد والسلطان ، وهذا الصراعُ الدامي بين أبناء العمومة وحتى بين الأخ وأخيه . وإذا كان للخلافة هذا السلطان الداوي في الرقعة الاسلامية الكبرى ، وكانت النفوس تتطلع إلى بريق سلطانها كقوةٍ من القوى الروحية والزمنية معاً ، كان من البدهة بمكان ، وقد تقلص ظلها في بغداد ، أن يطمح إليها الفاطميون بعد أن ملكوا مصر .

وللفاطميين هذه الدعوى التي تربطهم بآل البيت . فقد ادّعوا هذه الوشائج القوية بين نسبهم ونسبِ فاطمة بنتِ الرسول ، ورغم ما قامت به بغدادُ من الاحتجاج الصارخ على هذه الدعوى الباطلة ، وما تبع ذلك من احتجاج بعض المنتسبين إلى آل البيت في القاهرة نفسها وطلبهم الحجة الساطمة على هذا البرهان فقد أثبتوا هذه الدعوى بقوةِ السيف وبريق الذهب ، وكلمة المزمز لدين الله يذكرها كلُّ من قرأ تاريخ الفواطم : أتريدون البرهان على نسي ؟ هاكم فاقروه :

سلّ نصف سيفه من غمده وقال لهم : هذا نسي !

وثر عليهم ذهباً كثيراً وقال : هذا حسي ! ..

ماذا كان موقفُ المعارضين من هذين البرهانيين القاطمين ؟

كان جواب الجميع : السمع والطاعة !

وانتهت ذبول هذه الحركة عند هذا الحد ، وأصبحت الخلافة في مصر أقوى منها في بغداد ، وأخذت الدعوة العباسية تنكش في حدود ضيقة بعد أن أصبح الخليفة الشرعي في بغداد ، الموبى في أيدي الامراء البويهيين المتسلطين . والشام — وأريد بيئة المعري — ماذا كان شأنها في جون هذه الاحداث ؟

كانت مسرحاً لفتن وحروب متعاقبة لعلّ أقربها إلى عهده تلك الحروب والغزوات التي أثارها الأمير سيف الدولة توطيداً لكيان العربي وصوناً لثغور الشام من الغزو البيزنطي . . وإذا كانت الأيام لم تسعد المعري أن يرى المجد الشاخ الذي شادّه الأمير الحمداني في السياسة القومية والحياة العقابية ، فقد شاهد ، وهذا مازاد في محنته ، لونا من ضعف السياسة وفساد الرأي في ابنه سعد الدولة ، وفي حفيده أبي الفضائل ، وإذا تركنا الكلام عن ابن سيف الدولة لأن ملكه لم يطل ولم يمتز بالاحداث الخطيرة فخرجوا أن بطول حديثنا قليلاً عن حفيده أبي الفضائل ، فقد انتهت حكم الدولة الحمدانية والدنيا العربية على ماوصفنا ، ولم يكن أبو الفضائل كجدّه بل كانت مطالعته منحصرة بالملك دون أن يعطي للمملكة حقها من التضحية والبذل ، أي كان يريد أن يحتفظ بصولجان الملك رخيصاً ، وكانت أهدافه تختلف كل الاختلاف عن أهداف جدّه ، هذا يفكر بمجد امته وبلاده ، وذلك بمجده الشخصي ، والفرق جدّ بعيد بين الاتجاهين . . وإذا كانت بلاد الشام تتمتع بالحكم الذاتي على أيدي امراء مختلفي المنازع والاهواء فقد فكر الفاطميون بضمها إلى مصر لاسيما بعد أن تضائل سلطان بغداد الروحي كما تضائل سلطانها السياسي . . وقد عزّز هذه الفكرة الرغبات التي أثارها بعض زعماء حلب الناقين على حكم أبي الفضائل من جهة واغراء الوزير المغربي للخليفة الفاطمي بوجوب الاستيلاء على حلب واطرافها من جهة أخرى ، ونزلت هذه الرغبات من نفس عزيز مصر منزلة طيبة فجهز حملة كبرى إلى بلاد الشام لضمها إلى المملكة الفاطمية . وناط أمر هذه الحملة بأحد غلمانه الاتراك الذي استطاع أن يخضع البلاد الشامية كلها دون حلب التي امتنعت على مصر للخطّة المزبورة التي انتهجها أميرها . . ماذا ؟ استغاث أبو الفضائل بياسيل الثاني امبراطور الروم لمخاربة الفاطميين . . وبذلك فقد اقترف أكبر غلطة سياسية بهذه الصلات التي خلقها مع أعداء البلاد الطبيعيين ، فهدم الحفيد بيديه الاثنتين ما بناه الجد . أي هدم هذا ؟ لقد مدّ يده إلى الاجنبي — تحقيقاً للزوات الشخصية الهامحة والانانية السوداء — وقال له :

إن البلاد مفتوحة الصدر لكم . فيها ادخلوها مطمئنين . بل أن يزيلي
ملك مصر الفاطمي عن عرش آبائي وأجدادي . . .
وتتالت الاحداث والحروب مدة أربع سنوات كاملة بين البيزنطيين والفاطميين
كتب فيها النصر للفاطميين أولاً ثم للبيزنطيين الذين بسطوا سلطانهم على
بلاد الشام بفضل هذه المعاهدة أو بفضل هذا الخضوع المزري لاعداء الدين
واللغة والمادات والوشائج والدم . ولم يقف الفاطميون موقف المتفرج من
هذه الاحداث بمد أن مست سلطانهم بل جهزوا حملة ثانية لدفع البيزنطيين
عن بلاد الشام فنجحوا وسقطت حلب في أيدي الفاطميين الذين قضوا على
السياسة الخرقاء التي انتهجها أبو الفضائل الذي اعتمد ، مع وزيره لوطاً ،
على الاجنبي في توسيع شقة الخلاف بين مصر والشام .
وهكذا ، فقد مثلت في تلك الفترة ، وفي بيئة الميري ، رواية من
أفجع مآسي التاريخ ، هي نتيجة هذا الاضطراب السياسي الذي ساد البلاد
العربية كلها . فقد كانت الاطماع تهدد بلاد الشام من الشمال ومن الجنوب ،
أما اطماع الجنوب ، فمها قيل عنها ، فهي في اعتقادي ، هيئة يسيرة ، هي
اطماع الفاطميين الذين يحكمون مصر ، وهم يمتنون إلى العروبة بنسب عريق . .
أما اطماع الشمال فهي السيفُ يحزُّ العنق — اطماع الاعداء الطبيعيين لهذه
الايوطان التي حماها سيف الدولة فترة غير قليلة من مطامعهم فجاء أبو الرذائل
— أريدُ حفيده المسمى أبا الفضائل — يفتح صدره لهم ، ويعهد الاسباب
لدخول أعظم نفور المملكة الاسلامية .

وكتب التاريخ لتقص لنا هذه الفترات بما يدمي القلب ويدمع العين .
وليس كالاديب رجل تعاف نفسه شروخ السياسة وشروخ الحروب والقتال . .
وقد فكر في بقعة تكون في معزل عن هذه الشرور ، فرأى بغداد أهدأ
حالا من الشام ، وهي إلى هذا كعبة العلم والادب ، فشد إليها الرحال ،
ومكث فيها سنة وبعض سنة فما الذي أفاده من هذه الرحلة التي تركت
في نفسه أجمل الذكريات ؟ لقد خرج بفكرة لاغموض فيها ، وهي ان الانسان
بالرغم مما لقيه من كرم البغداديين وحسن وفادتهم — هو هو في جبلته وطبيعته

وان الحكماء هم في كل مصر ووطن . وانتهى إلى الرأي الذي يتلاقى وروح فلسفته الحزينة التي تقوم على الشك واليأس :

إن المراق وإن الشام مذمّن صفران ما بها للحلك سلطان
ساس الانام شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان
وعاد إلى وطنه ، وإذا التنافس على أشده ، وحلب تشهد من جديد
هذا الصراع الدامي في أرضها ، وشهد أبو الملاء هذا الصراع بين أحفاد الحمدانيين
أو غلمانهم والمتغلبين من اعراب الشام وعلى رأسهم صالح بن مرداس ، ثم بين
المرداسيين والفاطميين ، وأخيراً بين المرادسيين وغلمانهم الذين ثارت في نفوسهم
شهوة الحكم أيضاً مما لايسمح المجال لان تقصّ تفاصيله بأسهاب . . . ثم ،
شهد فيلسوفنا الحكيم هذا الصراع الدامي المتعاقب ، وبديهي ان تؤله
هذه الاحداث وان يكون لمواملها الاثر الكبير في فلسفته وأدبه .

فأبو الملاء أديب حساس ، وشاعر عميق التفكير ، وفيلسوف حر ذو
نظرة نافذة ، رأى وطنه نهياً للاهواء والشهوات ، ورأى البلاد العربية
وقد انتهت إلى ما انتهت إليه من الضعف والاضطراب والقوضى ، وبديهي
أن يؤثر ذلك في أدبه ، وأن تشيع روح السخرية في هذا الادب ، وان
يقسو قسوة مرة على من يظهرون بصور من ملائكة الرحمن بينما هم بالسة
في إهاب انسان .

لقد آلمته هذه الاحداث العاتية التي هزت البلاد العربية من أقصاها
إلى أقصاها . . ولم له فكر بالتزوج عن وطنه . . ولكن إلى أين والدنيا العربية
في هيب محترق من القوضى . لقد فكر بالمجرة إلى الحجاز . . ولكن :

أما الحجاز فما يرجى المقام به لانه بالحرار الخمس محتجز
والشام فيه وقود الحرب مشتمل يشبه القوم شدت منهم الحجز
وبالمراق وميض يستهل دماً وراعد بقاء الشر يرتجز
إلى أين يذهب ؟

كل البلاد ذميم لامقام به وإن حلت ديار الويل والرم
ان الحجاز عن الخيرات محتجز وما تهامة الا معدن التهم
والشام شؤم وليس اليمن في يمن ويترب الآن ترب على الفهم

كان يفكر فيلسوفنا بالمهجرة الى اية بقعة عربية قد خلت من فساد عصره
وغنازيه وقد ودَّ أكثرَ من مرةٍ الخلاص من هذا المأزق .
كيف التخلص والسيطة لجةُ والجوُ غيمُ بالنوائب يسجم
فسد الزمان فلا رشاد ناجم بين الإنام ولا ضلال منجم
إلى أين يذهب وكل أرض قد ملئت بالمفاسد والشرور ؟ قبع في بيته ،
في سجنه الضيق ، وأخذ يرسل صحفاته الصادقة في تصوير طباع البشر
— طباع اولئك المسيطرين على دفة السياسة ، المتربّين على دست الحكم وقد
نسوا أمنيات شعبهم ، ونسوا اولى واجباتهم كخدام للمصلحة العامة ، فكانوا
مطية الاهواء ومطية الشهوات دون أن يفكروا بالمسئولية الكبرى الملقاة على
عاتقهم وهي خدمة الشعب وانهم اجراؤه لا أسياده .

‘مل’ المقام فكم أعاشر امة امرت بغير صلاحها امرؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم اجراؤها
وليس كالمعري أديب شاعر عرف سجايا النفس البشرية وطواياها فوصفها
أبلغ وصف ، كما وصف هذه الشهوات التي كانت لا تعرف غير التهب والاستلاب
فكان رغم عزله ، ذا اتصال مباشر بهذه القضايا التي تشغل الشعب سواء
من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الخلقية .
في الواقع ، ان ابا العلاء قد اعتزل البشر ، ولكن هل كان هذا الشيخ
الوقور الذي يعتبرُ حكيمَ العصر وفيلسوفه بحق ، بعيداً عما يمثل على مسرح
البشرية ؟ . . أبداً . ان عزله لم تحصنه عن شكاوى الافراد والجماعات ، وكانت
شخصيته الفذة تجذب الناس على اختلاف طبقاتهم إلى سجنه المتواضع ،
يحلّ قضاياهم ومعضلاتهم ، ويتوسط لدى اولي الأمر برفع ظلاماتهم ، وقصة
عصيان أهالي المرة على سياسة أمير حلب صالح بن مرداس ، والقائه القبض
على سبعين شخصاً من زعمائها ، وتجهيز حلقٍ للقضاء على مثبري تلك الفتنة ،
ولجوء كبار القوم الى أبي العلاء ليشفع لهم لدى صالح وقبول ابن مرداس شفاعته
ان هذه القصة تدلّ دلالة بالغة على انه كان على اتصال بما يجري على مسرح
السياسة ، وان القوم لم يتركوه يتمتع بعزله ، وهذا ما كان له اكبر الأثر

في أدبه ، ولو اعتزل البشر حقاً كالرهبان المتبتلين أو الصوفيين المتجربين لكان لون أدبه يختلف كل الاختلاف عن هذا اللون المغموس بأعماق النفس البشرية .
وفي اللزوميات وفي رسائله تقرأ الكثير من هذه العزات التي تصف اضطراب السياسة ، وسوء الإدارة ، وفساد الحكم .

فالسياسة التي تسير على الأهواء والتزوات ، ولا تستند على الفكر الرجيع المتزن - هي في نظره - سياسة خرقاء . .

وإذا الرئاسة لم تكن سياسة عقلية خطيء الصواب السائس
يسومون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسه
فأف من الحياة وأف مني ومن زمن رئاسته خساسة
هذه السياسة المضطربة التي غمرت يشته وكل بقعة من الأرض العربية
هي التي كانت تستثيره ليصف هذه الأهواء الجالحة . كان يشير إلى روح الطفيلان
في نفوس المتسلطين الذين يريدون أن تخضع الرعية لأهوائهم رغم مايقومون
به من مظالم .

يسود الناس زيد بعد عمرو كذاك تقلب الدولات دوله
ومن شر البرية رب ملك يريد رعية أن يسجدوا له
لقد تساءل أكثر من مرة كيف لا يثور الشعب ضد تلك السياسة الفاشحة ؟
كيف يدفع الأفراد الضرائب والمكوس وهم يشاهدون ملوكهم وقد أصبحوا عبيد
الشهوات والذادات . .

واری ملوکاً لا تحوط رعية فلام تؤخذ جزية ومكوس ؟
وجدت الناس في هرج ومرج غواة بين معتزل ومرجي
فشأن ملوکهم عزف ونزف واصحاب الامور جباه خرج
أنعجب من ملوک الأرض امسوا للذات النفوس عبيد قن

فيالذالك العصر الذي عاش في صميمه ، لاهم الملوك وزعمائه الا لذاتهم
واهواؤهم ، والا مصادرة اموال الناس وإشاعة الفوضى في البلاد ، والزيف في
قرارة النفوس - هذا العصر المضطرب الذي عاش في اعاصيره وأهوائه قد جعله ،

ونفسه اميل الى التشاؤم ، ان ينظر الى الدنيا هذه النظرة السوداء ، وان يراها على حقيقتها ، اي ان يرى شرورها أغلب . .

عرفتُ سجايا الدهر اما شروره فنقدتُ ، واما خيره فوعد
اذا كانت الدنيا ، كذلك غفلها ولو ان كل الطالعات مُسمود
رقدنا ، ولم نملك رُقاداً عن الاذى وقامت بما خفنا ونحن قمود

قالوا فلان جيد لصديقه لا يكذبوا . . مافي البرية جيد
فأميرم نال الامارة بالحق وتقيم بصلاته متصيد
لقد سئمت نفسه هذه المخازي - هذا التنازع على إماراتٍ كاذبة ، هذه
المذاهب الاجتماعية والسياسية التي شاعت في عصره والتي كانت في مظهرها ذات
رواء جميل . . ولكن من هم رجالها ؟ بمن لا تطمئن اليهم النفوس . . من صميم
الشمعيين . . كان يرى في هذه المذاهب الشائعة التي سادت عصره وسيلة للسيطرة
والحكم . . فما كان اصحابها ليقصدوا المثل العليا في مذاهبهم التي ابتدعوها ودعوا
اليها سواء منهم القرامطة او غيرهم .

انما هذه المذاهب اسبابٌ لجذب الدنيا الى الرؤساء
اولئك الرؤساء الذين عرف خبيثة طواياهم فازدراهم شرّاً ازدراء - هم الذين
كانوا يثيرون الفتن والحروب في سبيل مطاعمهم الدنية واجسادهم الكاذبة .
كانت هذه الفتن وما تجره وراءها من ارهاق تستثيره وتستفز ضميره . فما
كان شعوره المرهف يتحمل اية مظلمة ، وهو الذي عاش في افق واسع من فرديته
الحرّة رغم سجونته الثلاثة - هذا التأثير الحر الذي انتصب يدافع عن كرامة العقل
وعن حرية الفرد وحرية الجماعة قد اهاب بالانسان ان يثور على المظالم . وطلب
الى المفكرين الذين يساهمون في سياسية الدولة ان يتحرروا هم ايضاً من الرياء
الاجتماعي ، وان لا يكونوا آلات مسخرة في ايدي الغاة ، يملون مع الهوى دون أن
يستجيروا لنداء الضمير . لقد غمز الادباء والشعراء والخطباء - الخطباء الذين
يصفون الامير بالتقوى ايام الجمع بينا هو آية في الهوى والضلال . .

ما أجمل الأمم الذين عرفتهم ولعلّ سالفهم أضلّ وأتبر
يدعون في جماعتهم بسفاهة لأُميرهم ، فيكاد يبكي المنبرُ
نعم ، يكاد يبكي المنبر من ضلالات ذلك الخطيب المرائي الذي يخدع
الجماعات ويصور لها الحالة على غير حقيقتها لا في الشؤون السياسية بل في
الشؤون الاجتماعية فيصفه بقوله :

طلب الخسائس وارتنق في منبر يصف الحساب لامة ليهولها
ويكون غير مصدق بقيامة أمسى يمثل في النفوس ذهولها
والادباء والشعراء . . هل يؤدون رسالتهم السامية في هذا المصطرح الصاحب
كما يؤديها هو ؟ ان رسالة الادب رسالة مقدسة لا يجوز التهاون بها . .
وكما غمز الخطباء المشعوذين فقد غمز الشعراء المداحين الذين يتخذون الشعر
آلة لتشويه الحقائق الساطعة .

بني الآداب غرتمكم قديماً زخارف مثل زمزمة الذباب
وما شعراؤكم الا ذئاب تلصص في المدائح والسباب
لقد اضطرب كل شيء في نظره — اضطربت مقاييس الحياة ، واختلّ
النظام ، ولم يعد ينظر إلى الحياة الا هذه النظرة السوداء البغيضة التي تغلوي
فيها خيوط فلسفته التشاؤمية .

قد اختلّ الانامُ بغير شكٍ جُردوا في الزمان أو العبوة
نعم ، كل شيء عنده يدعو إلى اليأس ، فالحياة رواية من الروايات
الكاذبة ، والانسان يخادع أخاه الانسان ، اليوم يرتفع به إلى السماء ،
وغداً ، يشك بتزاهة قصده فيهبط به إلى مواطن الاقدام . .

وكم أدنى امانته إليها امين خوته وسرقة
وقائم امّة زكته عصراً فلما أن تمسكن فسقته
هذه هي أهواء الجماعات لا تكاد ترتفع بالرجل الذي احبته حق تهبط
به الأرض ، لا تكاد تؤلمه وتعتبره رمزاً للامانة حتى تتسكّر له وتعتبره
رمزاً للخيانة !

وبعد فقد كدنا ننقل من تصوير عصره إلى آرائه في الحياة ..
ولكن هل هذه الآراء الا صورة ذلك العصر المليء بالخمازي والموبقات ،
مخازي السياسة الرعناء التي كان لها أبلغ أثر في انهيار الامة العربية —
ذلك الانهيار الذي ذقت مرارته العصور الطوال . . نعم ، - كدنا ننقل
من تصوير الاضطراب في عصره السياسي إلى آرائه في الحياة — تلك الحياة
التي سئم أوضاعها وأضاليلها فنظر إليها هذه النظرة الفلسفية المتعالية . .
كيف يمتثل هذه المخازي ؟ كيف يدفع هذا الطفيان ؟ لاحيلة له إلا الشعر
— هذا الينبوع الثر الذي يبرد غليل الموتورين المتشائمين .

قد فاضت الدنيا بادناسها على براياها واحناسها
والشر في العالم حق التي مكسبها من فضل عرناسها
وكل حي فوقها ظالم وما بها أظلم من ناسها
وبعد فتساءل : وقد عاش شاعرنا الحكيم في سجون هذا اليأس الحزين
يهدم وينقد ويهاجم هل كانت له رسالة في الحياة ؟ مالون هذه الرسالة ؟
كيف كان يريد أن يكون العالم ؟ لقد أراد له الخير المحض ، وأراد له
العدالة الاجتماعية المطلقة ، وأراد الهنادة المثلى للبشرية فهل تحققت رسالته ؟
ابداً . . فقد اصطدمت هذه الميول الطيبة بفرزة الانسان وتزعته الشريرة —
فترأت له الدنيا ، في مرآة تشاؤمه ، وعلى ضوء الاحداث التي واجهت عصره
— صورة من المآثم والشرور ، فيئس ، وجره هذا اليأس الحزين إلى العزلة —
تلك العزلة التي انتجت للادب الحي ثروة خالدة ترمز إلى جبروت العقل
العربي الذي لا يقل في خياله وابداعه عن أسمى المقول التي عرقها
آداب البشرية .

فإذا أضفنا إلى عزله هذه الحياة الجافة القاسية الملولة التي عاشها في سجنه
الضيق خمسين عاماً ، بعيداً عن المباحج والاضواء واللاذات ، والشرور
التي أصابت عصره وما كان لها من أثر سيء في بيئته ، ثم تلك الهنة التي
بلي بها وهو في الرابعة من عمره ، ومزاجه السوداوي الكئيب ، وشكوكه
الفلسفية القلقة — علمنا ما كان لهذه الحياة من أثر في أدبه — هذا الادب

الملائي الذي يعتبر نسيج وحده بين آداب الأمم الحية ، والذي يرى فيه الباحثون الكثير من الآراء والفكرات والصور التي تتلاقى مع أصدق ماخلده أكابر أدباء العالم في مختلف العصور . نعم ، اننا نجد مثلاً في حداثي أبي العلاء العابسة الكئيبة تشاؤم شوبنهاور وسخرية اناتول فرانس والكثير من هذه المذاهب والفكرات الشائنة في عصرنا هذا ، ففلسفته لم تقف عند واحات الزهد والمزلة بل تعدتها إلى الاخلاق والسياسة والاجتماع والدين والانسان والخالق فأبدى رأيه صريحاً في جميع ظواهر الحياة ، مظهر منها وما استتر ، حتى الاشتراكية التي عرفتها مذاهب القرن العشرين — فكان شاعراً فيلسوفاً يمسك في شعره كل النزعات التي يحبسها الفكر الحر الذي سما بتزعاته فوق كل القيود التي فرضتها عليه مواضعات عصره ، وهكذا ، فقد كان لنا من لزومياته ، والموبته ، وفصوله وغاياته والكثير من رسائله هذه التروة الضخمة التي تشغل في رحاب الفكر الانساني مكاناً رفيعاً .

* * *

أبها السادة

ان نجد الامم يقوم على ما يتركه ادباؤها ومفكروها من تراث ثمين ، وقد ترك العربي لامتة أضخم تراث أدبي ، فاذا احتفت الدنيا العربية بذكرى مولده الاثني فلها تحتني بترائها الذي خلد على الاجيال — بذكرى رجل اقتعد مكائته السامقة إلى جانب عباقرة الادباء العالميين الذين قام مجددم على الصدق لا على الشموعة ، وعلى جمال الفكرة وبذل الشعور ، أحسن فتألم فأمل ، حتى هذه الايات المتفرقة التي وصف بها لوثات عصره — كافية الدلالة على ما كان يحيش به صدره من ميول صادقة ونزعات سامية في سبيل الخير والحق والجمال — الخير الذي كان يصدمه الشر ، والحق الذي كان يغلبه الباطل ، والجمال الذي كانت تلتطخه البشاعة — بشاعة الفرائز الدنية التي تدفع الانسان إلى تشويه الحقائق في سبيل الانانية الحقة — تلك الانانية التي كانت من أقوى العوامل في انهيار السلطان العربي الذي واجهه عصر أبي العلاء .

سامي الكبالي

الحفلة الخامسة

في المرفئية

في الساعة التاسعة من يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر ايلول ١٩٤٤ غادر أعضاء المهرجان مدينة حلب متوجّين الى اللاذقية ، فمضت سياراتهم صوب الغرب تقطع سهول حلب الخصبة ومسافاتها ، حتى بلغت بلدة (ادلب) ، فوقفوا عند مدخل البلدة ، حيث احتشد أعيان المدينة ، وموظفو الحكومة ، وطلاب المدارس وطالباتها لاستقبالهم . فدوت الانغام الموسيقية ، وأشد الطلاب بمض الأناشيد الوطنية ، وقدم الطالبات طاقات الزهر الى ضيوفهن . ثم اجتاز الركب صفوف المستقبلين بين الهتاف والحفاة والمطف ، وانحدرت السيارات الى وادي العاصي حتى بلغت بلدة (جسر الشغور) . ثم تسنمت جبلاً عالياً مخضرة ، وما زالت في صعود وهبوط حتى وقفت عند (قسطل المعجوز) . وعدلت بعد ذلك عن الطريق العام قاصدة أحراج البائر حيث أعدت بلدية اللاذقية لأعضاء المهرجان مأدبة غداء . فصعدت في جبال صعبة المرتق فيها من المضايق والتلال والماعطف والأحراج الكثيفة ما يبعث في قلب المسافر شعوراً عميقاً بالخشية والجلال (١) . فكان الركب لا يبلغ قمة جبل حتى ينحدر الى فجاجة وبطون أوديته . وكلما سجد في جبل ظن أنه سيطل منه على البحر . وما زالت الجبال تتلو الجبال ، حتى صعد الركب في سفح جبل شاهق مطل على واد عميق . فلما شارفت السيارات قمة الجبل ، احترقت احداها ، وهي سيارة أرسلها محافظ اللاذقية لإرشاد الركب الى مكان المأدبة . فأوعت الاعضاء ، وأوجسوا خيفة من الطريق ، حتى ظنوا أنهم سيضيعون في

(١) تبلغ مساحة الاحراج في سووية ٢٥٠٠٠ هكتار ، ومساحة أحراج البائر والبسيط نحو ٢٠٠٠٠ هكتار ، معظم اشجارها من الصنوبر وأنواع البلوط كالسديان واللؤلؤ . وفيها حرجات كثيرة من الارز والدنوب والزيتون البري والبلغم واشجار متفرقة من الآس والدردار والفار والعبهر وغيرها . وحراج البائر والبسيط تشبه حراج اودبة النيبا .

مضايق الجبال بين اشجار الصنوبر. وبينام في هذه الحالة اذ وقفت السيارات في واد يقال له فرولثي على حدود لواء الاسكندرونة فيه عين ماء وأشجار عالية بأسقة تحيط بساحة مستوية على شكل دائرة أعدت فيها موائد الطعام على هيئة بديعة من الترتيب . فلما دنوا منها رأوا محافظ اللاذقية الأمير مصطفي الشهابي ، ورئيس بلديتها السيد عدنان الأزهرى، على رأس وفد كبير من أعيان اللاذقية ، خرجوا لاستقبالهم . فزلوا من السيارات ، وسرى عنهم ما كان اصابهم من التعب ، وسروا بما رأوا من سحر الطبيعة وجمالها . ثم أنهم جلسوا الى مائدة جمعت حسن الحضارة الى جمال الطبيعة ، فتناولوا الطعام على الانغام الموسيقية التي غناها بعض القرويين من رجال التركان بمزاميرهم وطبولهم . وسمعوا كلمة الترحيب التي القاها السيد عدنان الأزهرى باسم مدينة اللاذقية ، فأنسوا بما سمعوا ونسوا وعورة الطريق ووعثاء السفر . ولما انتهت مأدبة الغداء سار الركب الى مدينة اللاذقية على طريق انطاكية فبسط في سفوح الجبال المطلة على البحر ، حتى انتهى الى سهول اللاذقية الخصبية ، وبلغ المدينة قبيل غروب الشمس .

وكانت مدينة اللاذقية قد أعدت المدة لاقامة الحفلة الخطائية في فندق السياحة والاصطياف المشرف على البحر. فلما استراح الاعضاء قليلاً في الفندق ، نزلوا الى مكان الحفلة ، وهو في الناحية الجنوبية من الفندق متصل بأمواج البحر . وغص فناء الفندق بالمدعوين وامتلاّت شرفاته بالمدعوات ، وأحاطت الجماهير به من جهاته الثلاث ، بعضهم في الطرق المؤدية الى الفندق ، وبعضهم الآخر في الحديقة العامة المتصلة بساحل البحر .

وكانت الحفلة الخطائية من أروع الحفلات التي اختلفت فيها انغام الموسيقى وأمواج البحر ، والسجم هتاف الجماهير مع كلام الخطباء ، حتى خيل الى السامعين انهم في أرض يفيض منها السحر والايمان والروعة والشعر .

وألقى الامير مصطفي الشهابي في أول الحفلة كلمة ترحيب عرف فيها الضيوف بمحافظه اللاذقية ، قال ان سكانها قرابة نصف مليون نسمة منهم ٦٢.٠/ علويون و ٢٠.٠/ سنيون و ١٨.٠/ مسيحيون معظمهم من الروم الارثوذكس . وقال ان أم غلاتها التبغ والزيتون والقطن . وفيها معدن من القار (الاسفلت) .

و ٨٠. / من التبغ الذي يدخن في سورية ولبنان يزرع في هذه المحافظة، ويشحن قسم كبير منه الى امريكا. ثم ذكر نبذة عن مدارس المحافظة، وطرقها، وبلدانها، ومصايفها، وحراجها، وآثارها الرومانية والعربية والصليبية كقلعة صهيون والمرقب والحسن، وشيئا عن عادات السكان ودآل على أن معظمهم عرب أقحاح ولا سبيا العلويين والنصارى.

ثم تتابع الخطباء بمدى على المنبر على الوجه الآتي :

١ - الاستاذ عبد الحميد العبادي الناحية التاريخية في أدب المعري
عميد كلية الآداب بجامعة فاروق الاول

٢ - الدكتور جميل صليبا
عضو الجمع العلمي العربي
فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء

٣ - الاستاذ بدوي الجبل
الدهر ملك العبقريّة (قصيدة)

٤ - الاستاذ محمد الشريفي
أسلوب المعري

٥ - الاستاذ أنيس المقدسي
مثل الجامعة الاميركية في بيروت
الروح العلائية في أدبنا الحديث

ثم كانت مأدبة المشاء بعد ذلك في دار الامير مصطفى الشهابي، دعى إليها وجهاء المدينة، وموظفوها، وأساتذتها، وتخللها حفلة سمر ألقى فيها بعض المغنين قطعاً من الزجل الشعبي، وأوى الاعضاء بعد ذلك إلى فندق السياحة والاصطياف فتمسوا بالراحة بعد التعب، وناموا على أصوات الامواج الرتيبة. وفيما يلي نص الخطب التي أقيمت في هذه الحفلة :

جميل صليبا

ناحية التاريخ

من ادب أبي العلاء المعري

سيدي الرئيس ، سيداتي ، سادتي .

يقول أبو العلاء في بعض لزومياته :

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن الا وعندي من اخبارهم طرف
فهو يدعي أنه ما من امة وجدت في هذه الدنيا الا وقد ألم بطرف من أخبارها
وعرف شيئاً من تصاريف احوالها . والحق ان أبا العلاء لم يصطنع المبالغة . ولم
يركب متن الشطط عند ما ادعى هذه الدعوى . فقد أدرك من اول أمره أن
المهارة الجبائية التي لحقته منذ طفولته لاشك مانعته من معرفة الطبيعة الانسانية من
طريق البيان والملاحظة غير أنه فطن الى أن في وسعه أن يتدارك ما فوته عليه
هذه الآفة المحتومة من طريق الاطلاع على ماضي الانسانية المسطور في تاريخها .
فالتبيعة الانسانية واحدة لا تختلف ، والناس هم الناس بعد العهد بهم ام قرب .
ذلك اصل ولع أبي العلاء بالتاريخ . ثم يجده يزداد به ولماً عند رجوعه من بغداد
الى بلده ، واعتزاه لزوم ثاني محبسه . فان أبا العلاء لم يرد باعتزاله الناس أن يضرب
بينه وبينهم حجاباً كثيفاً لا يراهم من دونه ولا يرونه ، وانما اراد بالعزلة أن
يكون بنجوة من غلظتهم وملابستهم وأن تنح له حرية درس احوالهم ونظمهم
ومصاير امورهم دون أن تمتد اليه ايديهم ، ودون أن يعرضوا له بما يوجب له شغل
الخطاير وهم القلب وفتنة النفس فكانه اراد أن يقطع صلته بالناس من ناحية
ليصلها بهم من ناحية أخرى هي ناحية الاطلاع على أخبار الماضين منهم والفايرين
أي من ناحية الاطلاع على التاريخ . على أنه اذا كانت الضرورة هي التي قصت على
أبي العلاء بالاطلاع على التاريخ فهناك سبب آخر حجب هذا العلم الى عقل شاعرنا

الفيلسوف وقلبه . ذلك أن التاريخ قد يكون الذالوم واشدها امتاعاً متى ورد الانسان ساحته وقلب صحائفه بفهم ذكي وقلب سليم . هو موكب الائم ومعرض الحياة الانسانية ، فيه تبين مواطن الضعف والقوة من تلك الحياة وفيه تظهر اسباب عظمة الشعوب واسرار اضمحلالها . فيه حكمة الحياة واضحة لالبس فيها ولا ابهام . فاذا كان أبو العلاء قد اقبل على التاريخ بتلو صحائفه ويستخرج عبره فان ذلك انما كان عن ضرورة اول الامر ثم عن حب له وشغف به احيراً .

على أن اطلاع أبي العلاء على التاريخ كان بطبيعة الحال محدوداً بمحدود الرواية التاريخية العربية على نحو ماوصلت اليه في ايامه أي في النصف الثاني من القرن الرابع والنصف الاول من القرن الخامس الهجري . فماذا كانت حدود هذه الرواية ؟ لقد ابتدأت الرواية التاريخية العربية في القرن الاول الهجري ثم نمت نمواً مطرداً وتنوعت تنوعاً بيناً في القرون الثلاثة التالية . فدونت اخبار العرب قبل الاسلام واخبار الائم التي كان للعرب اتصال بها كالفرس والروم والهنود والمصريين والاحباش وكل ذلك كالمدخل الى التاريخ الاسلامي ثم دوت سيرة الرسول عليه السلام واخبار المغازي والفتوح واخبار الدولتين الاموية والعباسية ، وما تفرع عن الاخيرة من دويلات عدة بعضها في الشرق كالطاهرية والسامانية والغزنوية واليوهية والحمدانية وبعضها في الغرب كالطولونية والاشيدية والادريسية والفاطمية وقد وضعت في كل ذلك كتب كثيرة ذكر اكثرها ابن النديم في الفهرست في الفصل الذي عقده للاخباريين خاصة . وقد سلم لنا من هذه التأليف شي غير قليل نذكر منه كتاب السيرة لابن اسحق بخلخيص ابن هشام ومغازي الواقدي وطبقات ابن سعد وكتب ابن قتبية والدينوري والبلاذري واليعقوبي وتواريخ الطبري والصولي والمسمودي وأبي الفرج الاصفهاني ومسكويه . لاشك أن أبا العلاء اطلع على جل هذه الكتب ان لم يكن اطلع عليها كلها ، فقد كانت في متناول يده في مكاتب المعرة واللاذقية وحلب ودار العلم ببغداد ولا ادل على سعة علمه بالتاريخ العام واخبار العرب قبل الاسلام والتاريخ الاسلامي من كثرة استشهاده بالحوادث التاريخية كثرة رائعة في ثره وشجره . ففي الرسالة التي يعزي

فيها خاله أبا القاسم بن سبيكة باخيه نجده يسرد أسماء الانبياء من لدن آدم الى محمد (ص) ثم يتبع ذلك بسرد أسماء ملوك اليمن فملوك الحيرة وغسان والفرس وسادات العرب في الجاهلية وكل ذلك على سبيل العبرة والموعظة ويان أن كلا منهم قد صار بعد العز وعلو الشأن الى الموت والفناء ونجده في «رسالة الففران» يخبر في القصيدة السنية التي قالها على لسان الجنى «أبي هدرش» كيف استغوى هذا الجنى في جاهليته كثيراً من خلق الله ملائكة وغير ملائكة الى أن بعث الله نبيه محمداً (ص) فأمن به وصدقته واشترك معه هو وقبيله من الجن في غزوات بدر واحد والخندق كما اشترك بعد في وقائع اليرموك والجل وصفين والنهروان . وكثيراً ما يورد أبو الملاء في «رسالة الففران» تليحات وأشارات الى الفرق والنحل الاسلامية من سنة وشيعة ومعتزلة ومرجئة كما ذكر الزنج والقرامطة والمختار بن أبي عبيد والمنصور البغوي والحلاج . ومن الطريف انه ساق في آخر رسالة الففران كلاماً على المدانير والعملة الاسلامية فيه تفصيلات لانجدها في كتب التاريخ التي بأيدينا . وتفيض «الزروميات» بذكر كثير من ملوك الفرس والروم والهند واليمن وحوادث الدولة الاسلامية وملوكها من نحو محمود ومسمود الغزنويين والاكشيد وابيه طغج وجده جف كما تذكر خاقان وخان وآلك (= أيلك)

وكما وجد أبو الملاء في التاريخ العام الاسلامي وغير الاسلامي مادة انتفع بها الى ابعد مدى في تأييد آرائه وتقوية حججه وتجميل فنه المنشور والمنظوم فقد وجد في حوادث عصره أو في التاريخ المعاصر له مادة غزيرة اكسبت شعره وثره حيوية عجيبة وأمدته بما أعانه على تكوين رأيه في السياسة ونظم الحكم والاجتماع بوجه عام . ونستطيع ان نقول ان شعر صباه وصدر كهولته الوارد في ديوانه «سقط الزند» يتصل اتصالاً وثيقاً بحوادث عصره بل هو صدى لحوادث ذلك العصر . وفي وسع من يقرأ «سقط الزند» «والزروميات» ان يتبين صورة لا بأس بها لحوادث الشام خاصة في زمن أبي الملاء .

كانت معركة التمان معدودة عن الاقليم المعروف «بالمواصم» والواقع على تخوم الدولة الاسلامية مما يلي مملكة الروم وقد أصبحت حلب اذ ذاك قاعدة ذلك

الأقليم ، وكانت متنازعة بين متأخري امراء الدولة الحمدانية وبين الدولة الفاطمية المصرية فيغلب بنو حمدان على أمرهم ويستولي الفاطميون على حلب ولكن سرعان ما انبرت لفاطمين اسرة عربية بدوية هي الاسرة المرداسية فقتلوا على حلب سنة ٤١٤ على يد أسد الدولة صالح بن مرداس الكلبي . وقد تبعت المعرة حلب فيما اختلف عليها من الاحوال لذلك نجد أبا العلاء يمدح امراء حلب على اختلافهم من حمدانية وفاطمية . فيمدح الامير سعيد الدولة الحمداني بالقصائد الاولى من « سقط الزند » كالتقصيدة الالامية الاولى ومطلعها :

اعن وخذ القلاص كسفت حالا ومن عند الظلام طلبت مالا
كما يمدح ولاية الفاطميين على حلب في قصائد أخرى منها السينية التي مطلعها :
لولا نحية بعض الأربع الدرس ما هاب حد لساني حادث الحبس
ثم ان أهل المعرة ثاروا على صالح بن مرداس بسبب المرأة التي أهانها خمار نصراني فذهبت الى المسجد يوم الجمعة وقصت على الناس ما نالها فثاروا بالجار واتهبوا حاوته وهدموها والى هذا الحادث يشير ابو العلاء بقوله في اللزوميات :
انت جامع يوم المروبة جامعا تقص على الشهاد بالمصر امرها
فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها نخلت سماء الله تمطر جهرها
فهدوا بناء كان بأوي فناءه فواجر القت للفواحش خمرها
واستفحل الخطب عندما أشار على صالح وزيره النصراني « تادرس » (وكان حنقاً على أهل المعرة) بقبض سبعين رجلاً منهم وسار صالح الى المعرة فأخرج اليه اهل المعرة ابا الصلاء شفيماً فشغفه صالح واطلق له الاسارى السبعين سنة ٤١٨ والى ذلك يشير ابو العلاء بقوله في اللزوميات :

تقيت في منزلي برهة ستير الميوب فقيد الحسد
فلما مضى العمر الا الاقل وحم لروحي فراق الجسد
بمشت شفيماً الى صالح وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام واسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبني هذا النفاق فكم نفقت محنة ما كسد
وباضمحلال نفوذ الفواطم في الشام اصبحت الشام نهياً لقبائل العرب

المتبذية من لدن الجزيرة الى حدود مصر وخاصة قبائل كلاب وطيء وعامر
والى ذلك يشير ابو العلاء بقوله :

أرى حلباً حازها صالح	وجال سنان على جلقا
وحسان في سلفي طيء	يصرف من عزه أبلقا
فلما رأيت خيلهم بالنصار	قتاما على جيشهم علقا
رمت جامع الرملة المستضام	فأصبح بالدم قد خلقا
وما ينفع الكاعب المستبا	ة هام على غضب فلقا
وظل قتييل فلم يذكر	وغل أسير فما أطلقا
وكم تركت أهلاً وحده	وكم غادرت مثيراً مملقا
يسائل في الحلي عن ماله	وما القول في طائر حلقا

واذا كانت هذه الأشعار تصور لنا الحوادث البارزة بالشام في أواخر
القرن الرابع وأوائل الخامس فانها تصور لنا ناحية من نواحي شخصية
أبي العلاء ، ناحية وطنية وحب لبلده ومشره وحزنه لما يصيبه واستمداده
لأن يخدمه بنفذه الأدبي عند الاقتضاء ، وهي أشعار تأتلف ومشره الذي
قاله وهو في بغداد يتشوق بلده المعرة .

على أن لوطنية أبي العلاء مظهر آخر . لقد كان للشام في زمنه عدو اجنبي
يرقب الفرص للاتقضاء عليه . ذلك العدو هو الروم وكان الروم بعد زمان
سيف الدولة والثيات الأمر بالشام قد استولوا على انطاكية سنة ٣٥٨
واستولوا بعد على اللاذقية وذلك في أيام امبراطورهم تقفور قوقلس . ثم أخذوا
يمدون أعينهم الى حلب . وكان سعيد الدولة الحمداني ولاة الفاطميين يدافعونهم
جهدهم . وهنا تجد ابا العلاء يسخر فنه لا لخدمة وطنه لحسب ولكن لخدمة
العالم الاسلامي كله ، فهو في مدائحه لعمال حلب يشيد دائماً بمقاومتهم الروم ،
فيخاطب الأمير سعيد الدولة الحمداني (٣٨١ - ٣٩٢ هـ) بقوله :

حفظت المسلمين وقد توالى	سحائب تحمل النوب الثقالا
وقيت عيالهم اذ كل عين	تمد سواد ناظرها عيالا
بوقت لا يعطى الليث فيه	مساورة ولا السيد احتالا

ويقول :

الى حارم قاد العتاق سواهما لها من نشاط بالكاء زمال
بني القدر هل القيمت الحرب مرة وهل كف طمن عنكم وفضال
وهل اظلمت سحج الايالي عايكم وما حان من شمس النهار زوال
وهل طلعت شعث النواصي عواليا رجال ترامي خلفهن رجال
فان تساموا من سورة الحرب مرة وتمصكم شم الانوف طوال
ففي كل يوم غارة مشممة وفي كل عام غزوة وزال
الى أن يقول في الخليل :

يردن دماء الروم وهي غريضة ويتركن ورد الماء وهو زلال
وقد علم الرومي انك حتفه على أن بمض الموقنين يحال
وكان الشيخ ابو الحسين بن سنان احد رؤساء حلب قد عزم على الحج فكتب
اليه أبو العلاء ينهاء عن الحج في عامه ويريه ان الروم لطلب بالمرصاد فن ذلك قوله:
« وسفر مولاي الى الحج في هذا العام حرام بسل كما حرم صوم عيد الفطر وحظر
على المحرم تضيض بمطر وهو ادام الله تحميته امين من امناه
المسلمين يرهف الشوكه ويستجيد الامة ويحصن ماوهي من سور أوشرفات
ومن لحياطة الرعية بمداميك المدر واجراء السمد لحفظها والقدر ،
وحلب حرسها الله قد صار فيها رباط يقتنم ، وجهاز يرغب فيه ويتنافس ولا يلبث
ان يزول بانقضاء الهدنة ، وعودة الجامع كلمة الروم الى كرسيه من بزفطيه »

فقصائد أبي العلاء الواردة في « سقط الزند » والمتصلة بمدح امراء حلب
المناضلين للروم تجري مجرى قصائد المتنبي المعروفة بالسيفيات والقصائد الروميات
لأبي فراس الحمداني وهي حلقة من حلقات ملحمة الحروب العربية الرومية . على
ان أبا العلاء كما يخيل اليها كان يلحظ فيما بينه وبين نفسه ان روح الجهاد قد فتر
عند المسلمين وعند قومه خاصة وانهم امام استعلاء الروم وكلهم عليهم قد التزموا
خطة الدفاع دون الهجوم . وقد احب ان يعبر عن هذا الاعتقاد الذي استقر في
نفسه من طريق الكناية والرمز ، فنظم تلك المجموعة العربية من القصائد المعروفة

« بالدروعيات » والوارد في آخر « سقط الزند » فالدرع اداة وقاية لاسلح هجوم كالسيف والرمح والقوس . هذا ظننا في تعليل إنشائه هذه القصائد فان يكن ظننا صادقا فقد أبدع أبو الملاء الرمز واجاد الكناية .

ويستعرض أبو الملاء جملة احوال العالم الاسلامي لعهده فيرى حالا لا تسره من ظلم واضطراب وفقر وطينان ويجهد في أن يطب لتلك الحال فيذهب الى أن الملوك والمتغلبين لم يدركوا انهم في حقيقة الامر خدام رعاياهم واجراؤها وأن الشعوب مستقر السلطان ومستعمده :

مل المقام فكم اعاشر أمة امرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وم اجراؤها
ويرى في علاج الفقر أن يؤخذ الناس باداء الزكاة المفروضة عليهم شرعاً :
واحسب الناس لو اعطوا زكاتهم لما رأيت بني الاعداء شاكينا
ياقوت ما انت يا قوت ولا ذهب فكيف تمجز اقواما مساكينا
ويرى ان الارض لله لا يصح تملكها :

الارض لله ما استحميا الحاول بها أن يدعوها وهم في الدار اضياف
تنازعوا في عواري فيبينهم نبل حطام وارماح واسياف
ويرى ان في امكان الناس ان يصلوا الى « المدينة الفاضلة » أو « اليوتوبيا » أو
الجماعة السياسية المثالية اذا سلكوا طريق القصد وجادة الاعتدال :
ان اكلتم فضلاً وأنفقتم فضلاً فلا يدخلن وال عليكم
لا تولوا أموركم ايدي الناس س اذا ردت الأمور اليكم

وكما وجد أبو الملاء في التاريخ قديمه والمعاصر له مادة غدت فيه الأدبي وأعانت على صوغ آرائه في الإصلاح السياسي والاجتماعي فقد وجد فيه كذلك مادة لآرائه الفلسفية الخاصة به . لقد عرض تواريخ الأفراد والملوك والأسر والأئمة وما يختلف على الناس من احوال فوجد كل ذلك لا محالة متهنياً الى المدم والفتاء ، رأى الحياة كلها أشبه شيء بعملية حسابية مركبة نتيجتها الصفر . ومن ثم ساء ظنه بالحياة ولم ير في سعي الناس سوى جهود عقيمة :

حوادث الدهر ما تنفك غادية على الاثنام باللباس وتلبس
الوت بكسرى ولم تترك مرازيه وبالمناذر أودت والقوا بيس
زارت حسيناً وحست بالردى حسناً وواجهت آل عباس بتعبس
والليل والنهار عنده شفا مقراض ياتيان على كل شيء :

الصبح أصبَحُ والظلام م كما تراه احم حالك
يتباريان ويسلكا ن الى الورى ضيق المسالك
أسدان يفتسان من مرا به فأبه لذلك
حملا المالك عن ردى قاض الى خان وآلك

والشرء لا الخير هو الغالب على الناس :

والارض موطن شره وضاثن ما أضححت بسرور يوم فارد
هذه فلسفة التاريخ عند أبي العلاء وتفسيره إياه . هو تفسير رجل متشائم
لا يرى في العالم ولا في الحياة شيئاً يسر . وهو من أجل ذلك يستعجل الفناء
والعدم ويمتنع من الزواج الذي هو وسيلة النسل وبقاء النوع :
تواصل جبل النسل ما بين آدم وبينى ولم يوصل بلامي باه
وهو سي الظن بالناس زاهد فيهم .

وزهدني في الناس معرفتي بهم وعلمي بأن المالمين هباء

نهيتك عن خلاط الناس فاحذر أقاربك الإدادني واحذرنى
وان انا قلت لا تحمل جرازا فهز أخا السقاسق واضربني

الى أي شيء يرجع هذا التشاؤم ؟

قد يقول قائل ان مزاج أبي العلاء المتأثر بحياته التي اخذ نفسه بها بعد عودته
من بغداد هو علة هذا التشاؤم . ولكن مزاج شاعرنا الفيلسوف نتيجة لاعلة
لتلك الحال . فهو انما اخذ نفسه بحياة الزهد والتقصيف البالغ بعد أن بلغ الاربعين
وبعد أن استكمل خبرته بالناس والاشياء اذاً خبرته بالناس والاشياء في القديم وفي
زمنه هي علة تشاؤمه . هي علمه بالتاريخ كما وصل اليه وكما عرفه .

لقد كان علم قديما المؤرخين من الاغريق والرومان بالانسان وحياته قاصرا
قصورا بينا . لقد بنوا الرواية التاريخية على حياة الفرد أو الاسرة أو القبيلة أو

المدينة أو طبقة بعينها ، ومن شأن التاريخ اذا بني على هذا الاساس ان يكون قائم اللون مليئاً باخبار الفتن والثورات وظلم الانسان للانسان واستعباد الطبقات بعضها لبعض فلما اطلع فلاسفة الاغريق والرومان على هذا التاريخ تأثروا به في صوغ نظرياتهم عن الحياة جملة فجاءت نظريات ملؤها التشاؤم سواء في ذلك نظريات افلاطون والرواقيين والايقوريين وصنيق ومارك اوريل . فمنهم من رأى ان العالم ينتقل في دورات زمنية تفتح كل منها بعصر ذهبي مجيد ثم لايزال يتدلى ويضمف حتى تختتم الدورة بحال فوضى واضمحلال ثم تفتح دورة أخرى وهلم جرا . ومنهم من رأى الانسان محدود القدرة مضروباً بينه وبين قوى لا حد لقدرتها هي الآلهة بنطاق لاسلطان له عليه ففهمة فلاسفة الاغريق . والرومان نفمة حزن وبأس وحسرة على الناس والحياة بوجه عام . ثم جاءت المصور الوسطى الاوربية وساد سلطان النصرانية فأصبح الناس يرون ان هذه الدنيا دار بلاغ وان الآخرة هي دار القرار وان السعادة في هذه الدنيا ليست محققة وان الحياة الآخرة هي التي ترجى فيها السعادة والخلود . فلزاد الناس ضيقاً بالحياة واصبح شعارهم الزهد فيها وتبني الخلاص منها . والرواية التاريخية الشرقية لا تختلف في خصائصها العامة عن الرواية الغربية والمجتمع الشرقي القديم لم يكن يختلف اختلافا جوهرياً عن المجتمع الاغريقي الروماني القديم ومن ثم كانت نظرة حكائهم الى الحياة هي نفس نظرة حكماء الغرب نظرة بأس وحزن وتشاؤم . وفكرة الادوار التي تحدثنا عنها عند مفكري الاغريق والروم تقابل فكرة « الفترات الزمنية » التي تفتح بمجيء نبي أو رسول وتنتهي بقيام آخر والايمان بحياة م. متقبلة بنعم فيها المؤمن ويخالد هي خير ما يتعزى به المؤمن عما يصيبه من البلاء في هذه الدنيا

لم يلحظ التقدماء على العموم ان الانسان ابتداء ضعيفاً ثم صار بمقله واجتهاده وقوة ارادته يرق شيئاً فشيئاً ولكنهم خصوا بعنايتهم ضعفه امام عوامل لاسلطان له عليها مثل القضاء والقدر والحياة الأخرى وعلاقته بخالفه سبحانه وتعالى . وبمد فابو العلاء قد نهج في فلسفة التاريخ منهج المفكرين القدماء من المشاركة والمقاربة على السواء لأن العلة واحدة في الحالين . على أن تشاؤمه وبأسه ينطوي على حب حقيقي للانسان والانسانية واذا كان أبو العلاء شديد الفرق بالحيوان فلا شك في انه كان في اعماق نفسه اشد رفقاً بالانسان .

عبد الحميد الباري

فكرة الخير في فلسفة أبي الملاء

ليس غرضي في الكلام عن فكرة الخير في فلسفة أبي الملاء أن أحيط بفلسفته الخلقية كلها ، فإن أمراً كهذا يحتاج الى وقت واسع وبحث طويل . وإنما أريد أن آيين ماهو المثل الأعلى للخير في نظر أبي الملاء ، وماهي القواعد الخلقية اللازمة عنه .

والبحث في فكرة الخير هام جداً ، لأن أبا الملاء لم يكن فيلسوفاً مدرسياً ، ولا صاحب مذهب منظم كأرسطو وابن سينا . وإنما كانت فيلسوفاً خلقياً قبل كل شيء . ومن البحث في فكرة الخير يستطيع الناظر أن يطلع على الفلسفة الخلقية كلها .

لم يكن أبو الملاء حسن الرأي في الدنيا والناس . ومن الاطالة أن نستدل على ذلك الآن بشعره وشره . فقد ذم الدنيا كما ذمها ابو الغضائرية ، واتهم الانسان بالظلم كما اتهمه به المتنبي ، ونقض يده من اصلاح الانسان فلم يرج له شفاء من أدوائه ، ولا نجاة من أوصابه وآلامه ، بل زعم أن جبلته فاسدة وان الشر في طبعه وانه غادر يميل الى الظلم .

وجيلة الناس الفساد فضل من يسمو بحكته الى تهذيبها

من وسخ صاغ الفتى ربه فلا يقولن توسخت
وأكثر الذين بحثوا في فلسفة أبي الملاء الخلقية لم يدرسوا إلا هذه الناحية السوداء من مبادئه . فأشاروا الى تشاؤمه ، وريبه ، وسخريته ، وتقده للحياة الاجتماعية والدينية ، وشكه في إصلاح الانسان ، وأهملوا إيمانه بالخير ، وألحقوه بالفلاسفة المتشاؤمين كشوبنهاور وغيره . وأريد الآن أن آيين أن تشاؤم أبي الملاء إنما هو تشاؤم نسبي لا يتنافى الإيمان بالخير . وفي اللزومات والقصول والغايات أدلة كثيرة على تطلع أبي الملاء الى مثل أعلى شبيه بالمثل العليا الخلقية التي تطلع اليها أصحاب الأحلام من الشعراء والفلاسفة والمصلحين . فما هو الخير في نظر أبي الملاء ؟ -

من الصعب لا بل من المبعث ان نبحت عن تعريف علمي واضح للخير في شعر أبي الملاء . لان الزوميات ليست كتاباً فلسفياً مشتملاً على تعريفات علمية واضحة . وليس من شأن الشعراء ان يضعوا التعريفات وان يبنوا عليها المبادي والغايات. على أن أبا الملاء قد ذكر لنا الخير في كثير من أشعاره ، فلم يكتب بالتلميح به بل اثبته وعدد لنا كثيراً من صفاته. ولندكر الآن بعض هذه الصفات :

١ — لنبين أولاً أن الخير محجّب الى النفس . فكل عاقل يطلبه ويريد الحصول

عليه ، لانه يجد فيه لذته وسعاده . نعم ان الانسان قد يمجز عن الخير لصعوبة الطريق المؤدية اليه فطريق النفي واسمة ، وطريق الخير كما يقول أبو الملاء ضيقة كسم الخياط . والمدل صعب والمرء يمييه قود النفس للخير ، مع انه « يقود المسكر اللجب » . وقد يمجز الانسان عن الخير لكسله الطبيعي وفساد جبلته ، وغش طبيعته ، ولكنه اذا ما تجرد عن غرائزه ، وابتمد عن هواه استسهل فعل الخير ، ورغب فيه واجبه .

والخير محبوب ولكنه يمجز عنه الهي أو يكسل

٢ — على أن اللذة التي يجدها الانسان في الخير ليست غاية الفعل ، ولا هي مبدأ من مبادئها لانها تنقلب الى الم . فقد تولد لذة ساعة واحدة شقاء حياة طويلة ، وقد تولد المرض والفضيحة والعار . والذين يرسلون نفوسهم في اللذات لا يعرفون الراحة والهناء انهم كالانعام ، لا بل اضل سبيلاً . لان اللذة كما يقول أبو الملاء لا تخلد صموكاً ولا ملكاً . ولا تدوم على حال واحدة ، بل سرعان ماتقلب الى ضجر وملل .

اذا فرعنا فان الامن غايتنا وان امننا فما نخلو من الفزع
وشيمة الانس ممزوج بها ملل فما ندوم على صبر ولا جزع
فلا خير اذن في لذة تيجتها الملل ، ولا قيمة لمرة نصيبها الزوال ، ولا فائدة في امن لا يخلو من الفزع .

جاءتك لذة ساعة فأخذتها بالعار لم نخفل سواد العار
أك برسل النفس في اللذات صاحبها فما يخلدن صموكاً ولا ملكاً

٣ - وكما ان اللذة ليست غاية الفعل ، فكذلك المنفعة ليست غاية الخير ، بل الفضيلة اسمى من ان تنحل الى تجارة رابحة . فينبغي للعاقل ان يتره الخير عن نتائجها ، وان لا يؤمل الربح منه كأنه تاجر . نعم قد يجبر الينا الخير نفعا ، فنفعه كما يقول أبو الملاء لأن له ثمرة لذت في الماطم ، وتضوعت لمن تنسم ، وحسنت في المنظر والمتوسم ، وجاوزت الحد في العظم ، ونفعله لحسنه في السامع ، ونفعله لنكسب به ثواباً عند الله .

فانمل الخير وأمل غبه فهو الذخر اذا الله حشر
ولكن المنفعة والخير امران مختلفان تماماً . وانك لتجد المنفعة في هذه الدنيا قد وفرت للاشرار اكثر مما وفرت لاولى الفضل ، بل اولو الفضل كما يقول أبو الملاء غرباء في اوطانهم ، غرباء في بني جنسهم . وكثيراً ما تولدت المنفعة من الشر .
ولا لون للماء فيما يقال ولكن تلونه بالأواني
وفي كل شر دعت الخلوب شواسع منفعة أو دواني
وجدت الشر ينفع كل حين ومن نفع به حمل الحسام
فلو كان معنى الخير مطابقاً لمعنى المنفعة لما ولد الخير الا نفعا ، ولما ولد الشر الا مضرة . فالخير ليس اذن في اللذة ولا هو في المنفعة بل هو مستقل عنها معاً .

٤ - لذلك صرح أبو الملاء بان الخير يجب ان يطلب لذاته لالنفعة . فالاحلاق في نظره ليست في مداراة الناس ، ولا هي في طاب المنافع والذات ، بل هي ذاتية مثالية . والعاقل انما يفعل الخير لانه خير وجميل ، لا لأنه يرجو عليه ثواباً عند الله والناس ، أو يخشى من مخالفته عقاباً . قد تقول لك النفس انها في اذى وقذى ، فاذا كنت محباً للخير قلت لها يا نفس صبرا وتسليماً ، ان ماتقعلينه هو الواجب . فابو الملاء لم يكتف بتزيه الخير عن اللذة والمنفعة حتى تره عن العقاب والثواب ، وجعله خالصاً لربه ، وزجر السنة الناس عن مديحه . وفي ذلك يقول :

كن صاحب الخير تنويه ونفعه مع الامام على ان لا يدينوكا
فلتفعل النفس الجميل لانه خير واحسن لالاجل ثوابها
توخي جيلاً وجمليه لحسنه ولا تحسكي أن المليك به يحزري
فتره جيلاً جنته من جزاية تؤمل او ربح كانك تاجر

سأفعل خيراً ما استطعت فلا تقم على صلاة يوم أصبح هالكا
فالخير جميل ، والظلم قبيح ، وأبو الملاء يفضل عذاب النار مع الخير ، على نعم
الخلد مع الظلم :

وما سرتني اني اصبحت معاشرأ بظلم ، واني في النعم مخلد
ومثل هذه المعاني كثير في اللزوميات والفصول والغايات لم نشأ ان نطيل في
الاستدلال بها . وهي كلها تدل على أن أبا الملاء قد آمن بالخير وطلبه لذاته لالتفمه .
• — ومن اعظم صفات الخير قيمة صفته العقلية ، لأن العقل في نظر أبي
الملاء هو معيار كل معرفة صحيحة ، وميزان كل منهج قويم . فالخير لا يكون
خيراً حقيقياً الا اذا كان خاضعاً لحكم العقل . ومنهج الاخلاق لا يكون واضحاً
الا اذا اضيء بنور الروية والفكر . لم نوصف العقل باحسن مما وصفه ، أبو الملاء
في لزومياته وفصرله وغاياته . فقد جعله اماماً ومشيراً وهادياً الى الرشاد ونبيّاً . قال
في الفصول والغايات : « العقل نبيء ، والخطر خبيء ، والنظر بريء ، ونور الله
لهذه الثلاثة معين » . وقال في اللزوميات :

يرتجى الناس ان يقوم امام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا امام سوى الحق لـ مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما اطمته جلب الرحمة عند المسير والارساء

وقال :

وينفر عقلي مفضباً ان تركته سدى واتبعت الشافعي ومالكا

وقال :

فشاور العقل واترك غيره هدرا فالعقل خير مشير ضمنه النادي
وهذا يدل على ان الخير كل الخير هو في اتباع العقل لان العقل مشير امين .
فاذا ما اطاعه الانسان جلب الى نفسه الرحمة واتبعت عن القسوة ، وتحرر من
سيطرة التقاليد العمياء والعادات المظلمة وحكم النظر في الاخبار والروايات .
فان الفائن كما يقول أبو الملاء لا يتناول درة الحق الا بالروية والفكر .
واذا قوي عقل المرء استطاع ان يهوى الدنيا ولا تهويه ، اما اذا قل عقله فان
الدنيا تقويه وتغريه بزخارفها واكاذيبها . فليأخذ الانسان اذن في سبيل العقل
ليهدى بهديه . انه اذا فعل ذلك ادرك ان هناك عادات قبيحة ومعاملات سيئة ،

وقوانين وشرائع بالية تحتاج الى اصلاح وتبديل . ولو اتبع الانسان عقله في هذه الدنيا لما لقي فيها الا الخير .

وها هنا مسألة لابد من الاشارة اليها ، وهي ان أبا العلاء لم يكتف ببيان أثر العقل في الخير ، بل اشار ايضاً الى ان الادراك العقلي ضروري للمسؤولية الخلقية والشعور بالالم . فما قاله في الفصول والغايات : « ان الله ، وله علو المكان ، قد جعل الشر غريزة في الحيوان ، فابعدهم من الشرور اقل خطأ من المعقول ، الا ترى الحجر مر به العائر فادى الابهام . لاذنب للحجر ، ولكن للواضع والمعاثرين » وقال ايضاً : « داء المسرة العقل ، وداء الحزن الجهل » وهذا يدل على ان ازدياد القوة المدركة عند الحيوان يقربه من الشر ، ويزيد شعوره بالالم . فالعقل يولد الحزن والالم والشقاء ، والجهل يولد القناعة والرضى . و ابو العلاء يمتدح كشوبنهاور ان للشعور بالالم درجات : فالجماد لا يحس بالالم ، والنبات يكاد يكون عديم الحس . اما الحيوان فان درجات شعوره بالالم متفاوتة . فكلما كان ارق كان شعوره بالالم اشد . وكلما كان ادنى كان شعوره بالالم اخف . واما الانسان فهو اكثر الحيوانات شعوراً بالالم لغو مداركه العقلية . ولو فرضنا ان هناك عالماً آخر فوق علم الانسان له نصيب من المعقول ، ونعظه في الوجود شبيه بالنمط الذي نحن فيه ، لكان شعوره بالالم اشد من شعور الانسان به . فكأن العقل عن النعيم صاد ، وللسعادة مضاد . وكأن العلم سبب من اسباب الشقاء .

اذا علمي الاشياء جر مضرة الى فان الجهل أن اطلب العلم
فاذا كان العلم يشقينا ، فخير لنا ان لانعلم . ولنحن حقيقون بأن ننم في الجهل ،
وأن نفضل الظلمات على النور .

فهم الناس كالجبول وما يظفر إلا بالحسرة الفهاء
اذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع فانحسر للمعلماء
فالجهل مع الفضيلة خير من العلم مع الرذيلة . والذي يقيم الصلاة ويروم
بها كيداً أبعد عن الله كما يقول ابو العلاء من تاركها عمداً .
فأنت ترى أن أبا العلاء قد جعل العقل من جهة ميزان الخير ، وجعله من
جهة نانية علة الشقاء والضير . وليس في هاتين الجهتين أي تناقض ، لأن العقل

لا يكون علة الشر إلا إذا كان ناقصاً ، فيكون له في هذه الحالة جهتان إحداهما جهة الملو ، وهي جهة الشعور بالكمال ، والأخرى جهة السفلى ، وهي جهة الشعور بالنقص . وكلا غلبت الجهة الثانية الجهة الأولى كان الشعور بالألم أشد وأقوى . فإذا استطاع الإنسان أن يتغلب على غريزته ، وأن يتره عقله من الماطفة والهوى لم يشعر إلا بالكمال ، ولم يدرك إلا الخير . وإذا غلب هواء قواه ، وطغت غريزته على عقله عاش في عذاب دائم وضلال مبین .

ولو كان عقل النفس في الجسم كاملاً لما أضمرت فيما يلي به غماً والنفس لا تشعر بهذا الشقاء إلا لوجودها في الجسم . فقد كانت قبل اتصالها بالجسم سعيدة هادئة . فلما هبطت إليه أدركها العذاب ، كما يقول أفلاطون وابن سينا ، ونحن لا نعلم لماذا هبطت الروح إلى الجسم ، ولماذا أراد الله لها هذا الشقاء ، ولماذا أمرها أن تكسب الخير عن طريق العقل . فها هي إرادة الله ، وما هي عنايته ، وما هي صفاته ، إن العقل لا يستطيع أن يحيط بذلك كله ، فهو لا يعرف حقيقة الله ، ولا قدم العالم ، لأن نطاقه في أمور ما بصد الطبيعة محدود . دع عنك أن قيود الجسم والغريزة تصده عن إدراك الحق ، فلا بد له إذن من الاستعانة بنور الله .

٦ - وإذا استقل العقل عن الغريزة ، وتجرد من المواقف والأهواء ، أدرك المثل الأعلى وتطلع إلى الحياة الروحية المثالية . فالماعل لا يطلب الخير لنفسه فقط ، بل يطلبه لنفسه ولبنى جنسه أيضاً . وأبو الملاء لا يريد أن ينفرد وحده بالخير ، بل يريد أن يعم الخير جميع الناس . ولو كانت له جنة الخلد لما أحب بها انفراداً . وفي ذلك يقول :

ولو أني حببت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفراداً

فلا نزلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلاداً

ولا فرق في نظره بين حر وعبد ، ولا بين غني وفقير ، ولا بين عربي وأعجمي ، ولا بين هاشمي وغير هاشمي ، بل الناس كلهم سواء لأنهم متساوون في أسلمهم ، متساوون في حقوقهم وواجباتهم لا فضل لواحد منهم على الآخر إلا بالتقوى .

فأنت الناس كلهم سواء وإن ذكت الحروب مضرمت
 ٧ - فأنت ترى أن مذهب أبي الملاء في الخير قريب من مذهب الرواقين ،
 لأنه قد مدح الجهد والمشقة ، ودعا إلى اتباع العقل ، وهجر اللذات ، ونادى
 بالعدل والمساواة والرحمة . وهو قريب أيضاً من مذهب مشوبنهاور ، لأن الرحمة
 عنده هي الحب ، لا بل هي مبدأ الاحسان والعطف على الانسان والحيوان .
 وربما كان شعوره بالرحمة أحد مظاهر تشاؤمه ، لأنه كما قدمنا قد حكم على
 الناس بالفساد ، وذهب لتخطيهم في دياجير الظلام ، ولكنه في الوقت نفسه حنا
 عليهم حنو الأم على رضيعها ، فأراد إنقاذهم مما هم فيه من الجهل والظلم والشقاء .
 وإنك لتجد وراء نقده الاجتماعي ووراء هزئه وسخريته شعوراً عميقاً بالحب
 والحنان . وتجد قسوته على نفسه أشد من شعوره بالعطف على غيره . ولكم
 تمنى أن يشعر الانسان بالرحمة التي يشعر بها هو نفسه ، وأن يسود العدل بين
 الناس ، وأن لا يقابل الشر بالشر . ومن أجل هذا الشعور بالرحمة رام الدفاع
 عن الحيوان ، وأراد حماية الضعفاء والمرضى والمساكين والشيوخ والأطفال .
 فهو إذ ذاك رسول الإخاء وعدو الظلم وبطل المساواة والعدل . ألا ترى إليه
 كيف يطلب الى المسلم والصابي والهادي أن يرحموا المسكين ، وأن يصيدوا
 الخير ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . إن الأمراء لا يسوسون الرعية بالعقل ،
 بل يعتقدون على الأفراد ويسومونهم أنواع العذاب ، ويحدثون الفوضى في
 سبيل مطامعهم . والقضاة والعلماء ليسوا أحسن حالاً من الأمراء ، لأنهم
 يستخفون بقضايا الناس ، ويستجيزون الجور والفهر ، ويقبلون شهادة الزور
 والرشوة . فهم أشبه بالتجار الظالمين منهم بالعلماء العاملين . لا يصلح الناس إلا
 سياسة عقلية مبنية على الرحمة والعدل والمساواة . ولو صلح الحكام لما احتدمت
 نار الحرب بينهم ؛ ولو فروا على الناس كثيراً من البؤس والشقاء . فأبو الملاء
 يكره الحرب ، ويرجو أن يسود السلام في العالم ، وأن يحل الوثام محل
 الخصام ، والحب محل البغضاء ، وأن لا يشهر رجل على رجل سيفاً .
 وفي ذلك يقول :

فلا تشهرون سيفاً لتطلب دولة فافضل ما نلت اليسير المروج

ويقول :

فان ترشدوا لاتخضبوا السيف من دم ولا تلزموا الأميال سبر الجرائم
ويقول : « يارب المعب ، ان عبادك لفي تعب ، الام الاسنة على الرماح والاعنة
في اعناق الخيل ورحائلها فوق الاثايح » .

فالانسان في نظره اخو الانسان احب ام كره . ومن الظلم ان يسلم الناس
امرهم للفرزة وان تلعب بهم المقادير ، وان يسوقهم الدهر الى هذا الشقاء .

٨ — وهذه الاخلاق التي نادى بها أبو العلاء ليست سلبية ، لانه لم يكتف
بالامتناع عن الشر ، بل دعا الى فعل الخير دعوة ايجابية بدون قيد ولا شرط .
فهو من جهة يقول : لاتؤذ بلسانك بشراً ، ولا تحن من خانك ، ولا تضرب الجار اذا
لم تنفمه ، ولا تهزأ بأحد ، ولا تؤازر الظالم ، ولا تجالس المقتاب ، ويقول من جهة
ثانية : صد افعال الخير ، وان استطعت ظالماً فاردعه ، واكرم صاحبك ولا تتخذعه ،
واطعم سائلك اطيب طعاميك ، واكس الماري اجد ثوبيك ، وامسح دموع
الباكية بارفق كفيك ، وافعل الخير ببذل ، وكن دون المحارم اخا عذاب .
ويقول ايضاً :

لانسدين قبيحاً ان همت به وافعل جميلاً فان الخير يفتنم
فان قدرت فلاضل سوى حسن بين الانام وجانب كل ما قبحا

٩ — وهذا يدل على ان فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء مفعمة بالشعور
الديني ، ولا غرو في ذلك فابو العلاء قد نشأ في بيئة دينية ، فكانت حياته مثلاً اعلى
يقتدى به في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وفي لزومياته ابيات كثيرة يدعو
بها الى الصيام والصلاة والزكاة . فالمقل عنده ، وان كان نبياً ، خاضع للنور
الالهي . ولولا غريزته الوحشية ، ومغالاته في التوحيد ، ورغبته في التوحيد ،
وضعف جسمه وققد بصره لما انتقد الحج ولا ذم المرأة ولا اعرض عن الزواج
والنسل . ان ارادة النسل عنده شبيهة بارادة الحياة التي اشار اليها شونهاور .
انها لاتنافي غريزته الوحشية فحسب ، بل تؤدي الى زيادة كمية الشر والالم في
العالم . ومهما يكن من امر فلان الخير في نظر أبي العلاء عقلي وديني معاً . ولا فرق
عنده بين الدين والاخلاق .

م (١٤)

الدين إنصافك الأقوام كلهم واي دين لآبي الحق إن وجبا
١٠ - ويظهر أن للخير في فلسفة أبي العلاء درجات ومراتب ، كالخير
الخاص بالحيوان ، والخير الخاص بالإنسان ، والخير الخاص بالملائكة ، والخير
الأعلى هو الله ، فإذا فعل الإنسان خيراً ارتفع إلى عالم الملائكة ، وإذا فعل شراً
هبط إلى درجة الحيوان .

ثلاث مراتب ملك رفيع وإنسان وجبل غير أنس
فإن فعل الفتي خيراً تعالى إلى قنس الملائك خير قنس
وإن خفضته همته تهوى إلى جنس البهائم شر جنس

والشر لا ينسب إلى الله أبداً ، بل ينسب إلى الدهر والمادة .
كذب الذي نسب التبيح إلى الذي خلق الأنام وخط في برسامه

لا أزعم الصفو مازجاً كدرأ بل مرعمي ان كله كدر
كأن الدهر بحر نحن فيه على خطر كركاب السفين
أعجم قد بين الرزايا وجعل الشر ترجمانه

فالإله خير وكال ، والعالم شر ونقص . ولولا تيار الزمان الذي عكر
صفو الوجود لما تولد الشر ، ولا خوف على مصير الإنسان لأنه يستطيع أن
يتغلب على الشر باتباعه العقل وإيمانه بالله وثقته بمدله وكاله . والدهر لا عقل
له ، أما الله فهو كما قالت الفلاسفة عقل محض ، ومن اتبع عقله فقد تشبه بالله .
١١ - تلك هي صفات الخير في فلسفة أبي العلاء . فما هي القواعد الخلقية
التي تلزم عنه ؟

لا أريد الآن أن أذكر جميع القواعد التي اشتملت عليها فلسفة أبي العلاء
الخلقية ، وإنما أريد أن أنبه إلى أن مثله الأعلى الخلق قد جره إلى العزلة
والتقصيف والمحبة والرحمة والتسامح والسلام .

فالتقصيف يقضي باتباع العقل وإمالة الشهوات ، والاعراض عن الذات ،
والقسوة على النفس ، ومجاهدتها ، وقطع عقباتها الفريضة ، والتزهد عن أخلاقها
الدمومة وصفاتها الخبيثة ، وكفها عن الهوى .

والعزلة تقضي بقطع القلب عن الدنيا ، والتجافي عن دار الغرور ،
والاعراض عن الجاه والمال والزواج والنسل ، والهرب من الشواغل والملائق .
والرحمة تقضي بالتسامح والحب والسلام والعطف على الانسان والحيوان .

١٢ — فهذه الاخلاق كما ترى ، شبيهة باخلاق الروافيين ، لا بل باخلاق
الزهاد والمتصوفين فهي تدل على ان تشاؤم أبي الملاء لم يكن تشاؤماً مطلقاً ، بل
كان تشاؤماً نسبياً لا ينافي الايمان بالخير . ولو كان تشاؤمه مطلقاً لما عزى نفسه
بالايمان ، ولا تمسك باهداب العقل ، ولا تطلع الى المثل الاعلى . واصحاب التشاؤم
المطلق يمتقدون ان حقيقة الوجود شر ، وان الوجود خير من الوجود ، اما
اصحاب التشاؤم النسبي ، فيعتقدون ان الخير موجود في الدنيا مع الشر ، وانه في
وسع الانسان ان يتغلب بارادته العاقلة على الظلمات . فابو الملاء لا يرى ان حقيقة
الوجود شر مطلق . ولو اعتقد ذلك لنسب الشر الى الله ، ولما آمن بالله حكيم
قادر ، خير عادل ، يحزى المحسن ويجازي المسيء . ولما اثبت الخير في الدنيا الى
جانب الشر . وهو يقول في ذلك :

جهلنا ولكن للخلاق صانع اقربه فسل من القوم او شهم
ويعلم كل ان للخير موضعاً فضلاً على انباته اجمع الدم
ويقول : « غفرانك ربنا القديم ، خلقت الخير الى جنب الخير » .

ويقول :

خير وشر وليل بعده وضع والناس في الدهر مثل الدهر قسيان
ويقول :

والشر مشتهر المكان معرف والخير يلمح من وراء خمار
فوجود الله المسيطر على الدهر ، والنور المحيط بالظلمات ، والعقل الهادي
إلى الرشاد ، كل ذلك يدعونا إلى الاعتقاد ان الله سينقذ الانسان من براثن
الدهر ، وسيرفعه إلى المثل الاعلى . فابو الملاء متشائم في الدنيا متفائل في
الآخرة . وإذا كان قد بكى لبكاء الناس ، وحنأ على الحيوان ورأى لحال البائس
المسكين ، فما ذلك إلا لأنه تطلع إلى المثل الاعلى ، ورغب في حياة مثالية

لا يشوبها نقص ، ولا يكثر صفوها ألم . ومن الخطأ تشبيهه بشوئهاور ، لأن الارادة في نظر شوئهاور إما هي عمياء هوجاء . سيان عندها الخير والشر . أما الله في نظر المعري ، فلا يصدر عنه إلا الخير ، ولا يريد لمباده إلا الرحمة والعدل . وهذا الايمان بالله هو كما يقول أبو الملاء خير الذخر في كل شدة والخير عند ربنا لا يضيع ، فليرد الإنسان إليه أمره ، وليطهر مهجته بخوفه ، وهذا يدل على أن أبا الملاء لا يختلف عن غيره من أصحاب الأحلام ، كأفلاطون والفارابي وغيرهما ، الذين حلموا بمدينة فاضلة لا تنبت أرضها إلا الرحمة والعدل ، فهو بهذا المعنى شاعر المثل الأعلى ، ورسول الكمال والخير .

جميل صليبا



الدهر ملك المبقرية

حلي الندي كرامة للراح
لك في السرائر بدعة مرهقة
مجد كآفاق السماء اذا انتهت
الدهر ملك المبقرية وحدها
والكون في أسرارهِ وكنوزه
ذرت السنون الفاتحين كأنهم
لا تصلح الدنيا ويصلح أمرها
مرح على كيد الحياة وأهلها
خير المقائد في هواي عقيدة
تبني الحياة على هدى إيمانها
سكرى من الحق المدل وربما
سكر العقيدة أين من آفاقه
ملك الحياة غلف كل ثنية
شرف العقيدة أن تكون جريحة
واجل بكفيك الحياة تحدياً
الممر من غيب القضاء خبيثة
لا تشك من قصر الحياة فرما
سفر الحياة اذا اكتفيت بعنته
واختر لنفسك ميتة مرهقة
للموت في اللجج العنيفة رهبة
حوطت بالله العقيدة من أذى
سكرت على كرم الندي وعربدت

عجياً اتسكرنا وأنت الصاحي
أنس المقيم وجفوة التراح
منه نواح باددت بنواح
لا ملك جبار ولا سفاح
للفكر لا لوغى ولا لسلاح
رمل تناوله مهب رياح
الا بفكر كالضياء صراح
يلقي شذائدها بأزهر ضاح
شماء ذات ثوب وجماح
والمقل مثبت غيرها والملاح
لقي الخوف فحاد عنها الصاحي
سكر الميول وأين سكر الراح
للأس يمكن منه الف طلاح
فبدار قسطك من أذى وجراح
منها لأول معتد بالساح
فابسط مصون كنوزه بالراح
أغنت اشارتها عن الايضاح
أغناك موجزه عن الشراح
بين النجوم على الاديم الصاحي
شمخت بسؤدها على الضحضاح
خرقاء فاجرة البين وقاح
فالآن لا خمرى ولا أفداحي

فيم المقام على قراي وفاتها
ومن البلية لا بلية قبلها
لهو العيون—ولا أقول قذاتها—
مترنح الدعاة ين من خياله
الله يعلم ما أردت شماته
تأبى الشماته في الضعيف شمائي
وانا الذي وسع المموم حنانه
أشقى لمن حملوا الشقاء كأنما
غسل الالسي قلبي وحسبك بالالسي
ووددت حين هوى جناح حمامة
حب قد انتظم الوجود بأسره
اعمى تلفت المصور فما رأيت
نفذت بصيرته لاسرار الدجي
من راح يحمل في جوانحه الضحي
أمصور الدنيا جحياً فأراً
البني عند الأقوياء سجية
هون عليك في النفوس بقية
خلف المهجير وعنفه ولهيبه

* * *

ضجت ملائكة السماء لساخر
السخر فيه اذ سقاك حتوفه
نكب العقائد والطباع فيالها
وعدا على حرم السماء فياله
عري السرائر والنفوس ممزقاً
وجلا المصون من الضمائر فانتهمي
ان يقس في نقد الطباع فلم تكن

مر الدعاة شاتم مداح
كالسخر حين تراه في النصحاح
فتكات حتف كالقضاء متاح
فتحا أطل به على الفتاح
عنهن كل غلالة ووشاح
همس النفوس لضجة وصياح
ترجي لرحمتها يد الجراح

* * *

ايه رهين الحبسين ألم يش
ظفرت برحمتك الحياة وصنّها
أنضيق بالاننى وجبك لم يضق
يا ظالم التفاح في وجناتها
عطر أحب من المنى وغلالة
هي صورة لله جل جلاله
منحت بقدرته النعم ولونت

* *

ليت المموم العبقريّة هدهدت
لو انها زلت على نعمى الهوى
حرم على عسر الزمان ويسره
ماحوج العقل الحكيم وهمه
ولن تدله وتسكّر روحه
اننى اذا ضاقت سريرة نفسه
تسقي المموم اذا وردن حنانها
وتردهن عرائساً مجلوة
للعبقريّة قسوة لولا الهوى
رعناء ان ترك الجمال عنانها
ماللشرع على المواصف حيلة

* *

ايه حكيم الدهر اى مليحة
اسكنتها القلب الرحيم فراها
جرحت اباك والحياء فاقفلا
لو انصفت لسقتك خمرة ريقها
ولا سحفتك على الهوى - بمطر
لا تخف جبك بالضغينة والاذى
واطل هجاءك مالردت غلفه

* *

البعقريّة والجمال تحدر
من نبعة وتسلسلا من راح

اخوان ما طلع الضحى لولاها
 الظلمات المالكان ونعمة
 ان التي حرمتك نعمة حبها
 لو كان في يدي الزمان وسره
 لا عدتها بعد الردى مجلوة
 في مشهد تكسو الوفود رحابه
 فتزعت قنتها وسحر جفونها
 وثرت جوهر ثغرها من عقده
 ورددت للسبعين ريق عمرها
 وجلوت مرآتي فندت صرخة
 حتى إذا أتممت ذلك كله
 فتأرت من ظلم الجمال وربما
 واذا رأيتك ضقت فيه- تنكرت
 * * *
 هذي العروبة في حماك مدلة
 الازرق الرجراج حن لرملة
 وأرى الكثافة انما جدما جدت
 الوحدة الكبرى تهلل بجرها
 وشكري، الذي لقي السيوف بصدرة
 * * *
 سمعاً حكيم الدهر فهي قصيدة
 عصماء ان شهد الندي خطيبها
 بدت شواردها المدى بكتيبة
 هل في ثراك على المرة موضع
 حنت النفوس عليه تسكب حبها
 ما للجياذ الأعوجية حسرا
 فاعذر اذا لم أوف بمجده حقه
 * * *
 ربيع المدوبها وجن اللاحق
 في الدجلتين ندية مساح
 بالعامس لا بمعنى، ولا «بفتح»
 بظلال أبلج ذا نذ تقاح
 فأعادها مزقاً على الصحاح
 * * *
 وأيك بدع مفرد صداح
 تركت فصاح القوم غير فصاح
 خضراء تلعب بالحدب رداح
 بين الميون لدمني السحاح
 بخلت براح البيد غير براح
 صرعى المهجير على المدى الفياح
 ليج الخضم طفت على السباح

بروي الجبل

أسلوب المعري

ومنهاجه

سيداتي وسادتي :

باسم تراثنا الادبي وسلسلة الفكر العربي نجتمع الآن في ضوء هذا المهرجان ومن حول مناوره وذرى مناره لنحي ذكرى (أبي العلاء) [أحمد ابن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري] رهن الحبسين . ولنكرم في ذكره ليس شخصاً زائلاً بل عبقرية فذة وفكرة باقية ونفحة عطرة من نفحات الادب العربي تملأت بها المروية والانسانية في القرنين الرابع والخامس للهجرة وما زالت تطوي مراحل الزمن لتعيش بيننا بعد ألف سنة مما نعد ولتعبّر عن حاجتنا الادبية تعبيرا عن حاجات عصرها وزمانها . وإذا كانت الشخصية الادبية هي التي توفق في أي عصر من العصور في التعبير عن الحاجات الادبية لذلك العصر أو لجماعة من جماعاته أو فئة من فئاته وكما ارتفعت في ميزان القيم اتسمت آفاقها وعظم شمولها وجاوزت حدود الحاضر الى المستقبل فإن أبا العلاء هو من طراز تلك الشخصيات الادبية التي أوفت على الزمن وشغلته ماضياً وحاضراً ومستقبلاً . ذلك لأن أبا العلاء في غالب ما اخرج للناس لم يكن إلا ومضة حق وخير وتعبيراً حراً بليغاً عن الكون والحياة وصدى قويا شجيا لخلجات القلب وأمواج النفس .

ومهما اختلف النقاد في هذه الشخصية الادبية النادرة واستبقوا النظر في منهاج أبي العلاء وأسلوبه واكتناه مناحيه فزعوا له الوضوح او الابهام والشك أو اليقين والقوة أو الضعف او اعتبروا لغته وألغازه وجناسه وبجازه دليل تفوق وتمكن او ضرباً من ضروب المبت فان هذا ليس بضائره في شيء بل ان هذا كله لدليل اهتمام بندي خطر لا بد وأن يختلف إليه النظر اختلاف النقاد في مذاهبهم واذواقهم وعقائدهم وثقافتهم .

أما الذي لا ريب فيه وعليه الممول واليه ميل جبهة النقاد فهو أن أبا العلاء شخصية أدبية فذة طالمت الآداب العربية بأسلوب جديد له خطره وأثره في الشعر والنثر تفنن فيه أبو العلاء لفظاً ومعنى شكلاً وأساساً وتأثر به الأدب العربي والآداب الأجنبية إلى حد بعيد . ونحن إذا صحبنا أبا العلاء واستمعنا إليه في رفق وأناة واستقصينا آثاره وفنونه وشروحه ومتونه استطعنا أن نرد المهاج الذي اعتمده وركز عليه أسلوبه سواء أفي الشعر أم النثر إلى الأصول الآتية :

(أ) في الشعر

١ — الأخذ بمبادئ المدونة القديمة (مدرسة الخليل بن أحمد) في العروض والقافية مع استقصاء نواقص هذه المدرسة وإكمالها وقد كان من جراء ذلك أن استحدثت القافية المقيدة المجردة أثبتتها في ديوانه (جامع الأوزان) على ما روى (ياقوت) قال : (وذلك مفقود في الشعر القديم والمحدث يشبه المقصور) .

٢ — إخضاع حروف المعجم بكاملها للقافية الشعرية والنظم على منوال ما فقد أو ندر أو أهمل من ذلك عند المتقدمين وهذا بعض ما قصد إليه في (اللزوميات) . وعمل كهذا كان يعتبر من باب الاستقراء الأدبي والجهد اللغوي الفني ورياضة الفكر بل حتى الخليل بن أحمد وهو أدنى إلى عصر البساطة والطبع (نظرف) بجمع حروف المعجم في بيت من الشعر .

٣ — لزوم مالا يلزم على مثال ما شرح وأوضح في مقدمة (اللزوميات) أيضاً وهو أن يلزم مع كل روي حرفاً ليس بلزوم تقوية للقافية في السمع كما في قوله :

وإذا رجعت إلى الحقائق لم يكن في العالم البشري إلا بائس
والموت باز والنفوس حمائم وهزير عريس ونحن فرائس
فقد التزم في هذين البيتين الهمزة المكسورة مع السين كما هو ظاهر
من كلتي (بائس) و (فرائس) وكان بإمكانه أن يكتبني بالسين لو لم يجد في

ما التزم ابقاعاً أجهل وانفلاً أنبل . ذلك هو منحاه في (لزوم مالا يلزم) وهو شكل من أشكال النظم الدادر في شعر المتقدمين وسمه وأضاف اليه وتقن فيه واختصه باغراض شعرية جديدة . وأنشأ عليه أبنية أوراق ديوان (اللزوميات) وأكثر ما ورد منظوما في رسالة (ملق السبيل) .

٤ - نبذه أسلوب القصيدة العربية التقليدي سواء أبالنسبة لاغراضها أم تنسيقها وذلك أن الشاعر العربي قد ظل محافظاً على أساليب العصر الجاهلي وقوالبه الشعرية يستلهم من حياة البداوة ومنازعتهم وصور البادية وتقاليدها ما يبين طبع الحضارة واحساسها وصورها وحاجتها ومن أعرض عن ذلك من الشعراء المحدثين ظل فردياً في المجتمع العربي الجديد وفي معزل عن الذاتية القومية إلى حد بعيد إلى أن جاء أبو الملاء بأسلوبه متخذاً من صدق الكلمة والنظر الحر والحياة العامة والمثل العليا دليلاً في الشعر .

(ب) في النثر

١ - استحدثه قوالب جديدة للنثر الفني تجمع بين الروح الشعري والفكر التعليمي الفلسفي مضيقاً إلى بعضها (الغاية) أو القافية إلى السجع والتوازن على نمط خاص هو أدنى إلى ما نسميه (الشعر المنشور) في اصطلاح أيامنا ليكون التعبير أحسن جرساً وأوقع في السمع والنفس . وهذا هو أسلوبه في (الفصول والغايات) و (والأبك والفصول) محمولا على مواعظ وتأملات وأحاديث وآراء والتفانيات ذهنية وروحية إلى حقائق أو مظاهر كونية وإنسانية في صيغ متينة حافلة بفوائد وطرائف أدبية ولغوية تستسر غالباً في الوشي الفني والاعراب والتكلف .

أما في (ملق السبيل) وهو نثر وشعر من نوع المواعظ والتذكير بالنهاية فيجبي* بالقطعة النثرية لا تتجاوز سطراً أو أسطراً على حرف واحد أو عدة حروف من السجع ثم يكرر معناها شعراً يتبدى* بهذا من الهمزة إلى أن يستوفي حروف المعجم وهو نمط آخر يعتمد حل المعنى وعقده ووسي الالفاظ والاوزان معاً . وهو أدنى إلى أسلوب الوعظ الخطابي القديم عند العرب .

٢ - اصطناع الاسلوب القصصي التعليمي الفصيح محمولا على الخيال المبدع والسخرية اللاذعة والاستقصاء الادبي الجامع وهو أسلوبه في رسالة الففران المشهورة وقد كاد ينفرد به .

والمعري لم يكن عابثاً أو متفكهاً في اعتماد هذه الاصول او ابتكار تلك القوالب الادبية التي أودعها حشاشة نفسه وعصارة فكره مهما اختلف النقاد في تقويمها بل كان يريد أن يبلور ما لم يكن مبلوراً من أشكال الصيغ العربية . وأن يتم تقصا أو يسد ثلعة في دواوين الشعراء المتقدمين والمحدثين وأن يأخذ بالاقوى من القافية مصطفيا موسيقى اللفظ وراداً قوة الكلمة في بناء القوافي إلى لزوم ما لا يلزم وإلى توافق الكلمات في السنج (أي أصل بناء الكلمة) لان هذا هو الامتن والاحسن في رأيه ولان العرب كما يقول : كانت تختار أشرف الكلم في السمع متأثرين في الوقت نفسه بما كانت شائما في عصره والمصور التي تقدمته من افتتان بالصنعة والتوشية والمحسنات اللفظية والمنوية وبما كان للصيغة من أثر سحري يشفع بالاغراب والتكلف ذلك ما جعل أبا العلاء يأخذ بأقصى حد العبارة وهو يرى للالفاظ قوة إيحائية تنقل أكثر من معانيها وتخلق أجواء من عواطف وتصورات .

بيد أن أبا العلاء لم يقصر أسلوبه على هذا المستوى بل كان يراعي فيه مقتضى الحال فالنثر الففي المحمول على التفوق الادبي والمنهج التعليمي هو عنده غير النثر التعليمي المجرد او ما يكتب في المراسلات او يقال في الجماعات في الاول يؤثر الصعوبة والمتانة والتمق اللغوي والسجع ولزوم ما لا يلزم والتفنن اللفظي والمنوي وحشد المعرفة وفي الانواع الاخرى يتوخى مع الجزالة وتوثيق السرد بساطة التعبير وسهولته ومن كلامه في بيان ما ترك من حروف المعجم توخيا للسهولة في ما وضع من خطب منبرية عامة قوله : (تركت الجيم والخاء وما يجري مجراها لان الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون سجيحاً سهلاً) . ومن شواهد أسلوبه البسيط السهل (مقدمة الزوميات) و (رسالة الملائكة) والمعري لا يختار الصيغة

للتعمية كما ظن بمض النقاد بل لان الصموبة أنفس من السهولة في مذهبه الادبي وما بهمس أو يلحج به أحيانا ليس هو من باب التعمية بل من سوانح الرب الغابر وقد تكون الاشارة أبلغ فيه من العبارة وليس أدل على وضوح أبي العلاء وصراحة طبعه وحرية فكره حتى في الشؤون الدينية والسياسية من آرائه الجريئة وأفكاره المعلنة في تمريف الله ونفيه عنه الصفات وإثباته له الزمان والمكان بالمعنى الذي عرفها به ومن قوله بالعلل ورسالة العقل وحرية النظر والخير للخير والمساواة العامة والمغفرة الشاملة ومن حملاته العنيفة على الظلمين والظفاة والولاة وتجار العقائد والماديين وسائر مساوي عصره ومن نقده المذاهب والشيع والمقالات جميعا حتى ليصح أن يدعى له مذهب مستقل . ولو أن أبا العلاء كان يؤثر التعمية حقا في أسلوبه ويأبى لم يُبتدع كل مؤلف ممتاز من مؤلفاته الادبية بشرح أو تفسير لكشف مغلفاته — على ما هو ثابت في ثبوت مؤلفاته — بل أن الصموبة هي مهراز البحث والاستقراء وتزعة تعليمية عند أبي العلاء أوجت أن يلحق بدوانه (لزوم مالا يلزم) (زجر الناج) و (شرح اللزوم) و (الراحة) و (راحة اللزوم) و (بالفصول والغايات) كتابي (السادن) و (اقليد الغايات) و (بالأياك والفصول) او (الهمة والردف) (تفسير الهمة والردف) . وهذا كله لان أبا العلاء لم يكتب لنفسه فحسب بل لطلاب وقرائه جميعا . بل ان التزعة التعليمية العملية لتلازم أسلوبه حتى في القصص الخيالي الفكه وقد يضحى الوحدة الفنية ووحدة السياق الالادة في سبيل الاستقصاء العلمي النافع . ومن إثارة هذه التزعة استخدامه مصطلحات وسائل العلوم والفنون الخاصة في اختراع المعاني العامة وتوسيع الطاقة الانوية والبيانية بحذق وعمق سواء أفي الشعر أم النثر كما لم يسبق إليه .

قال في (الفصول والغايات) : [استفرك ما حي السيثات من قول ليس باسناد . استكثر من السناد . كم أوطي* في الذنوب واضمن الحوب بالحوب . وإذا تقويت لفعل الحسنة اقويت ومتى انكفأت إلى الخير أكفأت . فلستري ربي فعيوبي أقبح من السناد والاكفاء] .

وقال في (الأيك والغصون) : [لا تعين احداً بأمر فظاً على مثل الجمر . اصبر على ما حكم ربك واياك وليت السكاذبة ولو الغرارة وعسى الخلفة ولعل الخالصة وابك على خطيئتك ولا تكون كالجمل يبكي العداء . ومنها :

ما ترحم وضع وكلام ضم وجمع جر بالاضافة ونصب على الاغراء [وقال في (لزوم مالا يلزم) :

بمدي من الناس براء من سقامهم وقربهم للحجى والدين أدواء
كالبيت أفرد لا إبطاء يدركه ولا سناد ولا في اللفظ إقواء
وأمثله ذلك كثيرة جدا في شعره ونثره .

والمعري الخائر أو الساخر أو الشائر شخصية مطبوعة لا مصنوعة . بيد أنه كلما أوغل في حروف المعجم أو عالم الالفاظ والكلمات وأغرب أو تفنن في الجناس والالغاز والتوشية مسترساً في بطولة البيان والبديع واللغة اكتنفه الغموض الى أن يفسر نفسه باملائه أو تفسره المعاجم وهو في مثل هذا الايغال قد يضحي الجمال الفني بمضاه الحديث ليشبع نهمه العلمي او التعليمي ارضاء لذوق عصره . والقطعة الفنية من مثل بيانه هذا انما نستفيد منها اليوم بمقدار ما يستفيد علماء الحضارات القديمة من القطع الاثرية والنقائس المتحفية . أما عندما يرتجف قلبه بالالم وتقر ثورته النفسية معالم الصيغة وتتكاثر عواطفه وأفكاره فينبثق عنها الالهام فانا لنبصر فيه عندئذ أوضح وجه وآنس روح وأعمق نظر بل الشاعر الحق متصلاً ليس بمصره فحسب بل بجميع العصور الانسانية .

وأبو العلاء عندما يأخذ بالسمت الفلسفي في الشعر أو باختراع المعاني العامة من المسائل والمصطلحات العلمية والفنية الخاصة لا يسخر الشعر للعلم بل العلم لا شعر فهو ليس بالشاعر الفقيه أو اللغوي أو النحوي أو الفلكي بالمعنى المنتقص في الذوق الادبي بل هو الشاعر الملهم ابداً والمشرف بشملة وجدانه وبيانه على صميم الحياة وأقصى المسالك الانسانية . وقد يهيجنا أن نستمع إليه الآن قليلا لتكون أكثر اتصالاً بروحه الشعري الواضح واسلوبه الحر :

قال من قصيدة في (لزوم ما لا يلزم) يمجّد الله ويندد بما انتهى إليه
بجتمع عصره من المحلّال أخلاقي :

وكذاك المؤنثات اماء	للعليك المذكرات عبيد
قد والصبح والثرى والمساء	فالهلّال المنيف والبدر والفر
رة والارض والضحى والسماء	والثريا والشمس والنار والنث
بك في قول ذلك الحكاء	هذه كلها لربك ما عا
ه فلم يبق في إلا الذماء	خلفي يا أخي استغفر الا
ر إلا الشخوص والاسماء	ويقال الكرام قولاً وما في المص
واقترتها للمكسب القدمات	وأحاديث خبرتها غواة

وقال : يحمد على الطفاة والظنيان والقوضى السياسية في عصره :
يكفيك حزنا ذهاب الصالحين ممأ
ان العراق وان الشام من زمن
ساس الانام شياطين مسلطة
من ليس يحفل بخص الناس كلهم
تشابه النجر فالرومي منطقته
أما كلاب فأغنى من ثمالهم
صلوا بحيث أردتم فالبلاد أذى
وقال : يخاطب الدنيا الفرارة ويقوم مصير الانسان :

لراكبيه فهل للسفن إرساء	يموج بمحرك والاهواء غالبة
وان نظرت بعين فهي شوساء	إذا تعطفت يوماً كنت قاسية
منها إذا دميت للوحش أنساء	إنس على الارض تدمي هامها إحن
وعزة في زمان الملك قفساء	فلا تغرنك شم من جبالهم
برغمهم فاذا النماء بأساء	نالوا قليلا من اللذات وارتحلوا

وقال : وكأنه يرى الموت أثبت الحقائق على ما فيه من سر غامض :
أما الصحاب فقد مروا وما عادوا
سر قديم وامر غير متضح
ويننا بقاء الموت ميعاد
فهل على كشفنا للحق إسعاد

سيران ضدان من روك ومن جسد هذا هبوط وهذا فيه إصماء
أخذ المنايا سوانا وهي تاركة قبيلنا عظة منها وابعاد
توقموا السيل أوفى عارض وله في العين برق وفي الاسماع إرعاد
وبعد : أوليس في هذا الشعر أعمق وأدق ما يحتلج به القلب البشري ؟
أفلا نرى فيه الشاعر الملهم وقد أبرز أفكاره وأحاسيسه في صيغ متينة
متسقة من اللفظ الواضح المأنوس تدخل الآذان من غير استئذان لتحتل
أعماق النفس ؟ ألم نخشع مع الشاعر لعظمة الله بديع السماوات والأرض وقد
أبرز الكون عبداً لله بذكراته ومؤنثاته ؟ ألم يصور لنا حياة عصره
حتى لكأننا نراه ونعيش فيه ؟ ألم يصبرنا بالموت والحياة وقد أشهدنا النهاية
سيلاً جارفاً وابعادها عارضاً نخطف الأبصار بروقه ونصم الآذان رعوته ؟
ألا إن هذا هو الشعر بأكل معانيه وأجل مبانيه .

أما قصائد (أبي العلاء) المشهورة كثرثته الخالدة (غير مجد في ملتي
واعترادي) وقصيدة (علاني فان ييض الاماني) وأشباهاها فقد كاد يجمع
أهل البصر في الشعر أنه ابتى منها هيكل جمال ففي ما زال يخشع له
الخيال والفكر .

وأبو العلاء إذا لم يستطع أن يطالعنا بالمسرات والمباهج في (الزوميات)
لأنها نظر حزين في نقص النواميس ورتاء حار للانسانية الضعيفة الفانية
ومعالجة جريئة لمجتمع مريض وحيرة متجهة متجهة فلقد طالعنا بما يروح
عنا في رسالة الففران وبرز أسلوبه القصصي التعليمي غنياً بالخيال والصور
الفكاهية محمولة على السخرية اللاذعة مما هو معروف مشهور ولا مجال
الآن لتحليله وتفصيله . والسخرية في أسلوب أبي العلاء مردها إلى النقد
الضمني كأن يظاهر خرافة او صورة على المبالغة ليثير من حولها الضحك .
والقبهة التي يثيرها حول بعض الاساطير والعقائد تكون معمول هدمها
وآية نسخها .

ومما تفنن فيه أسلوباً وبياناً انطاقة الطير والحويان بما ينفع الانسان

ويبهج البيان . ألف في هذا الباب — على ما نقل الرواة ومؤرخو الآداب العربية ولم يصل إلينا — (سجع الحاتم) يتكلم فيه على السنة حاتم أربع و (أدب المصفورين) و (الصاهل والشاحج) و (خطب الخيل) يتكلم على ألسنتها (والقائف) على مثال (كليلة ودمنة) بل هو كما يقول الكلاعي صاحب (احكام صنعة الكلام) أكثر ورقاً وأفسح طلقاً وأكثر شميماً وعبقاً . وله مما يمد من الاشكال الادبية الخاصة كتاب (المواعظ الست) في خطاب (رجل ، اثنين ، جماعة) ، (امرأة ، امرأتين ، نسوة) . ومما تحسن الاشارة إليه تفننه في اختيار العناوين الطريفة المبتكرة لآثاره ومؤلفاته الادبية سواء أفي الشعر أم النثر وهي زعة الادب الحديث محمولة على الذوق الفني والدقة والاناقة . ولقد تأثر أبو الملاء في أسلوبه إلى حد كبير بما حدد لنفسه من معنى الادب وغاية الشعر إذ كان المتقدمون يرون الشعر باباً من ابواب الباطل فاذا بالمعري يخرج به عن هذا فيدنيه على القيم أي على الحق والخير والجمال يمد أن ظل الشعر أمداً طويلاً مسخراً للعبارات وأهواء الرئاسات والمدائح والاهاجي والافراض الخاصة المحدودة .

ومما صرح به في مقدمة (اللزوميات) أنه قد رفض الشعر بمفهومه السابق إلى أسلوب جديد هو أسلوب الصادقة متميزاً عما قد يبدو من ضعف فنه الشعري بسبب هذا المنحى فيقول : (من سلك في هذا الاسلوب فقد ضعف ما ينطق به من النظام لانه يتوخى الصادقة) إلى أن يقول : (و يروى عن الاصمعي كلام معناه أن الشعر باب من ابواب الباطل فاذا أريد به غير وجهه ضعف) .

يبد أن توخي الصادقة لم يكن باعث ضعف في شعر أبي الملاء بل قوة وهذا الاسلوب الجديد بفكرته وغايته هو الذي تفحه بالخلود وأبرز منه شاعر القيم بل المفرد الملام الذي حمل الكون والانسان على أثلة اللسان ومنطوق البيان واختار للحكمة أفقاً شعرياً تحرف منه على الملام ،

وفي الحق أن أبا الملاء في اختياره مذهب الصادقة قد جعل من الشعر

تعبيراً تاماً عن نفسه . والفن تعبیر كما يقال والشاعر كلما كان أصدق تعبيراً عن نفسه كان أبلغ شعراً وأعظم أسراً . نعم . قد يجاوز المري أحياناً حدود الروح الشعري في استمداده المبني من الصيغ الصعبة ولكنه ليظل في استمداده المعنى من ثورته الروحية الملهمّة وشعوره الاصيل مثال الشاعر الجبار .

وإذا كان قد انفصل في أسلوبه الجديد عن مذهب (الفن للفن) وهو في أصله مذهب أرسطو ثم الأصمعي إلى مذهب (الفن للفائدة) وهو في أصله مذهب أفلاطون معتبراً غاية الشعر التهذيب والحقيقة والمثل الاخلاقية العليا مجاوزاً في هذا ما أخذ به الأصمعي من الفصل بين الاخلاق والشعر فإنه في الواقع لم يأخذ بهذا السمت إلا لأن الانسانية في نظره قد تستطيع أن تستغني عن باطل الفن ولكنها لا تستطيع أن تستغني عن الاخلاق .

ونحن إذا أخذنا برأي من يذهب إلى أن (الادب تقد الحياة) ولا حظنا القوة الناقدة الزاخرة بالحياة الذهنية والمعارف الشاملة والحس المرهف في أسلوب أبي الملاء أمكننا أن نضمه في النروة بين عباقرة الادب وأن نحمل تفوقه الادبي على مواهبه الممتازة وثقافته الواسعة وفهمه الحياة والعالم فهماً عميقاً شاملاً أمداً أبداً قوته المبدعة بالأضواء والظلال والجمال والجلال .

ولعلنا نختلف أحياناً مع أبي الملاء في آرائه ومقاييسه وفي تفسيره الحياة والكون والمماني الآلهية ولكن الذي يستهويننا منه أبداً هي حرية فكره وطهارة نفسه وأن يصدر في كل ما يكتب أو يقول عن إيمان صادق وغيره عامة وفكر رصين وشعور عميق . وفي الحق إذا كان أسلوب الكاتب أو الشاعر شديد التأثير بمزاجه وخصائصه النفسية والفكرية فإن أسلوب أبي الملاء ليس بمطبوع على هذا الحسب بل هو ذات أبي الملاء يطالعنا بصرامته وورقه وغموضه ووضوحه وقلقه واطمئنانه وبما يواكب عواصف نفسه وآهاته وواهاته من تشاؤم مكفهر ونظر حائر وتناقض أحياناً .

لا جرم أن المفاجئات الروحية في حنادس الكون والحياة ومعارج (اللانهاية) لا بد وأن تهز الانسان هزاً وأن تجاوب في نفسه أمواجها ومفارقاتها .

وأني لأبني الملاء وقد أمجزه سر الثيوب ووقف في ليل عاصف يتشوف على
خضم المجهول أن لا تطالع له الحيرة أو التناقض كلما أمعن في السرى ولما يطلع الفجر:
أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا
سألتوني فأعيتني إجابتيكم من ادعا أنه دار فقد كذبا
وبصير الاقوام مثلي أعمى فهلما في حنسد تصادم
بيد أن أبا الملاء قد أفاد من الحيرة على خضم المجهول أن ازداد إيماناً
بمظمة الله وصفر شأن الانسان ووجوب النظر الحر واتمهي إلى تنزيه الخالق
مع التسليم للمكوتة والثقة المطلقة بمدله ورحمته لان الانسان على حد تعبيره
أقل في ملك الله من أن يناله غضبه أو رضاه .

قال في (لزوم ما لا يلزم) :

ليفعل الدهر ما يهيم به إن ظنوني بخالقي حسنه
لا تياس النفس من تفضله ولو أقامت في النار ألف سنه
وقال : وما أنا باليس من فضل ربي على ما كان من عمد وسهو
وقال في (الفصول والغايات) :

كن حراً واتزل حيث شئت ولو بحيرة النار فان رعاية الله شاملة للأحرار .
ولقد تأثر أسلوبه بنظره هذا واغتنى بالصيغ المبكرة والتعابير الجميلة
الرصينة في مناجاة الله وتحميده وتسبيحه وتمجيده . بيد أنه من جهة أخرى
قد ظل مأخوذاً بفلسفة التشاؤم لدوام ريبه في العلة الغائية وهو ما يبرح يرى
للحد يصير لحداً مراراً وقد أضحك تراحم الاضداد.

وفي الحق ان التشاؤم وهو طابع الريب والالتم محمولاً على المزاج لذو أثر
بليغ في أسلوب أبي الملاء بل هو (علامته الفارقة) لما حمله في (اللزوميات)
(الفصول والغايات) من أفكار وألوان قائمة حتى أسرف بعض النقاد فاعتبره
في لون أسلوبه هذا (سلبياً هداماً) واقتصد آخرون فزعموه إيجابياً بقدر
معلوم واني لا أميل الى الاخذ بالرأي الثاني بل الى القول بأن التشاؤم في ذاته

ليس هدماً للحياة بل هو لون من ألوانها ولحن من ألحانها بل ميزان من موازينها وممرض للكثير من صورها ورسومها . نعم . وأي خير في أن يطالعنا أبو العلاء بالألوان القائمة من الحياة البشرية محمولاً على مزاجه وحيرته وعوامل ينشئ وخصائصه النفسية والفكرية .

أولست الحياة دماً وابتساماً وعرفاً ونكراً وخيراً وشرّاً وقبحاً وجمالاً . أولست غاية الفن ان يرسم الطمر كما يرسم البرد . بل ان الجمال الانساني لا يقوم بغير المفارقات بل من منالم يشمر في بعض أيامه بحزن مجهول قد اكتنف روحه وقلبه وحملها اليأس والجزع .

ولقد تأثرت آداب الاُمم جميعاً بهذه الظاهرة الروحية وانتهى التشاؤم بالطرب اليوناني الى فلسفة اغتنام وهي الفلسفة العابثة التي عب فيها شعراء شوقيون عديدون أيضاً وفي مقدمتهم الشاعر الفارسي المشهور (عمر الخيام) . لاجرم ان الميري قد أحب الحياة والانسانية حباً جما فخرج يطوف الآفاق وبوده لو أن يطول السهمى براحتيه حتى اذا اكتوى بنار التجربة وزاده فقد أمه مدبرة أمره وهو المستطيع بغيره حزناً وألماً انقلب الى ذويه متوحداً متقللاً لا فراواً من المجتمع لذاته بل عزوفاً عن مخزياته وازوى في مدرسته المتواضعة في (مرة النمان) منقطعاً الى التأليف والتعليم ورياضة النفس والجسد مؤمناً بمد أن حلب الدهر أشطره ان النفس البشرية المجبولة على غير الخير لا تحصل عليه الا بما استن لنفسه وبما توجه اليه من فلسفة صارمة :

فأكره على الخير مجبولة على غيره في علان وسر
فلم يجعل التبر حلي الفتاة حتى أهين وحتى كسر
أجل . في هذه الفلسفة الصارمة الحازمة وجد أخيراً أبو العلاء اطمئنان نفسه وراحة ضميره ومستقر طموحه وكأني به وقد ابتداءً ايجابياً جداً ايجابياً يرتد به الطموح الى (السلبية — الايجابية) لا توكيداً بكيئوته لحسب بل ليمبر عنها ايضاً بأسلوب جديد يطالع العالم بالبحر آثاره وأروع أشعاره .
وفي الحق اذا كان الأدب العالمي مديناً الى كرامة الخيام المتوددة المفردة

تفحه بالرباعيات فهو مدين الى مدرسة المعري المتوحدة المتهجدة تفحه بالزوميات والفصول والغايات وغيرها من الآيات البيّنات .
ولقد أفاد أسلوب أبي العلاء من مدرسته الجديدة وزعتها الفلسفية الصارمة فكانت هي هو بكل ما إليها من ألوان وأجواء وظلال وأضواء .

* * *

وبعد . فليس المعري في تشاؤمه (السليبي — الايجابي) الا علماً من أعلام النقد نقد الحياة وهدم الطفلة بأبلغ ما تستوعب الصبغ وهو بأسلوبه الخائر او الساخر أو التائر المنبثق عن ثورة وجدانه محمولاً على بيانه ليهز الضمير الانساني هذا . ولا غرو بعد ذلك ان يتأثر بأسلوبه أدب المشرق والمغرب .
فقد أصبح معلوماً لدى الباحثين في الأدب المقارن ان الشاعر الفارسي (عمر الخيام) الذي أبهج التشاؤم بالاغتنام والحب والمدايم قد أفاد في رباعياته من أسلوب المعري واقتبس كثيراً من معانيه الشعرية الفلسفية على ما بين الشعارين من فارق في الوسيلة هذا الى مدام وذاك الى صيام .

ومثل هذا يصح أن يقال عن تأثر (دانتي) الشاعر اللاتيني في (جحيمه) بأسلوب رسالة الغفران أيضاً بما اجتري بالاشارة اليه .

ويبدو أن عرب الأندلس خاصة كانوا من المهتمين بأسلوب المعري وفي النسخ على منواله كما يستدل من معارضاتهم للمقي السبيل . ولغيرها من آثار أبي العلاء فقد عارض هذه الرسالة ممن علمنا الحافظ الربيع الكلاعي الأندلسي المتوفى سنة ٦٣٤ هـ والكاتب الشهير (أبو عبد الله) محمد بن أبي الخصال وزير يوسف بن تاشفين سلطات المرابطين .

ولا حاجة بعد ذلك الى التنويه بما كان لعرب المشرق من اهتمام أوفى بآثار المعري وآرائه فقد سارت بحديث ذلك الركبان وعلمه الناس من قاص ودان .

* *

إلى هنا . وأنهى حديثي عن أسلوب شاعرنا ونائرنا العظيم لا عرض على

حضرانكم صورة تذكارية ناطقة من صور شيخوخته الغاية وقد وقف كالشمس
القاربة ملوحاً للعاضي البعيد من شاطيء النهاية محملاً على هذه الايات :

سقى لايام الشباب	وما حسرت مطيئيا
ايام آمل أن أمس	الفرقدين براحتيا
وأفيض إحساني على	جاري ثم وجارنيا
فالآن تمجز هي	عما ينال بخطونيا
أوصى ابنتيه ليبد الماضي	ولا أوصى ابنتيا
لست المفاخر في الرجال	بمـنـى وخالنيا
لكن أقر بأنني	ضرع أمارس دارنيا
والله يرحمني إذا	أودعت أضيق ساحنيا
لا تجعلن حالي إذا	غيبت أبأس حالنيا

محمد الشريف



الروح المعاصرة

وأثرها في أدبنا الحديث

كان الشعر القديم عموماً يدور حول نفس الشاعر أو من يتصل بهم من عطاء الناس ، إليهم يتزلف ، وبوقائعهم يهتم ، ولا تلام رغائبهم يسرع . أما الشعب ورغائبه والمجتمع وحاجاته والحياة ومشكلاتها والطبيعة ومعانيها فقلما كانت تهمة أو تسترعي انتباهه . وإن كان شيء من ذلك فعرضاً في مقدمات قصائده أو خطرة خاطفة في بعض خواطره — وبعبارة أخرى كان الشاعر موضوع شعره ، فالمدح أو الرثاء لمن يستعظمه أو يستوهمه ، والغزل أو العتاب لمن يحبه أو يلازمه ، والفخر بنفسه أو بمشيرته . وقد نسج أكثر الشعراء على هذا المنوال لم يشذ عنهم في ذلك غير النادر ومن هذا النادر شاعر المعرة . بل هو عند التحقيق نسيج وحده بين القدماء وسابق لأوانه دون سائر الشعراء . انفراد هذا الحكيم في عهده بمزية النظر الحر إلى الكون والمجتمع البشري فلم يكن قبله من حمل حملته على الفساد العام والمعتقدات الشائعة . وقد مرّت قرون قبل أن يمشي روحه ثانية تحرك في أدبنا الحديث روح التأمل العميق والنظر الواسع . هذا البعث هو الذي نحاول أن ندرسه في حياتنا الأدبية لنبين ولو بإيجاز كلي مدى أثره فيها .

كانت حياتنا الروحية حتى أواخر القرن الماضي لا تزال جارية على سنة القرون الوسطى ، وطفيفاً جداً كان تأثيرنا بالنضال المحتدم يومئذ في أوروبا بين آراء الطبيعيين وتعاليم الإلهيين ، فظلت رهبة الدين مستولية على المجتمع العربي . وظلّ الإيمان بالله وبالأخرة راسخاً في نفوسهم . الله أكبر بيده نواميس الكون وآليه مصير الإنسان ، وما السماء والجحيم والخلود والتنزيل والنبوة إلا بديهيّات لا تقبل مناقشة ولا تحتاج إلى برهان . وإلى ذلك يرجع

كل أدبٍ روحي في الأقطار العربية قبل الانقلاب الفكري الذي عم الغرب لبروز نظرية التطور الطبيعي واهتمام العلماء والفلاسفة بها . فلما انتشر كتاب دارون في أصول الأنواع وأخذ أرباب العلم والنظر يبحثون في نظرياته بين مناقش ومدافع لم يستطع العالم العربي أن يبق بنجوة من هذه الموجة الفكرية العامة ، فنشأ فيه كما نشأ في الغرب قبله فئة من مريدي التحقيق العلمي كان لها أثر كبير في إثارة الشكوك وتنشيط البحث الحر ورفض ما لا يجاري السنن الطبيعية مما أدى إلى كثير من الجدل والمناظرة (١) . وكان لذلك نتيجتان ، الأولى تطرّف البعض في رفض النصوص الدينية المخالفة للعلم — وهو مذهب الدكتور شبلي شميل ومدرسته — والثانية الأخذ بتأويل تلك النصوص للجمع بين العلم والإيمان وهو مذهب كثيرين ومنهم جمال الدين الأفغاني (٢) والشيخ محمد عبده (٣) وقد توسع في ذلك محمد فريد وجدي حتى جعل التأويل قاعدة الأصول الإسلامية وأوجب تأويل نص الكتاب إن أوم ظاهر ألفاظه مخالفة للعقل والعلم (راجع مقالة الاسلام والعلم الحديث في عدد الهلال الممتاز « العرب والاسلام في العصر الحديث » سنة ١٩٣٩) .

وقد ظل هذا النزاع بين الطبيعيين والالهيّين محتدماً حتى مطلع القرن العشرين ، ولعله لا يزال في بعض الأنحاء إلى الآن . على أن النزعة الفكرية في أدب هذا القرن ، هي نزعة التجديد ، تجديد المعتقدات وتحريرها من قيود التقاليد والخرافات . فالأدب القديم المحافظ يتراجع اليوم أمام أدب يناهز بالحرية الفكرية والتساهل الديني لا من طريق الاتحاد كما قد يتبادر إلى ذهن البعض « فلا شيء » — كما يقول الدكتور صرّوف — افسد من هذا الوم ولا أقبح منه تهمة على العلم لأن العلم والكفر مستقلان كل الاستقلال ، فكم علم من أشد الناس تديناً وكم كافر يجهل مبادئ العلم (٤) .

(١) من رام الاطلاع على ١٠ كان يدور من خصومة في هذا الباب فليراجع المختطف

مج ٨ ص ٢١٢ — ٢١٩

(٢) راجع خاطرات الأفغاني للمخزومي ١٦١ و ١٨٥

(٣) راجع مقال الدين والفلسفة المختطف مج ١٠٥ (٤) المختطف ٧ — ٥٦٥

هذا الأدب الجديد أدبٌ فكري ومن مزاياه الشك في كل ما يناقض العلم أو يغفل العقل عن التقدم . ولا أقول إنه صدى لشعر المرعي ولكني أقول إنه يستقي من نفس المنبع ، منبع التفكير الحر المنبثق من اصطدام النظريات العلمية بالتقاليد الدينية والاجتماعية . فكيف تسى لشاعر اللزوميات في القرن الخامس الهجري ما يتسنى لفكري القرن العشرين ؟ وهل كان في بيئته ما يدفعه إلى ورود هذا المنبع الفكري ؟ سؤال لا بد في الإجابة عنه من الرجوع إلى عهد الشاعر وإلقاء نظرة على أثره في نفسه .

« يشة المرعي الفكرية » : عاش شاعرنا ما بين منتصف القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس للهجرة — أي في إبان الحضارة الفكرية العربية . في ذلك العصر كان قد تم نقل العلوم اليونانية وسواها إلى العربية ونبع في الشرق العربي كثيرون من العلماء والمفكرين . فكانت بغداد وعدد من المدن الشرقية الأخرى مراكز علمية احتكت فيها « الروحانية » السامية التي حملت إلى الناس الإيمان بالتوحيد والماد بالعقلية اليونانية التي حملت اليهم البحث المنطقي والنظريات الفلسفية . وكان من جراء هذا الاحتكاك تعدد المنازع الفكرية والكلامية مما أحدث في العقول ميلاً إلى النظر النقدي . فتسرب الشك إلى عقول الكثيرين واستولى على البعض منهم روح الابتكار أو اللاأدرية ، فرفضوا ما لم تقبله عقولهم من كمال وسنن . ومن هؤلاء المرعي فقد نشأ في هذا الجو الفكري المضطرب تواءماً إلى المعرفة وبلوغ الحقائق المشبعة للعقل ، وفي نفسه الحساسة كان اصطدام التقاليد بالتفكير الحر اصطداماً عنيفاً . حقاً لا نعرف بالضبط متى كان ابتداءه ولكننا نعلم أن أثره لم يبرز إلا بعد رجوعه من بغداد وحسبه نفسه على العلم في المروءة . وفي كلامه على نفسه في كتابه الفصول والغايات (١) ما يدل على نزعه منذ الثلاثين إلى التأمل العقلي يقول مخاطباً النفس : « قد أخلقت الجسد فما تريدن ، اظنني عنه لا بحمدك في الحامدين . ما زلت أمل الخير وأرقبه حتى فضوت كلاماً ثلاثين . . . فلما تقضت الثلاثون وأنا كواضع مرجه على نار الجباب عمت أن الخير مني غير قريب . الرجل كل الرجل من آتى الزكاة ورحم المسكين ،

وتبرّح بما لا يجب عليه وكره الحث وكفر عن اليمين . ومن قرأ هذا الفصل كله كما ورد في الكتاب يستشف ما استشفه الدكتور طه حسين من نزعة الميري إلى التأمل في النفس وتبعها وفي الشر وأنه غريزة في الحيوان وفي طلبه التزهد والتعالي عن سفساف الحياة (١) .

وقد نرى نزعة التأمل العقلي قبل ذلك فيه في رثائه لوالده وهو في شبابه ، إذ يقول عن مصير الأموات :

طلبت يقيناً يا جهينة عنهم وإن تخبرني يا جهين سوى الظن
فإن لمهديني لا أزال مسائلاً فإني لم أعط الصحيح فأستغني
ولكن نفسيته على ما يظهر لم تنضج إلا دور العزلة — دور اللزوميات ،
وفيه يظهر طابعه الروحي الخاص .

« طابعه الروحي » : ليست اللزوميات عند التحقيق إلا انعكاساً لحالاته النفسية الناشئة عن بيئته الفكرية والاجتماعية . ويظهر فيها مطبوعاً بطابع خاص يميزه عن سائر الشعراء والكتاب وهو يتألف من ثلاثة عناصر رئيسية هي : الحيرة والشاؤم والاخلاص .

١ — الحيرة : وهي وليدة التفكير في ما لا يحده العقل المحدود . أهنأك حياة ثانية أم لا حياة ؟ هل الله كما تصوّره النصوص الدينية أو هو شيء آخر ؟ أيتفق العقل والإيمان أم لا يتفقان ؟ . مثل هذه الأسئلة كانت تضطرب في نفس الميري وكان لديها كالفقار تتقاذفه اللجج . فبينما تراه يقينياً يهاجم الجاحدين والمعتلين في مثل قوله :

إذا كنت من فرط السفاه معطلاً فيا جاحد أشهد أنني غير جاحد
وقوله :

وقال أناس ما لأمر حقيقة فهل أثبتوا أن لا شقاء ولا نعمي
فنحن وهم في مزعم وتشاجر ويعلم رب الناس أكذبنا زعماً
وقوله :

لا ريب أن الله حق فلتعبد باللوم أنفسكم على مراتبها

تراه يتابع اللا أدريين فيقف من التيبات موقف المشكك بل موقف
المنافض نفسه إذ يقول :

دفنهم في الأرض دفن تيقن ولا علم بالأرواح غير ظنون
وروم الفقى ما قد طوى الله علمه يمد جنونا أو شبهه جنون

ضحكتنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البرية أن يبكوا
يحطمتنا صرف الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك
خذ المرأة واستخبر نجوماً تمر بعظم الأري المشور
تدل على الحمام بلا ارتياب ولكن لا تدل على النشور
والآراء في تفسير حيرة الشاعر وتناقضه مختلفة . ومهما تكن فما لا شك
فيه أنه لم يصل إلى درجة الاتحاد فهو يقول بالله حكيم متعال عن البشر .
ولكن صورة الله في نفسه ليست الصورة ذاتها التي يتخيلها المؤمن المادي .
ولعلنا من دراسة أقواله ومقابلتها لمخلص إلى الحكم بأن نظره إلى العالم الثاني
لم يكن إلا نظر لا أدري متأثر بالاسلام أو مسلم متأثر باللاأدرية .
٢ - نشأومه : وهو ظاهر في كثر شعره - كقوله في الإنسان والطبيعة البشرية
قد فاضت الدنيا بأدناسها على براياها وأجناسها
وكل حي فوقها ظالم وما بها أظلم من ناسها
وقوله :

قالوا فلان جيد لصديقه لا يكذبوا ما في البرية جيد
فأميرهم نال الإمارة بالحناء وقيمهم بصلاته متصيد
وجيلة الناس الفساد وضل من يسمو بحكمته إلى تهذيبها
ولو تابعتنا في آرائه ووقفنا عند ظاهر أقواله لقلنا حتما بالجبرية المطلقة
ولما رأينا من حاجة إلى معاهد تربوية أو علمية ولا إلى شرائع دينية .
فباطلة كل وسائل الثقافة أو الإصلاح . أليس الانسان ولد فليبدأ وسيتيقن
كذلك إلى أن يزول ؟ ولكن هل كان المعري جبرياً وإلى أي حد ؟ وللجواب
عن هذا السؤال يجب هنا أن نفرق بين الجبرية الفلسفية والجبرية الشعرية .

فالاولى تفكير منظم ينتهي فعلاً إلى القول بأن الانسان غير مكلف وأنه لا سبيل إلى خروجه مما رسم له منذ الازل ، وهي فكرة تهدم كل ما يحاوله الانسان من ترقية نفسه كفرد أو كجموع ، وتجعل الشرائع الدينية والاجتماعية قيوداً لا معنى لها في الحياة . أما الجبرية الشعرية فهي شعور فقط بضعف الانسان إزاء المجهول . فبينما ترى الشاعر من جهة يقول بالقدر ويصف فعله وأثره في الناس . كقوله :

وللحي " رزق ما أناه بسميه وعقل ولكن ليس ينفعه العقل
قضى الله فينا بالذي هو كأن قم وضاعت حكمة الحكاء
كتب الشقاء على الفتى في عبثه وليبلغن " قضاءه المكتوبا
ما حركت قدم ولا بسطت يد إلا لها سبب من المقدار
قضاء بوافي من جميع جهاته كما هو عن أيماننا والاياسر
ولولم يرد جور البزاة على القطا مكوها ما صاغها بمناسر
وهل ألوم غيباً في غباوته وبالقضاء أئته قلة الفطن
وما دفعت حكام الرجال حنفاً بحكمة بقراطها
ولكن يحمي قضاء يريك أذا غيها مثل سقراطها

تراه من جهة أخرى يدعو الناس إلى مثل عاليا ينشدونها ويحضمهم على فضائل يعيشون بموجبها . وهو في هذه الدعوة جاداً فيما يقول ، ويحملنا ضمناً على الاعتقاد بأنه مؤمن بقدرة الانسان على الخير . وإلا فما معنى طلبه الإصلاح الديني والاجتماعي وما معنى تقده حياة الافراد والجماعات ، ولماذا يدعوننا إلى اتباع العقل والبعد عن الكذب والرياء والتنويه والادعاء حاضاً على العمل الصالح وضبط النفس عن الشهوات وغير ذلك من الفضائل . إن الميري جبري إذ يرى ضعف الانسان أمام الكون وحوادث الايام أمام نظام الحياة والموت . ولكنه غير جبري في الدعوة إلى البر والتقوى والحض على الحياة الفاضلة .

نم إنه على ما يظهر يائس من تهذيب الطبع البشري :
 فلا تأمل من الدنيا صلاحاً فذاك هو الذي لا يستطيع
 ولكن بأسه لا يمنعه عن تبيان ما يجب عليهم أن يفعلوه لينالوا التهذيب
 الحقيقي . فكأنه يترك للانسان شيئاً من الحرية ، ولهذا تسمه يعارض الجبرية
 بقوله : إن كان من فعل الكبار مجبراً فمقابله ظلم على ما يفعل
 ٣ - الاخلاص : وهو من أبرز صفاته . فهو مخلص إلى العقل الهادي
 الوحيد في الحياة :

كذب الظن لإمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء
 جاءت أحاديث إن صحت فإن لها شأنًا ولكن فيها ضعف استناد
 فشاوور العقل واترك غيره هدرًا فالعقل خير مشير ضمه النادي
 ولا يعني ذلك أن المعري كان معقولاً في آرائه ونظرياته إذ كان يهاجم
 بنقده جميع الفرق ، ولكنه كان كالمعتزلة في تعظيمه شأن العقل . ويظهر
 إخلاصه أيضاً في نظره إلى الدين . وهو عنده على وجهين . الاول : وضي
 أي نظام بشري قائم على مراسيم وفرائض ، وهذا باب للاختلاف بين الناس
 ولشهوة الحزب والتنافر بينهم بل التباغض وسفك الدماء ، وفي ذلك يقول :
 إن الشرائع ألفت بيننا إحناً وأودعتنا أفاكين المداوات
 والثاني : روحي عملي وهو رياضة النفس على عمل الخير والتمسك بأهداب
 الفضيلة والتعالي عن الاطماع الضارة والشهوات الفاسدة :

وقد يكون في الوجه الوضي من الدين فائدة لمن فهم حقيقته وعرف
 كيف يستخدمه لتقوية الروح الدينية الحقيقية في النفس . ولكن المعري
 قلما يرى ذلك فهو صريح في مهاجمته النظم الخارجية زاعماً أن أربابها إنما
 يحرصون عليها لا يرجونه من فائدة مادية :
 إنما هذه المذاهب أسبا ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء

أفيقوا أفيقوا يا غواة فاعلموا دياناتكم مكر من القدماء
 أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبلدوا وماتت سنة اللؤماء

هكذا ينظر إلى النظم الدينية . بل كثيراً ما نراه يسرف في تهجمه على رؤساء الدين وينعتهم عموماً بما قد يصدق فقط على بعض الافراد ، فيقول مثلاً :

رويدك قد غرت وأنت حر بصاحب حيلة يمظ النساء
يحرم فيكم الصياء صباحاً ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفي لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفتي ما عنه ينهى فمن جهتين لا جهة أساء
ومن إسرافه في ذلك قوله :

كم قائم بمطباته متفقه في الدين يوجد حين يكشف طاهرا
ومع تفضيله الاسلام على سواء يدمج أهله مع أهل سائر المذاهب
والفرق فيقول :

وكلنا قوم بسوء لا أخص به بعض الانام ولكن أجمع الفرقا
دين وكفر وأنباء تقص وفر قات بنص وتوراة وإبحيل
في كل جيل أباطيل يدان بها فهل تفرّد يوماً بالهدى جيل
هفت الحنيفة والنصارى ما اهدت ويهود حارت والمجوس مضلله
اثنان أهل الارض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له
وأقواله في ذلك أكثر من أن يحصرها هذا المقام . ومهما يكن من
إسرافه وتعميمه فهو لا شك حرب على الرياء في الدين والانصراف إلى
الاولضاع الخارجية . وإنما الامر عند الجوهر لا المرض - الروح لا المسوح -
فلا عجب أن نراه يخاطب الدين الذي لا يأمن الناس بوائقه بقوله :
توهمت يا مغرور أنك دين عليّ يمين الله مالك دين
تسير إلى البيت الحرام تنسكا ويشكوك جار بائس وخدين
والذي يستسلم إلى أطاعه وشهواته :

سبح وصل وطف بمكة زائراً سبعين لا سبعا فلست بتناسك
جهل الديانة من إذا عرضت له اطاعه لم يلف بالتناسك

فالدين الحقيقي عنده هو الانصاف وإعطاء كل ذي حق حقه :
الدين انصافك الاقوام كلهم وأي دين لآبي الحق إن وجبا
وكما أن إخلاصه للحقيقة يدفعه إلى تلمس الدين في قلب الانسان ونصرفاته
لا في فروضه ووسائل عباداته ، كذلك هو يدفعه إلى التصريح برأيه في
موقف الحكومة من الشعب . فالحكومة عنده إنما هي خادمة للشعب مستأجرة
بماله لاجل مصالحه ، لاسيدة مستبدة به تسومه العذاب وتمتع بما يجنيه
من مال . فيؤله أن يرى الحكام في أيامه :

يسوسون الامور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسه
فأفء من الحياة وأفء مفي ومن زمن رئاسته خساسة
ويصورهم بأقبح الصور فيقول :

ساس الانام شياطين مسطرة في كل مصر من الوالين شيطان
وقد يحمل المعري لإخلاصه أيضاً إلى مهاجمة الملاء ذاهباً إلى أن علمهم
ليس بشيء بل هو الجهل :

وما العلماء والجهال إلا قريب حين تنظر من قريب

ولا يستتني نفسه بل يصرح بكل تواضع أنه جاهل :

الله يشهد أنني جاهل ورع فليحضر القوم إقرارى وإشهادى
أعمى البصيرة لا يهديه ناظره إذ كل أعمى لديه من عصا هادي

أقررت بالجهل وأدعى فهمي قوم فأمرى وأمرم عجب
والحق أنني وأنهم هنر لست بحياً ولا م نجب

علمي بأنى جاهل متمكن عندي وإن ضيئت حق العالم

لقد علم الله رب الكمال بقلة عقلي وديني ومالي

دعيت أبا الملاء وذاك مين ولكن الصحيح أبو النزول

ومن ظواهر صراحته ذهابه إلى أن الكون سائر على نظام أزلي ثابت ،
فاذا حبس المطر أو فاض فان الصلاة إلى الله مثلاً لا تحمله على تغيير طبيعة الجو :

قضى الله في وقت مضى أن عامكم يقل حياءً أو يزيد به السجم
فقولكم رب اسقنا غير ممطر ولكن بهذا دانت العرب والمجم
ومهما يحاول الانسان أن يغالب هذا النظام المحتوم فانه لا يرجع إلا
بالخيبة ولا يلاقي غير العناء :

والطبع أحكمه المليك فلن ترى حجراً يقول ولا هزبراً يغم
وإذا غدوت على القضاء مغالباً فأذاك تستمري وأنفك ترغم
وإذا كان الامر كذلك فعبث تعلقنا بلخوارق واتكأنا على التدجيل
والتنجيم والسحر وما إلى ذلك من ضروب الإباطيل ، ومن العبث أن تقول
إن بركات الطبيعة متعلقة بأعمال الانسان :

لم يسقم ربكم عن حسن فعلكم ولا حماكم غمماً سوء أفعال
وإنما هي أقدار مرتبة ما علقت بأساءات وإجمال

فالمرى يخلص للحقيقة ينفر من الرياء والاستبداد والادعاء ويطلب الصراحة
والابتعاد عن الفرور وبذ كل مالا يوافق العقل ، فلا بدع أن نرى الكثيرين في
عهده وبمده عهده بيمدين عن إدراك كنهه نفسه يرمونه بالكفر أو يتقوون عليه
ما عليه عليهم الجهل وسوء الظن .

كان المري في القرن الخامس الهجري يعيش في جو قرننا الحاضر بل
نستطيع أن نعد من حكماء هذا القرن ومن رواد التفكير الروحي الحديث . ومن
يقراً أدبنا التأمل اليوم ولا يراه مشعباً بالروح الملائية — روح الخيرة والتشاؤم
والاخلاص للحقيقة — تلك الروح التي تفيض من قلب الشاعر متأثرة بمساوي
الحياة . كان الشعراء قبله وهم مبصرون لا يرون في الحياة إلا أنفسهم ولا يرون في
الأدب إلا ما يوصلهم إلى اغراضهم ، لكن المري وهو الاعمى قد أتى على الحياة
نظرة أوسع من نظراتهم وتطلع إلى آفاق أبعد من آفاقهم ، فأنمكت نظراته عن
بيئة قائمة كأنما هي أشمة تنفذ إلينا من وراء زجاجة سوداء ، وهي نفس الروح أو
النظرات التي زارها في أدبنا الحديث . ولا أعني أن هذا صدى أو تقليد لشعر المري
بل أعيد القول أن شاعر المرة وشاعر القرن العشرين يستقيان من نبع واحد .
والغريب أننا لا نرى في هذه القرون العشرة التي تفصلنا عن أبي الملاء

عهداً شملته هذه النزعة الفكرية التي نراها اليوم . ولماذا ؟ لأن هذه القرون شهدت انحطاط الحركة العالمية الحرة وسيطرة التقاليد القديمة ، فاتجه العقل فيها نحو الجمع الأدبي والتصنيف الديني والتفسير اللغوي والبياني وغرق في تيار الرجعية فلم تنهياً له بيئة تساعد على النظر الحركياً تنهيات له في الآونة الأخيرة ، وإذا قلت الآونة الأخيرة ، فإني أعني ما أقول ، إذ هي لا تتجاوز الثلاثين أو الأربعين سنة الماضية ، بل لعلها لا تتجاوز المدى القائم بين الحرب العالمية الأولى وهذه الحرب . ففي هذه الفترة نرى الشعر العربي يخرج عما كان عليه في أواخر القرن التاسع عشر ، يخرج عن الموضوعات القديمة التي عرفت في كل الاجيال إلى آفاق جديدة يطل منها على المدنية الحاضرة ويرى ما فيها من قبح أو جمال .

« ظواهر الاتفاق والاختلاف بين أدب المري وأدب القرن العشرين » :
إن أدبنا الفكري إزاء الروح الملائية بين عاملي جذب ودفع . الاول يقوده إلى نفس المنهل الذي نهل منه المري والثاني يدفعه عنه إلى منهل آخر . فلو راجعنا الشعر العربي الحديث لوجدنا فيه ما نجلده في اللزوميات من نظر إلى الحياة وما وراء الحياة . خذ مثلاً هذين البيتين :

خبرت دنياي وأبناءها مذ فشأتني خبرة مستفري*

فلم أشاهد غير ما حالة أرتني السوء بكل امري*

هذا صوت يرتفع من المراق على لسان الدجيلي وهو شبيه في تشاؤمه بصوت الرصافي إذ يقول ضارباً على هذا الوتر :

أرى الخير في الاحياء ومض سحابة بدا خللاً والشر ضربة لازم

إذا ما رأينا واحداً قام بايأ هناك رأينا خلفه ألف هادم

وما جاء فيهم عادل يستميلهم إلى الخير إلا صده ألف ظالم

جهلت بكهل الناس حكمة خالق على الخلق طرأ بالتماسة حاكم

ألا يمسك لنا هذا الكلام روح أبي العلاء المتبرمة بالانام ؟ وأمثال هذه الابيات كثيرة في هذا العصر . وكما لام المري والده على الايتان به

إلى هذا العالم المملوء بالشقاء هكذا يفعل الشاعر المصري محمود أبو الوفا إذ يصبح بمرارة اليأس :

أبي ! وفي النار متوى كل والدٍ ووالدٍ أنجيا لليؤس أمثالي
خلفتني فوضعت الجبل في عنقي يشده لف دهر جد ختال
ما كان ضرك لو من غير صاحبة قضيت عمرك شأن الزاهد السالي
وهو ذا العقاد وهو الأديب القائل بوجوب الانضواء إلى كنف الثقافة
الحديثة ، والمعنى في كتاباته بإصلاح المجتمع . تحيته أحيانا ساعات يقع فيها
تحت تأثير أبي العلاء فيقول :

لقد كنت أرجو في الحياة لبانة فعدت ومالي في الحياة رجاء
وكنت إخال الناس إلا أقلهم كراماً إذا هم كلهم لزوماء
وهذا شاعر مصري آخر ، هو أحمد رامي ، وهو من ناظمي الاغاني
المرحة تحمل به أحيانا الروح الملائية فيصبح متظلماً من الحياة وأبنائها :
كثر اللؤم في بني الانسان وقسا قلوبهم من الاضغان
وبعد أن يمدد مساوي الحياة من غدر وظلم وقسوة وسلب يدعو الطبيعة
إلى البكاء على الانسان وعلى طريقة المعري يصرح أن لا خير إلا في إبعاء
هذه الدنيا من صفحة الاكون :

إن دنيا تضحج باللؤم أولى بإبعاء من صفحة الاكون
وإنك لتحس بهذه الروح المتبرمة في كل الاقطار العربية - حتى في المهاجر
الاميركية ولعلماء بين اللبنانيين والسوريين هناك أشد لاصطدام خيالياتهم
الشرقية بالمدنية الغربية .

فجران مثلاً لا يرى بين الناس ما نسميه خيراً أو عدلاً أو ديناً . وفي
مواكبه يصرح قائلاً :

الخير في الناس مصنوع إذا جبروا والشر في الناس لا يفنى وإن قبروا
والعدل في الارض يبكي الجن لو سمعوا به ويستضحك الاموات لو بصروا
والدين في الناس حقل ليس يزرعه إلى الاثلى لهم من زرعه وطر
وهو يزعم أن هذه المثل العليا لا توجد على حقيقتها إلا في الطبيعة

بعيدة عن صخب المدن وتكالب سكانها — ففي الطبيعة لا تعدي ولا حسد ولا ظلم ولا أوهام بل كل شيء يجري على مقتضى ما خلق له . ومثله فوزي الملووف في قصيدته على بساط الروح وأخوه شفيق في عبقر ورشيد الخوري في قروياته وأعاصيره ورهط غيرهم من أدباء المهاجر .

وقد تجاوزت هذه الروح الملائية الحديثة مصر وسورية ولبنان والعراق إلى سائر الأقطار العربية فدخلت الحجاز وتونس وسواها وتغلغلت في نفوس النشء الجديد . وكما تنبث روح أبي الملاء في عصرنا بالتشاؤم تنبث في الحيرة أو النزعة اللاأدرية . ويكني للتمثيل هنا أن أنوّه بقصيدة أبي ماضي « الطلاس » وقصيدة الرصافي « من أين من أين يا ابتدائي » والزهاوي « حول الحقيقة » . ويمثل ذلك قول الزركلي من قصيدة « في سر الوجود أو الحياة » :

لجة مزبدة أم نهر معتكر أم هو سيل

ما أمامي ؟ حيرة لا تنتهي ما دام هذا الليل

وقد فصل هذه اللاأدرية في الصافي النجفي حدود الانكار في قصيدته الخلود الزائف وسواها . فهو يقف هناك موقف المهكم من اليمينيين الذين ينظرون إلى ما بعد الموت نظرهم إلى امر واقعي .

وفي أدبنا الجديد نزعة علائية شديدة إلى محاربة التعصب الديني والتقاليد البالية والدعوة إلى التمسك بجوهر الدين دون العرض ، بالمعمل دون العقيدة . ولا أبالغ إذا قلت إن هذي هي النزعة العامة في الشعر المصري في كل الأقطار العربية ، وهي أوضح من أن أمثل لها في هذا المقام . وقد دعت إليها دواحي المدنية الحديثة المبينة على روح العلم والنظر الحر إلى الحياة . وأوقدها في الأدب حدثان هامان — الأول إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ . والثاني الدعوة إلى الملك العربي أيام المغفور له فيصل . فهذان الحدثان كانا مبعثاً لتموجات أدبية مندقفة من قلوب تؤمن بالإخاء والوئام . وتختلف عن دعوة المعري بأنها أكثر اتصالاً بالمحافظة القومية . فالمعري لم يعن بهذه الناحية الخاصة ولم يكن في يثته ما يدفعه إلى غير النظر الروحي أو الاجتماعي البحت . لذا الأدب الحديث فيجمل الدعوة إلى جوهر الدين والتعالي عن القشور

الفارغة والانظمة المفرقة وسيلة لتقوية الرابطة القومية بين مختلف العناصر ، وهنا تشبكت السياسة بالدين او الدعوة إلى القومية بالدعوة إلى شجب المنعمات الطائفية الخائلة دون الاتحاد القومي . وقد قاد ذلك بعضهم إلى التهجيم على رؤساء الدين — كما فعل المعري — وعزوا كثير من السيئات إليهم — وكما أسرف شاعر الممرة أسرفوا هم أيضاً وأطلقوا لاقلامهم العنان دون رادع في هذا الميدان . ومن أمثلة هذا الاسراف ما جاء للريحاني من خطبة له موضوعها :

« الثورة الادبية » قال : (١)

« وأما الكهان يسادني فهم أول من عاثوا في الارض فساداً . هم أول من قيدوا النفوس البشرية واستعبدها ، هم أول من تاجروا بالخداع والتفجير . هم أول من استولوا على الامراء والملوك وأبدوا سلطانهم بأبناء من السماء كاذبة . والكهان اليوم أو رؤساء الاديان كلها هم أعداء الحرية الروحية الادبية . إلى أن يقول : « على الكهان وآلهة الكهان امتشق نبي العرب حسامه في الكعبة . وصباً أشعيا نار غضبه في اورشليم على الكهان ومذابحهم وتزاويهم وأصنامهم ، وانقضت صواعق حزقيال في إسرائيل ، وزمزم رعود دانيال في بابل . على تفريعات رجال الدين وخزعبلات العبادات قام ابن عبد الوهاب في نجد ولوثيروس في وتنبورغ ونوكس في إنكلترة ، وغيرهم في البلاد كثيرون . »

وكما كان الادب الملائني ينزع إلى العقل ويؤمن بالنظام الارثي وينفر من التذجيل والارهاق هكذا نرى أدبنا الآن . على أن في الادب الحديث رغم ما يشمله من ظلام النشأوم والخيرة مسحة من التفاؤل أو الرضى بالواقع والايمان بمقدرة الانسان على التقدم . وقد مرّ معنا أن المعري لم يكن جبرياً مطلق الجبرية وأن في شعره ما يسمح للانسان بشيء من حرية الارادة في التصرف . ولكن ذلك لم يبلغ فيه درجة الرضى والايمان بمقدرة الانسان كما نراه في الادب الحديث . إن المعري يكاد يقف أمام القدر موقف الوهن والتردد :

(١) واجهها في الرمانيات ٢ - ١٣

تعب كلها الحياة فما أعجبب إلا من راغب في ازدياد
 أما الشاعر الحديث فيتزع إلى المناضلة والجهاد . المعري لم يكن يرى
 في الحياة ما يستحق السعي لاجله ، أما شاعر اليوم فالحياة عنده برغم
 قناتها ذات قيمة ولكن قيمتها لن تبلغ إلا بإرهاف العزم واطراح الخوف
 والإقدام على المصائب . وعلى ذلك قول الشاعر المصري عبد الرحمن شكري :
 انضُ عنك الحذار من حادث الدهر فليس الحذار ينفي فتىلا
 إنما العيش أن تكون جريئاً ليس ترضى الحياة غمراً ذليلاً
 ويقول :

هو العيش كالحسناء تنفض محجماً جباناً ويحظى بالوصال جسور
 بدا لي أن لا سعد إلا تصبر تقربه في التائبات صدور
 وعزم وإيمان وطبع وحكمة ورأي بآلاء الحياة خير
 فالكذب والجراة والمصبر هي مفاتيح الحياة المثلى ، وإذا صح ذلك فالحياة
 التي هذه مفاتيحها حياة ثمينة جدرة بالاهتمام والجهاد . وهذا الجهاد كثيراً
 ما يعني التمرد على القديم . ولا ينكر أن المعري كان متمرداً يدعو إلى اطرار
 كل ما لا يقبله العقل السليم ، ولكن تمرده مقيد بالاستسلام للقضاء ، وبهذا
 يختلف عن الشاعر الحديث الذي يعني بالتمرد لتخلص المطلق من كل ما يقيد
 النفس البشرية ويقف في سبيل تقدمها المطرد . ويمثل لنا ذلك في جبران
 ومدرسته . فالتمرد عنده ليس هدماً لحسب بل هو الخطوة الأولى في سبيل
 البناء الاثبات وهو التخلص من المواقف التي تموقنا عن النمو إلى ما هو
 أفضل (١) . وفي هذا الجهاد والسعي نحو الافضل تنكشف لنا معاني الحياة
 الحقيقية . فالأدوية الحديثة مع اعترافها بجهد الانسان لتحقيق ترو لزاماً
 عليه ابتناءها أو الطموح إليها إذ على هذا الابتناء والطموح تقوم دعائم
 العمران والتقدم .

ويكثر في أقوال المحدثين القول بأن السعادة حالة وجدانية نفسية لا أمر
 موضوعي تحصل عليه من الخارج . فالبعض ياتمسها في القناعة والبعض في

(١) راجع مقالة الهندسة الطموحة في المواقف .

بساطة الميش والبعض في الالتجاء إلى حمى الطبيعة والبعد عن عناء المدنية والبعض يراها في السعي المستمر والاختبار المتجدد كقول أحسدم (١) : « لذاتنا في الشوق لا في الوصال » ولا ينكر أن فكرة القناعة والبساطة فكرة قديمة وهي بارزة في حياة المعري وأقواله . أما فكرة السعي المستمر والاختبار المتجدد ففكرة حديثة مستمدة من الأدب الغربي ، وأمل غوته في روايته فوست هو أعظم من أثار هذه الفكرة في نفوس المحدثين . (٢) ومهما يكن من علاقة بين أدبنا الحديث والروح العلائية فما لا شك فيه أن العصر الحاضر متأثر بهذه الروح وأن شاعر المعرة لا يزال حياً في نفوس المفكرين . ولا أعلم شاعراً قديماً بلغ تأثيره الروحي في أدبنا ما بلغه تأثير هذا الشاعر العظيم — شاعر واحد فقط يقاربه هو أبو الطيب المتنبي ولكن من سبيل آخر . فهذا يثير فينا روح الفخر القومي أو الفردي . ويرفعنا إلى ذروات الاختبار الحي ولكننا لا نقف معه كما نقف مع المعري متسائلين عن الحياة والانسان ، عن الشرائع والعمران ، عن الاكوان وما وراء الاكوان . ليس المعري أشعر شعراء العرب فقد نرى كثيرين ممن يفوقونه في نواح مختلفة من الفن الشعري ، ولكنك قلما تجد فيهم من يضاهيه في تأثيره الروحي على الاجيال . ولماذا ؟ أليس لانه يطعم شعره بطبايع الصراحة والاخلاص ، ولانه ينظر إلى الحياة نظرة المترفع الحقيقي لا المقلد للمترفعين أو المرتزق بادعاء الورع والدين :

فلتفصل النفس الجميل لانه خير وأحسن لا لاجل نوالها

إن المعري أسمى تراث روحي وصل إلينا من الاجيال الغابرة وقد زالت منذ أيامه إلى الآن دول وتيجان ، وبادت أم وبلدان ، ولكن روحه لا تزال حية لانها روح النابغة الذي يعيش لكل زمان .

انبس المعري

(١) يوسف فصوص في القمص المجهود ١٢٩

(٢) وقد توسع الاستاذ أحمد أمين بك في شرح هذه الفكرة (راجع كلامه في كتابا

نبش الحاطر ٣ - ٩٢ ثم حرري بالمطالعة)

الحفلة السادسة

في دمشق

١٢ أصبح الاعضاء (يوم السبت في ٣٠ ايلول ١٩٤٤) ساروا في مدينة اللاذقية إلى الشارع الذي أطلق عليه اسم أبي الملاء ، بين دري الموسيقى وهتاف الشعب ، فزاروا دار الكتب الوطنية التي شيدها المحافظ ، وافتتحوا شارع أبي الملاء وساروا فيه .

ثم غادر الركب مدينة اللاذقية في الساعة العاشرة وسار إلى الجنوب مع ساحل البحر . فمرّ ببلدة بانياس وقلعة المرقب وبلدة طرطوس حيث وقف قليلاً ، ثم تابع سيره صوب الجنوب حتى بلغ حدود لبنان ، وعطف إلى الشرق ، فصعد في الجبال وبلغ بلدة تل كلخ . ثم أشرف على بحيرة حمص وحدائقها وسهولها .

وكان رئيس بلدية حمص السيد فيضي الاناسي ومحافظها السيد فؤاد الحلبي قد خرجا على رأس وفد من أعيان المدينة لاستقبال الركب . فساروا جميعاً في موكب عظيم وبلغوا مدينة حمص في الساعة الثانية بعد الظهر .

ولما دخلوا المدينة زاروا نخلة السيد هاشم الاناسي رئيس الجمهورية السابق فاستقبلهم في داره أحسن استقبال وأنسهم ألطف إنسان ، ثم خرجوا بعد ذلك معه إلى حديقة البلدية المعروفة باسم الروضة حيث أعدت لهم مدينة حمص مأدبة غداء فاخرة جلسوا في ظلال الاشجار وتجادبوا أطراف الحديث على مأدبة الطعام .

وتكلم على المائدة السيد فيضي الاناسي مرحباً بالاعضاء ، وتلاه الاستاذ عارف النكدي شاكرًا . ثم تكلم الدكتور عبد الوهاب عزام باسم الوفد المصري فقال : «علاء نفسي إعجاباً وروعة ونفاراً ، أن أقف على مقربة

من أعظم تمثال لبطولة المجاهدة المخلصة الطيبة . ضريح خالد بن الوليد رضي الله عنه . . . يا قومنا إن الفرصة قد سُنحت ، والزمان ضنين بفرسه ، والفرس سريع مرورها ، فاحذروا أن تناموا وانلغطوب يقظي ، أو تبطلوا والزمان يسرع ، أو تففوا والنك يدور ، أو تهزلوا والزمان يجد ، ألا إن تكاليف المجد شاقة ومطالبه صعبة ، وغايته بعيدة . ولكن في ضمان المزائم المجتمعة ، وفي كذلة النفوس الاثنية نذيل الشاق ، وتيسير الصعب ، وتقريب البعيد ، فاجمعوا أمركم ، واجمعوا كلمكم ، وتقدموا إلى العمل بقلوب ملؤها الرجاء والامل ، ورؤوس ملؤها الحكمة والروية ، وأيد ملؤها النشاط والقوة . . الخ الخ .

ولما انتهت مأدبة الغداء في الساعة الرابعة بعد الظهر رحل الركب مدينة حمص عائداً إلى دمشق فمر ثمانية بيلاذ النيك واستراح قليلا في حديقة البلدية ، ثم غادرها قبيل غروب الشمس فبلغ دمشق في المساء .

وكان الدكتور طه حسين قد دعا أعضاء المهرجان والوزراء وأدباء دمشق وأساقفتها إلى مأدبة عشاء في فندق (اوريان بالاس) ، فألقى الاستاذ مهدي الجواهري أبحاثاً في مدح الوفد المصري دعا فيها الدكتور طه حسين وأخوانه إلى زيارة العراق . ثم أخذ الأعضاء بأطراف الحديث عن رحلتهم وما نخلها من سرور ومشقة وإكرام وحفاوة واخذوا بعد ذلك إلى الراحة في غرفهم . وفي الساعة العاشرة من صباح الاحد الاول من شهر تشرين الاول عام ١٩٤٤ سار الركب إلى مصيف بلودان لتناول طعام الغداء على مأدبة المجمع العلمي العربي في الفندق الكبير ، ثم عاد منها في الساعة الثالثة بعد الظهر لحضور الحفلة الخطابية السادسة .

وبدأت الحفلة الخطابية في الساعة الخامسة بعد الظهر في بهو الجامعة السورية ، وهي ختام حفلات المهرجان تتابع فيها الخطباء على الوجه الآتي :

- ١ - الدكتور عبد الوهاب عزام لزوم ما لا يلزم :
عضو المجمع العلمي العربي
- مق نظم ، وكيف نظم ورتب

- ٢ - الشيخ عبد القادر المغربي
نائب رئيس المجسم العلمي العربي
شيخ المعرة والشيخ الدرا
- ٣ - الاستاذ سليم الجندي
عضو المجسم العلمي العربي
دين أبي العلاء
- ٤ - الاستاذ هنري لاووست
عضو المجسم العلمي العربي
اختلاف الآراء في فلسفة أبي العلاء
- ٥ - الاستاذ شفيق جبري
عضو المجسم العلمي العربي
ذكرى أبي العلاء (قصيدة)
- وتكلم في هذه الحفلة بعض الخطباء ممن لم ترد أسماؤهم في البرنامج
كالاستاذ فؤاد افرايم البستاني ، والاستاذ عزمي النشاشيبي ، والدكتور عارف
العارف ، والآمنة جهان الموصلي ، وسنثبت كلماتهم في الملاحق :
وتخلل الحفلة دور موسيقى غنت فيه فرقة الاذاعة بدمشق أبياتاً من
شعر أبي العلاء وهي :

ومن لي بأني في جناح غمامة تشبهها في الجناح أم رمال
تهاداني الارواح حتى تحطني على يد ريح بالفرات شمال
فيا برق ليس الكرخ داري وانما رماني إليه الدهر منذ ليال
فهل فيك من ماء المعرة قطرة تنيث بها ظمآن ليس بسال
أخواننا بين الفرات وجلق يد الله لا خبرتكم بحال
أنبشكم أني على المهد سالم ووجهي لما يتنزل بسوآل

ولما انتهت الحفلة الخطابية في الساعة التاسعة مساء سار الاعضاء إلى
قصر رئيس الجمهورية اجابة لدعوة غفامته فتناولوا طعام العشاء على مائدة .
وتكلم على المائدة الشيخ بهجة البيطار فدعا إلى اتباع السلف الصالح في
التشريع المدني الحديث ، ثم تلاه الاستاذ أحمد أمين فقال : « أبو العلاء
شخصية من أعجب السجب . فهو يطمعنا وبجوع ، ويجمعنا ويمتزل ، ويرمينا

بالحجارة وزميه بالازهار ، وتسطم علينا روحه في هذا العصر متألفة بالحياة الجديدة . لقد كان في حياته يصف بؤس الناس ، ولا يريد أن ينغمس في شؤونهم . أما حياتنا الحديثة فتقضي أن نصف البؤس وأن نعمل لازالته . ولعل هذه الروح هي التي ترفرف علينا الآن .

« نحن لانريد أن نعتزل كما اعتزل ، وان نصور ولا نتدخل في الحوادث ، ولكن نريد أن نتصور الحوادث ونعمل على اصلاحها وازالة ضرورها . اننا نشعر أننا في عالم لا تنفع فيه الا الارادة القوية . في عالم لا تكفي فيه الاماني الطيبة . وانما يحتاج الى العمل الطيب » .

ثم قال : « وأحب ان اقرر ان الشريعة الاسلامية سمحة لانهج علينا ان نفهم العالم وان تكون نظراتنا الى الفروع نظرات مرنة . فالعالم تقدم في كل فرع من فروع الحياة ، والتشريع يجب ان يتشى مع العصر » .

ثم تكلم الدكتور طه حسين فقال : « اما انا فلم اقف لا يتحدث في هذه الموضوعات الخطيرة التي تحدث فيها الزلاء ، وانما لا ودي عنا جميعاً واجباً لاشك انه احب شيء الينا . وهو ان نشكر لفخامة الرئيس الاول ماتفضل به من رعاية مهرجان ابي الملاء . ولا خلاف في ان مالقيه ابو الملاء في حياته من عطف الحكام أو غضبهم كثير ، ولكن الشيء المحقق ان حظ أبي الملاء بمد موته من الاضطهاد والاعراض عنه اكثر من العطف عليه والميل اليه . فاذا قلت ان حضرة صاحب الفخامة الرئيس هو اول زعيم عربي في العصر الحديث عطف على شيخ المعرة فشمّل الاحتفال برعايته الكريمة ثم افتتح المهرجان واختتم اجتماعاته ، ثم دعا الوفود الى قصره ليكرمها ، فانما أعبر عن شعور كل واحد منا ، ثم اختتم كلمته بشكر الوزراء لما تقضوا به من مشاركة اعضاء المهرجان في الاحتفال بأبي الملاء .

وارتجل فخامة رئيس الجمهورية كلمة شكر بها لاعضاء المهرجان جهودهم الطيبة في احياء ذكرى أبي الملاء وتوثيق اواصر المودة بين اقطار البلاد العربية فقال : « ان في مدينة معاوية ومدينة خالد بن الوليد ، ومدينة أبي الغداء ، ومدينة الحمدانيين وغيرها من المدن والقرى والساكن التي زرعوها لفكرة واحدة متغلطة في

قرارات النفوس ، وهي ان هذه الاقطار لا تحب سوى الحرية ولا تفكر الا في المروية والكرامة . وستبقى ذكرى المهرجان على مر الأيام منقوشة في الصدور لالاتها ذكرى أبي العلاء فحسب ، بل لانها ذكرى قدومكم الى ربوع الشام للحفاوة بالشاعر الثابغة والفيلسوف العبقرى أبي العلاء الممرى . واذا عدتم ايها الاخوان الى بلادكم فاذكروا ان هذه البلاد التي عانت من صروف الدهر وجور الزمان ما تمجز الامم عن حمله تريد الآن أن تحيا سيدة عزيزة حاكمة نفسها بنفسها غفورة بماضيها وأمجادها ، وانها تريد أن تبقى حرة مستقلة . ونحن اليوم على وشك تحقيق فكرة بلذ لنا ترديدها ، لانها هدفنا ، وغايتنا التي نسمى اليها جميعاً . وهي انه لاهياة لبلادنا الا اذا اتحدت الامة العربية بآمالها وآلامها واهدافها . وكما انها ذات تاريخ واحد وتقاليد واحدة فكذلك تريد أن تكون ذات ثقافة واحدة وسياسة واحدة . ولقد ادركنا في اجتماعكم هذه الوحدة الثقافية كما بلغنا في الماضي الوحدة الادبية . وستتحد سياستنا بحول الله في اجتماعات الاسكندرية . فلكم منا اجمل الشكر والذين يجتمعون لأن في الاسكندرية التحيات الطيبات وخالص الاماني . والله نسأل ان يأخذ بآيدينا لنصل الى مائصبو اليه نفوسنا من آمال وريغات .

وكان ختام مهرجان ابي العلاء في منتصف الليل من اليوم الاول من تشرين الاول عام ١٩٤٤ .

جميل صليبا



لزوم ما لا يلزم

متى نُظِم وكيف نُظِم ورتب

عنيت بأبي العلاء المرثي ناشئاً ، وكتبت في أخباره وأشعاره تليداً . وما زلت
معنياً به حافظاً لأخباره وأشعاره . واللزوميات أعظم آثار الرجل ، وهي سجل
عقائده وآرائه ، ولها النصيب الأوفر من أحاديث من يتحدثون عن المرثي ، وكتابة
من يكتبون في فلسفته .

وكثيراً ما سألت الأدباء وسألت نفسي : متى نظمت اللزوميات وكيف
رُتبت ؟ أخط الشاعر خطئها ثم نظمها لواء على ترتيب حروف الهجاء ، فأراه
فيها متوالية على هذا الترتيب ؛ ما تضمنه أبيات على رويّ الهمزة مقدم زماناً على
ما يذكر في أبيات على رويّ الباء وهلم جرّاً ؟ أم نظم الرجل ما نظم ثم رتبه على
حروف الهجاء ، فقدم متأخراً وأخر متقدماً ، مسaire للترتيب الهجائي ؛ فما يعرف
المتقدم والمتأخر من شعر الرجل إلا ما دلت عليه حوادث مذكورة فيه ، ولا
يستطاع تتبع أفكاره ورعاية تطورها على الزمان ؛ وكنت أقول إنه لا بد للمؤرخ
أبي العلاء من أن يفصل في هذه القضية ، فيجزم بأن اللزوميات مرتبة على الزمان
أو غير مرتبة .

فلما دعاني المجمع العلمي العربي إلى شهود الاحتفال بذكرى أبي العلاء بعد
مرور ألف عام على مولده ، وسألني عن الموضوع الذي أوتر الكلام فيه في هذا
الاحتفال ، اخترت أن أتكلّم في تاريخ اللزوميات وترتيبها . فأعدت قراءتها
مستوعباً ، متقصياً الأبيات التي تذكر فيها حوادث معروفة أو رجال معروفون ،
والتي تذكر فيها سنّ أبي العلاء أو حاله من الشباب والكهولة والشيخوخة .
وراجعت مآثره التاريخ من أخبار الرجل ، وذكر كتبه . فاتهيت إلى القضايا التي
أسجلها فيما يأتي :

المبحث الأول

منى نظمت اللزوميات

- ١ -

جمهرة شعر أبي الملاء في مجموعتين : الأولى تتضمن شعر الصبا والشباب ، وهي التي سماها سقط الزند . وقد جرى في هذا الشعر مجرى الشعراء الآخرين ، فمدح وهج وتفزل ورثى ووصف الخ .

وقد قال أبو الملاء في مقدمة سقط الزند :

« وقد كنت في ربان الحداثة ، وجن النشاط ، ماثلاً في صفو القريض ، أعتدّه بعض مآثر الأديب ، ومن أشرف مراتب البلوغ . ثم رفضته رفض السقب غرسه ، والرأل تزيكته ؛ رغبة عن أدب معظم جيله كذب ، ورديته يذقةص ويمجذب » . وقال مستملى أبي الملاء الذي كتب ثبت كتبه كما رواه ياقوت في معجم الأدباء : « من غير هذا الجنس كتاب لطيف فيه شعر قيل في الدهر الأول يعرف بكتاب سقط الزند وهو ثلاثة آلاف بيت » ،

وفي سقط الزند قصائد قالها في بغداد ، وأخرى أرسلها إلى بغداد بعد رجوعه إلى المرة سنة أربعمائة . وأبيات قيلت بعد سنين كثيرة من اعتكافه في المرة كالبيتين اللذين مدح بها القاضي ابن نصر المالكي ، ومرثية جعفر بن علي بن المهذب . والمجموعة الثانية هي التي سماها « لزوم ما لا يلزم » .

- ٢ -

هذه المجموعة الثانية من أشعار أبي الملاء قد نظمت بعد رجوعه من بغداد . وقد خط خطها ، وتكلفت لها ما تكلف من لزوم ما لا يلزم ، ومن استيعاب الحروف الهجائية على الحركات الثلاث والسكون . قال في مقدمتها :

« كان من سوائف الاقضية أني أنشأت أبنية أوراق توخيت فيها صدق الكلمة ، وزهتها عن الكذب والميط . ولا أزعها كالسمط المتخذ ، وأرجو ألا تحسب من السميطة . فمنها ماهو تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد . . . الخ » .

وقال في المقدمة كذلك :

« وقد تكلفت في هذا الكتاب ثلاث كلف :
 الأولى : أنه ينتظم حروف المعجم عن آخرها .
 والثانية : أن يحكي رويّه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك .
 والثالثة : أنه لزم مع كل رويّ فيه شيء لا يلزم من ياء أو تاء أو غير ذلك من
 الحروف » .

فهذا شعر حدد موضوعه واختير له نظام في القوافي ، وترتيب على الحروف
 وحركاتها . وكأنه كتاب من كتب العلوم اتصل تأليفه حتى كمل . وهي خطة
 تسلي بها في عزلته . فيبني أن يكون تاريخه متصلاً ونظمه متوالياً .
 وأنا ادعي أن ما تضمن هذا الكتاب من الآراء هو فلسفة أبي العلاء في عزله
 بعد سنة أربعمئة ، وإن هذا الكتاب كله ، إلا أن تشذ أبيات قليلة ، نظم بعد هذه
 السنة .

يدل على هذا أن أبا العلاء قال في مقدمة السقط : إنه رفض الشعر . وقال
 في مقدمة اللزوميات : « وقد كنت قلت في كلام لي قديم إنني رفضت الشعر .
 رفض السقب غرسه ، والرأل تريكنه . والفرض ما استُجيز فيه الكذب ،
 واستمين على نظامه بالشبهات . فأما الكائن عظة للسامع ، وإيقاظاً للمتوسن ،
 وأمرأ بالتحرز من الدنيا الخلدعة وأهلها الذين جيلوا على انفس والمكر ، فهو
 إن شاء الله مما يلتبس به الثواب » .

فهذا النظم الذي توخى فيه المظة والايفاظ كان بعد النظم الذي جرى فيه
 مع الشعراء ثم رفضه رفض السقب غرسه ، والرأل تريكنه .
 ودليل آخر أنه ذكر سنة في كثير من أبيات اللزوميات تصريحاً وتلويحاً ،
 ولم يذكر ما دون الأربعين ، وهو قد بلغ الأربعين سنة ثلاث وأربعمئة ،
 إلا بيتاً واحداً في هذه القطعة :

إذا هبت جنوب أو شمال فأت لكل مقتاد جنيب
 ورويدك إن ثلاثون استقلت ولم يُنب الفقى فقى يقيب
 واخطاب في هذا البيت إما أن يكون لغير الشاعر وإما أن يكون بعض
 اللزوميات قد نظم حين جاوز الثلاثين قبل سفره إلى بغداد ، وإما أن تكون

هذه القطعة نظمت كذلك بعد رجوعه من بغداد واعتزاه الاعتزال ، وكانت سنة حينئذ سبعا وثلاثين سنة ، فقد مضت الثلاثون ولم يبلغ الأربعين ؛ فليس بعيداً أن يذكر مرور الثلاثين . ومهما يكن فجمهرة الكتاب نظمت بعد سنة أربع مائة كما أسلفت .

ودليل آخر على أن أبا العلاء شرع بنظم اللزوميات بعد رجوعه من بغداد بقليل ، أنه يذكر في اللزوميات — كما فعل في سقط الزند — رحلته إلى العراق أسفاً على الرحيل وعلى الأوبة . وهذا ، في غالب الظن ، لا يقال بعد مضي سنين كثيرة على هذه الرحلة :

وما بي طرق العسير ولا العُرى لا ثني ضرير لا تضيء لي الطُرق
أغربانك السحيم استقلت مع الضحى سوانح أم مررت حمائمك الورق
رحلت فلا ديناً ولا دين تلت وما أوتيت إلا السفاهة والخرق

يا لطف نفسي على ثني رجعت إلى هذى الديار ولم أهلك ببغداد
إذا رأيت أموراً لا توافقني قلت الإياب إلى الاوطان أدعى ذا

شئت بإهمة عادت شامية من بعد ما أوطنت عسراً ببغداد

وأزيد على هذه الأدلة أن أبا العلاء ذكر سن " الاربعين في اللزوميات ، وقد بلغها بعد رجوعه بسنين ثلاث .

— ٣ —

إن كان المعري شرع ينظم لزوم ما لا يلزم حين رجع من بغداد أو بعد رجوعه بقليل فكم استمر ينظمها ، ومتى انتهى من نظمها وجمعها ورتبها وكتب لها المقدمة التي كتب ؟
يمكن أن نجيب هذا السؤال بوسيلتين ؛ الأولى تتبع الحادثات التي ذكرها والرجال الذين أورد أسماءهم في شعره . والثانية استقراء الإبيات التي ذكر فيها سنة .

(١) المحاورت والرجال :

١ - أولا : بنو عامر وطبي :

يذكر أبو العلاء قتنا وخطوباً أثارها بنو عامر وطبي في الشام وما حولها ، ويسمي بمض رجالهم في مواضع كثيرة ، منها :

إذا عامر تبعت صالحا وزجت بنو قرة الحردبا
وأردف حسان في مأنج متى هبطوا مُخَصِّباً أجديا
وإن قرعوا جيلا شاعخا فليس يُمنف إن يحدبا
رأيت نظير الدبا كثرة قترهم كميون الدبا

ومنها :

ألم تر طيثاً وبني كلاب سمو البلاد غزة والمرش
ولو قدروا على الطير الفوادي لما نهضت إلى وكر بريش
ويذكر طيثاً وزعيمها حسان في قوله :

قد أشرعت سنبس ذوابلها وأرهفت مُبَحَّرَ معايلها
لفتنة لا تزال باعشة راحها في الوغي ونايلها
حسان في الملك لا يحس لها تزجي إلى موتها قنايلها

ويقول :

أرى حلبا حازها صالح وجال سنان على جلدنا
وحسان في سلفي طبي يصرف من عزه أبلنا
فلما رأت خيلهم بالغبار ثغما على هامهم علقنا
رمت جامع الرملة المستضام فأصبح بالدم قد مُخْلَقنا
وقد رثى للرملة كثيراً وحزن لما ناب أهلها ؟ يقول :
والرملة البيضاء غودر أهلها بعد الرفاغة يأكلون قفارنا

عتروا الفوارس بالصوارم والقنا والملك في مصر يمتزقها (١)

(١) الملك في مصر كان للفاطميين حينئذ وكان الخليفة منهم الظاهر (١١١ - ١٢٢) فهو يعلم الفاطميين على أن تركوا هذه القبائل تبت في الأرض وهم لاهون بشعب قارات المسك يطيبون بها لا بعقر الفوارس . والعتر الذبيح .

جعلوا الشفار هوديا لتنوفة مرهاء تكحل بالدجى أشفارها
تكبو زناد القادحين وعامر بالشام تقدح مرخها وعفارها
ويقول :

أيا قيل إن النار صال بحرهما مقيم صلاة والمهند وارس
وبالرملة الشمشاء شيب وولدة أصابهم مما جنت الدهازس
وقد ظهرت أملاك مصر عليهم قبل مارست من ظلمها ماتمارس
وأحسن منكم في الرعية سيرة طفج بن جف حين قام وبارس
وقد ذكر المعري هذه الحادثات في سقط الزند كذلك ، إذ قال في القصيدة
التائية التي بعث بها الى علي التنوخي بعد رجوعه من العراق :

بيني وبينك من قيس وإخوتها فوارس تذر المكثار سكينتا
ويقول في القصيدة الطائية التي أرسلها إلى خازن دار العلم بغداد وهو محتجب
بعمره النعمان :

وما أذهلتني عن ودادك روعة وكيف وفي أمثالها يجب الغبط
ولا فتنة طائفة عامرية يحرق في نيرانها الجعد والسبط
وقد طرحت حول الفرات جرائنها إلى نيل مصر فالوساع بها تقطو
فوارس طمانون مازال للقنا مع الشيب يوماني عوارضهم وخط
وكل جواد شفه الركض فيهم وج يتنفي أن فارسه سقط
ونبالة من مجتر لو تعمدا بليل أناسي التواظر لم يخطوا

فما هذه الفتن التي ذكرها أبو العلاء ومتى كانت ؟

كانت أمور الشام ولا سيما البلاد الشمالية في أواخر القرن الرابع وأوائل
القرن الخامس مضطربة بين سلطان الفاطميين والامراء المتنبئين من بني حمدان
ومواليهم ومن رؤساء القبائل العربية . وقد استولى صالح بن مرداس الكلاي
صاحب الرحبة على حلب في هذا الاضطراب سنة ٤٠٢ . ثم وقعت خطوب
ودت حاباً إلى سلطان الفاطميين حيناً . فلما قتل نائب الفاطميين عزيز
الدولة سنة ٤١٢ ، وتولى من قبلهم ابن شعبان طمع صالح بن مرداس في
التغلب على نواب الفاطميين خالف اثنين من رموس العرب هما حسان الطائي

وسنان بن عليان الكلبي واففقوا على أن يقتسموا الشام من حلب إلى حدود مصر ، فصارت حلب وما يليها لصالح ، ودمشق لسنان ، والرملة وما يليها إلى مصر لحسان . وذلك سنة ٤١٤ . وقد تقدمت أبيات المعري التي تذكر هذا التقسيم .

هذه حوادث وقع بعضها في العقد الاول من القرن الخامس ومعظمها في العقد الثاني . فهذه الابيات قد نظمت كذلك في هذين العقدين ولا سيما الثاني منهما .

ثانياً — يُذكر صالح بن مرداس في اللزوميات مرات آخر لحادث آخر كان له في نفس المعري أثر باق .

نقل ياقوت عن أبي غالب بن مذهب المعري في حوادث سنة ٤١٧ من تاريخه : « صاحبت امرأة يوم الجمعة في جامع المرة وذكرت أن صاحب الماخور أراد أن يقتصبها نفسها . فففر كل من في الجامع وهدموا الماخور وأخذوا خشبه ونهبوه . وكان أسد الدولة (صالح) في نواحي صيدا فوصل الأمير أسد الدولة فاعتقل من أعيانها سبعين رجلا . وذلك برأي وزيره تادرس بن الحسن الاستاذ . وأوهمه أن في ذلك إقامة للهيبة — قال ولقد بلغني أنه دعي لهؤلاء المعتقلين بآمد وميّا فارقين على المنابر — وقطع تادرس عليهم ألف دينار . وخرج الشيخ أبو الملاء المعري إلى أسد الدولة صالح وهو بظاهر المرة وقال له : مولانا السيد الاجل أسد الدولة ومقدمها وناصحها كالنهار المانع اشتد محيره وطالب برده ، وكالسيف القاطع لان صفحه وخشن حداه . خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . فقال صالح قد وهبهم لك أيها الشيخ . ولم يعلم أبو الملاء أن المال قد قُطع عليهم وإلا كان قد سأل فيه . »

ونقل ياقوت أيضاً عن القفطي أنه وجد على ظهر ديوان الاعشى في مدينة قنط سنة ٥٨٥ ما يأتي : « حكي أن صالح بن مرداس صاحب حاب نزل على معرة النعمان محاصراً لها ونصب عليها المجانيق واشتد في الحصار لاهاتها . فجاء أهل المدينة إلى الشيخ أبي الملاء لمجزم عن مقاومته لانه جاءهم بما

لا قبل لهم به وسألوا أبا العلاء تلافي الأمر بالخروج إليه بنفسه وتدير الأمر برأيه إما بأموال يبدلونها أو طاعة يعطونها ، فخرج ويده في يد قائده وفتح الناس له باباً من أبواب معرة النعمان ، وخرج منه شيخ قصير بقوده رجل . فقال صالح هو أبو العلاء فحيثوني به . فلما مثل بين يديه سلم عليه ثم قال : الأمير أطال الله بقاءه كالنهار الماتع الخ .

وهذه الحادثة ذكرها المعري في موضعين من اللزوميات في حرف الدال المكسورة واللام المكسورة . يقول :

تقيت في منزلي برهة	ستير العيوب فقيد الجسد
فلما مضى العمر إلا الأقل	وحمّ لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعاً إلى صالح	وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام	وأسمع منه زئير الاسد
فلا يعجنني هذا النفاق	فكم نفقت محنة ما كسد

ويقول :

آليت أرغب في قيص مموه فأكون شارب حنظل من حنضل
نحى الماشر من برائن صالح ربّ يفرج كل أمر مُعضل
ما كان لي فيها جناحُ بعوضة والله ألبسهم جناحَ تفضل
فها تان القطعتان نزلتا في حادث وقع سنة سبع عشرة وأربعمائة . والظن أن
نظمه لم يتأخر عن هذا التاريخ كثيراً .

ثالثاً - يذكر الشاعر « محموداً » في مواضع كثيرة يقول :

بذلك محمود وأمثاله طريق خافان وكنداج

أسر إن كنت محموداً على خاق ولا أسر بأني الملك محمود
ما صنع الرأس بالتيجان يمهدها وإنما هو بعد الموت محمود

لا كانت الدنيا فليس يسرني أني خليفتها ولا محمودها

سيموت محمود ويهلك آلك ويدوم وجه الواحد الخلاق

من محمود الذي كرر الماري ذكره وجمله مثلاً في الملوك وقال إنه لايسره أن يكون في منزله ، وإن الدهر سيبتش به كما ببتش بالضعفاء ؟
في تعليقات الطبعة المصرية أنه أمير المعرة إذ ذاك . ولا نعرف من تولى في تلك النواحي ذلك العصر إلا محموداً حفيد صالح بن مرداس . ومحمود هذا تولى الإمارة سنة ٤٥٢ ، وخلع في السنة التالية ، ثم تأمر مرة أخرى سنة ٤٥٤ ، فدامت له الامارة حتى سنة ٤٦٨ . فقد تولى بعد وفاة الماري .

ولا أدري لماذا أثبت الشيخ الميني البيت الاول : « يسلك محمود . . . الخ » اول فصل من كتابه عن الماري عنوانه : « هو ووزير محمود بن نصر بن صالح » . نقل في هذا الفصل مايقال عن تدبير محمود هذا لقتل الماري وخلص الماري بالدعاء . وهي خرافة مروية نقاها الشيخ الميني وقال إن محموداً تولى بعد وفاة الماري كما قلت . فهل الميني ، مع نفيه هذه الخرافة ، يظن أن محموداً الذي في البيت هو حفيد صالح ذكره الماري قبل توليه الملك ؟ لأدري لماذا أثبت هذا البيت في فاتحة هذا الفصل .

والذي أراه أن محموداً الذي أكثر الماري ذكره هو سلطان ذاع صيته في ذلك العصر وضرب المثل بقدرته وغناه ، هو يعين الدولة السلطانية محمود بن سبكتكين فاتح الهند . ولهذا قرنه الماري بالخليفة في البيت : لا كانت الدنيا فليس يسرني أني خليفتها ولا محمودها

والسلطان محمود تولى الملك من سنة ٣٨٧ إلى سنة ٤٢١ . فهذه الايات التي تضمنت اسمه نظمت قبل سنة ٤٢١ ولا ريب لان الماري يذكره ذكر الاحياء ، ويقول : « سيموت محمود . . . الخ » . ويزيد هذا وضوحاً أن الشاعر يقول في اللزوميات أيضاً :

محمودنا الله والمسمود خائفه فمدّ عن ذكر محمود ومسمود
ملكنا لو أنني خيرت ملكهما وعود صلب أشار العقول بالعود
ومسمود هو ابن السلطان محمود استقر له الملك سنة ٤٢١ بعد أن ظفر

بأخيه محمد . وبقى له السلطان حتى سنة ٤٣٢ . وأما السلطان محمود السلجوقي وأخوه مسمود فقد ملكا في القرن السادس الهجري .

رابعا - كان أبو القاسم المغربي الوزير ممن أقام بالمرّة وكان يواد المري ويراسله ، وكان المري يحفظ له ولايته من قبل أيّاده . فلما توفي رئاه بأبيات مثبتة في اللزوميات . ولا أعرف فيها رئاه لغيره أو مدحا صريحا :

ليس يبق المضرب الطويل على الدهر ولا ذو المبالاة المرحاه
يا أبا القاسم الوزير ترحل ت وخلفتي ثقال رحاه
وتركت المكتب الثمينه لنا س وما رحت عنهم بسحاه
ليتني كنت قبل أن تشرب المو ت أصيلا شربته بضحاه
إن يحسبك المنون قبلي فاني متحاسها ولانها متحاه
أم دفر تقول بمدك للذا ثق لا طم لي فأين فحاه
إن يخط الذنب اليسير حفيظا ك فكم من فضيلة محاه
وهذا الوزير توفي سنة ٤١٨ . فهذه القطعة نظمت في هذه السنة .
خامسا - يقول المري :

ألم ترني وجميع الانام في دولة الكذب الذائل
مضى قيل مصر إلى ربه وخلى السياسة للخائل
وقالوا يعود فقلنا يجوز بقدرة خالقنا الآئل
اذا هب زيد الى طيء وقام كليب الى وائل
أظن أن قيل مصر المعنى في هذا البيت هو الحاكم بأمر الله الفاطمي ،
فهو الذي انتظر بعض الناس عودته . والحاكم هلك سنة ٤١١ . فالظاهر
أن هذه الايات نظمت قريبا من هذا التاريخ .

(ب) سن المري في اللزوميات :

يذكر المري سنه في اللزوميات تصريحاً وتلويحاً ؛ تارة يقول بلغت
كذا أو جاوزت كذا ، وتارة يقول : إذا بلغ الانسان كذا آن له أن
يرعوي أو حان له أن يهلك . وقد عبرت اللزوميات مستقصباً الايات
التي يذكر فيها سنه ؛ فاذا هو يذكر الاربعين مراراً ويذكر الخمسين كثيراً

ولا يذكر مادون الاربعين إلا مرة واحدة قدمت الكلام فيها ، ويذكر
السبعين مرة سأثبتها من بعد .

يقول في المحزنة التي افتتح بها اللزومات :
إذا ما خبت نار الشبية ساءني ولو نص لي بين النجوم خباء
أرايك في الود الذي قد بذلته فأضعف إن أجدى لديك رباء
وما بعد مر الخمس عشرة من صبا ولا بعد مر الاربعين صباء

* * *

ويقول :
خير الحياة شرورها وسرورها من عاش مسدة أول المتقارب
وإني بذلك أربعين فإله عذر إذا أسمى قليل تجارب

* * *

ومنى سمرى عن أربعين حليفها فالشخص يصغر والحوادث تكبر

* * *

ورميت أعوامي ورأيت مثل ما رمت المطي مهامه السفار
وركبت منها أربعين مطية لم تخل من عنت وسوء نفار

* * *

شربت سفي الاربعين تجرعا فإمقرأ ما شربه في ناجع

* * *

ويجوز أن تدل هذه القطعة أنه باغ ثمانيا وأربعين :
عش يا ابن آدم عدة الوزن الذي يدعى الطويل ولا تجاوز ذلكا
فاذا بلغت وأربعين ثمانيا فحياة ملك أن يوسد هالكا
ولما ذكر الحسين فأكثر وأصرح :

حياتي بعد الاربعين منية ووجدان حلف الاربعين فقود
فإني وقد أدركت خمسة أعقد أبيني وبين الحادثات عقود ؟

* * *

إذا كنت قد جاوزت خمسين حجة ولم ألق خسرًا فالنية لي ستر
وما أتوقى ، والخطوب كثيرة ، من الدهر إلا أن تحل بي الهتر

إذا طلع الشيب السلم فحيه ولا ترض للمين الشباب المزوروا
لقد غاب عن فرديك خمسين حجة فأهلا به لما دنا وتسورا

وما الميش إلا لجة باطلية ومن بلغ الحسين جاوز غمرها

أخمين قد أفنيها ليس نافعي بتأخير يوم أن أعرض على خمس

لاخير من بمد خمسين انقضت كمالا في أن تمارس أمراضا وأرطاشا

خسون قد عشتها فلا تمش والنمش لفظ من قولك انتمش

علقت بجبل العمر خمسين حجة فقد رث حق كاد ينصرم الجبل

كأنك بمد خمسين استقلت لولدك ، البناء دنا ليهوى
وقد ذكرت الخمسون في ثلاث قطع أخرى ، في حرف الطاء والكاف
والميم . ولم تذكر الستون في اللزوميات قط . وجاء ذكر السبعين في قوله :
من عاش سبعين فهو في نصب وليس في الميش بعدها خيره
رجحنا أن أبا العلاء شرع ينظم اللزوميات بمد رجوعه من بغداد كما
قلت آنفا . وقد عرفنا أنه ذكر سن الاربعين والخمسين كثيرا ولم يذكر
الستين قط على برمه بالحياة وتمجده الموت — ولو بلغها وهو ينظم اللزوميات
لاكثر ذكرها — فساغ أن نقول إن الرجل نظم اللزوميات من سن الاربعين
إلى أن يموت على الخمسين . وأما السبعون فأغلب الظن أنه لم يمن بها نفسه .

وإن قدرنا أنه المعني بها فقطعة أو قطع قليلة نظمت بعد وألحقت بهذه المجموعة التي نظمت كلها أو جلها في السن التي قدّرت .
ويؤيد هذا أن الحوادث التي ذكرها وقعت كما بينت في أوائل القرن الخامس ولم تتأخر عن سنة ٤٢٠ . وكذلك الرجال الذين ذكرهم أحياء كصالح بن مرداس ومحمود بن سبكتكين ماتوا قريباً من هذا التاريخ .
وقد روى الوزير المغربي الذي توفي سنة ٤١٨ . وأشار إلى وفاة الحاكم بأمر الله وقد توفي سنة ٤١١ . فكل حادثة مؤرخة نجدها في اللزوميات تقع في العشرين الأولى من القرن الخامس . وكل رجل ذكره الشاعر ذكر الأحياء هلك حول هذا التاريخ : صالح مات سنة ٤٢٠ ، ومحمود مات سنة ٤٢١ .

وأما مسعود بن محمود الذي تولى سنة ٤٢١ فقد ذكره مرة مع أبيه ولم يعد إلى ذكره . فهو لم ينظم في أيام مسعود بعد هلاك محمود ، أو لم ينظم إلا نادراً .

وأعزّز بأمر يستأنس به مضموماً إلى الأدلة السابقة ، أن أبا الملاء ذكر في مواضع من الكتاب أنه لم يشب ، وزعم أنه كان جديراً بأن يشيب ، وأنه لا يبره بقاء شعره أسود . يقول :

ويحمل الهم قلبي معنياً جسدي رأسي أحمر وظهري غير مناطر

* * *

غرك سود الشعرات التي في الوجه مني وأنا الدالف
كلفتني شيمة عصر غنى هيات منك العصر السالف

* * *

يا مفرقي هلا ايضضت على المدى فما سرني أن بت أسود حالكا
قبيح بفود الشيخ تشبيه لونه بفود النقي والله يعلم ذلكا

* * *

تأخر الشيب عني مثل مقدمه على سواي ووقت الشيب ما حضرا

* * *

ثم ذكر في مواضع كثيرة لا تقل عن عشرة ، شيب رأسه وبياض شعره ،
مثل قوله :

نمنا على الشيب فهل زارنا طيف لأصل الشرخ متتاب

* * *

كانت مفارقُ جُون كأنها ريشُ غُربه
ثم انجلت فمجبنا للقمار بُدُلَ صُربه

* * *

أأذهب فيكم أيام شبي كما أذهبت أيام الشباب

* * *

قد شاب رأسي ومن نبت الأثرى جسدي فالتبت آخر ما يقتضوه به الزهر

* * *

أيها الشيب لا يريك من كفي مقص ولا يواريك خطر

إن نهيت النفس اللجوج عن الإثم وطابت فإنما أنت عطر

فقد نظمت اللزوميات وشعره أسود ، ثم استمر النظم حتى شاب .
وهذا يلائم السن التي ذكرتها والتاريخ الذي حددته . ولو أنه نظمها قبل
الأربعين لما ذكر الشيب ، ولما استبطأه . ولو نظمها بعد الخمسين لما ذكر
المفرق الحالك والشعرات السود . ولا يجوز أن يدعى أنه نظم قبل الشيب
واستمر ينظم حتى مات ، وسن الشيب متصلة بالموت . فقد دلت الأدلة الأخرى
على أنه لم يستمر في النظم طول عمره .

ويمكن أن يقال : إن كان أبو الملاء فرغ من نظم اللزوميات أو كاد
حين بلغ الخمسين فكيف ذكر الكبر متبرما ، وطول الثواء متمللا ، وذكر
دنو الاجل وقرب الرحيل ، وسقوط الاسنان ، في مثل قوله :

طال الثواء وقد أتى لفاصلي أن تسبق بضما صحراؤها

* * *

وما زال البقاء يرث جبلي إلى أن حان للعرس انقطاع

* * *

أعلل مهجتي ويصيح دهري ألا تغدو فقد ذهب الرفاق

* * *

تخلفت بعد الطاعنين كأنهم رأوك أخا وهن فما حملوكا

* * *

أيتها النفس لانهالي شرخي قد مر واكتهالي
لم يبق إلا شفا يسير 'قرب من موردي ينهالي

* * *

فهي أخذت منه الليالي وإنني لاشرب منه في إناه مثل

* * *

رب متى أرحل عن هذه الد نيا فاني أطلت المقام
هذه الايات وأشباها تصدر عن الشيخ م ، بلغ أرذل العمر ، وذهب
جيله وبقي وحده . ولكن الميري له شأن آخر ، فهو يرم بالحياة في
عنفوانها ويقول :

شربت سني الاربعين تجرعا فيا مقراً ما شربه في ناجع
وبرى ان الحياة بعد الاربعين موت ، والوجدان فقد .
حياتي بمسد الاربعين منية ووجدان حلف الاربعين ففود
فشكوى أبي العلاء من الضعف ، وهتافه بالموت ، وبرمه بالحياة لا يدل
كل حين على الشيخوخة أو الهرم .
وأما قوله :

فهي أخذت منه الليالي وإنني لاشرب منه في إناه مثل
فسقوط الأسنان كثيراً ما يعرض في السن التي قد رت أنه نظم فيها الكتاب .
وقد ذكر سقوط أسنانه في رسالته إلى أبي الحسن بن سنان ، وقد تقدم
إليه باختصار كلية ودمنة بأمر عزيز الدولة . وعزيز الدولة قتل سنة ٤١٢ ،
ولما يبلغ أبو العلاء الحسين .

المبحث الثاني

ترتيب اللزوميات

- ١ -

وضع أبو العلاء خطة هذه المظلومة متكلاً فيها ثلاث كلف كما قال في المقدمة :
أن يلتزم في قوافيه حرفاً لا يلزم ، وأن ينتظم حروف المعجم كلها ، أن
يستوفي في كل حرف الحركات الثلاث والوقف .

وقد تبين من تاريخ الحوادث التي ذكرت في هذا النظم وون تاريخ
الرجال الذين ذكرهم ومن الأسمان المختلفة التي ذكرها أن الترتيب الهجائي
لا يسير الترتيب الزمني . أنظر إلى روي الأبيات التي أثبتنا فيما تقدم ، وإلى
تاريخ الحوادث التي تتضمنها والأسمان التي تذكر فيها تر هذا واضحاً . فلا
يسوغ أن نظن أن قطعة على روي الباء مثلاً ينبغي أن يتقدم تاريخها على قطعة
في حرف الميم ، وينبغي ألا ينظر إلى الترتيب الهجائي في تتبع آراء أبي العلاء
في لزومياته .

- ٢ -

ودليل آخر : أن كثيراً من القطع المتوالية تتفق في الموضوع أو تتفق
في الوزن والقافية بل تتفق في كلمات القافية أحياناً . فلو أنه نظمها ولاء لم
يكن للفصل بينها وجه ، وكان يلزم أن تكون قطعة واحدة ، ولو نظمها
قطعة متوالية لم يُعجز لنفسه أن يكرر فيها القوافي والمعاني ، فليس الفصل
بينها إذاً إلا بأنها نظمت في أحيان مختلفة ثم جمعت .

أنظر إلى هاتين القطعتين ، وهما متواليتان على الميم المضمومة :

المقل يخبر أنني في لجة من باطل وكذاك هذا العالم
مثل الحجارة في المظلات قلوبنا أو كالديد فليتها لا تالم
ويليها :

لم تلتق في الأيام إلا صاحباً تأذى به طول الحياة وتالم
وئيمد كونك في الزمان بلية فاصبر لها فكذلك هذا العالم
ويقول من قطعة في حرف القاف :

مرازب كسرى ماوقت مهجة له وقيصير لم يمنع رداء الطارق
وفي قطعة تليها :

وهل أفلت الأيام كسرى وحوله مرازبه أو قيصير وبطارقه
فلو أن القطعتين نظامتا ولاء ما كرر هذا المعنى .

وأما القطع المتوالية المتفقة في الوزن والقافية ، والروي وحركته أو
سكونه فكثيرة لا تحوج الى التخييل هنا . والامر كله أئين من أن يطل
فيه الكلام .

- ٣ -

وهنا نسال : إن كان أبو الملاء لم ينظم على ترتيب الحروف والحركات
فكيف ضمن الوفاء بما التزم من استيعاب الحروف وحركاتها ؟ إن كان قد
نظم على الروي والحركة اللتين تعنان له دون أن ينتقل من حرف إلى ما يليه
ومن حركة إلى ما بعدها فكيف استوعب الحروف والحركات ؟
لنا أحد فرضين : إما أن الرجل كان يأمر كاتبه أن يثبت كل حرف
في فصل على حدة ، وكان يستعيده قوافي هذا الفصل فيكمل نقصه حتى
كملت الحروف والحركات . وإما أنه جعل الكتاب كله مجموعة واحدة على
غير تفصيل ، وكان يقصد إلى تغيير الحروف كل حين على غير ترتيب .
فلما اجتمع له مقدار كبير من المنظوم رتبته وأكمل نقصه . وبهذا يُشعر
قوله في المقدمة : وهذا حين أبدأ بترتيب النظم .

ونحن نجد في الكتاب قطعاً نظن أنها لم تنظم إلا لضرورة هذا الاستيعاب
فائناء المفتوحة ، والذال الساكنة ، والفاء المضمومة ، والطاء الساكنة ،
والماء الساكنة ، لم ينظم في كل منها إلا بيتين اثنين وهما أقل ما ينظم
لإنفاذ خطته . وقد قال هو هذا في آخر المقدمة .

- ٤ -

نظم أبو الملاء ملتزماً ما لا يلزم ، ومستوفياً الحروف وحركاتها ، ورتب
كتابه على الحروف وعلى حركات كل حرف ، وقال في آخر المقدمة :
« وهذا حين أبدأ بترتيب النظم وهو مائة وثلاثة عشر فصلاً ؛ لكل

حرف أربعة فصول . وهي على حسب حالات الروي من ضم وفتح وكسر وسكون ، وأما الالف وحدها فلها فصل واحد ، لأنها لا تكون إلا ساكنة . وربما جئت في الفصل بالقطعة الواحدة أو بالقطعتين ليكون قضاء لحق التأليف . وبالله التوفيق .

وقد أدركت أنا بالتأمل في فصول اللزوميات ، ترتيباً آخر لم ينبه إليه المرعي . وهو يسر على الباحث عن الإبيات في الكتاب ، زيادة على التيسير بترتيب الحروف والحركات . ذلك أن الأوزان في كل فصل مرتبة على ترتيب الدوائر والأبحر عند العروضيين .

ف نجد البحر الطويل في الفصل مقدماً على غيره ، والمتقارب مؤخراً عن غيره ، والأبحر بينها على ترتيبها . وليس معنى هذا أنه استوفى في كل فصل الأبحر الخمسة عشر ، بل المعنى أن ما يوجد من الأوزان في فصل يلتزم فيه الترتيب .

فالذي يبحث عن قطعة أو بيت على الراء المفتوحة — مثلاً — لا يلزمه ، إذا عرف الوزن ، أن يبحث في أبيات الراء المفتوحة كلها ، بل يطلب البحر الذي فيه وزن القطعة أو البيت في موضعه من الراء المفتوحة . وذلك يسير إذا عرف ترتيب الأبحر في العروض وهو أمر آثم .

* * *

هذا ما بدائي في تاريخ اللزوميات وترتيبها ، فمن بداله ما يؤيد رأيي أو ينقضه ، فليفضل مشكوراً بالأدلاء برأيه والإبانة عن حججه . وكنت همت أن أتبع هذا البحث بنظرة شاملة في موضوع اللزوميات وترتيب أمهات الآراء فيها سلسلة ، ولكن عدائي عن هذا طول البحث وتجاوزه الحد الذي يحده ضيق الوقت وكثرة المتكلمين في حفلات أبي الغلاء . ولعلي أضمه إلى هذا البحث من بعد ليكونا بحثاً بجمعاً جامعاً مستوعباً اللزوميات : تاريخها وترتيبها وموضوعها . وبالله التوفيق .

عبد الوهاب عزام

شَبِغُ المِمرَةِ والشَّبِغُ الدِّرَا

موضوع كلتي ايها السادة لا يتعلق بأبي الملاء نفسه . وإنما يتعلق بوصف كتاب مخطوط دمشقي له علاقة بآثاره . وتفسير أشعاره . وهو موضوع على قلة شأنه بالنسبة إلى موضوعات الافاضل الذين تكلموا في هذا المهرجان الالفي — فيه جدوة تسوَّغه . ونسبة دمشقية تروَّجه . وشي من مفاجأة يشفع به . على أن موائد العلم كموائد الطعام . لا تستطاب ما لم تعدد ألوانها . وتبائن طموها . ويجد كل من الآكلين ما يلذ له منها . وإن كان شاعر بني عبس شكاً شعراء زمانه الذين لم يفادروا له متردماً برؤيته فإن المتكلمين من خطباء وشعراء في هذا المهرجان تركوا لي — من فضلهم وعن غير اختيار منهم — متردماً رثقته . وشتاتاً لمته . وخبراً من أخبار أبي الملاء . جئكم به أمشي على استحياء .

إذا وازنا بين ما تركه لنا أبو الملاء من ثروة في أدبنا العربي وبين ما تركه غيره من أدبائنا الاقدمين وجدنا بطل مهرجاننا قد تقدمهم . وأبرَّ عليهم . وكان له سبق خاصة في ثلاث خصال :

(١) أخطأته المبتكرة في المعاني .

(٢) أسلوبه القصصي^(١) في إيراد أبحاثه اللغوية والادبية .

(١) هنا موضع التساؤل أو التعجب من أبي الملاء في وضعه طائفة من مصنفاته في شكل حكاية أو حوار خيالي بين عدة أشخاص أو بين الطير والحیوان واللائكة أحياناً : فن تصفح اسماؤه اكتشف التي صنفها علماء طاشوا في زمن أبي الملاء وقبل زمنه وبعد زمنه لم يجد فيها ما يجده في مصنفاته هو من هذا الأسلوب الخيالي : فبين مصنفاته [أدب الصغورين] [مُخطب الجبل] [رسالة الضمير] [رسالة على لسان ملك الموت] [جمع الخائم] [الصاهل والشاحج] [كتاب القاص] قالوا انه على مثال كتاب كلية ودمنة [رسالة النفران] [رسالة اللاشك] —

(٣) نقده الجريء لأفطام الاجتماعية الفاشية في زمانه .
على أن آثار أبي العلاء ليست كلها سواء في حسن السياقة . ولا في
قرب تناول . ولا في الفائدة والامتناع : فسقط الزند شعر ولا كاللزميات .
والفصول والغايات ثر ولا كرسالة الغفران . حتى أن أبا العلاء نفسه كان
يأنف من نسبة أشعار (سقط الزند) إليه . أو أن تقرا عليه . أو أن
يتمثل بها لديه . وكان يسمى سقط الزند (ديوان الصبي) بينما كان يسمى
شرحه على اللزوميات (راحة اللزوم) .
ومن بين هاتين التسميتين يمكننا أن نستخرج اعتراف أبي العلاء نفسه
ببداعة لزومياته . وتختلف ما عداها .

— وهي على شكل رسالة الغفران غير أن رسالة الغفران أوسع منها خيالاً . وأتم امتثالا . وله
كتاب باسم [نظم السور] وهذه التسمية تشير بأن سور القرآن تشاكي وتظم من بعض
النبي . كل هذه الصفات مما وضعه أبو العلاء . وهي تدل على أن له ميلاً خاصاً أو ذوقاً خاصاً
في فن القصة لم نهد في غيره من عباقرة المؤلفين الذين عاشوا في زمانه ومثل بيئته فمن ورت
هذا الليل يا نرى ؟ وكيف نرب الى نفسه ؟

نعم ان شروط فن القصة في آثاره الخيالية هذه لم تتوفر بتمامها فيها لكن نواتها قد وجدت
فيها مستوحاة من طبع أبي العلاء وغريزته البصرية .

يخطر لي أن هذا الليل في أبي العلاء ان لم يكن نرب الى طبعه من القرآن الكريم قد نرب
اليه من الفرس فقد كان له « كما يظهر من ترجمته ومجموع أخباره » زوار وخلفاء . وثلايد
منهم : أشهرهم الخطيب التبريزي وكان تلميذاً له ويظهر أن المرة كانت إلى عهد قريب منزلاً للعجاج
والزوار الإيرانيين يقصدونها لموقعها من طريقهم ولاثر في جامعتها منسوب الى سيدنا الحسين .
ومن أشهر من زار المرة في زمن أبي العلاء من الفرس « ناصر خسرو » الرحالة الفارسي
الظيم وقد وصفها ووصف أبا العلاء في رحلته التي سنها [سفرنامه] فلا جرم أن يكون أبو العلاء
— وهو الذي الألمي الترفيف اللذيق — عرف من هؤلاء الطراة الفارسيين شيئاً ولو قليلاً
من أدب الفرس وتخييلات شعرائهم وأملوهم القصصي في مصنفاتهم . وما نلس لا نلس [كلبه
ودمنة] و [شهنامه الفردوس] . ومن كان في ذلك أبي العلاء لا يعوزه لاجل التأثر والمحاكاة
أكثر من هذا التبلل حتى تقيض غريخته بالكثير مما كان على غمطه ومضروباً على غراره . ويمكن
أن تدق مقامات البديع الهذلي من جهة الآثار الخيالية التي تأثر بها منها أبو العلاء : فهي
— وان كانت عربية في مولدها — فارسية في محتدها . إذ أن البديع فارسي الدرق : كان
يقيم بهرات ومات فيها . وكان ماضراً لأبي العلاء : جميعاً رديم الشباب وطاش المرمرى بعده
أكثر من نصف قرن .

إذن يصح القول بأن أبا الملاء ليس سوى لزومياته : فهي التي لم يفر فيها قريحته أحد . ولم يُلهم في عميق تفكيرها إلهامه أحد . بل هي التي سجلت له حق الخلود من جهة . وكشفت لنا عن أسرار مجتمع زمانه من جهة أخرى . وقد نبهنا هو نفسه إلى صنيعة هذا مذ قال :

(ومن تأمل أقوالي رأى جملاً يظل فيهن سرّ الناس مشروحاً)

وهل يريد بسر الناس إلا ما نريده بقولنا : (أسرار المجتمع) (أسرار الوجود) (نواميس الاجتماع) (طبائع العمران) .

ومن مواضع العجب أن أحداً من فحول العلماء لم يتصدّ للزوميات فبشرحها كلها (١) شرحاً يستوعب فيه جميع ما دفن فيها من كنوز . واستتر تحت ذيلها من رموز .

ولو تصدى متصدّر إلى شرحها على النحو الذي وصفنا لمتحدثنا من واسع علمه (دائرة معارف) تحيط بثقافتنا العربية الاسلامية من جميع جهاتها . ولكن هذه الاحاطة تحتاج إلى عيل (انسكلوبيدي) عام في مناحي علمه . شامل لكل فن ومطلب في اتساع ذروعه . وعمق تفكيره . ولا ندري ان كان أمثال هؤلاء الميالم تركوا شرح اللزوميات تهيئاً للعمل ؟ أو تأثماً من العمل ؟ لا جرم أن في اللزوميات ما يتفعل منه الورع المتزمت . ويقطب عند سماعه المسلم المتشدد . أما دبوان (سقط الزند) فلا يكاد يوجد فيه والحد لله ما يحول بين المرء وقلبه . أو يلقنه الشك في ربه . ولذا كثر شراح السقط . وقل أو فقد من شرح اللزوميات .

(١) بلتنا أخيراً أن قد شرح بعضها أبو عبد الله الطليوسي . ويوجد من شرحه هذا بعض أوراق في المكتبة التيمورية بالقاهرة . وبعض قصائد من الذوح المذكور في مكتبة الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب في تونس .

وعلى قاعدة (ازهد الناس في العالم وأهله وجيرانه) زهد الجيران والاقارب
في وضع شرح على السقط : أولئك الجيران والاقارب الذين عنانهم أبو الملاء
بقوله في (سقط الزند) :

(أخواننا بين الفرات وجلّاق يدّ الله لا خبرتكم بحال)

وقام الابعاد يشرحونه . ويتفننون في التعليل عليه . وإيضاح ما خفي
منه : فشرحه التبريزي والرازي والخوانساري^(١) والايوردي والواحيدي والاحسيكي
والخوارزمي^(٢) وهؤلاء كلهم مشارقه . وربما كانوا أعاجم أيضاً . وشرحه
من المغاربة الاندلسيين القادسي والبطلوسي^(٣) ،

ونسأل الجيران عن سبب زهدهم في شرح ديوان جارم . فيجبنا الاستاذ
عباس الفزاوي البغدادي عضو مجمعنا العلمي بأن لديه شرحاً للسقط أتمه
سنة ١٢٧٧ هـ أحد أدباء العراق : وهو ابراهيم فصيح الحيدري البغدادي
وسماه (نفح الرند) وقد قرظ هذا الشرح أمين أفندي الجندي مفق دمشقي
الشام . وأسرة الحيدري أسرة علم في بغداد كانت . أما اليوم فمن أبرز شخصياتها
السياسيين معالي (داود الحيدري) وزير العراق المفوض في لندن .

وأتم يا علماء القطر الشامي ؟

يجيبنا صاحب كشف الظنون بأن ابن الرازي الحوي (المتوفى سنة ٧٣٧ هـ)
له شرح على سقط الزند .

وأتم يا أقرب الجيران : يا علماء دمشق الماضين الذين قال أبو الملاء في
بلدكم : (دمشق عروس الشام الموموقة . وواسطة عقدها الموموقة) ها أتم
أولاء ترون مبلغ عناية أحفادكم دماشقة اليوم بتكريم أبي الملاء في مهرجانه الألفي .
أما لكم فيه أثر ؟ أو لديكم عنه خبر ؟

فيجبنا شيخان دمشقيان متعاصران ومتقاربان في الوفاة : (يوسف البديهي)

(١) وشرحه يسمى (التنوير) وهو مطبوع في الهند سنة ١٢٧٦ هـ ثم طبع في مصر سنة ١٢٨٩ هـ .

(٢) وشرحه يسمى (غرام السقط) وهو مطبوع على هامش طبعة التنوير الهندية .

(٣) قال بروكلمان أن شرح البطلوسي قد طبع أيضا .

و (محمد بن نووالدين ^(١) الدر) . يقول لنا الاول : إنه ألف في أخبار أبي الملاء كتاباً سماه (أوج التحري) (وهو الذي طبعه المعهد الافرنسي بدمشق . ووزعت نسخته خلال أيام مهرجانه الألفي) فنقول للبديهي لا يزيد هذا وانما يزيد شرحاً لسقط الزند . فيهمهم إذ ذاك الشيخ الدرا وسمعنا صوته الميب من وراء برازخ الاموات قائلاً : انني وضعت شرحاً على ديوان سقط لزند الذي نظمته عروس مهرجانكم في مجلد تزيد صفحاته على خمسمائة صفحة . وفرغت من تأليفه سنة أربع وستين بعد الألف للهجرة . فيكون قد مر على ولادته إلى يومكم هذا ثلاثمائة سنة كاملة وبذلك أستحق أن يقام له مهرجان صغير بجانب المهرجان الألفي الكبير . وافتتحت مقدمته بقولي : (نحمدك يا من شرح صدر من بصره بنور الهداية . فارتسم في ديوان حضرة الولاء . وطمس على بصيرة من حذره غرور الغواية . فأخذ إلى الارض وأبي الملاء) . إلى أن قلت في سبب وضمي للشرح المذكور ما خلاصته : إنني كنت مولماً بديواني ^(٢) (ابن الفارض) و (أبي الطيب) كما كنت حريصاً على أن أنقشهم مما في اشعار (أبي الملاء) في ديوانه (سقط الزند) . وقد صعب عليّ تفسير طائفة كبيرة منها . حتى علقت في الكف نسخة من الديوان عليها هوامش . فاستعنت بها في وضع شرحي هذا . معاً أنا فيه من القرية في مدينة جدة حاجباً . وكتبي اللغوية بعضها في بلدي دمشق . وبعضها الآخر في الديار المصرية . وقد ترددت أولاً في الشروع حتى رأيت في المنام مولانا الشريف (زيد) ابن محسن ^(٣) وكان من سعادة تلك الرؤيا تقبيلي لراحته . فألهمت أن أخدم خزانة كتبه بهذا الشرح . ففعلت . وقدمت بين يدي خدمتي قصيدة مدحته بها . وجملت عدتها أربعة وستين بيتاً بعدد ما زاد على الألف من تاريخ نظمها الذي كان سنة أربع وستين بعد الألف ومطلعها :

(خذ عين الحلى ثم بدور طلعت في دجا الشعور متبر)
(كل بدر يقبله غصن بان مشعر بالدلال للث نصير)
(فقدت قلبها المناطقي فيه فهي حيرى على الخصور تدور)

(١) وفاة الشيخ الدرا كانت بدمشق سنة ١٠٦٥ هـ . وفاة الشيخ البديهي ببلاد الروم

سنة ١٠٧٣ هـ .

(٢) راجع ترجمته في تاريخ الهي الدمشقي جز ٢ ص ١٧٦ .

قال : وكنت سميت شرحي (سقط العقيان والحلى لعروس ديوان أبي الملاء) .
ثم رأيت في المنام أنني أستفدح زنداً . واستصبح منه كزندا . فميرت
ذلك بأن أسميه (ضوء الفند^(١)) من سقط الزند) .

قال : وقد خطر لي أن أرتب قصائد الديوان على حروف المعجم بمد
أن أدمج فيها الدرعبات وأجعلها ديواناً واحداً — خلافاً لترتيب نسخه المتداولة
في أيدي الناس — ثم شرعت في العمل فقلت : قال أبو الملاء احمد بن عبد الله بن
سليمان المعري نسبة إلى المعرة وهي قرية من قرى دمشق الشام) إلى آخر ما قال المؤلف .
اقول : جعل المؤلف (معرة أبي الملاء أو معرة النعمان) من قرى
دمشق أمر مشكك : ويمكن تأويله بأن المعرة كانت في زمن المؤلف من
ملحقات حماة . وحماة من أعمال دمشق فتكون المعرة من قرى دمشق .
أو أن الناسخ أخطأ : أراد أن يكتب (حلب) فكتب (دمشق) . وهو
الاقرب . ومن المستبعد جداً أن يكون (الشيخ الدرا) أراد بمعرة أبي الملاء
معرة صيدنايا التي هي من قرى دمشق . نستبعد هذا لانه جهل مطبق .
لا يتفق مع فضل المؤلف المحقق .

هذه أمها السادة خلاصة ما قاله الشيخ الدرا في مقدمة شرحه . ثم ذكر
في خاتمته أنه آمنه في خلال تسعة أشهر . وأنه يبض منه أربعة كرايس
ورجع إلى وطنه دمشق . فتوفي في السنة التي بعدها (أي سنة خمس
وستين بعد الألف) ودفن في جبانة باب الصغير . وبقيت مسودات الشرح
مهمة مدة ثلاثين سنة . حتى قام ابن أخت المؤلف (عبد الحق بن علي الدرا)
فبيض المسودات بياضاً كاملاً . وذلك سنة خمس وتسعين بعد الألف .

والهجي في تاريخه^(٢) (خلاصة الأثر) ترجم للشيخ الدرا ترجمة حسنة وأثنى
عليه . وقال إنه كان من أبيل أبناء وقته فاضلاً شاعراً بمنع المحاضرة قرأ

(١) الفند معناه الشمع الذي يستضاء به وهو لفظ لا تعرفه العرب بهذا المعنى وربما كان
سريانيا . وقد كُتبت فيه مقالا مسهباً نشرته مجلة المجمع العلمي العربي (مجلد ١٧ من ٥٧)

(٢) جز ٢ ص ٢٤٩ .

المريسة على النجم الفزي وحضر دروس الشيخ عبد الرحمن العمادي فتفوق وشاع فضله ورحل إلى القاهرة مراراً . وأخذ عن الشيخ سلطان ومن عاصره من العلماء . ومدح من ساداتها الشيخ محمد البكري الصديقي بقصيدتين :
مطلع الأولى :

(خليلي خطا بالكاتب من مصر سقاها وحياها المريع من القطر)
ومطلع الثانية :

(من لقلب من الهوى لا يُفنى عيون إنسانهن غريق)
ويظهر أن مخطوطة مكتبتنا هي التي كتبها عبد الحق ابن أخت المؤلف . وربما كانت وحيدة لا ثاني لها : فقد سألت عنها كبير آل الدرا في دمشق فقال إنهم يسمعون بها ولم يرو لها أثراً . وراجعت فهارس دار الكتب الظاهرية . ودار الكتب المصرية فلم أظفر بذكر لها . وقد كتبت على ظهر المخطوطة هذه الجملة : (إن هذا الشرح أحسن شروح الديوان) أما كيف وصلت هذه المخطوطة إلينا في طرابلس الشام فيمكن استنتاجه مما يلي :

يوجد في الصفحة الأربعين من المخطوطة هامشة نحوية بخط أديب كبير من أدباء دمشق هو أحمد بن الياس الكردي . وقد وقع عليها وأرخ بجانب التوقيع سنة كتابتها بمائة وثلاث وتسعين بعد الألف .
وأحمد الكردي هذا من عيون شعراء الشام في القرن الثاني عشر . ترجم له المرادي في تاريخه (١) وقال : إنه كان يلقب بالارجاني (٢) الصغير وبالقاموس الماشي . وهو الذي وصف السفينة وصفاً أبدع فيه كل الإبداع وذلك يوم ركبها إلى مصر القاهرة بمدح واليها محمد باشا الشهير بالراغب ومطلعها

(١) سلك الدرر جزء ١ ص ٨٢ .

(٢) تشبهاً له بالارجاني الكبير وهو لقب القاضي ناصح الدين أبي بكر أحمد المتوفى سنة ٥٥٥ هـ وربما كان السبب في أنهم شيوخه به إبداعه في وصف السفينة كما أبدع الارجاني في وصف الشمة في قصيدته التي مطلعها :

(غمت بأمرار ليل كاد يحثيها وأطاعت قلبها لناس من فيها)

ثم سرد أوصافها إلى أن قال :

(صفر غلاتها . حر عصاتها سود ذوائبها ييض ليلها)

(هذي 'مناي' بلغت لاوانها فالحمد للافلاك في دوراتها)
ومنها :

(النيلَ أيتها السفين فليس لي في فارس أرب ولا أرجلها)
(فتر شني من ثمر 'دمياط' المنى لا ظل ذلك الشب من بوانها)
قال المرادي : ونزل أحمد الكردي طرابلس الشام وتزوج بها وحصل له بعض وظائف . ثم غادرها إلى حلب موافياً صديقه الوزير راغب باشا المذكور حينما جاء والياً . فمات فيها سنة تسع وتسعين ومائة بمد الألف للهجرة . أما كنبه فيظهر أنها يمت في طرابلس . ومن جملتها مخطوطة الدرا التي قلنا إن عليها هامشة بخط أحمد الكردي فوقت إلينا منذ ذلك التاريخ . وخط هذه النسخة جيد واضح . والأبيات وحدها مكتوبة بالهجرة . غير أن فيها طائفة من الأغلاط . لأن ناسخها على ما يظهر لم يكن متمكناً من العربية وآدابها .

وقد بارضت النسخة بشرحي (الخوي) و (الخوارزمي) فإذا فيها آثار كثيرة من شرح الخوي المسمى بالتنوير : مما يدل على أن النسخة التي ظفر بها المؤلف الدرا في جدة كانت هوامشها مستقاة من شرح (الخوي) .

وللشيخ الدرا استظهارات أو نقول آراء شخصية لم نجدها لغيره من الشراح مثال ذلك ما قاله في شرح بيت المعري :

(ورأني أمامُ والامام وراء إذا أنا لم تكبرني الكبراء)

فهو بعد أن أطال في المعنى المراد من قوله : (ورأني أمام والامام وراء) ونقل جميع ما قاله غيره من الشراح قال : (وثم معنى آخر يحتمله التركيب : وهو أنه أطلق وراء والامام وأراد بها مظلوفيهما : الموت والحياة . مجازاً مرسلًا : إذ أن أمل الانسان جهة أمامه واجله من خلفه . وحقيقة المعنى حينئذ : إذا لم تعرف قدرتي الظلاء فموتي حياة وحياتي موت . قال وهذا الاحتمال أنسب بمواقع كلام أبي الملاء كقوله (فيا موت زر إن الحياة ذميمة) .

وقال بعد أن شرح قول أبي العلاء :

(بود أن ظلام الليل دام له . وزيد فيه سواد القلب والبصر)
مانصه : (وإذا تأملت غوى هذا البيت رأيتك كالهادم لاركان البيت
السابق ما لم يتكلف له) . والبيت السابق هو قوله :

(ماسرت إلا وطيف منك بصحبي سرى أمامي وتأوياً على أنري)
وهكذا نرى للمؤلف استظهارات أو مبادهاات من رأيه الخاص لم نرها لغيره .
وإذا رأى الشيخ الدرا شيئاً لم يعجبه من شعر شيخ المرة لا يبالي أن
يلزّه وينال منه . ففي قول أبي العلاء :

(حلباً يملأ الجفان سديفاً يَرعب النساليات بالترعيب)
شرح الشيخ الدرا معنى هذا البيت ثم قال : (قعاقع ماتحتها طائل)
وبعد أن شرح قوله :

(مستقي الكف من قلب زجاج بغروب اليراع ماء مداد)
قال : ولممرى إن الذوق لينبو عن هذه الاستعارات .

ولقد لحنا من خلال شرح الشيخ الدرا أنه من الشيوخ الذين يسيئون
الظن بشيخ المرة خلافاً للبديعي مؤلف (أوج التحري) فإنه كان يحسن الظن
به . ولعل المعاصرة بين ابني البلد الواحد الدرا والبديعي هي التي أدت إلى
اختلاف وجهة النظر في أبي العلاء ثم انتهت بهما إلى وضع تأليفيهما . على أن
الشيخ الدرا ما كان يشير إلى رأيه الذي في أبي العلاء إلا في الندرى :
مثال ذلك أنه بعد أن شرح قوله :

(وإني وإن كنت الاخير زمانه لآت بما لم تستطه الاوائل)
قال : (وقد أحفم بحرف واحد ورد الله بده في فيه) يشير بقوله :
(أحفم بحرف واحد) إلى قصة الغلام الذي اعترض أبي العلاء قائلاً : آنت
الذي قلت : (وإني وإن كنت الخ . . .) قال نعم . قال إن الاوائل وضموا للهجاء
تسعة وعشرين حرفاً فزد أنت عليها حرفاً واحداً إن قدرت . فسكت مفعلاً .

وأقام الشيخ الدرا التكبير على شيخ المعرة مذقال في رثاء الفقيه الحنفي أبي حمزة :
(واحد يؤواه الا كفان من ورق المصحف كبراً عن أنفاس الأبرار)
فتأنف الشيخ الدرا من هذا الغلو وودف صاحبه بما لا يرضي أنصاره
وربما حكم عليه بأشد مما وصف .

* *

حقاً إن عقول المفكرين من البشر لم تقف في الحكم على أحد من البشر
موقفها من شيخ المعرة : حتى كانوا فيه طوائف ثلاثاً : طائفة جعلته من أصحاب
اليمين . وطائفة جعلته من أصحاب المشأمة . أما الطائفة الثالثة فهم الحارون
في أمره . المتوقفون عن تقرير مصيره . ويوشك أن يكون أبو العلاء عني
نفسه وهذا الفريق الثالث عندما قال :

(والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد)
فهو هو الانسان الذي استحدثه خالقه من جماد . وجمع فيه ما تشقت
من ذكاء العباد . وأودعه ماشاء من النقائص والاضداد .

* *

وقد قلت :

أبو الملا لغز غدا حله	معضلة سعي بها العالمون
كم بات في أمر الوري حائراً	والناس في حيرته (١) حارون
فقاتل : حيرته عن مهدى	وقاتل حيرته عن مفتون
وقاتل : مخبل عن خلوة	لا مطم فيها غير مبلس وتين
وقاتل : شكك راهب	فكان في الشك زوال اليقين
وقاتل : ضل فلم يهتد	لرشد : فهو من الاخسرين
لكنما الجنسية مفتاحها	في يد ربي لا يد القائلين

المعري

(١) وأشر قولاً له دل به على حيرته - هذا البيت :

(ويمنري النفس إنكار ومعرفة وكل معنى له نقي وإيجاب

دين أبي الملاء

إذا حاول الانسان أن يتكلم في أبي الملاء وجد مجالاً واسعاً للقول لأن في شعره أبياتاً رائعة في كل غرض من أغراض الشعر وفي نثره آيات بارعة لا تقل عن شعره في الجودة ولكن الناس نسوا أو تناسوا ذلك ولم يذكروا له إلا السيئات حتى في هذا اليوم الذي أعد للاحتفاء به . ولقد بدا لي أن تكون كلتي هذه في تشاؤمه الذي فرض عليه فرضاً فرأيت ذلك يجر إلى سخط القائلين به فصرفت نفسي عنه . ثم حسن عندي أن أئين عطفه على المرأة لأن بعض الناس يعتقد أنه أعدى عدوها ولكنني عدلت عنه لأنه يحتاج إلى تطويل لا يتسع له هذا المقام . وبعد اللتيا والتي . تخيرت القول في دين أبي الملاء أو مذهبه أو معتقده .

ما هو السبب في تكفيره

افتن المتقدمون والمتأخرون في تكفير هذا الرجل ووصفوه بالالحاد والزندقة والمروق وما أشبه ذلك من النعوت ولا بكل حادث في هذا الكون من سبب يوجب علة تقتضيه والمعمن في البحث يجد أسباباً كثيرة لذلك من أشدها الحسد من أعدائه والتطلع والتشدد في الدين من خصومه والطموح إلى الظهور على أكتافه . والولوع بالآغراب على حسابه .

الحسر

أما سبب الحسد فإن أبا الملاء أوتي من المواهب الفطرية ما لم يؤنه كثير من الناس ونال حظوة عند الملوك والأمراء والكبراء فلما نالها شاعر أو عالم ورزق من طبرورة النهرة ما لم يتح لكثير من النوايف . وقد بذل له المستنصر العلوي ما في بيت المال في المرة . وكتب داعي الدعاة إلى تاج الأمراء أن يجري له ما يدعو اليه حاجته في جميع مهامه .

وكلف الوزير الفلاحى عزيز الملك أن يحمله إلى مصر لينفي له دار علم . وسمح له بخراج المعرة مدة حياته فأبى ذلك كله وكان عفانه هذا يزيده حرمة في أعين الملوك فمن دونهم ولم يعرف بالمعرة وزير مذكور أو فاضل مشهور إلا وقصده واستفاد منه أو طلب شيئاً من تصنيفه أو كتب عنه .
فهذه الخطوات وتلك المواهب أوقدت في قلوب حساده ناراً .

التنطع والتمسح

وأما سبب التنطع فإن أبا العلاء انتقد كثيراً من المزايم التي كان يمتقدها بعض الناس في زمانه .
فأنكر أن يكون حام أسود من أجل ذنب أحدثه . وأن يكون الخضر حياً . وأن الشيب لم يعرفه الناس قبل إبراهيم وأن الاثمي كان إذا عطس لفظ أنفساً . وأن الشمس تضرب وتهان إذا حانت الشروق وأن عجوزاً تحلب القمر وأن . وأن . .

وأنكر تأثير الاحراز التي تكتب لدفع العين أو الجن كما أنكر المشي على الماء والطيران في الهواء وأن يعود مليك مصر إلى الدنيا وأن يقوم إمام ناطق في الكتبية الخرساء إلى كثير من مثل هذه المزايم وكان جريئاً في نقده وإبداء آرائه فتناول رؤساء المذاهب والنحل والملوك والعلماء والخطباء والشعراء والتجار وقلماسلم منه صنف من الناس ولم يتخير لذلك قولاً ليناً ولا أسلوباً لطيفاً وإنما واجه هؤلاء بكلمات أشد من الصواعق . وفي أضعاف كلامه كثير مما لا يرضيه المتشددون في الدين وإن لم يوجب تكفيره .

وأما الطموح إلى الظهور

فقد رأينا فيمن انتقد أبا العلاء كثيراً ممن لم يستطع إدراك ما يريد أبو العلاء من كلامه على وجه صحيح وربما جاء بالبيت على أنه حجة له وهو حجة عليه ولكنه انتقده ليقال إنه انتقد أبا العلاء ؟

وأما الولوع بالوعراب

فإن فريقاً من الناس يجد في البحث عن زلة لأبي العلاء وينسقط هفواته حتى إذا ظفر بشيء ولو بشبهة ضميعة ابتهج وتنفع كأنما أحدث فتحاً جديداً في الاسلام وفيهم كثير ممن عثر فيما قال عثرة لا تقال .

فتألب عليه حساده وأولئك المنتطعون والطاعون والمولعون وأرادوا أن يسقطوه من أعين الناس فالتمسوا مغمزاً في علمه وأدبه وعقافه فلما أعيام ذلك لجؤا إلى الدين فالتخذوا منه سلاحاً لاطعن فيه ومالاً لهم على ذلك فريق ممن يتابع على غير بصيرة فذهي أكثر الأسباب ، تأثيراً في تألب الناس عليه .

ما را فلما يفعلون

اتفقت كلمة حساد أبي العلاء وأعدائه على تكفيره ولكنهم اختلفوا في الطرق التي توصله إلى ذلك فمنهم من كفره بما لا يوجب التكفير ومنهم من نسب إليه أبحاثاً هو بريء منها ومنهم من حرف أقواله عما يوجب الايمان إلى ما يوجب الكفر ومنهم من جره إلى الكفر بغير سبب ولا مناسبة ومنهم . ومن هؤلاء ياقوت فقد جملة ملحداً وروى له هذين البيتين :

اللاذقية فتنة ما بين أحمد والمسيح

هذا يعالج دليلاً والشيخ من حتى يصيح

ولم يروها غير ياقوت ولا هما في ديوانه ولا يظهر فيها أثر للإلحاد وتأليفها الركيك يشهد بأن المعري بريء منها . ولقد كانت العامة أبرع من ياقوت في التكفير فأنهم لم يروا فيها ما يوجب الإلحاد فزادوا بيتاً ثالثاً وهو :

كل يعظم دينه يايت شعري ما الصحيح

وأورد أبو العلاء في رسالة الغفران أبحاثاً لسمير بن أدكن مطلعها :

يصول أبو حفص عابنا بدرة رويدك ان الحق يطفو ويرسب

فقال ياقوت هذا يشبه أن يكون شعر المعري قد نحله هذا اليهودي .

كأنه أنكر أو أكبر أن يكون شعر فيه كفر أو إلحاد لغير أبي العلاء .

وزعم ابن الجوزي والباخرزي ولذهبي ان أبا الملاء عارض السور والآيات بكتاب الفصول والغايات . وربما كان فيهم من لم يطلع عليه . ولم يبين واحد منهم ما يريد بالمعارضة فان ارادوا المعارضة بالمعاني والاغراض والمقاصد فهذا باطل لأن اغراض القرآن الكريم كثيرة ومقاصده مختلفة منها شرع الاحكام وبيان بعض الشرائع التي كانت قبل الاسلام وقص الاخبار وما اشبه ذلك والفصول والغايات اغراضه قليلة ومقاصده محدودة لانكاد نخرج عن تمجيد الله وعن العظمت وقد تصدى فيه الى القول في الموسيقى والعروض والنحو ونحو ذلك مما ليس له أثر في القرآن الكريم .

وان ارادوا المعارضة بالالفاظ فهذا باطل أيضاً لأن أبا الملاء التزم في كتابه هذا أن يكون آخر كل غاية على حرف من جروف الهجاء وأكثر من السجع واستعمال الغريب واستشهد بأقوال الشعراء والحكماء والأمثال ونحوها والقرآن الكريم خال من ذلك كله .

والذي اعتقده أن أبا الملاء كانت له نزوة في اللغة وباح طويل في الحكم واطلاع واسع على العلوم المختلفة فوضع هذا الكتاب على هذا النمط ليبين فيه قدرته في كل ما تقدم وبما ذكرناه يتبين أن بين القرآن الكريم وكتاب الفصول والغايات فروقاً متعددة في الالفاظ والمعاني .

وروى أبو الفداء في تاريخه هذين البيتين على هذا الوجه :

أن عيسى فبطل شرع موسى وجاء محمد بصلاة خمس
وقالوا لا نبي بعد هذا فضل القوم بين غد وأمس
والصواب روايتها كما وردا في ديوانه لزوم ما لا يلزم :

دعا موسى فزال وقام عيسى وجاء محمد بصلاة خمس
وقيل يحجي دين غير هذا وأودى الناس بين غد وأمس
والزخشي أورد في الكشف بيت أبي الملاء في وصف النار :

هراء ساطعة الذوائب في الدجي ترمي بكل شرارة كطراف

ثم قل وكأنه قصد بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن . ولقد عني جمع الله له عمى الدارين إلى آخر قوله . وهذا البيت يصف فيه المعري نار القرى وهو من قصيدة رثى بها الشريف الموسوي وهو ببغداد . وليس فيه ولا

في القصيدة كلها ما يدل على ما قاله الزمخشري . ولعل هذا البيت أجل بيت
قالته العرب في وصف النار .

ونسب ابن السبكي في الطبقات إلى أبي الملاء البيتين المشهورين وأولها :
كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
ثم قال : قبحه الله ما أجرأه على الله . . . وهذان البيتان لابن الراوندي .
ونسب أبو الحسين الجزار هذا الشطر لابي الملاء وهو :
حديث خرافة يا ام عمرو

وهو لبعض مشركي العرب .
وهناك كثير من مثل هذه الاقوال المحرفة ألصقت بأبي الملاء ظلماً وزوراً .
وإذا كان مثل هؤلاء الأئمة لا يثبت في الرواية ولا يتورع عن التحريف
والتقول ويكفر بغير موجب فما نقول فيمن هو أدنى منهم منزلة في العلم والشهرة .
وفي الناس كثير ممن يكفر أبا الملاء وإذا سألته عن السبب قال لك
إني لم أر شيئاً من كلامه ولكني رأيت فلاناً من العلماء يكفروه فقلدته في
ذلك ومن قلد عالماً لقي الله سالماً .

ومثل هؤلاء مثل رجل مر بالسوق فرأى فريقاً من الناس يضربون رجلاً مسكيناً
فجاء إليه وأوسعه ضرباً وشتماً وسباً فقبل له من هذا الذي ضربته وما السبب
الذي حملك على ضربه وسبه فقال إني والله ما عرفته قبل اليوم ولا عرفت
له ذنباً ولكني رأيت الناس يضربونه فضربته وهذا سبيل كثير من الناس مع
أبي الملاء استضعفوه فنتضعفوه حياً وميتاً .

كيف وزع المعري على الملل والنحل

لم تتفق كلمة المتقدمين والمتأخرين على جعل أبي الملاء يدين بدين واحد
وإنما جعلوه نهياً مقسماً بين الملل والنحل والحقه كل واحد بما شاء وشاء له المولى .
فجعلوه برهياً ومزدكياً وزنديقاً وملحداً وكافراً ومعتلاً ودهرياً وقرمطياً
وشيعياً ودرزياً وثقياً وزعم فريق أنه عارض القرآن ومن عطف عليه جملة
في حيرة او صاحب تقية او مجماً للمتناقضات ومنهم من جعله ساحراً إلى غير
ذلك من الاقوال ولكل واحد من هؤلاء متمسك بعول عليه في حكمة .

البرهانية

أما من قال أنه برهمي فليستدل على ذلك بأنه لم يأكل اللحم خمسا وأربعين سنة . وكلام أبي الملاء يدل على أنه لا يعتقد أن أكل اللحم محرم وإنما تركه اجتهادا في التمسك ورحمة للمذبح ورغبة بفقران الله . ويعتقد أن العقل لا يقبح ترك أكله وإن كان حلالا لأن المتدينين لم يزالوا يتركون ما هو لهم حلال مطلق . وإن له في السنة نيفا وعشرين دينارا يأخذ خادمه بمضها وما بقي لا يعجب فالتصر على قول وبلأسن وما لا يعذب على الألسن . هذا ما قاله أبو الملاء ولكن الناس يحملونه برهمية أم أبي وقد روي أن النبي ﷺ أتى بشربة من لبن مشوبة بمسل فقال أما إني لست أحرمه ولكني أتركه تواضعا لله . والتاريخ طافح بأخبار المتدينين الذين كانوا يتنعمون من تناول الأطعمة المباحة زهادة فيها ورغبة في التقرب إلى الله .

المزدكية

وأما المزدكية فمن أعجب العجب جعل المعري مزدكيا لأن مزدك على ما قال ابن الأثير كان يستحل المحارم والمنكرات ويسوي بين الناس في الأموال والنساء وبأخذ امرأة هذا فيسلمها إلى الآخر . وقد طلب من قباذ أن يسلمه امرأته فاجابه ولكن ابنة انوشروان حال دون ذلك والقصة مشهورة وأبو الملاء كان يأبى زواج الحرائر ويتشدد في منع المرأة من الخروج إلى الحمام والعراف والحج ويحظر دخول الوليد عليها كل ذلك غيرة عليها وقد قال : برئت إلى الخلاق من أهل مذهب يرون من الحق الإباحة للأهل فجعله مزدكيا بعد هذا من الفرائب .

القرمطية

وأما نسبته إلى القرمطية فلا تقل في القرابة عن نسبته إلى المزدكية لأنه لمن بعضهم وكفرهم في رسالة الففران ص ١٤٥ وقال فيهم في لزوم ما لا يلزم : يرتجي الناس أن يقوم إمام ناطق في الكتيبة الخرساء

كذب الظن لإمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء
إنما هذه المذاهب أسباباً لجذب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرقون لدفع السماء والجنساء
كالذي قام يجمع الزنج بالبصرة والقرمطي بالاحساء
وبعض الناس بقطع قوله : إنما هذه المذاهب أسباب ... ويجمله بيتاً
منفرداً ليصرفه عن القرامطة ويجمله شاملاً لكل مذهب ليثير الناس عامة على
تكفيره وأما نسبته إلى بقية المذاهب الأخرى فعلى مثل هذا النمط والقياس
كلها قائمة على الشبه وإيرادها ثم ردها وإبطالها يحتاج إلى وقت طويل .

التقية

وأما التقية فلمها أغرب ما قيل فيه وذلك أن الانسان إنما يلجأ إليها
عند الخوف من فتنة أو شر أو بطش . وأبو العلاء صرح في مواطن كثيرة
بأمور هي أحق من غيرها بالتقية . فإن التقية ممن يقول في ملوك عصره .
مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بنير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

ساس البلاد شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان

يسوسون الأمور بنير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسه

فالف من الحياة وأف مني ومن زمن رئاسته خساسة

بل ابن التقية ممن يقول :

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

فما المظلات وإن راعت سوى حيل من ذي مقال على ناس تحولها

قالوا فلان جيد فأجبتهم لا يكذبوا ما في البرية جيد

فأميرهم نال الامارة بالحنى وتقيم بصلاته بتصيد

لو غربل الناس كما يمدمو اسقطاً لما تحصل شيء في الغراييل

وديوانه مكتظ بمثل هذه الصراخه الادعة ولو كان عنده شيء من التقية للجا إليها في مثل هذه المواطن او استغنى عنها .

رأبنا في اعتقاد أبي الملاء

يحدثنا التاريخ ان ابا الملاء كان يرمى من اهل الحسد له بالتمطيل وان تلامذته وغيرهم كانوا يعملون الاشعار على لسانه ويضمنونها اقوال المأخوذة قصداً لهلاكه وقد حرف اثنان منهم بيتاً من لزوم ما لا يلزم ليثبتا عليه الكفر فكتب رسالة الضميين الى معز الدولة يشكوهما اليه ويبين له ان في حلب نسخاً من الكتاب بريئة من التحريف وإن ابا الملاء ألف كتاباً في الرد على من نسبته إلى معارضة القرآن وفي الجواب عن أبيات أخرجوها من لزوم ما لا يلزم وكفروه بسببها وسماء زجر الناجح ثم طعنوا فيه بأبيات آخر فوضع كتاباً آخر سماء زجر الزجر أو بحر الزجر بين فيه التحريف ووجوه الأبيات وممانيتها وإن أعداءه لم يألو جهداً في الافتراء عليه وإن كتبه التي وصلت إلينا مضمورة بالشعور الاسلامي وليس في شيء منها متمسك لخصومه إلا رسالة الففران ولزوم ما لا يلزم.

رسالة الففران

أما رسالة الففران فقد قيل ان فيها تهكماً واستخفافاً وهما من الأمور النفسية التي لا يعلمها إلا الله ولا يمكن لبشر أن يعلمها إلا إذا أخبره بها صاحبها ولم ينقل عن أبي الملاء شيء من هذا وبناء الحكم على الشبهة او الاحتمال لا قيمة له عند أهل العلم .

لزوم ما لا يلزم

وأما لزوم ما لا يلزم وهو الذي يعتمد عليه الناقدون والنافون فقد طبعت نسخة منه في الهند ثم طبع في مصر وهذه النسخة لا نعلم نحن ولا غيرنا يعلم عن أية نسخة نقلت .

ولكننا نعلم يقيناً وفوق اليقين أنها لم تسلم من عبث الطابع والشارح
 فقد وردت فيها أبيات فيها كلمات زائدة على الوزن كقوله :
 وقد ضننت بشاة وهي فاردة على أزل فقيد المال قوت عسال
 فكلمة قوت زائدة . وأبيات فيها نقص كقوله :
 يخادع ملك الأرض إذا أنت منيته لم تفر عنه مخارقه
 ولعل أصل البيت حتى إذا أنت . أو نحوها فقد نقص البيت كلمة .
 وأبيات فيها تحريف كقوله :
 والنون في حكم الخواطر محدث والاولى هو الزمان المظلم
 والصواب والنور في حكم . . وقد فسر الشارح بعض الكلمات تفسيراً
 غريباً كقوله :

وجوهكم كلف وأفواهكم عدى . . .

قال الشارح المعدي كل خشبة بين خشبتين . وحجر رقيق يستربه الشيء
 فيكون المعنى وأفواهكم خشبة . . أو حجر . وما أغرب هذا التفسير . وربما
 اجتمع في البيت الواحد تحريف وتفسير وكل منها يخل بالمعنى كقوله في الديك :
 ورثت هدى التذكار من عهد جرم أو ان ترفت في السماء النعائم
 قال في الشرح النعائم النعام ورف الطائر بسط جناحيه وهو غير مستعمل
 وإنما المستعمل رفرف إلى آخر كلامه .

وصواب البيت أو ان ترفت في السماء النعائم والمراد بالنعائم هنا ثمانية
 كواكب وهي من منازل القمر يقال لها النعائم وكقوله من أبيات يذكر
 فيها أبو العلاء ما يقتاتان :

لا أفع الام بالرضيع ولا أشرك هذا الفرير بالابن
 أقتات من طيب الذنات وهل يسلم عود الفتى من الابن

قال في الشرح والذنات الذنباق [أي الحمار] والاسد والزحار . والزحار
 جاء لمعان منها داء يأخذ البعير فيزحر منه حتى ينقلب سرمه ومنها استطلاق
 البطن . فقد جعل الشارح أبا العلاء يقتات حمراً أو أسداً أو زحاراً على أحد
 معانيه وكل ذلك قوت ممقوت . وصواب البيت أقتات من طيب النبات .

وفي الكتاب مئات من مثل هذه الهنات لم ينبه عليها الشارح لأنه لم ينتبه لها وإذا كان لا يفتن إلى ما يخل بالوزن أو المعنى وهو أقل ما يجب على الشارح ويزيد الخرق اتساعاً بالتفسير الذي يمجّه الذوق ويأباه العقل في الأمور البديهية فهل نأمن بعد ذلك من التحريف فيما يتعاقب بين المعري واعتقاده . ولو وقع في كلامه مثل هذه الجملة أنا أو من بالله ولا أشرك به لما استبعدت أن يحذف كلمة لا من الجملة الثانية ويزيدها في الأولى قياساً على ما رأته في شرحه ولو ساعد المقام لأوردت جملة من هذه المضحكات ومن المعلوم أن لزوم ما لا يلزم لم يكن من كتب العقائد والدين وإنما هو ديوان شعر والشاعر قد يبالغ أو يوجز ويقول ما لا يفعل ويتخيل أمراً غير واقع ويلجأ إلى المجاز كما قال أبو العلاء

لا تقيد على لفظي فاني مثل غيري تكلمي بالمجاز
وإذا كان الأمر على ما ذكرنا فلا يجوز أن توزن أقواله بما توزن به النصوص الشرعية وأقوال العلماء في كتب الدين ولا أن يدقق في مفاهيمها وقيودها ما يدقق في كتب العقائد وإن التشدد في مثل هذا سهل على أعداء الغزالي أن يطمئنا فيه بقوله ليس في الامكان ابداع مما كان . والعقل يستبعد من الغزالي أن ينسب المعجز إلى الله .

ومن أعمن النظر تبين له أن المعري يحتذي على مثال المعتزلة والحكماء النظريين فإنه جعل العقل أساساً لآرائه . وعلى هذا الأصل ذهب في الفصول والغايات ولزوم ما لا يلزم إلى أن الله تعالى يقدر على المستحيلات لأن عدم القدرة عجز وهو صفة نقص فيجب أن ينزه الله عنه . وإن كثيراً من القضايا الشرعية يقصر العقل عن إدراك حكمة الشارع فيها .

ويظهر لمن تقصى في البحث أن فريقاً من الناس إذا رأى بيتاً للمعري يوم الحكم عليه بسوء العقيدة تمسك به وإذا رأى مئات من الأبيات الصريحة في الدلالة على حسن اعتقاده ضرب بها عرض الحائط ولم يلتفت إلى قوة الأدلة ولا إلى تكافؤها والقاعدة أن الأدلة إذا تمارضت تساقطت فإذا سلمنا أن الأدلة التي تثبت إيمانه متكافئة مع الأدلة التي تنفيه في القوة والصراحة والسلامة من

الاحتمال حكماً بسقوطهما ووجب علينا أن نلتزم سبيلاً آخر لا يوضح هذه الناحية وليس لدينا إلا حياة المعري العمالية وهذا التاريخ يحدثنا أنه كانت صواماً قواماً صالحاً تقياً زاهداً طاهر اللسان واليد والذليل .

ولا مشاحة في أن التكفير حكم شرعي ولا بد لكل حكم شرعي من علة توجه وطريق يثبت به ولا يصح الحكم على إنسان بالكفر إلا إذا أنكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة وكان هذا الانكار ثابتاً بدليل سالم من الاحتمال لأن الدليل إذا طرقة الاحتمال سقط به الاستدلال .

وقد رأينا فريقاً من العلماء إذا رأى في كلام المعري شبهة توجب تكفيره تمسك بها وإذا رأى ما يوجب إيمانه قال انه تقية . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نكفر كل إنسان حتى في قوله لا إله إلا الله لأننا نجعل قوله لا إله نفياً لاله موجباً للكفر . وقوله إلا الله من باب التقية ومثل هذا لا يرضاه العلم ولا العدل .

وبعد كل ما تقدم فإن أعظم المواطن التي أنكرها الناس على أبي العلاء يكاد ينحصر في خمسة أمور :

الأول اعتقاده بالله وقد يمجّد الناظر في كتبه أنه أثبت لله من صفات الكمال كل ما أثبتته أهل السنة ونفى عنه ما نفوا ولم يشذ عنهم في شيء إلا في مسألتَي الزمان والمكان على ما فيها من نظر .

وقد نسبته فريق إلى الجبر وهو بريء منه ويشهد لذلك قوله :

لا تمس مجبراً ولا قدرباً واجتهد في توسط بيننا
وأصرح منه قوله :

وإن سألوكم عن مذهبي فهو خشية من الله لا طوقاً أثبت ولا جبراً
واحتج لبطلان الجبر بقوله :

إن كان من فعل الكبار مجبراً فعتابه ظلم على ما يفعل

وما يراه الانسان في بعض أياته الآخر مما يوم الجبر فهو من نوع ما يراه في أقوال العلماء عند إثبات الجزء الاختياري أو الارادة الجزئية أو ميل النفس حتى قال بعض المحققين الانسان مجبر في صورة مختار .

وفريق آخر جعل المعري جامعاً للمتناقضات فهو مؤمن كافر وبر فاجر وتقي زنديق ودهري موحد فهو عنده مجموعة غريبة أو جامع لكل غريب . ومنهم . ومنهم .
الثاني والثالث اعتقاده بالكتب والرسل أو النبوات .

أبو الملاء عظم القرآن كثيراً وأنكر جواز النسخ عليه ووصفه في رسالة الغفران في ص ١٥٨ وصفاً بديعاً لا يصدر إلا عن قلب مفعم بالإيمان به .
وقالما رأيته ذكر نبياً إلا وأعقبه بقوله ﷺ إلا إذا ضاق الوزن أو السجع عن ذلك وقد ذكر النبي ﷺ في الجزء المطبوع من الفصول والغايات نحواً من اثنين وعشرين مرة وفي كل مرة يقول ﷺ .
وقد رويت له أبيات في الكتب والنبوات لا يمكن تأويلها تأويلاً حسناً إذا سحت نسبتها إليه منها ما هو في لزوم ما لا يلزم ومنها ما انفرد بروايته راو واحد كياقوت وأبي الفداء وغيرهما .

وإذا سمح لنا أن نجهر بقول الحق امكنتا ان نقول إن في بعض هذه الابيات حقائق لم يستعد كثير من الامة لقبولها بعد ولا يسامح في البحث فيها فندعها الآن إلى الزمان حتى لا نكفر على حساب أبي الملاء .

الرابع اعتقاده بالملائكة

لقد أثبت أبو الملاء الملائكة ولم ينف عن قدرة الله أشباح ضياء بغير لحم ودم وذكر كثيراً منهم في كتبه واعتقد وجودهم في السماء والارض والدنيا والآخرة واعتقاده فيهم لا يخالف اعتقاد أهل السنة :

الخامس الحشر

لأبي الملاء في شره ونظمه كثير من الجمل والابيات تدل دلالة صريحة قطعية على اعتقاده الحشر وفي لزوم ما لا يلزم وحده أكثر من مائة بيت كلها تصرح بآيات الحشر أو ما يكون فيه من جنة ونار وحساب وما أشبه ذلك وقد أعرض عنها بعض الناس وتمسكوا بقوله :

يحطمتنا رب الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك
ورواه ياقوت :

يحطمتنا صرف الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

وسواء أكان الصواب لا يعادله . أم لا يعادلنا . فاتهم جعلوا البيت دليلاً على انكاره الحشر . ومن البديهي أنه يريد بهذا البيت أننا ضعاف كالزجاج يسهل تحطيمه ولكن بيننا وبينه فرق وهو أن الزجاج إذا حطم في الدنيا أمكن أن يسبك فيمود إلى ما كان عليه فيها ولا يريد السبك في الآخرة وإذا لم يحمل كلامه على هذا الوجه كان معناه بيننا وبين الزجاج فرق وهو أن الزجاج يعاد سبكه في الآخرة ونحن لا يعاد لنا سبك فيها . وهذا بعيد أن يصدر عن مثل أبي العلاء .

التقييد:

إن التاريخ لم يعين لنا الزمن لكل قول من أقوال أبي العلاء حتى نجعل المتأخر منها ناسخاً للمتقدم ونحكم عليه بآخر أقواله .
وإننا نحترم كل رأي كما نحترم صاحبه وإن كان مخالفاً لما نعتقد في أبي العلاء وإننا لا نريد أن نجعل أبا العلاء في مصاف الصديقين والأولياء المقربين ولا نحاول أن نبرئه من كل ما قيل فيه .
وإنما نريد أن نبين أن تكفير الإنسان بما ينسب إليه من قول لا يصح إلا إذا ثبت بدليل قاطع أنه تكلم بذلك القول على الوجه الذي أوجب تكفيره . وأن التكفير على ما خيلت أو على شبه أو أدلة مخوفة بالشكوك أو الاحتمالات لا قيمة له في نظر الدين ولا في نظر العلم .
وإن الجنة ليست في أيدينا حتى نهبط من نشاء وننزعها ممن نشاء .
وأن أبا العلاء قال ما قال ولم يعبأ بما قيل ولا بما يقال ولا بمن قال وسجل اسمه في ديوان الخلود رضي أعداؤه أم لم يرضوا .
وأن رحمة الله التي وسعت كل شيء وجنته التي عرضها السموات والأرض لا تضيقان عن رجل يقول :

أأصبح في الدنيا كما هو عالم وأدخل ناراً مثل قيصر أو كسرى
وإني لأجو منه يوم تجاوز فيأمر بي ذات اليمين إلى اليسرى
وكنت أود أن يتسع الوقت لأورد من كلام أبي العلاء ما يدل على كل ما ذكرته ولكن ما كل ما يتنى المرء يدركه . وعسى أن لا أكون في كلتي هذه كمن حاول أن يتخذ غريقاً ففرق معه . محمد سليم الجندري

اختلاف الآراء

في فلسفة أبي العلاء المعري

إن شخصية أبي العلاء المعري لمحي من تلك الشخصيات العبقريّة الكبرى المتعددة المزايا والصفات التي يصعب على الباحثين عنها — وإن لم يستحل — أن يدركوها إدراكاً كلياً وأن يحدّدوها تحديداً شاملاً .

فكذلك فلسفته . إنها متفتنة النواحي متباينة الاطراف ، متناقضة المرامي ، فقلما تردد الناس في مذهب كترددهم فيها ، وقلما اختلف العلماء ، على تنوع طبقاتهم ، في غابر الزمان وفي حاضره ، كاختلافهم فيها .

فلذا تأملنا في أوائك المختلفين من المتقدمين وجدناهم على ثلاثة أقسام تفرّعت إلى فروع . فريق من زندقته أو كفره وفريق من حكم بصحة إيمانه واجتهد في الدفاع عنه إلى حدّ أنه أنكر فيه وجود فلسفة امتاز بها عما سواه وفريق من تحيّر في شأنه وما جرأ على شتمه ولا على تبريره فأمسكوا عنه وفوضوا أمره إلى خالقه .

إن هؤلاء المتحيرين ، لقلة عددهم وخفة أهميتهم ، لا يستحقّون أن نعتني بهم أدنى اعتناء ولكننا أردنا أن نتوسع بمض التوسع في الذين كفّروا ثم فيمن برّأه ، وذلك تمهيداً لفهم فلسفته فنذكر اختلاف الناس في تعليلها .

إن أول من هاجمه مهاجمة منظمة كان الشيخ أبا الوفاء بن عقيل البغدادي شيخ الحنابلة في وقته والذي عاصر أبا العلاء بمض المعاصرة . تفقه ابن عقيل على القاضي أبي يعلى صاحب الأحكام السلطانية المشهورة وأخذ الأصول عن الشيخ ابن الوليد إمام المعتزلة في زمانه . إن ابن عقيل على ما يرويه لنا الحفاظ — شبه أبا العلاء بابن الراوندي وأنه قال للناس ، زعموا أن أبا العلاء

أبدي إلحاده لبعياً ومجوحاً ، ما نصه : « وما الذي أُلجأ إلى أن يقول في دار الاسلام ما يكفر به الناس ؟ إن المنافقين مع قلة عقلمهم وعلمهم أجود سياسة منه لانهم حافظوا على قبائهم في الدنيا وستروها وهذا أظهر الذي تسلط عليه به الناس وزندقوه والله إن ظاهره كباطنه . »

ثم اقتدى بابن عقيل الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي الحنبلي الواعظ المتفنن صاحب التصانيف الشهيرة والذي كان معظماً لابن عقيل متابعاً لمعظم آرائه وإن رد عليه في بعض المسائل . ان ابن الجوزي عاب على أبي العلاء مبالغته في معاداة الانبياء ، وهو الذي قال : « زنادقة الاسلام ثلاثة ابن الراوندي وأبو حيان التوحيدي وأبو العلاء وأشدهم على الاسلام أبو حيان لانه يجمع ولم يصرح » .

اقتنى أثر أولئك البغداديين الذين طعنوا في أبي العلاء ، من انتسب بالشام إلى مدرستهم التاريخية وفي طليعتهم الشيخ شمس الدين الذهبي فانه تكلم عن أبي العلاء في كتابين من كتبه الكبار أولاً في تاريخه الكبير الذي لم يُنشر إلى الآن . ثانياً في مختصره المفيد الذي طبع في حيدرآباد إنه في كتابه الأول أطلق على أبي العلاء تسمية الزنديق واشتد في شتمه ولكنه في كتابه الثاني خفف عباراته واقتصر على القول بأنه سيء العقيدة .

ولكن أبا العلاء ، فيما أرى ، مالتى بالشام خصماً أشد طعناً فيه من الشيخ اسماعيل بن كثير الدمشقي الشافعي الذي لازم الحافظ المزني وأخذ عن الامام الشيخ قتي الدين بن تيمية . انه ، في بدايته ، خصص لأبي العلاء ترجمة قيمة كَفَرَه فيها ونسبه إلى فلسفة البراهمة ثم انه أبدي سوء ظنه بأبي العلاء أيضاً لما تكلم عن الشاعر المشهور بالعر الضرير وهو الحسن بن محمد بن نجا . كان هذا الشاعر من نصيبين فنشأ بإربل حيث اشتغل بعلوم الاوائل قال عنه ابن كثير ما نصه : « يُنسب إلى الإلحاد وقلة الدين وترك الصلوات له شعر أورد منه الشيخ قطب الدين قطعة في ترجمته وهو شبيه بأبي العلاء المعري قبحهما الله » .

كان لأبي العلاء من جهة أخرى أنصار انتصروا له ودافعوا عنه أشد الدفاع ويجب علينا أن نذكر في طلبهم الشيخ كمال الدين ابن المديم الحلي الذي توفي بالقاهرة سنة ستين وستائة وأنه صنف حلب تاريخاً مفيداً وأفرد لأبي العلاء ترجمة طويلة سماها كتاب الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري ، فقد جزء كبير منها ونشرها لأول مرة الشيخ العلامة المؤرخ المشهور راجب الطباطغ في كتابه أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، أصبح كتاب الانصاف والتحري العمدة التي اعتمد عليها كل من دافع عن أبي العلاء فيما بعد .

فمن أشهر من حذا حذوه واعتمد على كتابه الشيخ زين الدين بن الوردي . ولد ابن الوردي بالمعرة ونشأ وصنّف في عدة علوم . ترجم أبا العلاء في تاريخه المشهور ترجمة حسنة علينا أن نتوسع فيها بعض التوسع فإن عواطف ابن الوردي نحو أبي العلاء مرت بثلاثة أطوار .

كان ابن الوردي في بادئ أمره متعصباً له لكونه من المعرة ولما شاهده في سيرته وشعره من غاية الورع والزهد ثم أنه بعد ذلك وقف على كتاب استغفر واستغفري فبغضه وأبغده عنه ثم وقف على الازوميات فزادته بغضاً له وفرة عنه لإفراط الشك والتشكيك المتضمن بها . ثم ان ابن الوردي ، في الطور الثالث من تطوره اطلع على كتاب ضوء السقط الذي أملاه أبو العلاء قبل موته بقليل فإن هذا الكتاب أرجع ابن الوردي عن سوء ظنه بأبي العلاء إلى الحكم بصحة عقيدته قال : « فكان هذا الكتاب عندي مصححاً لنفساده موضحاً لرجوعه إلى الحق وصحة اعتقاده فانه كتاب يحكم بصحة إسلامه » . فعظم هذا الكتاب كل التعظيم لما يحتويه من العواطف الدينية السامية وقال في الختام ما يستحق الذكر . « وهو خاتمة كتبه والأعمال بخواتمها وقد يُعذر من ذمه واستحلّ شتمه فانه عوّل على مبادئ أمره وأواسط شعره ويُعذر من أحبه وحرّم سبّه فانه اطلع على صلاح سرّه وما صار إليه في آخر عمره من الانابة التي كان أهلها والتوبة التي تجب ما قبلها » .

هذا ولقد اختلف أولئك العلماء — وهم القليل من كثير ولكل واحد منهم مقام عالٍ في تاريخ الأدب العربى — اختلافاً كبيراً في فلسفة أبى الملاء وعقيدته فإذا أنعمنا النظر في هذا الاختلاف وجدنا له أسباباً معينة .
 أولاً : إن أولئك المتقدمين كانوا أكثر اهتماماً بدم أبى الملاء أو بعده منهم تفهمه أو بالتجريح عن حقيقة فكره فهم أقرب إلى المتكلمين منهم إلى المؤرخين وهم في ذلك على خلاف ما نحن عليه الآن فان تطور أساليب النقد والبحث عوداً التمييز بين التبرير المذهبي وبين التعليل التاريخي . وثانياً : نشأ هذا الاختلاف في فلسفة أبى الملاء عن تناقل داخلي مُحسَّن به في آلياته نفسها في اللزوميات خاصة وفي جميع مؤلفاته عامة فهذا أمر من الأهمية بمكان يجب علينا أن نتوسع فيه بعض التوسع .

* * *

إن أبى الملاء انتقد الديانات كلها في آيات عديدة مشهورة من اللزوميات أنكر النبوات حتى بالتصريح وهاجم رجال الدين على اختلاف طبقاتهم مهسجة عنيفة متكررة عاب عليهم بأمر " التهمك جهلهم ونفاقهم وتناقضهم في أهم مسائل الدين وتنازعهم بمذاهبهم على الدنيا وما فيها فشك " وشكك في كل ما جاءت به الكتب المنزلة من البعث والثواب والمقاب ومن الأخبار المتعلقة بعالم الغيب وأظهر أيضاً ما كان يظنه مخالفاً للعقل في الشريعة من العبادات والمعاملات انه في كل ذلك تلون ، وأي تلون ، بآراء الطبيب الفيلسوف أبى زكريا الرازى الذي تعدى الحدود في نقض الديانات والذي كان مكتبته الهدامة أوسع الانتشار بين غلاة الباطنية .

ولكنه مع ذلك ، مهما ساء ظنه بالرسول والأنبياء ، أظهر في آيات عديدة من هذه اللزوميات نفسها إخلاصه لربه وتفضيله لنبيه محمد ﷺ على سائر الأنبياء وإشارته لدين الاسلام لسائر الأديان . وأبدى في سيرته وفي شعره تقوى لاشك فيها وحث الناس عليها وأما زعمه في الدنيا وإحسانه الى الغير فهذا أمر لا مزيد عليه فيه وكذلك لا يزال يذكر الله تعالى ويمجده وهو يقتنع بوجود الله اقتناعاً فطرياً وجدانياً لا يتكلف البراهين على إثباته وأنه في كثير من آياته وصف الله كما

وصف نفسه وكما وصفه رسوله الى حدّ أن عقيدته تُشبه أحياناً عقيدة من اتبع طريقة السلف .

ان هذا التناقض الذي لا يظهر في اللزوميات فحسب ولكنه في جميع كتبه عامة كان ، فيما أعتقد ، مقصوداً فلماذا قصده ؟ هذه هي المسألة التي نريد الآن أن نذكر أهم اختلاف الناس فيها .

* * *

ذهب بعض العلماء إلى أن علة هذا التناقض توجد في تطور أبي العلاء الفكري . انه كان ، على ما يزعمون ، في أول أمره ملحداً كافرأ ثم انه رجع الى الايمان في آخر عمره فتاب وأناب . اتنا فيما يخصنا لانتقد بصحة هذه الفرضية وان جازت عقلاً . فان أبا العلاء أظهر شكه الفلسفي من أول شبابه لما اشتكى في مرثية أبيه جهله لأُمور الغيب ولمصير الروح بعد الموت ، كما أنه عبر عن هذه العواطف نفسها من الشك والتشاؤم واللادرية في قصائد يوجد فيها ما يدل على اهتمام آخر مانظم . ذهب قوم آخرون الى القول بأن علة هذا التناقض توجد في تقية أبي العلاء وفي كتمانها . قالوا انه كان ملحداً في باطنه ولكنه خشية من عقاب الفقهاء تستر وراء تلك العبارات الايمانية والمظاهر الاسلامية . ولكننا أيضاً لا نتفق هذه الفرضية باقبول ولا نعتقد بأن أبا العلاء التجأ الى التقية بمعناها الاصطلاحي فإف جرأته حينما يتكلم عن الديانات ورجالها تدل على صراحة لا تحوجه الى تقية الغلاة ولكنه في ذلك اضطر ، وهو في ذلك متألم أشد التألم ، الى أن يذهب من مذهب المجاز في ابداء كثير من آرائه لما تخالف مخالفة تامة ما اتفق الناس عليه وربما كان في ذلك كله أكثر خشية من الاضرار بالغير منه بنفسه إذ لا يكون عامة الناس مستعدين لفهم فلسفته حق الفهم . فجاز لنا أن نقول ان المعري في لزومياته قصد معاني أكثر مما ابداء صراحة .

فإف قوم آخرون زعموا أنهم اكتشفوا سر باطنه واقترحوا لتعليل ذلك التناقض الذي أشرنا اليه علة أخرى فقالوا : ان أبا العلاء المعري كان مخلصاً في اظهاره لدينه وابدائه لثقواه كما انه كان مخلصاً في حثه الناس على التمسك بدينهم

لما كانت في ذلك لمامهم من فائدة ومنفعة . ولكنه في الحين ذاته كونه لنفسه والخاصة فلسفة إلهية مبينة على الوجدن والمقل أكثر منها على النقل أدى به إليها اجتهدته الخيالي غير اجتهد الأصيل المرتبط بشروطه وهي فلسفة لا تخالف الديانات ولا تنفوقها ولكنها ترمي إلى جمع أسمى العواطف الدينية التي يشترك فيها البشر .

إن هذه الفلسفة الإلهية تدعو إلى الإيمان الواحد المطابق رب واحد حكيم مدبر للأموار على ما يشاء إيماناً وجدانياً فطرياً يحس به كل إنسان في صميم فؤاده فيتساوى فيه جميع المؤمنين ثم إن هذه الفلسفة الإلهية تكون أخلاقية أكثر منها عبادية أنها تفضل على العبادات الشكلية روح العبادة والدين فتنحو نحو تهذيب البشر ونحو تحويلهم عن الطمع في الدنيا إلى الزهد فيها وعن الظلم إلى الانصاف وعن التعصب إلى التسامح وعن التفاضل إلى التساوي وعن التباغض إلى التحاب وعن اختلاف الكلمة إلى توحيدها والاتفاق والتضامن .

* * *

فلذا كانت تلك فلسفة أبي العلاء على ما يقولون فما هي العوامل التي حملته على التفلسف بها وما هي المصادر التي ألفتته إلى مثل هذه الآراء الإلهية والاجتماعية؟ عايناه أن نشير الآن بفاية الإيجاز إلى اختلاف الناس في ذلك وأن نذكر أهم النظريات التي اعتمدوا عليها ، فهم في ذلك على قسمين : من نُسبه إلى الزهد الهندي ومن نُسبه إلى مذهب الباطنية .

إن أول من نسبته إلى الزهد الهندي هو أبو الفداء المؤرخ المشهور الذي قال عنه في تاريخه أنه تمذهب بمذهب الهنود فيما يتعلق بنبأتيته . فخذوا حذوه اسماعيل بن كثير في بدايته وأضاف إلى ذلك أنه شككه راهب في دينه . وكذلك كثير من المستشرقين ، وفي مقدمتهم Von Kremer فون كرممر ، ظنوا أن فلسفة أبي العلاء تولدت بالفلسفة الهندية خصوصاً فيما يتعلق بالزهد ورحمة الحيوان والنباتية وفلسفة المدم . فرد على هذه النظرية رداً ما الاستاذ العلامة Nicholson نيكلسون والاستاذ البجانة Massignon حينما تساءل عن إمكان وجود علاقات فكرية بين الحلاج وصوفية الهند .

نعم يجوز لنا أن نظن أن أبا العلاء أخذ بعض الآراء الهندية التي كانت شائعة في أيامه ولكنه أخذها متفرقة لا عن مذهب فلسفي معين . ولا غرو في ذلك فإن الصلة بين الهند وبلاد العرب اشتدت في زمانه على يد محمود ابن سبكتكين ، ولكن المسلمين في مختلف الاقطار وإن تمجّبوا من عجائب الهند ودهشوا من غريب عوائد سكانها ، فإنهم ما كانوا اطلعوا على عقليتهم الفكرية اطلاقاً مكنهم من التفلسف بفلسفتهم ومن التخلق بأخلاقهم . انما اتسعت هذه العلاقات الثقافية فيما بعد القرن السابع للهجرة في هذا الزمان المتأخر نفسه افترت على أبي العلاء هذه التهمة التي أشرنا إليها وهي تهمة تقليده لفلسفة الهنود .

وأما النظرية الثانية التي أشرنا إليها فهي نظرية من ظن أن أبا العلاء تأثر بمذاهب الباطنية ، إن هذه النظرية قد انتشرت انتشاراً ما منذ عدة سنوات في الشرق وفي الغرب وأول من أيدها هو الاستاذ بندلي جوزي من جامعة باكو في كتابه عن الحركات الفكرية في الاسلام ؟ يذهب الاستاذ بندلي جوزي إلى أن ما نراه في اللزوميات من حرية الفكر والاشتراكية والسلمية والمساواة الاجتماعية قد سببه تأثير مذاهب الباطنية فيها . ثم ان الاستاذ Massignon ماسينيون هو الذي لفت أنظار العلماء بصفة علمية إلى أوجه الشبه بين فلسفة المعري وبين مذاهب الباطنية خصوصاً فيما يتعلق بشاؤمه وشكّه الفلسفي . ثم أن الاستاذ Bernard Lewis الذي كان من جملة من أحس بضرورة دراسة الحركات الباطنية ، ألف كتاباً للتحري عن أصلهم أشار فيه إلى تأثير الاسماعيلية في أبي العلاء وغيره من كبار الشعراء مثل عمر الخيام . ثم أن الاستاذ عمر فروخ في مؤلفه القيم عن حكم المعري بحث عن العلاقات بين فلسفة أبي العلاء وبين مذهب الحاككية فإن هذا المذهب ، كما يعلم ، تكون في زمان أبي العلاء وتفرع عن مذهب القرامطة .

ولا غرو في ذلك فإن مذاهب الباطنية ، أيام أبي العلاء قد انتشرت وتوطدت في مختلف أقطار العالم الاسلامي فاحتك أبو العلاء في كثير من دعائمهم واطلع على بعض كتبهم ، وإن لم يمتنع مذهب فرقة من فرقهم .

فانه خصص أحياناً كثيرة من الزوميات لمناظرتهم عاب عليهم فيها أموراً شق تدل على أنه تبرأ منهم فعاب على النصيرية قولهم بالتناسخ وعلى الحاككية عبادتهم للحاكم بأمر الله وعلى القرامطة إباحتهم للمنكرات وطعمهم في الملك .

اتنا ، وهذا مما لاشك فيه ولا ريب ، نلاحظ مطابقة غريبة بين بعض أفكاره وبين بعض آراء الباطنية : منها قوله باتباع العقل اباةا كاد أن يكون مطلقاً وتفضيله إياه على النقل والخبار ، وزهده المتطرف وغير ذلك من الآراء ، كما أنه شاركهم في ممرقتهم بالفلسفة اليونانية التي تكثر عناصرها في الزوميات وفي غيرها .

ولكننا بالرغم من ذلك كله ليس في استطاعتنا أن نحكم باتساق أبي العلاء إلى مذاهب الباطنية حكماً قاطعاً ما دامت معظم كتبهم مجهولة أو غير منشورة ومنها بصفة أخص كتب الشيخ المؤيد في الدين داعي دعاة الاسماعيلية في أيام المستنصر والذي راسل أبا العلاء في مسألة النباتية ، والذي له عدة كتب منها مجالسه التي أبدى فيها آراء تشبه آراء أبي العلاء في الزوميات . ليس في نيتنا أن نعالج هذا الموضوع معالجة مطولة فاكثفينا بالإشارة إلى هذه النظرية لكونها شاهدة من شواهد اختلاف الآراء في فلسفة أبي العلاء .

ونقول في الختام : ان أبا العلاء في لزومياته يذكر اختلاف الناس وتنازعهم في شؤون الدين والدنيا استهزاً لاختلاف الفقهاء في التحليل والتحريم وفي الاستحسان والاستنكار كما أنه استهزأ لاختلاف المتكلمين في نظرياتهم فانه لو كان في إمكانه أن يشاهد من عالم الغيب اختلاف الناس في شأنه بعد موته لاضاف أحياناً جديدة إلى لزومياته مسخر فيها من هذا الاختلاف الجديد سخرية يمتزج فيها نهكه المرّ وشفقته الانسانية وتسامحه الشامل وعواطفه السامية التي تجعله غفراً لجميع البشر فعلمنا أن نقوض سر باطنه إلى الله تعالى وأن نكتفي بالعجاب من نفاذ فكره ومهارة فنه وإخلاص دينه والسلام .

هنري لاوست

ذكرى ابي المصم

هتفوا والحى تموج جثانه ما ضجيج الحى وما مهرجانه
 أهشام على السرير وعن الملك يطوي لمع الفضى لمعانه
 أم وفود الحجاج تطري فتاها وابن مروان وارف سلطانه
 أم خيال من آل جفنة كالفجر يغنى بطيفه حسنه
 فكان النعمان قد حشد المر ب وكسرى زام به إيوانه
 مادرى الهاتقون أية ذكرى هيجت ربهم فرف حنانه
 تلك ذكرى أبي الملاء وما ذكره إلا الربيع أو ريمانه
 دار والدمر وحيه فتراه فلما ليس ينقضي دورانه

* * *

كذب الشعر ما وفى حقه الشمـر ولا أدى فضله انقـصانه
 هيكل من نعومة الحس بال لم يطفه من البلى جثانه
 واديم مرمر هذه الضعف فكادت تمجه أردانه
 ذاب حتى تخاله العين وعمأ أمن الوهم شفته ذوبانه
 عصب نأثر ولا ثورة النـا ر وفكر لم يتشد هيجانه
 اركبت الخضم في عصفة الريح فا موجه وما طفيانه
 بطمن العباب بعد مئثر ابن منه على الدجى اطمئنانه
 لو أصابت ملكاً عضوضاً قوافيه لمادت من وقعها أركانـه

* * *

انما الشعر ثورة من صميم القلب ، ما لحنه وما أوزانه
 ان لويت الحديد عن طاق الشعب تلوت بسحره قضبانـه
 دول كالأحلام تدرج في الارض وتبقى ندية أفنانه

هدم الدهر مشمخر المباني وسما عن تهديده بنيانه
رب تاج على جوانبه الدر - نصيد ازرت به تيجانه
اين صوب القلوب والفكر الغر - تعالى مثل السماء مكانه
ثورة في اعتساف كل عنيد تلظى في وجهه نيرانه
وهدى في الانام يلح كالصباح فتشفي بضوئه عميانه
أي سمع لم ينسبط لاغانيه وقلب ما هزه تخانه
يطرب البلبل المفرد في الروض فتدلى من صوته أغصانه
وبفيض القريض في المحفل الظلمآن حتى يروى به ظمآنه
لا يمز الله العزيز رجالا لم يكرم في ظلم فرسانه

* * *

يا ضريحاً على المعرة ما استوحش منه في ليلة جيرانه
عاف رب الضريح كل نعيم في حواشيه ذله وهوانه
لم يفجع أما بما ترضع الام - ففدت رضيعها ألبانه
يمرح الطير في ذراه أميناً ملء عينيه في الفضاء أمانه
حسبه الماء والقفار من الخبز فهذا نعيمه وليانه
مارفيف القصور، ما ترف السلطان، ما تاجه وما صولجانه
رب كوخ أشهى إليه من القصر وان ماج انه وقيانه
عيشة الفكر لا حياة جماد مات احساسه وطاح كيانه
عيشة الحس والمواطف والفن - ففيها صراعه وطعانه
هكذا المرء فكرة وشعور لا جماد المرء ولا حيوانه

* * *

يفخر الناس بالآل من كسب حرام ، وفخره ديوانه
لم يضره فقد التواظر فالقلب بصير تفتحت أجفانه
قد يرى المرء بالفتاة ما ليس تراه على النوى أعيانه
كم بصير أعمى الجنان إذا أمّ - سبيلا ضل السبيل جنانه

* * *

فلسفي التفكير إن رام فكراً
يتهادى على خضمّ المعاني
وزن الدهر والخلائق والناس
لس الدنيا باليدين وجالت
فتخطى القلوب حتى وعها
فترى اللؤم أصفر اللون يخفي
وترى الكذب جائلاً في مداه
وترى الخبث ثملياً يتلوّى
ويظلل النبي بالزهو بهذي
صور أملاها الزمان عليه
يهرم الدهر والتساوير باق

* * *

راحة القبر لحنه وأغانيه
ما شفاء كآها الروح والريحان
ما ثدي كآتها حب رما
ما عيون الغزلان والسحر فيها
فكأن الفناء دفء من البر
أو كأن الهلاك ظلة حر
امل ذاهب ويأس مقيم
طال في جانبيها خطرانه

* * *

أذعن الناس للسلاسل فلتقا
نار من زخرف السياسة فيهم
كل علج في ظلها عربي
مارأى منها محسناً يسع الأمة في ليل ظلمها إحسانه
ذهب الصادقون منها على الدهر - فجاشت لفقدهم أحزانه
وتعطى في جنبه كل دجال - توألى على الورى بطلانه

نهب الشعب واستباح حمى الشعب فنه قصوره وجنانه
 ضجّ منه أبو العلاء ومن غفوة شعب ما هاجه عدوانه
 صاح: أين الامام في الوطن الحر - تفني بعله أوطانه
 أين أين الامام في أمة يصدق فيها فؤاده ولسانه
 لا تراه يذوب في كل لون لم يحل عهده ولا ألوانه
 انما الملك خدمة ملؤها الصدق وقلب ما يلتوي اعنانه

* * *

فسد الخلق من قديم الاليالي واستوت في فساده أزمانه
 فكان الانسان في الغار من أمس ولم تنخسف به غيرانه
 أفلا تشهد الزحام على الارض وهذي جروحه وأنانه
 كم بكى الجن والاناسي من هو ل ألت عليها أشجانه
 لم يبدل غرائز الناس علم يبدل الأرض والسما ميدانه
 وعظ الواعظون منا طويلا ما شفى وعظهم ولا برهانه
 ليت نوحاً على السفينة والكوف غريق يمه طوفانه
 فلمعل الايام تأتي بحيل لم تروغ سخاله ذؤبانه

* * *

خفف الهمس ما أظن رفات الشيخ يرضى بضجة لقيانه
 عاش في عزلة ومات عليها في هدوء اعتزاله رضوانه
 لم نكرم أبا العلاء ولكن كرمته آياته وبيانه
 بعثت جلق روائع ماضيه - وهذي آثاره وعيانه
 قنماً بالحمى وما نسج الفجر عليه فلا لآت أحضانه
 ليس يفنى شعب تفنى بماض ملا الدنيا نعمة عنفوانه
 أرايت والمهرجانات صدها كيف هبت سهوله ورعانه
 بتناجى شبابها في هوى الما ضي ومجوام ضممه وضمانه
 فتى ينظم الحمى علم يحمى بشرى التفاهم خفقانه

شفيق جبري

تم

٢ (٢٠)

من ضحايا العقل^(١)

يفتبط لبنان ، وقد قام بقسطه من تكريم أبي الملاء في تمام الذكرى الالفية في شهر آذار الفائت ، بان يشارك اليوم الدول العربية في تشييد هذا الصرح الفخم لحكيم المعرفة، هذا الصرح الذي وضع أساسه المجمع العلمي العربي، وتبارى في رفع بنيانه فنانون المارة في مصر والعراق وفلسطين وشرقي الأردن وسوريا ، فكان للبنات أن يأتي بحجره المتواضع ، مستوحياً من هذه الأبحاث النفيسة المتوالية علينا طول الاسبوع في تحديد أبي الملاء ، سائلاً ، ماهو سر الحيرة في هذه الشخصية المجيبة ؛ وما هي قيمة ذاك المقياس العقلي الذي اتخذته المفكر في قدر الطبيعة وما وراءها ، فآغتر بعصمته ، مؤملاً أن يخرج به من تلك الحيرة . حتى اذا خذله المقياس ، رأيناه وهو المفكر مؤله العقل ، يهوي صريعاً من ضحايا عقله .

* * *

والذي حارت البرية فيه حيوان "مستحدث" من جماد منذ أن وقف الانسان ذاهلاً أمام مظاهر الطبيعة ، "مقشوقاً" ، في تفهمها ، الى ما وراء الطبيعة ، دخلت الفاسفة في العالم . وكان محورها ، ولا يزال ، هذا الانسان نفسه ، الحائر في كيانه ومصيره حيرة البرية جمعاء . يتناول بطرفه بسائط الأرض ، ويرق بخياله معارج الأفلاك ، ثم ينكفي على عالمه الأصغر ، متأملاً متساءلاً قادراً مركزه من المجتمع ، ومن العالم الأكبر بكامله ، مقابلاً بين تلك القصة الصغيرة ، على قول إسكالم ، وهذا الكون الهائل ، بين مسكنة القصة نجاة جبروت الكون ، وصغر هذا الكون نجاة سمو الفكر في تلك القصة . بين اللامتناهي في الصغر (١) الكلمات التي وردت متأخرة فلا تذكر في برنامج المحلات ، وألحقت بالملفة السادسة وألقيت فيها .

والامتناهي في الكبر يقف الانسان وسطاً معتدلاً في هذا النظام الكوني الشامل واذابه المحمول والموضوع في التفكير الفلسفي . بل هو انقائس والمقياس والمقيس . يتدرج من المظاهر الى اسبابها ، ويتقصى الأسباب الى سببها الأول ، فيأتي بالشروح والحلول والتعليقات المتبانية .

ويكون العقل اليوناني ، فينسق ويرتب ، ويطلع بالنظم الفلسفية على بناء متماسك . ويبدأ النقل على عهد الامويين . فتصطدم المدينتان . وينتبه الفكر العربي من طمأنينته ، فيسأل ويقلق ، ويحاول بدوره الحلول والشروح والتعليقات . ويحاول الاتيان بالنظام المتناسق على يد الفارابي ، بعد ان يترس بالمذاهب والبدع والاهواء فمن قدرية يثيرون مشكلة الحرية والاختيار الى جبرية يهولهم الانتقاص من قدرة الله فيسكنون الى القضاء والقدر ؛ ومن معتزلة يشيدون بذكر العقل مادام العقل يوافق نزعاتهم ، الى اشاعرة بلوذون من المنطق بالمنطق ، الى فلاسفة يحاولون التوفيق بين الحكمة والتريمة فلا يوفقون الا الى وضع الواحدة لزاء الأخرى ، متقابلتين حيناً متدبرتين أحياناً . وناهيك بالديانات المختلفة كاليهودية والنصرانية بطوائفها ومذاهبها من يعقوبي ونسطوري وملكاني وماروني ، والمجسوية بتنوع مظاهرها من زرادشتي ومزدكي ومانوي ، والبوذية وما تنفرع اليه من انواع المبادات والتقسفات .

في هذه البوتقة الجائشة نشأ ابو الملاء . وفي هذا الخضم المتلاطم تاهت فكرته متمسكة مستهدية .

يترك بلده المعرّة فريسة النزاع السياسي ، ويهبط انطاكية ، فتزعجه أصداء المهادلات البرنظية الشهيرة . فينتقل الى اللاذقية ، فتتلاق عليه سكينته تلك الضجة الصاخبة « بين أحمد والمسيح » . فيخرج على أحبار الرهبان يحاوره ويجادله . ويكون الراهب قد « درس الفلسفة وعلوم الاوائل » ، كما يقول المؤرخون . فتفتتح لأبي الملاء على النصرانية واليهودية ، وعلاقة الدين بالدنيا والطبيعة بما وراؤها ، آفاق يرتادها تنقلاً واتساعاً ، ولا يتوقف على نقطة منها عمقاً وأناملاً . فلا يفيد إلا الملامات كافية لتغذية شكه واستخفافه بالمبادات على السواء .

ويُنقل به الحظ الى بغداد . وبغداد تحيى المناقشات الدينية والمناظرات الفلسفية ، والمجادلات العلمية ، على حرية تامة في الفكر والقول ، واحترام متبادل بين المتناظرين ، وتساهل نسمع به اليوم - بعد ألف سنة - فنضجل من أنفسنا . وقد وصف لنا الذهبي بعض هذه المجالس الكلامية بما يستأذنه بالله واسترجع اليه . الا انه أفادنا الفائدة كلها في تاريخ الحركة الفكرية في ذلك العصر . قال في حوادث سنة ٣٧٢ للهجرة (٩٨٢ م) .

« في هذا الزمان كان الأهواء والبدع فاشية بمثل بغداد من الرفض والاعتزال . فإنا لله وإنا اليه راجعون . ذكر الحيري في ترجمة أبي عمر أحمد بن سمدي الاندلسي الفقيه طامة كبرى ، قال : « سمعت أبا محمد بن أبي زيد الفقيه يسأل أبا عمر بن سمدي عند وصوله الى القيروان من بلاد المشرق فقال : هل حضرت مجالس أهل الكلام ؟ قال : نعم ، مرتين ولم أعد إليها . قال : ولم ؟ فقال أما أول مجلس حضرته فرأيت مجلساً قد جمع الفرق من السنة ، والبدعة ، والكفار ، واليهود ، والنصارى ، والدةرية ، والمجوس . ولكل فرقة رئيس يتكلم ويجادل عن مذهبه . فإذا جاء رئيس قاموا كلهم له على أقدامهم حتى يجلس . فإذا تكاملوا ، قال قائل من الكفار : « قد اجتمع للمناظرة ، فلا يحتاج أحد بكتابه ولا بنبيه . فإنا لا نصدق بذلك ولا نصدق به وإنما نتناظر بالعقل والقياس » . فيقولون : نعم . ولما سمعت ذلك لم أعد ثم قيل لي : هذا مجلس آخر للكلام . فذهبتُ اليه . فوجدتهم على مثل سيرة أصحابهم . فقطعت مجالس أهل الكلام » .

وفي بغداد ترفت الميري الى المهبوسية وآرائها ، وإلى البوذية . أو السومانية كما كان يقال ، ومبادئها في تحريم لحم الحيوان ، والميل الى حياة صارمة متقشفة كثيراً ما تفود إلى النسك الكتيب المشائم . وفي بغداد كذلك سمع بالتناسخ وبأحراق أجساد الموتى ، فأعجبه هذا ، واستنكر ذلك .

وإذا أضفنا إلى هذه المعلومات الدخيلة ما غذي به ، منذ طفولته ، من علوم العربية الأصلية ، وما تلقن من شعر القدماء وأحاديثهم وأساطيرهم ، صح لنا أن نبرر قوله :

ما مرّ في هذه الدنيا بنو زمن إلا وعندي من أخبارهم طواف هو "الاخذ من كل شيء بطرف"، وهو تحديد الأدب في نظر القدماء . أو نخطيء ، نحن اليوم ، إذا قلنا بهذه الثقافة العلائية إلى الأدب في سعته وتسليحه عن العلم في عمقه وتناسقه ؟

كل هذه البذور صادفت تربة خصبة في عقلية أبي البلاد المطربة القلقة ، فنبتت كما شامت تتجاور ولا تكاد تتعارف ، بل هي في نزاع دائم وصخب مستطيل حتى يبعج الجدل في دماغ الأنعمى ، وقد حجب عنه كل ملهى ، وسد عليه كل سبيل للتسلية والترفيه ، وإذا به يحاور عقله ، ويجادل نفسه الليل والنهار ، يسأل ويقارن ، وقد لا ينتظر الجواب ، بل كثيراً ما اكتفى به استفهاماً منكراً ساخراً ، وكأن تنبهه إلى مواضع النقص من البشر ، وشدة استحيائه منهم ، وحذره من غزواتهم عليه وأقاربهم فيه .

بروّه السرار بكل أمر مخافة أن يكون به السرار دفعته إلى اتخاذ تلك الدرع من الهزء بهم ، والسخر من أعمالهم ، وأكثر ما يكون هذا السخر حاجزاً يلجأ إليه بعض الضمفاء الحيين فيفاجئون الناس بما يخافونه منهم ، وأنعمى المرة كان من هؤلاء فسخر وأسرف في السخر ، حتى لم ينبج منه أحد ، لا من كبار القوم ولا من صغارهم ، لا من رجال الدين ولا من رجال الدنيا ، لا من الأحياء ولا من الموتى ، لا من طامة البشر ولا من الأنبياء ، لا من الملائكة ولا من الجن ، وكان يمتزج هذا السخر بشيء من الحسرة ولد تشاؤماً كثيراً وسوء ظن بالناس لم يختص بالنساء وحدهن بل شمل بني آدم أجمعين ، وارتقى أحياناً إلى الخلق نفسه .

وكان من نتائج هذا الغليان الفكري ، ومن أثر تلك الحالات المتناوبة عقلية الشاعر الحساسة القلقة ، شذور أحكام وشئ آراء مسكوكة سكة النقود الملعنة يتداولها الناس فيستنتجون منها المذاهب المتناقضة ، والمعاقد الغريبة ، يزرى عليه بعضهم إلحاده الوقح ، ويبرئه غيرهم من "وصمة الكفر الشنعاء" ، ويقيمهم فريق آخر زعيماً لأرباب الشك والارتياب ، ويبني له غير هؤلاء صرح الفلسفة المادبة طامياً ، ولكل فريق أسانيد صارخة في "اللزوميات" وفي

غير اللزوميات ، ، يشرحونها ويؤولونها ، ويعلقون عليها ، وكل حزب بما
لبيهم فرحوت .

بيد أن الخطب أيسر من ذلك في نظرنا ، فليس أبو العلاء بالكافر المخذ ،
ولا بالمومن المستسلم ، ولا بالشاك الحائر شكاً علمياً ، ولا بالفيلسوف المادي . إنما
هو ذكاء حاد ، وعقل معجب بذاته حتى الغرور ؛ وشعور مرهف بوطأة
مصايبه خاصة ومصايب قومه عامة ؛ وفضول مستيقظ لما يقال في زمانه — وفي
كل زمان — في جور الحكام ، وفساد الأخلاق ، وحيل النساء خاصة ، ورياء
رجال الدين ؛ وبقية إيمان في قرارة النفس تكاد تخنقها هذه الموجات الطامية ،
ثم هو ، فوق ذلك ، بلاغة صارخة على هدوئها ، وحجة دامغة ، واستنتاج
جارف لا يقف لدي تحفظ ، ولا يأخذ باحتياط ، ومقارنات مفاجئة كانت
في أصل ذاك السخر المدهم .

ولكان أبو العلاء غير هذه الشخصية المبددة لو أمكنه أن يتعمق في
درس الأصول الدينية فيميز بين الشريعة في روحها ومظاهرها تطبيقها في العالم
ولا يحمل النبؤات ففاق بعض أتباعها ورياء بعض ممثليها . ولو أمكنه ، كذلك
أن يتلقى المبادئ الفلسفية على وجهها الإنساني الأصيل ، غير مكثف بفبار
المجادلات وزيد المناظرات ، لما اغتر بال عقل الحسي المشترك وحده يجعله إمامه
في كل شيء .

هذه خطوط عامة في تصوير شخصية أبي العلاء ، قد تكون متقطعة وقد
تكون واهية ، ولكنها ضرورية في نظرنا ، لتمثل الفكر قبل الولوج إلى فكرته .
أما موضوعات هذه الفكرة أو أهداف الحملة العلائية ، فقد تزد إلى أربعة :
١ — العناية الألهمية . وهي ، لو كانت موجودة ، لعنيت بالنظام والمدل
في هذا العالم ، فلم يسيطر فيه الشر ولم تتوال المصايب على أبي العلاء ؛ تلك
المصايب التي لم يجد لها سبباً في أعماله ، ولا في حياته الخاصة المكتنفة
بالمغاف والزهد .

٢ — الحقائق الدينية بمحملتها في جميع الديانات ، والشرائع التي تسمح للناس
بالإساءة إلى الناس .

٣ — مصير النفس بعد الموت ، وكل ما تعلق بذلك من بئس و ثواب وعقاب .
٤ — هذا المجتمع البشري الفاسد الذي لا دواء له إلا قطع النسل . ومن هنا حملته على الزواج ، وبالتالي على المرأة .
وقبل أن نشهد الانغماس في هذا المعترك اليائس ، لتتفحص ممداته للقتال ولتتعرف مقاييسه ، فنراه أعزل إلا من العقل .

كذب الظن لا إمام سوى العقل — مشيراً في صبحه والمساء

سأبغ من يدعو إلى الخير جاهداً وأرحل عنها ، ما إمامي سوى عقلي
ولكن أي عقل هو ؟ ولأي شيء يصبح مقياساً ؟

ينتج من اللزوميات أن المقصود بهذا « العقل » الذي يردد ذكره أبو الملاء في أكثر الصفحات ، فيلوذ به كلما عرضت له مشكلة ، هذا الحس ، أو الإدراك ، أو بادي الرأي المشترك بين الناس يأخذون به في اختبارهم اليومي وأحكامهم الجارية ، هذا الإدراك العامي الذي جعله ديكارت « مشاعاً بين البشر » .
هذا العقل الحسي الشائع يصلح مقياساً للحسوسات ، فهو سيد في منطقته المادية ، أما إذا ارتفعنا به إلى ما فوق فلا يرى إلا الانكار والنفي ؛ حتى في الشؤون الطبيعية التي لا تقع تحت حسه ، كأن ينفي في القرون الوسطى أن تكون الشمس ثابتة والأرض تدور ، وكان من حقه أن ينفي ، ثلاثين سنة خلت ، أن يسمع أهل دمشق مثلاً رجلاً يتكلم في بغداد .

هذا العقل الحسي ، هذا المقياس البسيط ، هو الذي تسليح به أبو الملاء فأقبل على الكون بأجمعه ، يقيس كل شيء ، ويجادل في كل شيء ، تحت راية ذلك العقل ، فلا عجب أن يُشير كثيراً من الغبار ، ويحدث ضجة ، لا تزال أصدائها تتردد حتى اليوم في أنحاء الاعتراضات السطحية والاحتجاجات العامة ، وأي فرق بين هذا الشاعر المفكر والرجل العامي لا يفهم أحكام ما يفوق « عقله » من الشؤون فيزري بها ، سوى تلك اللذعة التهكية ، وذاك التساؤل المغربي بالتشكيك واللاأدرية ، أو لم يقلد المعري في « عقله » كثير من الشعراء ، فمعرضوا الاستفهامات عديدة في بحالي الكون ، وتصوروا أنهم أدركوا قمة التفكير الفلسفي إذ أجابوا عن كل ذلك بتعبير واحد : لست أدري !

ذلك أن لكل مقيس مقياساً خاصاً ، ولكل نظام في العالم محكا من وعه ، فلا تنكال الأرض بالصاع ، ولا يقاس الفكر بالقفزان .
ولا نرى أبا العلاء ميز في صلاح مقياسه العقلي بين نظم العالم المدرجة من الطبيعي المادي ، إلى الانساني الفكري ، إلى الالهي فائق الطبيعة ، فكان لا بد من فساد النتيجة إذ فسدت المقاييس ، وكان لا بد من أن ينفي وجود الملائكة والجن كما ينفي وجود فلان من الناس في بيته مثلاً ، والدليل المشترك بين النفيين هو كونه لا يحس بها :

قد عشت عمراً طويلاً ما علمت به حساً يحس الجني ولا ملك
أخذ أبو العلاء بهذا المقياس في اختبار المادي فصح مقياس الأحكام ، وأمكنه أن ينفي وجود الفلان في بيته لأنه لا يحس به . فخال المقياس صحيحاً كذلك في الشؤون الفارقة المادية ، ومن من المفكرين لا يميز بين هذين العالمين الفارقين ، فينتقل من الواحد إلى الآخر بالمقياس نفسه ؛ إلا إذا شاء أن يتظرف أو يتأخف فعل أبي نواس ، ولا نراه بعيداً عن أبي العلاء في استخدامه هذا المقياس :

ما جاءنا أحدٌ يُخبر أنه في جنة مذمات أو في نار !
وينتقل الشاعر بمقياسه من الجن والملائكة إلى الله فيقول :
أما الإله فإني لست مدركه
وهو على حق وإخلاص في قوله ، لأنه لن يدرك الإله عن هذا الطريق .
على أن الطبيعة الإنسانية ، طبيعته التامة ، كانت كثيراً ما تنور على هذه النتائج المنطقية الفاسدة ؛ فيسكن أبو العلاء إلى الإيمان :
أثبت لي خالقاً حكيماً ولست من مشر النفاة

* * *

انفرد اللهُ بسلطانه فإله في كل حال كفاء
ما خفيت قدرته عنكم وهل لها عن ذي رشاد خفاء ؟
ثم يعود بقله إلى العالم الروحي ، فيزى الديانات المتباينة والعبادات المختلفة ، والشرائع المتناحرة أحياناً ، وكلها تدعي صحة الدين ، وطهارة الإيمان ، والعمل

على خلاص البشر ، فيضيع مقياسه في ذلك ، ولا يرى أفضل من أن يشكرها جميعاً ،
حاكماً عليها بالضلال لأنها تخالف العقل :

هفت الخيفة والنصارى ما اهدت والهود حارت ، والمجوس مضلله*
اثنان أهل الأرض ، ذو عقل بلا دين ، وآخر دين لا عقل له !

* * *

إذا رجع الحضيف إلى حجاجه تهاوت بالمذاهب وازدراها
وهت أديانهم من كل وجه فبل عقل تشد به عُمرها !
وذاك ان اختلاف العبادات يظهر جذيراً بالازدراء في نظرها العقل ، فلو كان
الجوهر واحداً ، لما تباينت الأعراض :

عجت لكسرى وأشياعه وغسل الوجوه ببول البقر*
وقول النصارى : إله يضام ويظلم حياً ولا ينتصر
وقول اليهود : إله يجب رشاش الدماء وريح القدر
وقوم أتوا من اقاصي البلاد لرمي الجمار ولثم الحجر
فواعجباً من مقالاتهم ! أيعنى عن الحق كل البشر (١)

أجل هذه مفاعيل المقياس المادي الضيق الذي لا يمكنه أن يتجاوز الأعراض
الى الجوهر الروحي لأنه من نظام مادي . ولا مندوحة لنا في قدر هذا الفرق قدره
الصحيح من تذكر ما أشاد به بسكال من تدرج الأنظمة في العالم : النظام المادي وله
مقاييسه ، والنظام العقلي وله مقاييسه كذلك ، والنظام الروحي ، أو نظام المحبة ،
وله مقاييس خاصة . ومن لم يتجاوز النظام الى تاليه فيستعمل لكل نظام
مقياسه الخاص ضد ولم يستصبح بنور . هذا المعري يرى تنوع الديانات في
اعراضها فينكرها جميعاً ويرمي أصحابها بالعمى . وهذا ابن عربي يتحقق التنوع
نفسه ، ولكنه يتجاوز في حكمه نظام المادة الى نظام المحبة فينفذ من الأعراض
المتباينة الى الجوهر الموحد ، فيتحقق ان لامبود في الواقع الا الله ويصبح :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فرعى لغزلان ودبر لرهان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وأواح توراة ومصحف قرآن

(١) سواء اهتمت نسبة هذه الايات أم لا فانها تصور الفكرة الملائية في صيغها .

أدين بدين الحب أى توجت ركائبه فالحب ديني وإيماني

* *

ولنعد الى إله آبي الملاء، الذي يمو داليه بعقله ، فلا يمكن أن يتصوره خارجاً عن الزمان والمكان . وقد كان مشكل ازلية العالم لا يزال يحرق الأدمغة في ذاك العهد . فاذا كان العالم أزلياً ، كان الزمان - وهو امتداد الحركة - والمكان - وهو امتداد الاقطار - ازليين كذلك :

ولو طار جبريل بقية عمره من الدهر، ما استطاع الخروج من الدهر
فصار الله ضمن الزمان وضمن المكان :

قالوا : لنا خالق قديم قلنا : صدقم ، كذا نقول
زعمتموه بلا زمان ولا مكان ؛ ألا فقولوا :
هذا كلام له خبيء معناه : ليست لنا عقول !
اما الجنس البشري في هذا العالم الأزلي فليس من الضرورة ان يبدأ بآدم
المروف ، بل قد يرقى في القدم الى الأزل . ولم لا ؟

خالق لا يشك فيه قديم وزمان على الأنام تقادم
جائز أن يكون آدمُ هذا قبله آدم على إثر آدم !
والديانات ظواهر اجتماعية تأتي وتزول :

أتى عيسى فأبطل دين موسى وجاء محمد بصلاة خمس
وقيل يحىء دين بعد هذا فأودى الناس بين غد وأمس
إذا قلت الحال رفعت صوتي وإن قلت اليقين أطلت همسي

ولا تترك بيننا إلا التفرقة والاحن والمداوات :
إن الشرائع ألقت بيننا إحناً وأورثتنا أفانتين المداوات
وهل أبيضت نساء الروم عن عرض للعرب الا باحكام النبوات
ثم يتناول الشرائع وتناقضها الظاهر في نظره :

يد بخمس مئين عسجداً ودبت ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض مالنا الا السكوت له وأن نموذ بمولانا من النار

وهو فساد قياس أدبي إليه سوء الفهم لروح الشريعة . وقد انتبه له الكثيرون
من تمقبوا المعري بالنقد والرد والشم والتكفير . قال ياقوت جامعاً كل ذلك
« كأن المعري حمار لا يفقه شيئاً . وإلا فالمراد بهذا بين : لو كانت اليد لا تقطع
إلا في سرقة خمسمائة دينار لكثرة سرقة ما دونها طمعاً في النجاة . ولو كانت اليد
تودي ربع دينار لكثرة من يقطعها ويؤدي ربع دينار دية عنها . فعوذ بالله
من الضلال ؟ »

ومن المشاكل التي اثارت خيال المعري ، وأرهفت حسه ، وأقلقت عقله
مشكلة الانسان : كيانه ومصيره .

أولم يكن من الافضل ألا يكون ؟

رب الزمان مفرق الالفين فاحكم الهي بين ذاك وبين
أنهيت عن قتل النفوس تمعداً وبمشت انت لقتلها ملكين
وزعمت أن لها معاداً ثانياً ما كان اغناها عن الحاليين
أما الموت فيتوق إليه المعري على خوفه منه . يتوق إليه لان فيه راحة وغنى
ضجمة الموت رقدة يستريح الجسم فيها ، والعيش مثل السهاد
تعب كلها الحياة فما أعجب الا من طامع في ازدياد

* * *

أصبح في لحدي على وحدتي لست إلى الدنيا بمحتاج

* * *

فما لي أخاف طريق الردي وذلك خير طريق سلك
يربحك من عيشة مرة ومال أضيع ومال ملك
ولكنه يخاف على الرغم من هذه المحاولة في الاقتناع
وخوف الردي آوى الى الكهف أهله وكلف نوحا وابنه عمل السفن
وما استعذبته روح موسى وآدم وقد وعدا من بعده ، جتي عدن
ويقول ، وملء جوانحه الرعب والأسى :

يهال التراب على من نوى فاه من النبا الهائل

ثم يخص نفسه ، فيتصور انقضاء اجله واهتمام الناس بجفر قبره في تلك
الصورة المفزعة :

يكر الحول بعد الحول عني وتلك مصارع الاقوام حولي
كأنني بالاولى حفروا لجاري وقد أخذوا المaul وانتحوا لي
وأما ما وراء الموت ...

أما الجسوم فللتراب مآلها وعييت بالارواح أني تسلك
ولندعه على عيه بالارواح هنيةً ، منصرفين الى ما يستخرجه خياله الخصب
من نهاية الجسد وتحوله الى تراب :

تعود إلى الارض أجسامنا وتلتحق بالنصر الطاهر
ويقضي بنا فرضه ناسك يمرّ اليدين على الظاهر

* * *

تيمموا بترابي علّ فمكم بعد الهمود يوافيني بأغراضي
وان جعلت بحكم الله في خرف يقضي الطهور، فأني شاكر راض
فاذا كان الانسان نهايته الى إناء الفخار

فلا عس غفراً من الفخر عائد الى عنصر الفخار للنفع يضرب
لمل إناء منه يصنع مرّةً فيأكل فيه من أراد ويشرب
ويحمل من أرض لارض وما درى فواها له بعد البلى ، يتغرب
وتعجب بتغرب هذه العناصر بعد هلاك المركب الجامع .

وما أقرب فكرة التحول هذا إلى رباعية الخيام ، وقد دخل مصل الخراف
فتخيل سماع الأرواح ترتفع إليه من خلال الطين المجهول ! قال (في تمريب
وديع البستاني) .

أمر أبصرتُ جارنا الخرافا يحيل الطين كيف شاء اعتسافا
ويكيل المقدار منه خرافا

وكأنني سمعت بين يديه موت مظلومة تشكي لديه
آه رفقاً ! فأنت طين وماء أيها المرء ، لا تسمنى العذابا !
هذا النفع المادي من مآل الأجسام البشرية يتوسع فيه أبو الملاء حتى
التصورات المزعجة . فيذكر أجساداً كانت جذيرة بالصون وقد صارت في
طلاء الجدار ، .

وكم من رجال جُسمهم 'عُفِرُ' تبنى بهم أو عليهم 'الجُدُرُ'
وهذه الصورة ، وهي أروع وأشدّ وقماً لما فيها من التخصيص والتضاد :
لعل مفاصل البناء 'تضحي' طلاءً للسقيفة والجدار
ويبلغ به التصور الخيالي أن يرى سطح الأرض كله من تراب الأجسام
فيربأ بالموتى أن يدوسهم الأحياء :

خفف الوطء ما أظن أديم الأ' رض إلا من هذه الأجساد
سرّ إن اسطمت في الهواء رويداً لا اختيلاً على رفات المباد
وقبّح بنا وإن قدم المهد هوان الآباء والأجداد
وكيف بهذا التصوّر الفسيح الغنيّ إن علق به الشاعر الفارسي فأشار
إلى عادة الفرس في إراقة القطرات من الكأس قبل شربها :

ما 'جزافاً' ما قد أراق السقاة ! لا لعمرى بل تلکم' صدقات
إنما الترب يا ندأى رفات !

فليرقوا فتلكم القطرات' لكبود تذيبها الحشرات
وليريقوا لملها مطفئات' لوعة في الترى توجّ التهاها !

* * *

هذا مصير الأجسام . وأما الأرواح ، وهي لا تقع تحت الحس ، فلم يكن
لعقل المعري أن يحيب عن مصيرها بشي' .

فهل تحس إذا بانّت عن الجسد ؟

أم انها تنتقل من جسد إلى جسد وفقاً لزعم المنود في التناسخ ؟ وهل
تدخل جسد الحيوان في تنقلاتها ؟ وهل هناك بث ؟ وحشر ؟ ودينونة ؟
أما العقل فيقول :

ولم زبطن الأرض يلقي لظهرها رجلاً كما يلقي الى بطنها الظهر

* *

تعطنا الأيام حتى كأننا زجاج ، ولكن لا يعاد لنا سبك

ويرفض التناسخ :

يقولون إن الجسم يُنقل روحه إلى غيره حتى يهذه النقل
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل !
وأما بقية الايمان فتصيح :
وقدرة الله حق ليس يُمجزها حشر لجسم ولا يمت لاموات

* * *

إذا ما أعظمي كانت هباءً فإن الله لا يمييه جمي
بل هي تناضل عن هذا الايمان بالبعث ، وتراهن عليه ، قبل الغزالي بنصف
قرن ، وقبل بسكال بستة قرون :

زعم المنجم والطبيب كلاهما أن لامعاد . فقلت : ذاك إليكما
أن صح قولكما فليست بخاسر أو صح قولي ، فالو بال عليكما

* *

وكيف يشيب الله الناس أو يعاقبهم على أفعالهم ، وهم غير مخيرين فيها .
وهل في هذا الكون القديم السائر منذ الازل الى الابد ، مكان لاختيار أو
أثر لحرية ؟ وكيف يؤمن العقل بالحرية والتخير .
والمرء يقدم دنياء على خطر الكره منه ، وينأها على سحقه ؟

* *

ما باختياري ميلادي ولا هرمي ولا حياتي ، فهل لي بمدتخير ؟
كان عراك الجبرية والقدرية قد خف في المجتمع الاسلامي . ولكنه لم يخف
ولن يخف في الفكر البشري ، وهو المقابل بين معرفة الله الشاملة وارادته المطلقة
من جهة وعدله بين الناس في توزيع الثواب والعقاب وما يفرضه ذلك من مسؤولية
فردية وبالتالي من حرية اختيار .

أما أبو العلاء فقد كان جازماً في حكمه ، غير متردد في استنتاج كل ما يمكن
من هذا البدأ . فحمل على القائلين بهلاك من يفعل الكبائر .

ان كان من فعل الكبائر مجبراً فمقابله ظلم على ما يفعله
وتجاوز حتى جعل المدح والذم لا معنى لهما لأن الانسان غير مخير في اكتسابهما.
وقال إن تأليفه الكتب ونظمه الشعر بقضاء وقدر .

وإذا كانت الأمر كذلك فقد أصبح الإصلاح لا يرجي في المجتمع ، وظل
الانسان شريكاً بطبعه ، كما يقول ، وظل الفساد غريزة فيه ، لا يمتاز أحد عن
الآخر في هذا الأمر :

إن مازت الناس أخلاق يقاس بها فانهم عند سوء الطبع ، أسوأ
أو كان كل بني حواء يشبهني فبئس ما ولدت للناس حواء
وإذا فقد كان طبيعياً أن يفضل المعري الحيوانات على البشر ، بل يفضل
تسريح برغوث على عمل الإحسان :

تسريح كفي برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجاً ؛
أما الخلاص من الشر الاصيل في البشر فلا سبيل اليه الا العدم أي قطع النسل :
فليت وليداً مات ساعة وضمه ولم يرتضع من امه النفساء
ومن نظريات المعري الحبيبة الى قلبه ان الآباء يمنون على ابنائهم :
على الولد يمنني والد ولوانهم ولاية على أمصارهم خطباء
وهو ما يبرر تلك الوصية الغريبة التي شاءها ان يكتب على قبره :
هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد ؛
ولا سبيل الى قطع النسل الا بتحريم الزواج ، فينقطع بذلك الشر في العالم .
وقد سهل له عقله ، وهو الشفيق على البرغوث ، أن لا يتراجع عن وأد البنات :
ودفن ، والحوادث فاجعات لا إحداهن احدى المكرمات
بل ان عقله هذا يقوده الى تصور امور يتشم لها في التساهل بتزويج البنات
شرط أن لا يزوج البنون :

واطلب لبنتك زوجاً كي يراعيها وخوف ابنك من نسل وتزويج
ولا نعلم بما نمتنر عنه في حملته على النساء . وما كانت تلك الحملة مقصودة
لنفسها . الا انه جر إليها في حملته على النسل البشري . ولو لم توجد المرأة لكان
ذلك بهمة السعادة . اما وقد وجدت فينبغي .

لرومها البيت مع اهتمامها حتى يحجبها الوفد من حمامها
وطبيعي أن يكون تلميم النساء امرأ مفروغاً منه في نظر الميري :
علموهن الفزل والنسج والرد ن وخلوا كتابة وقراءه
فصلاة الفتاة بالحمد والاخلا ص نفني عن يونس وبراهه

ولا تحمد حسانتك ان توافت بأيد للسطور مقومات
فحمل منازل النسوان أولى بهن من اليراع مقليات
واذا كان لابد لمن من تلاوة شيء من القرآن فلينظر الى عجوز متناهية الكبر
فاقدة الاسنان :

ليأخذن التلاوة عن عجوز من الالائي ففرن مهتمات
يسبحن المليك بكل جنح ويركمن الضحى متألمات
فما عيب على الفتيات لحن اذا قلن المراد مترجمات
ولا يدين من شيخ ضرب يلقنهن آيا محكمات
سوى من كان مرتعشاً يده ولته من المتشغفات
وكأنه يتصور مطالب النساء الكثيرة ومراهم البعيدة فيرسم لهن تلك
الصورة المتحركة على مهلها :

أعوذ بالله من ورهاء قائلة للزوج : إني الى الحمام أحتاج
وهما في أمور لو يتابها كسرى عليها، لشين الملك والقاج!

ولم يفت نظام المجتمع فكر الميري ، وقد كثر فساد الحكم في عصره . فحكم
عقله في السلطة ومبداها ، وطلع علينا برأي كان جديداً في القرون الوسطى
المؤمنة بأن كل سلطة من الله الخالقة حول صاحب الامر هالة من الكرامة
والتبجيل . واذا باعوى المرة بفتح أبصار الناس على أن مصدر السلطة الشعب
وان الامير خادم الرعية :

من المقام فكم أعاشر أمة أمرت بنير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها ، وم أجراؤها !

ثم يستنكر عقله أن يكون البشر طبقات مميّزة في الشرف والحقوق وهم متساوون في الأصل والجلّة ، فيصيح :

لا يفخرن الهاشمي على امرئ من آل بربر
فلحق يحلف ما علي عنده الا ككفبر

هذه المساواة بين البشر يريدّها كذلك في الممتلكات ، رامية الى شيء من الاشتراكية ، لفظاً على الأقل :

لو كان لي ، أو لغيري قدر أئمة من البسيطة ، خلت الامر مشتركا

من الاله ؛ الى النبؤات والشرائع ، الى مصير الاجساد والارواح ، الى مظاهر المجتمع ، لمحات خاطرة ، ونفذات مشمة ، وأحكام تتفاوت خطأ وصواباً ، وآراء تتباين عمقاً وتسطحاً . هي حجارة من مقالع مختلفة تحتها الشاعر الجاهد فزخرف بعضها ، وصقل البعض الآخر ، وتركها مبثرة معالم على طريق المفكرين دون أن يشيد منها ذاك الصرح الموحد التصميم ، الموحد البنيات في التفكير البشري المتناسق . إلا أنه ، وإن لم يوفق الى السير في سمت الفلسفة الانسانية السوية ، فقد كفاه غمراً أنه بدأ ، منذ ألف سنة ، يحر هذه الاداة العجيبة التي تجعل من الكائن البشري انساناً كاملاً ، ألا وهي العقل !

فؤاد افرايم البستاني
مندوب لبنان

من هو ابو الملاء المعري

ولم تقام المهرجانات لذكري مرور الف عام على ولادته

ما كان ابو الملاء المعري نبياً جاء بدين يهدي البشر الى الصراط المستقيم ولا خليفة راشداً استن لامة سنناً تهديهم الى سبل الرشاد . ولا ملكاً عزيز الجانب لم تأخذه في الحق لومة لائم . ولا قائداً فالحماً وسع ملك العرب وسلطانهم ، ولا بطلاً ردت عنهم غزاة بسلاهم ، ولا مجتهداً وضع لامة مبادئ قادتهم الى الخير ، ولا مكتشفاً ضم الى بلادته بلاداً اخرى ولا مخترعاً اوجد لامته ما هون عليها مشقات العمل .

ولكن الروح الانسانية تواقه بفطرتها الى الافكار والسوانح الملوية التي تعبق من مهبط الكمال في ظلمات اسرار الخليقة فتتير السبل وتدفع البشر الى الملاء .

والذكاء والمعرفة أعلى ميزات الانسان وأجلها ، فاذا اقترنا بالمقل والوجدان كانا كواكب منيرة في ظلمات الخليقة يهتدي بها العاشي في حالك المضلات . واثية الانسان وحرسه على صيانة ما يخصه من كل جاعة تجعله يقدس من تخلق بالقواعد التي وضعا البشر لهذه الغاية واحترام كل من يدافع عنها بالقوة او باللسان . واذا كان هذا التخلق والدفاع في زمن كثر فيه الاستهتار واشتدت فيه قوة الاستغلال زاد صاحبه اكباراً واجلالاً في نظر أمثاله من بني الانسان .

واذا جاء بأكثر مما كان يطلب منه استجلب الانتظار اليه واختص بتقدير من لم يكن قادراً على مساواته وأصبح بنظر الناس من الأقداد . وابو الملاء المعري كان خلوقاً جريئاً قوي الروح والارادة زكياً عالماً قادراً على التعبير عما يخالج نفسه من عواطف وأفكار وانتقاد كل ما لم يقبله الخلق الكامل

والعقل السليم بحرية وجرأة وبلغة متينة غير مبال بما تأتي به آراؤه بالنسبة الى عصره من مقت ونكبات .

وقد تغلب فيه جوهر الروح على جوهر الجسد فكبح جماح شهواته المادية وعاش عيشة الزهاد المتقشفين مكتفياً بما يمسك مسكة حوبائه من طعام وشراب وتغذية روحه بالدرس والتفكير والتدريس والنظم والتأليف ، غير ملتفت الى قيود محيطه الذي ساد فيه القلق والاضطراب وضجيت فيه الحرية في سبيل ممارسة خصائص الحكم التي كانت تستلزمها حالة الاجتماع آنئذ .

وهذه الخصائص وهذا الاعتكاف على الدرس والتفكير الذي اتخذ فيه الحياة الانسانية كلها موضوعاً لتفكيره والتأمل بحل معضلاتها جاء بينات أفكاره التي استجلبت إعجاب الادباء والعلماء من سائر بني الانسان .

ان منشأ حبنا وقصورنا ومخاوفنا وآمالنا وحسراتنا ورجائنا هو النفس وليس العقل الذي هو آلة الفكر والمحاكمة ، فالنفس هي ينبوع الفياض لمواطننا ، والمواطن هي الجوهر الأصلي في انسانيتنا والفكر واسطة لتسميتها وتفسيرها واللسان وتر ما يلد في وجداننا من المواطن المنبعثة عن حالاتنا النفسية .

وهناك بعض تجليات نفسية عميقة لا نستطيع التعبير عنها بلغة الكلام قذهب بنا الى فكرة يأس عميق أو سرور ظاهر .

ومن هذا يمكن وجود مسلكين متناقضين من فكرة واحدة أحدهما يشقي الانسان والآخري سنده قليلاً أو كثيراً ، والأول هو التشاؤم والثاني هو التفاؤل ، وإذا ليست مسألة التشاؤم والتفاؤل الامسألة مزاجية .

فإذا نظر الانسان الى الاكوان الخارجية وصحف حياته نظرة تقدير يحاول بها تعيين القيم فلا ينظر الا من وراء أحواله النفسية فيرى الدنيا جميلة أو قبيحة والحياة سميدة أو شقية على نسبة انتماشه المعنوي .

واللذة والألم والسرور والحزن حالتان أصنيتان في الحياة الانسانية وكل حالة منهما يتلازم فرعاهما مردودين الى شكل عام من أشكال الشعور ينتهي بنا الى القول بأن من لم يتألم لا يتلذذ ومن لم يحزن لا يسر وان الوجدان البشري بحر خضم مجهول الحدود لا ينال غوره تمر به الرياح والعواصف من حين الى

آخر فتشير فيه أمواجاً يعجز العقل عن استيعابها وهي ما نسميه وحياً وإلهاماً وتلك الأمواج هي الحالات النفسية ، والإنسان على اعتماد عظيم لحمل الكون الجامد الصامت بأسره على لسانه وهذا هو الشعر في اعم وأتم معناه والإنسان يمثل هذا الاعتماد انما يأنس الى الأكون فينطقها ويقبس منها معاني وأفكاراً تصلها به الصلة الثامة فيمد الكون بالمعاني .

وما الشاعر الفذ الا ذلك الذي يمد الكون بالمعاني البليغة ويخترق حجب الحياة والموت ويهز النفس أبدأ لسورة إلهامه ويزن الحياة بالقسطاس المستقيم . وليس من أمر انساني يفوق أهمية أمر تقويم الحياة وتفسيرها بالمعنى الصحيح الا أن الناس لم يختلفوا في أمر قط اختلافهم في حل هذه المعضلة الموبصة ، لا يكتنف مزاجهم من مجلى حالتي التشاؤم والتفاؤل وما صيغ أفكارهم من صبغة الأمل الباسم أو اليأس الباكي .

وان أروع الشعر واجمل البيان هو ما استطاع أن يكشف العواطف المستترقة المتصلة بقضايا الموت والحياة والسعادة والشقاء التي تتلاطم أمواجها في قفوسنا دائرة على قطبي اليأس والرجاء .

ولمقايد الإنسان في المعاد والآخرة اتصال وثيق بانصراف أفكاره وعواطفه الى نظريات التفاؤل والتشاؤم وللايمان وشكوكه آثرين في تلك العقائد ولتقديره الكون قائماً على الاتقان والنظام وعدم يقينه بذلك دخل كلي في إيمانه وشكوكه فمن لم يؤمن بالعدل المطلق لا يؤمن بالآخرة ، ولهذا المباديء أكبر صلة بالخير والشر فمن يعتبر الخير أصلاً وعلة غائية يظل متفائلاً ومن يعتبر الشر أصلاً في الخلق لا يعيش الا متشاؤماً .

ومن هذا نستنتج ان الاصل في السعادة هو الاطمئنان النفسي وهذا مبني على الايمان . والايمان خارج عن اختيار الإنسان لانه لا بد فيه من الهام قدسي خاص أي هداية كما قال تعالى : (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وفي التشاؤم الاقرار بأن الشر أصل في الوجود ، وقد كان المعري من عباقرة الشعراء الذاهبين الى الشق الثاني ويرى أن الدهر قائم على الاتلاف والافساد والمجتمع منصوب على القدر والخيانة وأن النظم البشرية التي يسير

عليها المجتمع بعيدة عن تقويم الحياة والقسطاس المستقيم الذي يريده العقل وأن لا شيء قائم على الاتقان والنظام والعدل والمساواة ؛ فأراد أن يفهم الكون بجميع المعلومات الناجمة عن تجارب البشر والاديان وتاريخ الانسان على العموم ، فدار حول دائرة المعارف الانسانية الصغيرة في وسط فضاء الظلام الواسع يدرس ويفكر وهو الشاعر الملهم والحكيم الواعي ، والفيلسوف اذا سار مع ميوله الطبيعية وتذوق بالشبه ولم يكبح جماح خياله وقع بالشك وانتقاد للمؤثرات النفسانية التي تهاجمه من كل سوب وحذب فتطوَّح به للانكار وتزمله بالتشاؤم في كل أقواله وأفكاره .

وعمي المعري في الرابعة من عمره وقساوة محيطه وعيشه وما أوتيته من الاحساس الرقيق دفعه لانتقاد كل ما لم يقبله عقله ووجدانه غير هيَّاب ولا وجل . فصور آراءه في شعره ونثره غير ملتفت إلى قيود محيطه وعقيدته فجاء بما جاء به من انتقاد للمجتمع ولبعض المظاهر الدينية ووقف حائراً يقول :

وبصير الاقوام مثلي أعمى فلهما في حندس نتصادم
ونظر إلى موت أصحابه الذين سبقوه إلى دار البتاء ، فرأى هناك سرّاً غامضاً تقف العقول عنده حيرى كليله فقال :

أما الصحاب فقدموا وما عادوا	وينتنا بلقاء الموت ميماد
سرّ قديم وأمر غير متضح	فهل على كشفنا للحق اسعاد
سيران ضدان من روح ومن جسد	هذا هبوط وهذا فيه اصعاد
أخذ المنايا سوانا وهي تاركة	قبيلنا عظة منها وإيماد
توقموا السيل، أوفى عارض وله	في العين برق وفي الاسماع ارعاد
وتراه تجاه هذا السرّ المين ينتقل	لجأة إلى تقويم الحياة وبيان ماهية

الوجود فيقول :

كل ذكر من بعده نسيان	ونقيب الآثار والأعيان
إنما هذه الحياة عناء	فليخبرك عن أذاها العيان
ما يحسّ التراب ثقلاً إذا ديس	ولا الماء يتمب الجريان
نفس بعد مثله يتقضى	فتمرّ الدهور والأحيان

ومرثيته الخالدة خير معبر عن فكرته في الحياة التي لا يرى فيها ما يستحق منه دمة أو ابتسامة حيناً يقول :

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النمي إذا قيس بصوت البشير في كل ناد
أبكت تلك الحمامة أم غنت على فرع غصنها المياد

ولكنه سما بتفكيره إلى عالم الحقيقة عالم القيم المحضة المينة المستقر الذي لا يتغير يجذبه نحوه كالغناطيس وعلا به إلى مكائته العليا ووهبه قوة على الهوض فوق قوة مستواه الطبيعي فرأى أن العالم ليس مجرد مجموعة ذرات مادية محسودة بدون معنى وأنه ليس مجرد فراغ تدور حوله حياة الإنسان ، فقال :

بوحداية الملام دنا فذرني أقطع الأيام وحدي
وقال :

انفرد الله بسلطانه فما له في كل حال كفاء
ما خفيت قدرته عنكم وهل لها عن ذي رشاد خفاء
والبيت الأول لا يمدو قول الله عز وجل (قل هو الله أحد) إلى آخر
السورة ، لأنه يثبت الوحداية ويثبت القدرة بلفظ القرآن .
وقال :

أما ترى الشهب في أفلاكها انتقلت بقدرة من ملك غير منتقل
وهنا يقصد استقرار الموجود المطلق ، ثم قال :
والله أكبر لا يدنو القياس له ولا يجوز عليه كان أو صار
وهنا قال بعالم لا يتناهى ومكان لا يتناهى وإله في هذا العالم لا يتناهى .
وقال :

هو الفلك الدوار أجراه ربه على ما ترى من قبل أن تجري الفلك
له العزم يشركه في الملك غيره فيا جهل إنسان يقول لي الملك
وأيامه منظومة في حياته ولا نظم يبقى حين يعتلي السلك
خلقنا شيء غير باد وإلما نعيش قليلاً ثم يدركنا الهلك

وهنا استمد ضرورة الايمان من ضرورة المنظم لهذه الخليقة التي حارت بها الافكار وهو يرى اننا خلقنا شيئا غير باد لعقلنا المحدود .

وهو بمناسبات عديدة يبين لنا اعتقاده القوي في الحياة الآخرة وعبادته الموجود المطلق عبادة خالصة لوجه تعالى ، لاحبا بحبته ولاخوفا من ناره ، ومنها :
وقدرة الله حق ليس يمجزها حشر الخلق ولا يبعث لاموات
فالعجب لمعوية الاجرام صامتة فيما يقال ومنها ذات اصوات

واعبد الله لا ارجو مثوبته لكن تعبد اعظام واجلال
اصون ديني عن جعل أوامره اذا تعبد اقوام باجمال

ما الخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وانما هو ترك الشر مطرحا ونفضك الصدر من غل ومن حسد
مادامت الوحش والانعام خائفة فرسا فما صح امر النسك للاسد
وقد وضع على ما يفهم من نصوص الكتاب في زمن متأخر من حياته كتاب
الفصول والغايات بقدر الله فيه ويبجله بقديس النادم المستغفر الذي يمتدح أن
ذنوبه اعظم من ان تغفر واشد من أن تجدد مجالا للغفران .
وللتدليل على ذلك اذكر لكم ما قاله في هذا الخصوص :

(استغفر من لا يغزب عليه الغفران لو كانت الذنوب سودا صارت بشرتي
كلك انقرب واصبح دمي كالخبر المستنعت للكتاب واعديت ما جاورني من وقت
ومكان حتى يكون مقعدي في الشمس الصافية مظلمة وانا في رأد الضحاء) وقد
وضعه في تمجيد الله والمواعظ ، وقال :

(قد علم ربنا ما علم اني الفت الكلم آمل رضا المسلم واتقي سخطه المؤلم فهب
لي ما بلغ به رضاك من الكلم والمعاني الغراب) . والكتاب من الناحية العلمية
متعة الاديب وامنية العالم ملاءة بشق العلوم من اللغة والادب والمروض والنحو
والصرف والتاريخ والحديث والفقه والفلك ، بث فيه كل ما وعاه صدره من العلم
وغيره مما لم يسبق لغيره جمعه بالطريقة التي سلكها ذلك انه يولي الفقرة على تلامذته

ثم يختتمها بالغاية وهي عنده منزلة القافية من بيت الشعر ، وقد تطول الفقرة وقد تقصر ثم يملئ التفسير .

فالمعري شاعر حقيقي وفيلسوف مزاجي واكبر بميزات شعره انه صادر عن الم فياض وهيجان نفسي، ولكن آراءه ساطعة وطراز تفكيره موافق لاصول مراقبة الوجدان وسبيل استدلاله مثال للمنطق الحي وسلسلة محاكاته تنطلق من تموجات حواسه ، وطول عراكه في ظلمات الحياة ساقه للفضب وانكار قدسية الاديان .
وذهن المعري فعال في كل ميادين الحياة . وجوامع الكلم التي جاء بها غذاء روحي للمثقفين من ابناء الامة العربية .

وفالية الملل المعنوية في كل مؤلفاته والتنوع الذي لم يسبق اليه يجلبان لنا الدور الذي لعبه العقل والحس والالم وكلها تحتاج الى فكر وقاد ووجدان رقيق حساس وعلم جم والهام رائع يجب ان يحاكم من اتى بثلها وجدانه قبل ابرازها محاكمة دقيقة وان يتنور كل ما يحيط ويتركز في قرارة نفسه ووعيه لانها لاترد عفوا ولا يمكن أن تأتي من العدم بل هي ثمرة عملية ذهنية مصقولة جريئة وليست مما يقدر أن يأتي به كل انسان بل خص بها الافذاذ وصقلها العلم والتفكير ولذلك فان شاعرنا الفيلسوف من ارباب الخلود الذين انارت خواطرهم وسواهم عقول المثقفين وزادوا ثروة العالم الفكرية ، فلا غرو اذا ان يحتفل به الرب احتفال الامم الاخرى باكبر مفكريها .

اديب وهب

مندوب شرق الأردن

المعري والمرأة

أبا العلاء ! هل كان يخطر ببالك أن تشترك امرأة في تقديمك وتكريمك ؟ أما
تعجب يا عدو المرأة الجبار أن تقف امرأة الآن تفخر بك وتشيد بك ؟ أما تستغرب
فيلسوف المعرة أن أقف اليوم لأعيد مأسطرته قريحتك الناقمة الفياضة من الطعن
واللذع والحط من قيمتنا نحن معشر النساء ؟
أأنت أنت القائل :

ألا إن النساء جبال غي بهن يضيع الشرف التليد
وهل تنكر قولك :

أنت خنساء مكة كالثريا وخت في المواطن فرقدتها
ولو صلت بمنزلها وصامت لالفت ماتحاوله لديها
وهل نسيت قولك :

ودفن والحوادث فاجعات لاحداهن احدي المكرمات
وقولك :

ودفن الغانيات لمن أوفى من الكلل المنية والخدور
هبالك أبا العلاء تسرف في تجريح المرأة فتراها شيطانة غي تجرر وراءها الفتنة
حيث سارت وحيث حلت واني هبطت حتى ولو كانت في مكان من أقدس الأقداس .
وما الذي حدا بك حتى أوسعتها ذماً وتقريماً ورغبت في دفنها وسلبها نعيم الحياة
وعهدا بك تمت القسوة والظلم فهل اعتقدت اسحالة اصلاحها ؟ وليس عجيباً أن
تشترك المرأة في احياء ذكراك وتكريم آثارك الخالدة بعد أن تناولتها بلسان لاذع
وقول قارس لأن ظلمك الناس لم يكن مقتصرأ على المرأة فحسب بل تناولت الرجل
أيضاً بنصيب وافر من النقد والتشنيع إذ قلت :

فأف لعصريهم نهار وحندس وجندي رجال منهم ونساء
فكنت إذا تحدثت عن الحاكم نعمته بالظلم وعن الولد ريمته بالعقوق وعن

الضديق وصفته بالخلل والفدر وفد شككت بكل شيء حتى في القدرة الالهية فلا عجب إن شككت بمد هذا ، وكان حقاً عليك أن تنقلها الى جحيمك فتصلها بناره وتحرقها بأواره . ولكن المرأة المستضعفة في نظر الناس استطاعت أن تصمد أمام حملات طائشة مفرضة وأن تبقى أمد الدهر موئل الرجل وملاذه .

وأنا زعيمة بأن الرجل الذي يكثر من التحدث عن المرأة تقدراً وتجرباً ، قذفاً وتشويهاً إنما هو اقرب الرجال الى المرأة واشدهم حباً لها وايثاراً لأن من أحب الشيء أكثر من التحدث عنه .

سيداتي سادتي عائش أبو الملاء في عصر زهده في الحياة ورغبه عنها وملاء نفسه سوء ظن بها ، عصر فتنة واضطراب عصر ضج بالظلم والزور والبهتان ، عصر عم فيه الفساد ونزرت العصمة ، عصر غمره الفجور فسادت فيه الإباحية الخلقية وهوت الحياة الاجتماعية الى أحط للدركات فتفسخت الأسرة وعمت القوضى ففضلت الاماء على الحرائر وتكونت لدى شيخنا المعري النواة الأولى لنسيجه الفلسفي التشاؤمي حتى صب نغمته على المرأة وعلى الحياة لابل على الوجود أجمع حتى أنه لم يستثن ذم نفسه حيث قال :

بني الدهر مهلاً ان ذممت فعالكم فاني بنفسي لامحالة أبداً
لاشك في أن الآلام التي بلاها في حياته جسدية أو روحية كانت العامل الأكبر في تشاؤمه وزهده في الحياة ، ففقدان بصره وحرمانه من عطف امرأة تحب عليه وتحن إليه تشاركه آلام الحياة وتصور له مباحيها تخلق له جواً سميحاً يسهل لديه اسباب العيش ويحبب إليه البقاء تلك أسباب حملته أن يركب هذا المركب الساخط الصاخب على الحياة .

اجل لم يحظ أبو الملاء بمعطف امرأة في حياته ولم له أصابه أذاها فنمه كبرياؤه من ذكر هذا الأذى فنقم عليها نعمة المتاع وأطلق لسانه في ذمها .

من يدري لو أن حكيم المعرة هذا لاقى حناناً واشفاقاً من شريكة أو اخت أو ابنة لما ضن عليها بوفاء أو تناء ولكف عن ذمها وأحمد من نار عدوانه لها وحقد عليها . على أن شدوده حمله على التناقض في رأيه فبينما نراه يظن بالمرأة ويصب عليها اللعنات نراه يشفق عليها ويشكر تعدد الزوجات وينسى عدوانه حين يذكر المرأة الأم بقوله :

الميش ماضٍ فأكرم والديك به والام أولى بأكرام وإحسان
وحسبها الحمل والارضاع تغمنه مران بالفضل نالا كل إنسان
تلك الام التي عد نعيمها اكبر صدمة من صدمات الدهر اتم بها بناء بيته المظلم
من الحزن الذي لزمه طيلة حياته ففاضت شاعريته برثائها بقصيدتين مغممتين
بالزفرات الحارة التي كان يصعد بها بعد وفاتها .

سيداتي سادتي لو كنا جميعاً معشر النساء والرجال في عصر أبي العلاء وتوالت
علينا مصائبه وويلاته لاشتركنا معه في وضع المرأة بأحط منزلة في ذمة التاريخ .
ولو شهد فيلسوف المرة عصرنا هذا عصرًا اشتركت فيه المرأة مع الرجل في
العلم والأدب والفلسفة عصرًا برهنت فيه أنها مبعث إلهام الرجل وموقظ القوى
الخاملة فيه ، عصرًا شعر الرجل فيه أنه بجانب شريكه تبادل له الرأي وتشاطره
آلام الحياة وافراحها ، عصرًا ظهرت فيه دأبة لاتعل متحركة لاتسكن نشيطة
لاتفتر ولجت ابواب العلم ونحت بكل غالٍ وثمين لكشف النقاب عن أعظم سر من
اسرار الوجود خلص البشرية من أكبر الآفات ، عصرًا قطعت فيه السنة من كانوا
يصمون بالضعف بما خللته من المآثر العلمية والأدبية .

لو شهد المري هذا العصر لغير رأيه في المرأة فما آذى شعورها ولا جرح
إحساسها وقنسها أجل تقديس ونالت من نفسه مكانها الأسمى ولسكن الى زوج
جملت من نفسه المتشائمة المظلمة نفساً مشرقة متفائلة تزيه السعادة في الشباب والمهرم
في الفنى والفقر في الصحة والمرض وتنير الناحية المظلمة من آرائه وافكاره ،
وتترجم خليجات نفسه ووحى شعوره وتكشف النقاب عن الكثير من كنوز اسراره .
لك المنر أبا العلاء لأن المرأة لاتعتمد في كل عصر عدواً لها يرى في كل عمل
من أعمالها تقصاً وفي كل حركة من حركاتها عيباً ولكن المرأة بذكي نشاطها النقد
ويقوي حركتها التهجيم ونحن مهينات انفسنا لاقتحام كل صعب ونخطي كل حاجز
بزعرة لاتخور وهمة لاتفتر .

مهران الموصللي

مندوبة الندوة الثقافية النسوية

ابو الصمد واقطاب الفكر المحمديون

ايها الحفل الكريم ،

يسرني قبل البدء بالكلمة التي أعدتها لهذا المهرجان ان اذكر حضرتكم وحضرة الآنسة الموصلي ان عدو المرأة في الوقت الحاضر هو توفيق الحكيم وان الدكتور طه حسين بك والدكتور مهدي البصير والداعي المسائل أمامكم من عشاق المرأة وأنصارها . المؤمنين بجليل قدرها وخطير شأنها في حياة الافراد والشعوب ، وأن لنا أزواجا وأولاداً من اجلهم نحيا لا من اجل أنفسنا فغفواً أيها الآنسة الفاضلة واغفري ذنب أبي الملاء الذي يكفيه جزاء ان حرم عطف المرأة وخاتها. تلك المرأة التي قال الله عنها في كتابه العزيز = « ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة . الآية . . »

وبعد اتقص قدر أبي الملاء بمض مواطني اللبنانيين بغية النيل من الثقافة العربية وتقديس الثقافة الغربية الحديثة فمز علي " وانا المدافع بحكم حرفتي على المجرمين أحياناً ان لا ادرك الظلم عن أمة لم يعرف التاريخ بين الغزاة من هو ارحم منها ، وعمن يُمثل ثقافتها أحسن تمثيل ، لا سباً أن بيني وبينه رابطة الماهة .

وقد رأيت خير سبيل للرد على مواطني المصايين بهوس الاستغراب ولاظهار الحق أن أقارن بين المعري والمفكرين الغربيين المحدثين جملة وأن أختار موضوعاً لهذه المقارنة الخاطفة اسمي مالدی الانسان من مميزات — العقل والقلب .

يفتخر العلماء الغربيون بالاعصر الحديثة افتخاراً عظيماً ويدعونها بأزمة النور لاستعادة العقل فيها سلطانه المسلوب وبسط نفوذه على المذاهب والآراء والمعتقدات كافة .

بيد أننا لو أجلنا الفكر في تلك الازمنة المضئنة لتبيننا أن ضيائها كان في أكثر الاحيان كسواء البلاد التي انبثق فيها مشوهاً غير خالص النقاوة والصفاء وسر ذلك أمور أخصها وأعماها معاً هو أن فريقاً من أئمة المفكرين الذين أوجدوا ذلك الضياء

لم يترفوا بحقوق العقل الطبيعية ولم يتركوه حراً طليقاً يستشف الحقائق من وراء الحجب والاصداد التي نسجتها الأعصر المظلمة بسخاقتها وأهوائها المزممة المتركة . فالفيلسوف الفرنسي الامام « ديكارت » مثلاً بالرغم من تمجيده العقل تمجيدهم عظيماً وتوجيهه الفكر الحديث نحو التنظيم لم يعلن سيطرة العقل على المعارف كلها بل استثنى منها كل ما تملك بالكنيسة وتعاليمها ، وقال بوجوب الأخذ بتلك التعاليم كما هي دون ما نقد ولا تمحيص .

وإذا ذكرنا ما كان للكنيسة في عصره «ديكارت» من اثر بين في صميم الحياة الفكرية الخاصة والعامة ادركنا دون عناء مدى الافق البعيد الذي اعتبره أمام العقليين المحدثين حراماً وحذر العقل أن يضيئه بشعاعه .

وإذا انتقلنا من «ديكارت» الى «بسكال» وجدنا عند هذا المفكر المشهور ما يدهش من لا يدهش ، ذلك أنه بعد أن نهج في الشطر الاول من حياته ازاء العقل نهج «ديكارت» لم يلبث أن رجع في الشطر الثاني منها عن هذا المنهج وانطلق — على اثر حادث عربة جرت له فجأ منها كما يقولون — ينتقد العقل إنتقاداً شديداً — ويدعو إلى تمجيد الكنيسة واعتبارها وحدها — ام الحقائق .

وفضلاً عما تقدم ان أكثر هؤلاء المفكرين وإن اعترفوا في القرن الثامن عشر وما يليه بسلطان العقل فانهم لم يتجردوا في اغلب الاحيان عما انطبع أو اشتد في أنفسهم وأذهانهم من أهواء ومعتقدات .

وحسبي أن أذكر حضرتكم أن المفكر الاجتماعي العظيم « مونتسكيو » على الرغم من وجوده في عصر كله تحرر وانطلاق من سلاسل الماضي واغلال العهد الاقطاعي فانه لم يتجرد عن هواء العظمي الموروث بل طالب بالمحافظة على امتيازات النبلاء وان المؤرخ الأشهر «ميشله» لم يتجرد عن هواء الحزبي فشوه عامداً معتمداً وجه تاريخ امته تشفيها من الملكية والملكيين . وان أكثر المستشرقين والمستعربين لا يتجردون عن شعوبيتهم ضد العرب والاسلام فيشوهون الحقائق ويحرفونها عن مواضعها تحريفاً لباقينا وحيناً وحققاً طمناً منهم في هدم ايماننا بماضينا وأملنا بان يتبع ذلك انهدام ثقافتنا بمستقبلنا فتبقى بلا أمل ولا طموح وتبقى للغرب القلبة علينا أبد الدهر .

اما أبو الملاء خير من يمثل الفكر والثقافة العربيين وان جارى العاطفة حين لها أو التي نفسه امام المضلات الفلسفية الكبرى التي لم يطق حلها والتي لا يستطيع العقل الانساني استكناه اسرارها فانه لم يتهيب مبدئياً حرمة الماضي ولا قداسة تراث الابرار فاعمل فيها العقل غير هيب ولا متحفظ كما اعمله في كل شيء لاقتناعه ان العقل سبيل المعرفة العامة الاوحد .

كذب الظن لا امام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء وواضح ان هذا البيت المشهور الرائع في لفظه ومعناه ليس من شوارذ الخيال أو فلتات اللسان عند المعري ولكنه في رأيه اعلان حقوق العقل وان شتم تعبيراً احدث فقولوا انه ميثاق المعرة بل بيان حكيمة الفكري اذاعه على المفكرين من الف عام وكان من اول من قيد به في كل موضوع تناوله بالبحث لم يفرق بين ان يكون الموضوع دينياً أو غير ديني اسلامياً أو غير اسلامي عربياً أو غير عربي . ولا شك ان بحث هذه الموضوعات وما اليها بالعقل المتجرد عن الميل والهوى ليس بالشيء اليسير حتى عند صفوف العلماء والمفكرين مثل « ميشله » و « مونتسكيو » كما اسلفنا بل هو من اصعب الامور واشقها على النفس لما يستلزم ذلك من انكار ما انفرس او اشتد فيها من اهواء ومعتقدات امتزجت بالنفس امتزاجاً تاماً واصبحت مع الزمن جزءاً من اجزائها بل كياناتها المعنوي حتى اسنا لنفكر باهوائنا ومعتقداتنا واوهامنا اكثر مما نفكر بالعقل .

ولولا أن أبا الملاء من احدث الناس ذكاء واتقهم فكراً وارجحهم عقلاً واشدهم انقطاعاً عن اسباب الدنيا لما استطاع بلاريب ان يبحث كل موضوع عاجله بالعقل ولا ان يبلغ تفكيره ذروة التحرر والانتماق حتى انت آراؤه رغم ما بينها من تناقض احياناً حقائق نقية صافية لا يشوبها قصر نظر « ديكارت » ولا هوى « مونتسكيو » ومن نحاً نحوها في البحث والتفكير .

يبد أن تفوق أبي الملاء على اكثر المفكرين الغربيين المحدثين لم ينحصر في الناحية العقلية النظرية البحث بل تمدى ذلك الى الناحية الخلقية العملية أيضاً .

فيينا نرى الاديب والمصلح الفرنسي الاشهر « فولتير » مثلاً ينفق القسم الاكبر من اوقاته في تملق الملوك والامراء وذوي الوجاهة والثراء فيحوك معهم أو ضدهم

مختلف الشباك نبيلها وحسيسها لجلب الدنيا حلالاً أو حراماً ، وبيننا نرى الفيلسوف الانكليزي الامام «يكون» بالرغم من ثروته الطائلة وجاهه المريض ومنصبه السامي في الدولة يأكل اموال الناس بالباطل فيحكم عليه بالزج في غيابة السجن اعواماً ، وبيننا نرى الفيلسوف الالماني الشهير «لاينتر» يوغر صدر المليك الغازي لويس الرابع عشر على الشرق ويقدم له مشروعاً خطياً منطقياً على افناء الملايين من الشرقيين لا لجرم ارتكبه بل لجرد انهم مسلمون أي أن لهم في عبادة الخالق مذهباً غير مذهبه ، وبيننا نرى طائفة من المستشرقين يتخذون العلم اداة لافتح والاسترقاق ويمتدرون الامم والشعوب المستضعفة اقناناً لمجتمعاتهم وعبيداً كما كانت اباؤهم الاقطاعيون يمتدرون تلك المجتمعات ذاتها اقناناً وعبيداً .

بيننا نرى كل هذا وأكثر من هذا عند فريق من مصاييح ازمنة النور اذا بمفكرنا العربي المحدث والمنشأ أبي العلاء يرفق بالطير والانسان والنحل والحيوان على حد سواء واذا به يأبى التكسب بالشمر مخافة أن ينتصب بواسطة الحكام والامراء الممدوحين مال الشعب والفقراء . واذا به يعتبر البشر قاطبة سواسية لافرق عنده كما قال بين هاشمي وآل بربر ولا بين الامام علي كرم الله وجهه ومولاه قنبر ، واذا به يتعالى عن الدنيا ويأبى الا ان يمش على هامش الحياة مكتفياً منها بما لا يكاد يقيم اوده .

واذا قيل أن أبا العلاء لم يترفع عن الدنيا الا بسبب الماهة التي اطلقت النور من عينيه وغمرته منذ الطفولة بالظلمة الدائمة فاني اذكر حضرتكم ان تلك الماهة ذاتها لم تمنع الدكتور طه حسين بك ولا الدكتور مهدي البصير ولا بشار بن برد ولا الشيخ سليمان الفاروقي ولا المائل امامكم عن طلب الدنيا واستمراء ما بث لنا الله فيها من نعمة كما ان وجود الضياء في عيني «كانت» و«سبينوزا» لم يمنع هذين الفيلسوفين العظيمين عن التزام حياة المزلة والتعسف حتى ان «سبينوزا» وهو اليهودي التجار لم يقبل اكثر الهدايا والمرببات التي عرضت عليه من الامراء والاغنياء بل أبى الا أن يمتاش من مهنته اليدوية الشاقة وهي صنع زجاج النظارات . ولا ريب ان هذه الامثلة وما إليها تلبت بصورة لا تحتمل الجدل ان الممي ليس

في حد ذاته سر الاعراض عن متع الحياة وان سلامة البصر ليست في حد ذاتها سر الاقبال عليها .

اما انوار الذي يعتبره الاستاذ العقاد سر التقشف عند أبي العلاء وان حال بلا ريب دون التهنات والاستهتار فانه لا يحول ابداً دون اللذائذ والمسرات التي يبيعها العرف وتقرها الشرائع والانظمة .

فاعراض أبي العلاء عن متع الحياة ليس اذاً صدى عاهته المشهورة كما يتوهم بعض المفكرين ولا نتيجة وقاره المعروف كما يمتدح الاستاذ العقاد ولكنه منبعث عن اسباب وعوامل وان عزت معرفتها معرفة دقيقة لتعلقها باختلاجاته النفسية الداخلية فان اهمها على ما يظهر لي ، مزاجه الخاص ثم ما شهد من عسف يرافق الحياة ويتغلغل في صميم مظاهرها المختلفة .

تفني أيام أبي العلاء كاعب من الكواعب كام كلثوم في زماننا مثلاً ساعة أو بضع ساعات فتجني الف دينار ، إن لم أقل أكثر ، فوق ما تجني من نشوة الزهو والاعجاب ويستغل عامل من المال أو فلاح من الفلاحين الدهر كله فلا ينال لقاء أعماله المرهقة المائدة على المجتمع بالنفع المقيم والخير العظيم ما تجني تلك المغنية في حفلة واحدة . ولنقل مثل ذلك عن تاجر يبرم عقداً من عقود البيع أو الشراء فيكسب من المال في دقائق مالا يكسبه الف قطب من أقطاب الفكر والأدب أنفقوا أعمارهم في خدمة العلم والإنسان .

هذه هي الحياة في عصر أبي العلاء وهكذا كانت في كل عصر من العصور وفي كل مجتمع من المجتمعات وهكذا ستكون مادامت على الأرض حياة وما دام فوقها بشر يختلفون مواهب وحظوظاً .

وبين أن حياة كهذه قوامها الظلم وفلسفتها ابداً الاخلال بالتوازن بين مال المرء وما عليه ، بين ما يعطي وما يأخذ ، ما يستحق وما ينال ، ليست مما يفري حكماً كأبي العلاء حرم على نفسه اللحم والمسل مخافة أن يمتدّي على ما للنحل والحيوان وامتنع عن الزواج مخافة أن يجني على نفس بشرية بشقاء الوحد .

إن حب الحقيقة دعا أبا العلاء الى إنكار ما يوافق من المذاهب والآراء والمعتقدات

عقله فلا عجب أن يدعو مزاجه الحساس النبيل وحبه العدل إلى ترك ما لم يرض من اللذائذ والمدرات وجدانه .

وعلى كل حال وأياً كان السبب الذي أهاب بحكيم المعرة إلى التزام حياة العزلة والتعسف فما لا يقبل الجدل أن أبا الغلاء قطب من أقطاب الفكر والفضل والادب وركن من أركان الثقافة والعدل والرحمة وأنه إذا جاز للغربيين وبعض مواطني اللبنانيين المصايين بهوس الاستغراب أن يفخروا بالأعصر الحديثة ويدعوها بأرملة النور فإن من حقنا أن نمجد أبا الغلاء وأن ندعو مفكرنا العربي الاعمى بالضياء بل بالشمس طلعت في معرة النعمان فاضت الشرق والغرب بأشعتها النقية الخالدة خلود الفكر .

عارف العارف

مندوب الحكومة اللبنانية



كلمة الازاعة الفلسطينية

يطيب لي أن أقف موقفي هذا في حفلكم العظيم الكريم فاشترك بالنيابة عن دار
الاذاعة الفلسطينية في القدس . فأتقدم بالشكر والتقدير العظيمين للمجمع العلمي
العربي الموقر وللجمهورية السورية الجلييلة على ما صنعت أيديها للادب العربي والفكر
العربي وللنهضة العربية جميعاً بما نظمت هذا المهرجان الالفي لذكرى أبي الملاء وكأقد
أحسن المعري إلى الادب العربي والفكر طوال هذه القرون العشرة الماضية فقد
أحسن الادباء والعلماء الذين عرفوا في أبي الملاء أدبه العميق وفكره الخالد السامي
فرفوه إلى الناس ونوهوا به في الشرق والغرب — أقول كما قد أحسن هؤلاء
الادباء والعلماء محدثين وقدماء إلى الادب والفكر معاً بما قد قدموا للناس من شرح
للادب الملائي والفلسفة الملائية . فقد أحسن المجمع العلمي العربي في دمشق
وأحسن الجمهورية السورية الجلييلة بمخاوتها الالفة هذه بذكرى ذلك الشاعر
العظيم والفيلسوف الحكيم فاحيكم أيها السادة الاعلام . وأنقل لكم تحية فلسطين
بهذه المناسبة السميدة العظيمة .

أيها السادة الاجلاء لست أقصد هنا إلى البحث في أدب أبي الملاء وفكره
وفلسفته ولن يكون هذا القصد موقفاً . وأنا أعلم أن فيكم من تفرغ لأبي الملاء
وتعرف إلى أبي الملاء وعرف بأبي الملاء على نحو يدعو إلى الإعجاب والتقدير حقاً .
وانما أقصد كما قد أشرت إلى أن أعرب عن شكر فلسطين للقائمين بهذا المهرجان
العظيم وبهذه الحفاوة البالغة لذكرى علم من اعلام الفكر العربي معلناً بذلك ان هذا
المهرجان سيكون خدمة جديدة لكنها بارزة تضاف إلى ما قد أدى إلى الفكر الملائي
من احسان وخدمات .

على أنني فيما ازجي كلمة الشكر والتقدير هذه لايسمي الا أن اضي أمام هذا
الحفل الكريم بأن فكر المعري انما قد خلد هذا الخلود لانه أثار مشاكل في هذه
الحياة مازال قائمة . ومع ان الدراسات التي ظهرت للمعري وتظهر الان ستظهر

بسبب هذا الاحتفاء نفسه كثيرة . فان بسط هذه الفلسفة لم يستفد بمد . وان
لاولي الاقلام وحلة المكر في بلادنا لجالا وأي مجال في هذا المضمار الفسيح .
وليس هذا المهرجان الذي تجمع عليه البلاد العربية هو وحده شاهداً على أن
أدب المعري خالد ولكن هذه الدراسات المتوالية في غضون القرون العشرة المنصرمة
شاهد آخر . وليس هذا غريباً فالرجل الذي قال عن وجوده .

هذا جنه أبي علي وما جنيت على أحد .

والرجل الذي قال عن الحكم الجائرين .

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وم اجراؤها

والرجل الذي قال :

يرتجي الناس أن يقوم امام ناطق في الكتبية الخرساء

كذب الظن لامام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

الرجل الذي قال هذا وغيره انما اثار مشاكل لا تزال ماثلة وهذا هو لعمري

الحق سر الخلود .

غير أن الانصاف يقضي بالقول أن فلسفة أبي العلاء اثار مشاكل ولم تشر الى
حلها ولعل حل هذه المشاكل أن يكون من واجب المدنية الحاضرة في ديمقراطيتها
الصحيحة . بل لعله يكون من حقنا أن نأمل ذلك لئيم لرجال الفكر في العالم
العربي الحديث مابداً به أبو العلاء .

وقد ينسى الناس أبا العلاء عند ما يجدون سبيلهم الى حل هذه المشاكل
فينممون بالمدنية زاهرة زاهية بريئة من اسباب الكدر والشقاء . ينسونه اذا هم
فقدوا يومئذ حس الوفاء وعرفان الجميل وهبات لهم أن يفعلوا وهيات اذن أن
لا يظل أبو العلاء خالداً

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عزمي النسائي

مندوب الاذاعة الفلسطينية

(١) لزوم ما لا يلزم في الأدب العربي

مدخل البحث

كنت منذ حين أتوقع قيام المجمع العلمي العربي بقضاء حق واجب عليه لأبي العلاء الممرّي فالمرّي من حيث منهجه في البحث العلمي اللغوي في أكثر كتبه المعروفة ما هو إلا مجمع من أعظم المجامع العلمية وأكثرها عائدة على الأدب واللغة ولست مغالياً إذا قلت أن الممرّي سبق زمانه بألف سنة في القيام بأعظم ما تقوم به المجامع العلمية الحديثة من المهام وقد تخلى عن جميع متع الحياة لينجز بمفرده عملاً عجز عنه جمع غفير من العلماء فهو والحالة هذه أحق أئمة العلم واللغة والشعر بهذا المهرجان وقد فطن بجمعا العلمي العربي إلى ذلك فنهض بواجبه وأدى الحق لصاحبه وهي لعمري مأثرة من مآثره وحسنة كبرى تضاف إلى حسناته الأخرى .

كنت من جملة من دعي إلى المساهمة في هذا المهرجان وقد تلقيت دعوة الرئيس بكثير من الابتهاج وذلك لولمي بأدب الممرّي منظومه ومشوره بيد أنني تحيرت بأي ناحية من نواحي الممرّي أبدأ وهي الحق يقال كثيرة يحار فيها الكاتب والأديب أأكتب فصلاً في سيرة الممرّي وأخباره أم في عصره وأحواله فأردد ما كتبه المؤرخون أم أملئ كلمة في حكمة الممرّي وآرائه في الحياة وهو موضوع أكثر خوض أعلام الفكر والأدب فيه أم أنثني مقالة في أدب الممرّي وهو بحث مطروق ثم نظرت فإذا أمامي نسخة محصلة غثارة من اللزومات طالما تأملتُها واستوحيتها في شرح الشباب وقد ألهمتني هذه النسخة الآن أن أكتب في هذا الموضوع ألا وهو لزوم ما لا يلزم في تاريخ آداب اللغة العربية .

(١) الكلمات التي بحث بها أصحابها لتقرر في الكتاب بعد أن تندر حضورهم إلى دمشق في أسبوع المهرجان .

لزوم مالا يلزم في تاريخ آداب اللغة العربية

في لزوميات المعري نواح جمة تثير فينا حب الدرس والنظر فمن ذلك ناحيتها الفلسفية وهي أوفر نواحي اللزوميات حظاً من عناية الادباء فقد اوردوا فيها الرسائل والفصول غير انه قل من أفرد بحثاً في تاريخ تطور هذا الفن المسمى « لزوم مالا يلزم » وكيف نشأ في الأدب العربي سواء أكان ذلك قبل عصر المعري أم بعده لذلك رأيت من المفيد الامام بهذه الناحية الادبية اللغوية من نواحي اللزوميات ومن الواضح انه لاعلاقة البتة لهذا البحث بالفلسفة الغلائية .

لزوم مالا يلزم في شعر العرب

قال أبو العلاء المعري (١) :

كثيرٌ انا في حرفي اُهِبْتُ لَهُ في التاء يلزم حرفاً ليس يلتزم
أبي شاعرنا الحكيم الا ان يكون مؤرخاً في بيته هذا يؤرخ الفن الذي احبه
ونذر له نفسه ألا وهو التزام مالا يلزم .
يقول أبو العلاء انه حذا حذو كثير عزة الذي التزم اللام في تأنيته التي يقول في مستهلها :

خليلي " هذا ربيع عزة فاعقلا فلو صيكا ثم احللا حيث حلت
وهذه القصيدة — وهي عما يستجد من شعر العرب — تمتد حسب رواية القالي (٢) خمسة وثلاثين بيتاً بناها من اولها الى آخرها على التزام حرف معين قبل الروي وهو امر لم يسبق اليه شاعر من شعراء العرب وله قصيدة أخرى اولها :
أدارا اسلمى بالنباغ فحمت سألت فلما استعجمت ثم صمت
فلزم الميم كما فعل باللام فهل كان كثير اول شاعر استخدم هذا النوع من انواع البدیع فقلده الشعراء وهل اراد المعري ذلك ؟ الجواب كلا . ومن رأيي أن المعري في اقتدائه بكثير عزة لم يفعل ذلك لان كثيراً اول من استخدم هذا الفن كما توهم فريق من علماء البيان بل لأن لزوم مالا يلزم لم يرد الا نادراً في شعر العرب

(١) اللزوميات ٢ : ٢٣٠ ط الجالية سنة ١٣٣٣

(٢) امالي القالي ٢ : ١٠٩

قبل عصر كثير كما انه ورد عفوا في نبد ومقطوعات قصيرة اما كثير فقد نظم اشهر واحول قصيدة لزومية تناقلها الرواة وبذلك يتداعى زعم من زعم غير هذا من علماء البديع . وفي مقدمة اللزوميات للمعري نفسه ما يفند مزاعم القوم في المقدمة المذكورة (١) شواهد تدل على أن هذا النوع من أنواع البديع ورد في شعر الأعشى وطرفة والنابغة وعمرو بن معد يكرب وغيرهم من القدماء ولا حاجة إلى القول بأنه شيء غير مقصود وقد ورد عفواً في شعر القوم أو في كلامهم المطبوع أما صاحبنا كثير فقد تصنع وقصد التفنن في تأييده فحذا حذوه الشعراء وحسب كثير أن يعترف المعري له بهذه الفضيلة .

والمعري فصل لطيف في تاريخ علم القوافي ومصطلحاتها أو ألقابها كما يقول وهل هي — أعني مصطلحات القافية — من وضع العلماء في عصر التدوين أم تليقت عن العرب فإن سكان المدون إن كانوا لا يعقلون هذه المصطلحات إلا أنه وجد فيهم من يعرف مواقع الحروف ويقرأ ويكتب وقد ورد في هذا الفصل من مقدمة لزوم ما لا يلزم ذكر الخليل وسعيد بن مسعدة (٢) والفرء وخلف بن حيان من علمائهم بالشعر والنحو واللغة وقد استنبط المعري من الباب الذي عقده أبو عبيدة القاسم بن سلام للبحث في القوافي (في كتابه الغريب المصنف) ومن إسناده لها عن الشيوخ ان صاحب الغريب يرى أنها أي المصطلحات مأخوذة عن العرب كما تؤخذ عنهم اللغة وهذا الفصل الذي كتبه المعري من أقدم ما وصل إلينا في هذا الموضوع (٣) .

هذا وقد أكثر شعراء العرب قبل كثير عزة وبعده من التزام ما لا يلزم قبل تاه التأنيث هذه فتارة يلزمون اللام كما رأيت في قصيدة كثير وهو الأكثر وطوراً يلزمون الميم وقد يلزمون غيرها من الحروف وأكثر ما اتفق لهم في ذلك من الشعر يعد من الرائق المستجاد ومن هؤلاء الأعشى وعمرو بن

(١) مقدمة اللزوميات للمعري ١٩ و ٢٠ ط الجاهلية سنة ١٣٣٣

(٢) هو ابو الحسن المعروف بالاختش الاوسط انظر ترجمته الالباء ١٨٤ ومجم

الادباء ١٢٢:٤ و ١٤٤

(٣) مقدمة اللزوميات ١١ و ١٢ ط الجاهلية سنة ١٣٣٣

معديكرب ومن بعدهم يعقوب بن سليمان بن طلحة بن عبدالله ومن أحسن شواهد هذا الباب وأشهرها الأبيات التي أولها (١) :

سأشكر عمرًا أن تراخت منيتي أيادي لم تمنن وإن هي جلت
وأول أبيات الأعشى :

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي وراكبها يوم اللقاء وقلت
وأول أبيات يعقوب بن سليمان (٢) :

وقد كنت لي حسباً من الناس كلهم ترى بك نفسي مقنعاً لو تملت
ومن القوافي التي ألزم فيها العرب ما لا يلزمهم كاف الاضمار في مثل
« جمالك وشمالك » وقد ألزموا اللام فيها قبل الضمير وقد علل المعري التزام
العرب بذلك في خصوص هاتين القافيتين أعني التائية والكافية بأن ناء التائيث
هذه وكاف الاضمار ضعيفتان وكلتاها من حروف الخمس (٣) فكان اللام الملتزمة
في هذه القصائد هي القافية وكأن كلاً من الناء والكاف صلة لها لا أكثر .
هذا ويمكن أن يلزم الشاعر حرفين أو أكثر إلى أربعة أحرف أو
خمس (٤) ومعنى بلغ القافية في ذلك أبو الملاء المعري نفسه فقد بنى قافية على
« دارم مزدارم صدارم » ملتزماً فيها أربعة أحرف وبنى أخرى على « ضارم
حارم سارم » ملتزماً فيها خمسة أحرف وثالثة على « يمدبون يكذبون
يمجدبون » ملتزماً فيها أربعة أيضاً إلى غير ذلك .

لزوم ما لا يلزم في أدب المولدين

لزوم ما لا يلزم معدود على الأكثر من صناعة المحدثين أو المولدين كبقية
أنواع البديع فالمدثون استخدموا هذا الفن فأكثرُوا من استخدامه عن علم

(١) رويت الأبيات المذكورة في كتب الأدب لجماعة منهم جلاله بن الزبير على وزن
[فعل] ومحمد بن سعيد البغدادي وإبراهيم بن العباس الصولي وغير هؤلاء . ومن نسبها إلى
الصولي ابن خلكان في الوفيات ٣ : ٢٣١

(٢) ذيل أمالي القاضي ٢٩

(٣) مقدمة اللزوميات ١٨ ط الحالية سنة ١٣٢٣ ويقول المعري أن حروف المعجم متساويات
في القوة إلا ما ذكر من الناء والكاف المصدر نفسه ٢٢

(٤) المصدر نفسه ٢٨

وخبرة وبذلك تميزوا عن القدماء ومن أوضاع المحدثين على الأغلب هذه الألفاظ أو الألقاب التي أطلقوها على فنون الدبع ولذلك لا يكاد يخلو شعر شاعر من خولهم من لزوم ما لا يلزم نجده في شعر أبي نواس على فلة وهو أكثر في شعر أبي تمام ولا يخلو شعر البحتري منه قال المعري^(١) وقد بنى أبو عبادة قصيدة على الطويل الأول وجعل قوافيها على «أروى وجدوى» فأنزل الواو إلى آخر القصيدة فقد لزم فيها ما لا يلزم أن جعل روي القصيدة الألف أما ابن الرومي فهو على ما يقول علماء الأدب والبيان من أكثر المحدثين ولما يلزم ما لا يلزم قال المرزباني «ابن الرومي أشعر أهل زمانه بمد البحتري وأكثرهم شعراً وأوسمهم اقتنائاً في سائر أجناس الشعر وضروبه وقوافيه يركب من ذلك ما هو صعب متناوله على غيره ويلزم نفسه ما لا يلزم ويخلط كلامه بالألفاظ منطقية يجعل لها المعاني ثم يفصلها بأحسن وصف وأعذب لفظ^(٢)» وقال الزبيدي كان ابن الرومي من أكثر الناس ولماً يلزم ما لا يلزم في شعره^(٣) إلا أن المعري أغفل ذكره في من ذكر في هذا الباب مع أنه أولى المولدين بذلك وهو خاصة أولى من البحتري لأنه أكثر استخداماً منه لهذه الصناعة ولا ندرى على وجه التأكيّد علة ذلك الاغفال ونرجح أن للمعري رأياً خاصاً في صاحبه ونحن نعلم أن الاثنين مختلفان في المذهب والمزاج متباينان في الطباع ومن رأي المعري على الأرجح أن ابن الرومي مدخول العقل كما يظهر من وصفه له في رسالة الغفران^(٤) ويؤخذ على ابن الرومي شيء من الغموض والتعقيد وله أسلوب في البيان يفتقر إلى الصقل والعناية وإلى ذلك يومي المعري في قوله^(٥):

لوفلق الدهر هجا أهله كأنه الرومي أو دعبل

(١) مقدمة الهزوميات ٢٨ وأول قصيدة البحتري المذكورة :

لا أبدأ بث نائيه في أروى وحزوى وكأدتك من لوعة حزوى

(٢) معجم الشرا ٢٨٩

(٣) يحيى بن حمزة الزبيدي في الطراز ٢ : ٢٠٢

(٤) رسالة الغفران ١٦١ ط. مصرية قديمة

(٥) الهزوميات ٢ : ١٩٣

وهو لعمرى شاعر مغزر بالفعل لكن لفظه مجبل

اقسام اللزوم

لم يعرف القدماء إلا نوعاً واحداً من لزوم ما لا يلزم وهو ما بنيت عليه لزوميات المعري يريد أن المتأخرين حاولوا إضافة اقسام اخرى الى هذا الباب من ابواب البدیع ومن هذا القبيل قسم «سموه» «المجنب» وهو أن يجمع في القافية بين كلمتين احدهما كالجنسية التابعة للأخرى مثل قول أبي الفتح البستي :

أبا العباس لا تحسب باني لة قري من حلى الاشعار عاري
فلي طبع كسلسال معين زلال من ذرى الاحجار جاري
وما اكبت لي الايام زندا فلي زند على الادوار واري

وهذا هو رأي كل من ضياء الدين بن الاثير^(١) وعبد الحميد بن أبي الحديد^(٢) والاكثرون على انه نوع من انواع الجناس وسموه «المزدوج» أو «المردد»^(٣) هذا وبما عده المتأخرون من اقسام اللزوم «تصغير القافية» مثل قول الشاعر :

عن على ليلى بنى سدير سوء مبيتي ليلة القمير

قال ابن الاثير اذا صغرت الكلمة الاخيرة في الشعر فان ذلك ملحق بلزوم ما لا يلزم^(٤) وقد نظم المتأخرون وشرخوا بالفاظ كلها معجمة أو كلها مهملة أو جميعها متصلة أو بالمكس وبالف كثير منهم في العبث بهذه الصناعة اللفظية وعدّ قوم هذا من قبيل لزوم ما لا يلزم قال العباسي^(٥) وبما يلحق بهذا النوع يعني لزوم ما لا يلزم ما يختبر به الادباء افكارهم ويشحذون به قرائحهم من التزام حروف جميعها مهملة أو جميعها معجمة أو لا تنطبق معها الشفتان الى غير ذلك من التفننات ويقلب على الظن أن للزوميات المعري دخلا في اتساع القوم بهذا النوع من التصنع

(١) المثل السائر ١٠٣

(٢) شرح التهج ٢ : ٣٨٩

(٣) يحيى بن حمزة الزبيدي في الطراز ٢ : ٣٧٢ وراجع أيضاً المثل السائر ١٠٣ وشرح التهج ٢ : ٣٨٩ وجنان الجناس للصفيدي ٢٧ قال : «وهم من يسمي هذا النوع «المكرر» و «المردد» والصفيدي في هذا الكتاب بعض اللزوميات .

(٤) المثل السائر ١٠٨

(٥) معاهد التصحيح ٢ : ١٠٦

بعد المعجز عن محاكاة المعري في فنه زاعمين أن ذلك من قبيل لزوم مالا يلزم وليس منه في شيء ومهما كان فهو توسع لاثري فيه للإبداع ولا طائل تحته وانما هو عبث الأدباء في عصر استولى فيه الجمود واستحوذ الخمول على الافكار .

القاب اللزوم

ويبدو لنا من تصفح الكتب التي ألفها علماء البيان أن لهذا النوع من انواع البديع عدة القاب ظهرت في مختلف المصور ومن اقدمها « الاعنات » من العنت وهو الكلفة والمشقة وهو على ما ظن اول لقب اطلق على هذا الفن وبه عرف في كتب البلاغة والبيان التي ألفها القدماء مثل ابن المعتز (١) وغيره وقد استعمل هذا اللقب مدة بعد عصر ابن المعتز الى أن تغلبت عليه وعلى بقية اسمائه كالتشديد والتصنيق الكلمة الشائعة اليوم وهي « لزوم مالا يلزم » وذلك في عصر المعري أو في عصر قريب منه وخاصة بعد أن ظهر ديوان اللزوميات .

لزوميات المعري

كثرة الالتزامات في شعر المعري

عرفنا مما مر أن لزوم مالا يلزم ورد في شعر العرب ولكنه نادر على كل حال اما في شعر المولدين والمحدثين فانه أكثر من شعر العرب ولكنه قليل لا يكاد يذكر بالقياس الى شعر المعري في اللزوميات فالمعري هو أول من التزم مالا يلزم في مجموعة كبيرة من شعر تكون في العدة كدواوين كثيرة والشائع المتداول ان المعري فرض على نفسه التزام قيد واحد في اللزوميات والواقع غير ذلك ففي هذه اللزوميات قيود أو كلف ثلاث اولها استيفاء حروف المعجم عن آخرها في الروي وثانيها استعمال الحركات الثلاث في القافية ومن بعدها الوقف أي الاسكان وثالثها التزام حرف معين أو عدة أحرف قبل الروي وهو لزوم مالا يلزم بمعناه المصطلح فهذه ثلاث التزامات صناعية على رأي المعري (٢) وأكثر من ثلاثة بعد اضافة الوقف اليها على رأي آخر (٣) وهكذا انفرد أبوالملاء بهذه الخصائص الفنية وامتاز

(١) انظر كتاب البديع لابن المعتز ٧٢ (٢) مقدمة اللزوميات ٢٠ و ٢١

(٣) يافوت في معجم الأدباء ١ : ١٨٣ وهذه عبارة يافوت : « لزوم مالا يلزم » على حروف المعجم يذكر كل حرف سوى الألف بوجهه الأربعة وهي الضمة والفتحة والكسرة والوقف .

على الشعراء قديمهم وحديثهم بهذا المذهب الجديد والاسلوب المخترع فقد جرت عادة هؤلاء الشعراء ان ينظموا الشعر كيفما اتفق وعلى اي روي يهديهم اليه الخاطر لا يترسمون غاية معينة كما فعل صاحب اللزوميات والواقع انك اذا تصفحت كثيراً من دواوين القدماء لا تكاد تثر فيها على ابيات التزموا فيها ما لا يلزم الا نادراً ولا يوجد فيهم قط من استوعب حروف المعجم في القوافي أو نظم في قافية مستوعرة أو حوشية وهؤلاء المحدثون أو المولدون وغولهم مكثرون وقد يكون ديوان احدهم في العدة كدواوين كثير من القدماء قلما استوعبوا في قوافيهم حروف المعجم عن آخرها واذا اتفق لبعضهم ذلك في الحروف فانه في حلٍ من الحركات وفي حلٍ من الوقف والاسكان فهذا البحري لم يثر في ديوانه على روي بني علي الخاء والتاء والفين وهذا المتنبى استعمل الهجزة مضمومة مرة ومكسورة أخرى ولكنه لم يستعملها مفتوحة ولا ساكنة إلى غير ذلك فاللزوميات والحالة هذه عمل مركب شاق لا بد للاحاطة بجزئياته ثم انجازها من قوة ذهنية ممتازة ومواهب فطرية خارقة للعادة لذلك قيل « ان المعري » أحد أذكيا العالم ونادرة من نوادر بني آدم .

تفاسير اللزوميات ومختاراتها

من الخطأ أن يظن أن اللزوميات هي الكتاب الوحيد في موضوعه للمعري فقد اضطر صاحب اللزوميات إلى تأليف كتب ضخمة تتعلق بديوانه المذكور اما شرحاً لما فيه من الغريب مثل كتاب « راحة اللزوم » في مائة كراسة وقد ذكره القفطي وياقوت الحموي والحاج خليفة (١) واما دفاعاً عن آرائه فيه مثل « زجر النابج » وذلك أن بعض الجاهل تكلم على بعض أبيات منه يريد التشهير والاذية فالزم أبا العلاء أصدقاؤه فأنشأ وهو كاره في (٤٠) كراسة وكتاب « بحر الزجر » يتعلق بزجر النابج وله كتاب سماه « الراحلة في تفسير لزوم ما لا يلزم » (٢) وقد ضاعت هذه الكتب فيما ضاع من كتب المعري ولم يصل إلى أيدينا منها شيء . وللبطليلوسي شارح سقط الزند شرح على بعض اللزوميات

(١) كشف الظنون ١ : ٣١٠

(٢) ياقوت في معجم الأدباء ١ : ١٨٣ و ١٨٤ و ١٨٧ وكشف الظنون ١ : ٣١١

تقل لنا عنه بعض الأدباء^(١) وتوجد من هذا الشرح أوراق قديمة في الخزنة التيمورية بالقاهرة وهو شرح عمزوج لشعر المرعي في السقط واللزوميات . وفي الخزنة المذكورة رسالة تتضمن مباحث جرت بين القاضي أبي بكر بن العربي والبطليوسي بشأن الشرح المذكور وفيها أيضاً نسخة مخطوطة من مختصر اسمه « مختار لزوم ما لا يلزم » لم يعرف صاحبها^(٢) وقد اختار بعض أدباء القاهرة منذ أربعين سنة مجموعة من اللزوميات سموها « الا لزم من لزوم ما لا يلزم » ولها مقدمة لطيفة وفيها يقول حافظ ابراهيم :

لله درة انتخاب بحسن ذوقك يشهد
كان كتاب المرعي فصار معجز أحمد

وفيها لآخر^(٣) :

أجدت انتخاباً يا نسيم وجدته ألد من الماء الزلال على الظما
لقد كان سفرأ لم نجد لافتنائه لزوماً فأضحى باتخا بك ألزما
وألف شميم الحلبي كتاباً سماه « الاشارات المرعية »^(٤) ولابن القامغاز^(٥)
الحلي كتاب المطاول يرد فيه على المرعي في مواضع سها فيها .

نقد اللزوميات

تقصد بهذا العنوان نقد اللزوميات من ناحيتها الادبية فمن علماء الادب من يزعم ان الكلفة ظاهرة في لزوميات المرعي وان جيدها المطبوع لا يزيد على رديها المصنوع واقدام ماوصل اليها من هذا القبيل رأي ضياء الدين بن الاثير فقد زعم ان شعر أبي العلاء في اللزوم متكلف وقال عن شعر لابي تمام في اللزوم « هذا احسن مايجي في هذا الباب وليس بمتكلف كشعر أبي العلاء » وقال ايضاً « ما ينبغي لمؤلف الكلام ان يستعمل هذا النوع حتى يجي به متكلفاً وقد سلك ذلك أبو العلاء المرعي » ومن اقواله « وقد جمع أبو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان كتاباً سماه

(١) الحفاجي في شفاء الغليل ١٩١ والبلوي في الف با ٢٠٦ : ٥٢

(٢) أبو العلاء المرعي لأحمد تيمور ٣٨ و ٧٣

(٣) الأ لزم من لزوم ما لا يلزم ط المجهود سنة ١٣٢٣

(٤) مجم الأدباء ٥ : ١٣٨

(٥) بشية الوعاة ٧٩

« لزوم ما لا يلزم » فأتى فيه بالجد الذي يحمد والردي الذي يذم^(١) ومن شعر أبي العلاء المتكلف على رأي ابن الأثير لزوميته التي أولها :

« تنازع في الدنيا سواك وماله ولا لك شيء في الحقيقة فيها

وقد تبع ابن الأثير في هذا الرأي جماعة منهم عبد الحميد بن أبي الحديد فقال : « وقد صنع أبو العلاء المعري كتاباً في اللزوم من نظمه فأتى فيه بالجد والردي واكثره متكلف^(٢) » وللمتأخرين عن هؤلاء كلام في نقد اللزوميات أضربنا عنه صفحا لانه لا يزيد على كونه ترديدا لكلام ابن أبي الحديد وابن الأثير مثل قول ابن معصوم^(٣) « ألف الشيخ أبو العلاء المعري كتابا سماه لزوم ما لا يلزم ولكن جمع فيه الثب والسعين » الى غير ذلك من الاقوال .

فهذه كما ترى اقوال عامة لم تدعم بدليل ومنشأها اما الجهل باغراض أبي العلاء أو الحسد والمكارة . واللزوميات على ما يرى لم تخل من تشدق أو تكلف وكيف يخلو من ذلك سفر في ضخامة هذا الديوان ومن هذا القبيل قول المعري فيها :

غلت واغلت ثم غالت وأوحشت وحشت وحاشت واستهالت وملت وقوله :

مابال رأسك لا تبش بلونه عين وبات بكل ذي نظر يبش

يمسي كبعض الروم ابيض باردا ولقد يكون كانه بعض الحبش

فهذا الذي قبله شيء ثقيل بارد ولهذه الابيات نظائر في اللزوميات ولكنها قليلة مغتفرة بالقياس الى كثيرها من الشعر المطبوع .

وخلاصة القول كان صاحب اللزوميات مطبوعا على هذا الفن وقد يشكك ويتسفف ولكن تكلفه ليس بكثير خلافا لما ادعاه هؤلاء الادباء .

لزوم ما لا يلزم بعد عصر المعري

دخل هذا الفن منذ عصر المعري في طور جديد من حيث طبيعته ومميزاته ففي هذا العصر انشئت اللزوميات وصار لزوم ما لا يلزم شعاراً لصاحبها وميزة

(١) المثل السائر ١٠٥ و ١٠٨

(٢) شرح نهج البلاغة ١ : ١٢٠

(٣) أنوار الريح ٢٢٩

يمتاز بها اديبه حتى شاع هذا اللقب كأنما هو من الاوضاع اللغوية التي ابتكرها المعري وكأنه مدلول هذه العبارة مدلول قائم بنفسه ليس له صلة بالبديع أو بهذه الحسنات اللفظية وذلك لأن المعري استخدم فنون البديع للتعبير عن آرائه وهي آراء خاصة فاجأ بها الناس وتناول فيها نقد عاداتهم واخلاقهم ونظم الحكيم والسياسة وشؤون الاجتماع والممران عندهم أي ان المعري استخدم هذه الصناعة اللفظية تحديه فكرة عامة أو غاية فلسفية بعيدة وبهذا فارق سواء ممن استخدموا انواع البديع ولا غاية لهم الا مجرد البث بالالفاظ الفارغة فللزوميات فضل ظاهر لآبي موضوع الادب واللغة فحسب بل في باب العلم والمعرفة .

فضل اللزوميات على اللغة

تركت اللزوميات اثرًا لا يستهان به في عصر المعري والمصرر التي تليه وذلك من نواح شتى فن الناس من تأثر بها من حيث لغتها واساليبها البيانية فبعثت من هذه الناحية نهضة لغوية كبرى شاع على اثرها التزام مالا يلتزم في شعر الشعراء وفي انشاء المترسلين وخصوصاً في القرنين الخامس والسادس وهلم جرا وحاول كثير من الادباء محاكاة المعري في جزالة الفاظه أو مشايعته في طريقته أو معارضته في اسلوبه الا انهم قصروا عن شأوه غالباً فالمعري امام مجدد مجتهد في اديبه والقوم مقلدون على الاكثر وقصارى احدثهم ان يلتزم مالا يلتزم في ابيات او في قصيدة أو عدة مقطعات واين هذا من سفر كامل مفرغ الحلقات كاللزوميات ولدينا شواهد كثيرة على شيوع الادب الزرومي في العصور المذكورة فهذه المقامات اللزومية لمنشئها الوزير السرقطي الآتي ذكره وكذلك الرسائل اللزومية لكل من ابن اسيد الفرناطي (١) وعبد الرحمن المكناسي (٢) ومن شغف بمباراة المعري ثراً ونظماً شميم الحلي (٣) روى عنه ياقوت وحدثنا عن اطواره الغريبة وله ترجمة مفصلة في معجم الادباء وهو من منشئي الرسائل اللزومية وله ايضاً كتاب الاشارات المعرية وكتاب اللزوم في مجلدين .

هذا في النثر واما في الشعر فقد سلك مسلك المعري في لزومياته كثيرون من

(١) السيوطي في البقية ٢٩٨

(٢) المصدر نفسه ٣٠٣

(٣) ياقوت في معجم الأديباء ٥٠ : ١٣٨

اشهرهم العلامة الماكسيفي الآتي ذكره ومن الشعراء الذين اشتهروا بمحاكاة المعري في شعره أو في لزومياته ابن فورجة البروجردي وابو النجيب عبد الرحمن بن عبد الجبار المراغي احد افراد زمانه علماً وادباً وكان يلتزم ما لا يلزم في شعره وهو المقصود بقول الأبيوردي الشاعر المشهور (١) :

شعر المراغي وحوشيتم كعقله اسلمه اسقمه

يلزم ما ليس له لازماً لكنه يترك ما يلزمه

وفي هذا المعنى لابن معصوم (٢) :

وشاعر قريضه من كل حسن معدم

لم يلتزم شيئاً سوى لزوم ما لا يلزم

فهذا ونحوه يدلنا على أن فريقاً ممن راق له مذهب المعري في لزوم ما لا يلزم قصر عن شأوه في اللزوميات وذلك لأن صاحبها كان مطبوعاً على هذا الفن بخلاف غيره .

فضل اللزوميات على العلم

ويوجد فريق آخر تأثر باللزوميات من حيث الفكرة التي دارت عليها أي من حيث معاني اللزوميات لا من حيث مبانيها فقد تار الجدل وكثر الخلاف بسبب اللزوميات وآراء المعري فيها وتضاربت أقوال المصنفين من العلماء والأدباء ما بين منتصف له أو قائل بأكفاره حتى أن بعض الأدباء من أنصار المعري يضع اللزوميات في الرتبة بعد الكتب الإلهية المنزلة وهو القائل (٣) .

إن كنت متخذاً للجرحك مرها فكتاب رب العالمين المرم

أو كنت مصطحباً حكماً سالكاً سبل الهدى فلزوم ما لا يلزم

فقد بحث اللزوميات كما ترى حركة فكرية عامة تفلقت في أنحاء العالم القديم شرقاً وغرباً وظهر جماعة من البلغاء والمترسلين نهجوا بأدبهم نهج المعري في تذكير الناس وتلبيه الغافل وتعليم الجاهل وحاموا حول مقاصده

(١) ابن خلكان في ترجمة الأبيوردي من وفيات الأعيان وقها ابن معصوم في أنوار

الرييح ولا وجود لهذين البيتين في النسخة المطبوعة في بيروت من ديوان الأبيوردي .

(٢) أنوار الريح ٨٤٠

(٣) قلاً من ظهر نسخة قديمة من لزوم ما لا يلزم .

في التوحيد والالهيات وأصول الدين والأخلاق لكن لم يبلغ أحدم شأوه في ذلك لأن سيرة المبري وسلوكه كانا من مواعظه البليغة فالمبري وعظ الناس بأعماله قبل أقواله والمرجح أن الزمخشري والاصفهاني في مقاماتهما ونوانج كلمهما قد تأثرا بأسلوب المبري في ملقى السبيل أو في الفصول والغايات .
والخلاصة للمبري في اللزوميات أسلوب أخاذ يشبه أساليب أساتذة التربية أحياناً فهو يترفق في صقل المقول لحلة المتقول كما يجتهد في تافين لغة الأعراب وأصول الآداب لأصحاب التأمل والنظرات الفلسفية .

الرابطة المبرية

ونفي بهذه الرابطة تألب فئة من أئمة الأدب وفيهم جماعة من المكافيف أو العميان واتفق آرائهم على تقديم المبري والتعصب لأدبه واقفاء آثاره في منظومه ومشوره وقد نشأت هذه الرابطة بمد عصر المبري ولاحظنا وجودها ونحن نتصفح كتب التاريخ والطبقات ولأدب المبري على الأرجح أبلغ الأثر في وعي أتباعه من العميان فقد نبه فيهم شعور الاعتداد بأنفسهم والثقة بكفاءتهم والاعتزاز بزعامته وإمامته في الأدب فراحوا يكترون من رواية شعره ويثنون الدعوة له ومنهم من سلك مسلكه في التزام ما لا يلزم وذلك للرابطة التي تربط بين المبري وبين هؤلاء المكافيف ودونك أشهر من عرفناه من هؤلاء :

١ - العلامة الماكسيني (١) : اسمه مكي بن ريان الماكسيني الموصللي إمام في النحو واللغة والأدب بالغ تلاميذه - وهم كثيرون - في الثناء عليه ومن أقوالهم « جامع فنون الأدب وحجة كلام العرب » وهذه الكلمة لتلميذه ابن المستوفي وأطلق عليه صاحب التبيان (٢) في شرح الديوان لقب « الشيخ الإمام »

(١) أول من ترجم الماكسيني تلميذه أبو البركات ابن المستوفي في تاريخ اربل ومنه نقل المتأخرون مثل ابن خلكان ٢ : ٥٨٣ والصفي في نكت الهبان ٢٩٦ والسيوطي في البنية ٣٣٥ وابن الهادي في الشذرات ٥ : ١١ وما كسين التي نسب إليها بليدة من أعمال الجزيرة على نهر الحابور يقول ابن خلكان وهي على صغرها تشابه المدن الكبيرة في حسن بنائها ومنازلها .

(٢) انظر مقدمة التبيان في شرح الديوان [ط] القاهرة سنة ١٢٨٧ ومنها يظهر أن المؤلف رأى المتنبي على الماكسيني سنة ٥٥٩ في مدينة الموصل .

وهو في رأي الجزري^(١) « إمام عالم بالقراءات والنحو ، وما لاحظناه ان الماكسيفي المجمع على تدبته وورعه كان أبداً يتمصب للمعري ويطرب اذا قرىء عليه شعره فسلك مسلكه في النظم وذلك للجتماع بينهما من الممي والأدب على مايقول ابن المستوفي وهكذا نجد للمعري انصاراً من بين حفظة القرآن وأئمة القراءات . توفي الماكسيفي سنة ٦٠٣ ومن شعره .

سئمت من الحياة فلم أردّها تسألني وتشجيني برقي
عدوي لا يقصر عن أذايا ويفعل مثل ذلك بي صديقي
وقد أضحت لي الحدايا داراً وأهل مودتي بلوى المقيق

٢ — الداودي الضرير : داود بن احمد ابو سليمان الداودي الضرير — اديب بنداوي مولع بشعر أبي العلاء يحفظ منه جملة سالحة ولذلك كان الناس يرمونه بسوء العقيدة توفي الداودي سنة ٦١٥ ومن شعره أمثلة في معجم الادباء^(٢) .

٣ — السهوري المادح : اسمه احمد بن مسعود السهوري الضرير ويعرف بالمادح حاصر الصفدي اجتمع به واخذ عنه سنة ٧٥٨ وفيه يقول « كان حفظه الله له قدرة على النظم ينظم القصيدة وفي كل بيت حروف المعجم وفي كل بيت ظاء وفي كل بيت ضاد وهكذا من هذا اللزوم ، ونجد امثلة مشهورة في نكت الهميان^(٣) .

٤ — الصرصري الشاعر البنداوي الضرير : لغوي أديب من البلغاء يدخل شعره في ثمان مجلدات مدائحه النبوية سارت بها الركبان له قصائد الترم فيها ما لا يلزم وهكذا الحروف الصعبة واخرى في كل بيت حروف المعجم . قتل الصرصري في وقعة بنداو سنة ٦٥٦ وتجد في نكت الهميان^(٤) امثلة بليغة من شعره تجمله بحق من غول الشعراء .

ومما يدخل في هذا الباب

الامير اسامه بن منقذ : من رواة شعر المعري في اللزوم وقد روى فيما روي

(١) طبقات القراء للجزري ٢ : ٣٠٩

(٢) معجم الأدباء ٢ : ١٩١

(٣) نكت الهميان ١١٥ و ١١٦

(٤) المصدر نفسه ٣٠٨ و ٣٠٩

له لزومية في الشيب بعبارة تدل على تقديم الميري وأكباره (١) ولا توجد هذه
اللزومية في النسخ المتداولة من اللزوميات وهي :

واهاً لرأسك زال ادحمه عنه واشبهه وارقطه
وأعادهُ مثلَ اللجين مدىّ قد كان قبل به ينقطه
بأليت شعري حين يرتحلُ اا جونغ المودّع ابن مسقطه

ابن فورجة : محمد بن محمد بن فورجة - زنة سكرجة - البروجردي نحوي
لعوي من البرزين في النظم والنثر لقي الميري في بغداد على الاكثروقرأ عليه واكثر
من الرواية عنه وبينهما مشاعرة ومكاتبة وقد ورد ذكره في سقط الزند بمناسبة
قصيدة بعث بها الى الميري اولها :

الاقامت تجاذبي عناني وتساأني برصتها المقيلا
فلجابه الميري بقصيدة مشهورة اولها :
كني بشحوب اوجهن دليلا على ازماعنا عنك الرحلا
ومنها :

كلفنا بالعراق ولحن شرخ فلم نلهم به الا كهولا
وردنا ماء دجلة خير ماء وزرنا سيد الشجر النخلا
وشارفنا فراق أبي علي فكان أعز داهية نزولا
ولولم الق غيرك في اغترابي لكان لقاءك الحظ الجزلا

وللمعري اثر كبير في طريقته واسلوبه في الشعر ولذلك قال الباخري (٢)
«شعره فرخ شعر الاعمي اعني شاعر مرة النعمان وان كان هذا الفاضل منزها من
مرة العميان» وفي دمية الباخري وتمة البتيمة للثعالبي امثلة من شعره (٣) ولابن
فورجة حديث ممتع في النقد الادبي جرى بينه وبين الميري بشأن المتنبي وفي هذا
الحديث اشارة إلى مقاييس الفصاحة عند القوم وقد حكاه صاحب التبيان في شرح

(١) باب الآداب [ط] الرحانية ٣٧٥ وعبارة الامير أسامة (ولشيخ أبي الغلاء بن
سليمان التميمي في هذا المعنى بقوله) وانظر ٢٠١ و ٣٧٠ و ٤٦٢ من الكتاب المذكور
(٢) دمية النضر ٩١ من الطبعة الحليّة

(٣) تمة البتيمة [ط] طهران ١ : ٢٢١ و ٢٢٥ ومن ترجم لابن فورجة ابن شاذلي
فوات الوفيات ٢ : ٢٤٧ و ٢٤٨ والسبوطي في البنية ٣٩ والمجد الشيرازي في البنية .

الديوان (١) وابن فورجة كما مر كثير التحدث والرواية عن أبي العلاء في الادب واللغة وفي اسمه وميلاده اقاويل مختلفة اصحها ما قدمناه .

نجوم ما لا يلزم في الادب الاندلسي

يرجع المتأمل في تاريخ الاندلس نهضة منقطعة النظر في اللغة وآدابها وفي علوم النقل والرواية وكثرة غريبة في عدد اللغويين والنحاة لم يبعد مثلها قط إلا في العراق في بعض عصوره والاندلس تلي العراق في كثرة من تخرج فيها من أئمة النحو واللغة وأهل الرأي والمذهب فيها ولا مجال في هذه المجالة لتفصيل ذلك هذا من ناحية ويدهش المتأمل من ناحية أخرى فتور ظاهر في الاندلسيين من حيث عنايتهم بالحكمة والمعارف العقلية في بعض المصور وقد عانى كثير من اعلام الفكر وأهل النظر ما عانوه من المنت والضيق على ايدي أمراء السوء يعاونهم على ذلك أحياناً فريق من المتفقه الجامدين وتاريخ اولئك الاعلام والنظار في الاندلس حتى أعيان الابداء مليء بالمحن والنكبات في كثير من الاحيان وقد اسرع الانحلال الى دول الاسلام في الاندلس والمغرب ومن جملة العوامل في ذلك — على ما أظن — هذا الافراط والتفريط افراطاً اقوم في جانب المنقول وتفريطهم في ناحية المعقول وذلك خلافاً للام المنبعة المجاورة للاندلسيين وهي اعم كان جل اعتمادها في حياتها على المعقولات وعلى الحقائق التي تميزها التجربة ويشهد بها الامتحان .

وقد دخل أدب العربي من شعر ونثر الى الاندلس على ايدي جماعة من تلامذته المغاربة أو الاندلسيين الذين رحلوا الى الشرق ولأزموا أبا العلاء وقرأوا عليه اوعلى من قرأ عليه من تلامذته كالخطيب التبريزي شارح الحاسة فشغف الاندلسيون بأدب ابي العلاء وأعجبهم طريقته واساليه وكثر فيهم مقلدوه واتباعه في فنونه الادبية كما يظهر لنا من تصفح كتب التاريخ والطبقات ولا نبالغ اذا قلنا ان مؤلفات العربي في الشعر واللغة خاصة بعثت من جهة نهضة أدبية لغوية كما اوجدت من جهة ثانية حركة فكرية عامة في الاندلس . فن الاندلسيين فريق تصدى لمساجلة العربي ومعارضته وبينهم الاعيان والوزراء في كتب لم تزل باقية

إلى هذه الغاية في خزائن المغرب والاندلس^(١) ومن الاندلسيين فريق آخر تأثر بالمعري من حيث بلاغته وجزالة لفته في شعره خصوصاً سقط الزند والدرعيات وغيرها وقد عني هؤلاء برواية شعره في السقط أو شرح ما فيه من الغريب فكان السقط من جملة محفوظات البلوي صاحب كتاب « ألف باء » ومن شراح السقط ولعله أشهر شراحه ابن السيد البطليوسي صاحب الاقتضاب الآتي ذكره ومن أدباء الاندلس من حاكى أبا الملاء في التزام ما لا يلزم ومن هؤلاء أصحاب المقامات والرسائل الزومية في النثر . وأصحاب الدواوين في النظم وقد ضاع أكثرها فلم يصل إلى أيدينا منه شيء فلا نرى جدوى في التعريف بأصحابها وإنما نكتفي بذكر من وصلت إلينا آثارهم ممن حذوا حذو المعري في لزوم ما لا يلزم ثراً ونظماً من الاندلسيين مبتدئين بالقسم الاول اي بالكتاب والمترسلين .

لزوم ما لا يلزم في نثر الاندلسيين

اشتهر بالترزام ما لا يلزم في النثر فريق من كتاب الاندلس وهاك اسماء أربعة من مشاهيرهم في استخدام الفن المذكور .

١ - السرقسطي صاحب الزوميات : اسمه محمد بن يوسف بن ابراهيم السرقسطي شاعر نثر اديب وحالة في طلب العلم جاب الاندلس وزار أشهر مدنها ومنها غرناطة قرطبة مرسية بلبسية مألقة شاطبة للاخذ عن أعلامها ومن أجاز له القاضي ابو علي الصديقي وهو أكبر مشايخه^(٢) ترجم للسرقسطي ابن الابار^(٣)

(١) من هذه الكتب الباقية الى الآن كتاب [جمد الصيغ] في مساجة المعري في خطبة النصيح تأليف المحافظ سليمان بن موسى الكلاعي كتب [المسمى الجليل والمرعى الويل] في ماردة ملقى السيل العاظم محمد بن الابار البلبسي ولان الجمال وزير يوسف بن تافنين سلطان المرابطين كتاب في هذا الموضوع . احكام صبغة الكلام من تأليف الوزير الأندلسي التاسم محمد بن عبد النفور الكلاعي ويذكر فيه بعض مؤلفات غير معروفة لآبي الملاء ومن هذه الكتب نسخ خطية محفوظة في الخزائن التونسية والاندلسية .

(٢) المجم في اصحاب أبي علي الصديقي لابن الابار [ط] مدريد سنة ١٨٨٥ ص ١٢٠ و ١٢١ وراجع عن الصديقي طبقات القراء الجزوي ١ : ٢٥٠ وطبقات الحفاظ للذهبي ٢ : ٢٨ وفتح الطيب ١ : ٣٦٢ و ٣٦٥

(٣) المجم في اصحاب أبي علي الصديقي لابن الابار

وابن بشكوال (١) والسيوطي (٢) وشهدوا بفضلهم وغبارة علمهم وله شعر ورسائل ومن مؤلفاته «المسلسل» وموضوع هذا الكتاب لغوي ولكنه غريب لم يسبق اليه من حيث الوضع والترتيب فقد التزم السرقسطي فيه أن يفسر كل لفظة باخري لها معنيان قريب وبعيد أو معنى حقيقي وآخر مجازي ثم ينتقل إلى ذلك المعنى البعيد ويفسره وهلم جرا مثليفسر الذهب بالنضير ثم يقول النضير الناعم والناعم الخافض والخافض الواضع وهكذا على التسلسل فكأنه كتاب من كتب المجازات اللغوية أو من كتب البلاغة وما شاكل ذلك وهو مفيد في بابه . على أن أشهر ما وصل إلينا من آثاره مقاماته اللزومية .

المقامات اللزومية

هي خمسون مقامة أنشأها السرقسطي بقرطبة لما وقف على مقامات الحريري التي أنشأها بالبصرة ولا شك أنه وقف على لزوميات المري جفع بين مباراة الاثنين وفي هذه المقامات يتحدث «المنذر بن حمام عن السائب بن تمام» اشتهرت هذه المقامات ورويت عن منشئها ولذلك يقول ابن الزبير «له المقامات اللزومية المشهورة» (٣) ويقول ابن بشكوال «له مقامات أخذت عنه واستحسنه» (٤) ومن رواها عنه الامام النحوي اللغوي المشهور بابن الباذش ورواها عن ابن الباذش ابن الابار ومن رواها محمد بن خير الاشبيلي صاحب الفهرست المشهور الآتي ذكره جاء فيه «المقامات اللزومية خمسون لابن الطاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطي من انشائه رواهني كذلك عنه» (٥) وقد ذكرها في كشف الظنون (٦) ومما قاله «المقامات اللزومية مشهورة جاءت على غاية من الجودة» وعدد هذه المقامات اللزومية خمسون كما مر توجد منها نسختان في مكتبة جامع لاله لي بالاستانة وقد

(١) الصلة لابن بشكوال [ط] مدريد ٢ : ٢٢٩ و ٣٠٠

(٢) بغية الوعاة ١٢٠

(٣) قله السيوطي عنه في البنية ١٢٠

(٤) الصلة لابن بشكوال ٢ : ٢٢٩ و ٣٠٠

(٥) فهرس ابن خير [ط] اسبانية ٣٦٣

(٦) الكنتف ٢ : ٢٩٥ [ط] الاستانة

وصف النسخ المخطوطة من المقامات المذكورة أديب دمشق^(١) ونشر نموذجاً منها وهو المقامة الاولى واسمها « القفري » ومن جملة هذه المقامات مقامة اسمها « الخداعية » وأخرى اختصت بالنظم والنثر وهي المقامة المحسون وفي هذه المقامات دليل على بلاغة منشئها وغزارة مادته في الادب واللغة ولكن انى له بلوغ شأو المعري أو الحريري في المنظوم والمنثور .

٢ - ابن خير الاشبلي ابو بكر محمد بن خير الاشبلي حافظ ثقة في النحو واللغة والادب له ترجمة مفصلة في طبقات الحفاظ^(٢) ومثلها في طبقات القراء^(٣) وثالثة في بنية الامة^(٤) وهو يمثل لنا ولع الاندلسيين بالمعري وعنايتهم بكتبه في ذلك العصر وذلك ما حملنا على ذكره في هذا المكان توفي ابن خير سنة ٥٧٥ بقرطبة ولم يصل إلى أيدينا من آثاره الا الفهرست المسمى « فهرست ابن خير » وهذا الفهرست عبارة عن سفر جمع فيه اسانيد ما رواه من الكتب وبعضها اسانيد عالية فهو مثالا يروى « الكامل » بسند عال يرفعه إلى المبرد وقد استطرد فيه إلى فوائد ادبية وتاريخية . ومن مرويات ابن خير على ما جاء في الفهرست المذكور^(٥) جميع كتب المعري ورسائله وسائر شعره في « اللزوم » وكل ما له من منشور ومنظوم قال رواجي ذلك عن أبي بكر بن العربي^(٦) عن أبي زكريا التبريزي عن المعري .

٣ - مترسلون لزوميون : وهذه اسماء فريق من المترسلين اللزوميين ورد ذكرهم في كتب الطبقات مثل عبد الرحمن بن اسيد القرناطي قالوا هو كاتب بارع قدر من اللزوم على ما عجز غيره حتى صار طبعا له^(٧) وعبد الرحمن السلمي الاندلسي يعرف بالمكناسي كاتب حلوا الاغراض ينشئ الرسائل اللزومية

(١) السيد محمد علي طيخان في مجلة المنتبر ٢ : ٢٦٦ - ٢٦٨ وفي مجلة الزهراء ٢ : ٢٠٣ - ٢٠٤

(٢) طبقات الحفاظ للذهبي ٢ : ١٥٢ و ١٥٥

(٣) طبقات القراء للجزري ٢ : ١٢٩

(٤) البنية ٢١

(٥) فهرس ابن خير الاشبلي [ط] اسبانية ٢١٢ و ٢٠٠

(٦) انظر عن الحفاظ أبي بكر العربي . طبع الانفس لفتح بن خاقان ٢١ و ٧٣ وطبقات

الحفاظ للذهبي ٢ : ٨٦ و ٨٩ وأزهار الرياض ٣ : ٦٢ - ٦٥ و ٨٦ و ٩٥ وقح الطيب ١ : ٣٣٥ - ٣٢٣

(٧) البنية ٢٩٨ عن تاريخ قرناطة

وبلغ في اللزوم مبلغاً أعجز غيره وله رسائل جليلة . توفي بمراكش سنة ٥٩١هـ (١)
ومنهم ابن غلثنة ذكر ابن الأبار أنه من أصحاب اللزوميات إلى غير هؤلاء .

لزوم ما لا يلزم في شعر الاندلسيين

مذهب الجماعة . مذهب اندلسي في الأدب

قال الشهاب المقرئ (٢) في ترجمة ابن جزى الفرناطي مانصه « ذهب في شعره مذهب الجماعة كابني الملاء المعري والرئيس ابن المظفر وأبي طاهر السلفي وأبي الحجاج بن الشيخ وأبي الربيع بن سالم وأبي علي بن أبي الاحوص وغيرهم » هذا ما قاله الشهاب المقرئ ومنه نعلم أن طريقة المعري ومن حذا حذوه في نظمه كانت طريقة مأثورة شائعة يدرسونها في الأندلس والمغرب وإن مذهب الجماعة ، هذا مذهب اندلسي في الأدب ويقصدون به نظم الاشعار في المواعظ والالهاميات والتوحيد والاخلاق وما إلى ذلك كما نجد في اشعار السلفي (٣) وابن جزى (٤) وابن أبي الاحوص (٥) وابن الشيخ وغيرهم ممن لم يذكرهم الشهاب المقرئ في كتابه وهي اشعار التزموا فيها ما لا يلزم في كثير من الأحيان وهناك اشهر شعراء الاندلس الذين نظموا شعرهم على الطريقة المذكورة وفي مقدمتهم ابن السيد البطليوسي والسرقسطي وغير هؤلاء :

١ — ابن السيد البطليوسي : عبد الله بن محمد بن السيد نزيل بلنسية شاعر نائر بليغ مؤلف موفق في التأليف من اعلام الاندلس في اللغة والأدب وهو

(١) البنية ٣٠٣ قلاً عن ابن الزبير

(٢) أزهار الرياض ٣ : ١٨٤

(٣) انظر من الحفاظ السلفي وفيات الأعيان ١ : ٥٣ - ٥٥ وحقائق الحفاظ الذهبي ٩٠ : ٩٠ -

٩٦ وأزهار الرياض ٣ : ١٦٧ - ١٧١ ومواضع آخر من الكتاب المذكور

(٤) محمد بن جزى أديب قتيه . وُلّف جماعة للكتب له خزنة ملوكية استشهد سنة ٧٧١

تجد ترجمة وأمثه من شعره في أزهار الرياض ٣ : ١٨٤ - ١٨٦

(٥) أبو علي بن أبي الأحموس القرشي الفرناطي اسمه الحسين بن عبد العزيز له ترجمة مفصلة

في بنية الوعاة ٣٣٤ وهو من حيث المزاج والميل إلى العزلة والتسخط على الحياة والتمزق ما لا يلزم

في شعره كثير الشبه بأبي الملاء المعري .

صاحب الاقتضاب (١) والانصاف (٢) افرد الفتح بن خاقان رسالة خاصة في ترجمته ضمنها جزءا من شعره (٣) وله ايضا ترجمة في قلائد المقبان (٤) ووفيات الاعيان (٥) وبنية الوعاة (٦) .

عني البطليوسي بشعر ابي العلاء المعري وشرح ما فيه من الغريب وله شرح مشترك على سقط الزند واللزوميات يقال انه احسن الشروح بيد انه نادر الوجود توجد منه اوراق قديمة في الخزانة التيمورية بالقاهرة (٧) وقد عثر اخيرا في تونس على نسخة قديمة منه في مجلدين فهو اقدم شرح يعثر عليه من شروح سقط الزند واللزوميات . وله شعر وترسل كثير وهو متفنن في شعره وشره نظم قطعة تنفك عنها ست قطع واخرى تنفك عنها تسع (٨) والمعري تأثير ظاهر في طريقته واساليبه قال ابن خاقان وقد اكثر من القول في الزهد . توفي البطليوسي سنة ٥٢١ ومن شعره وقد التزم ما لا يلزم :

امرت الهي بالمكارم كلها ولم ترضها الا وانت لها اهل
فقلت اصفحوا عن اناب اليكم وعودوا بحلم منكم ان بدا جهل
فهل لجهول خاف صعب ذنوبه لديك امان منك او جانب سهل

ومن تفننه قوله في اولاد صاحب قرطبة وهم عزون ورحمون وحسون :

اخفيت سقمي حتى كاد يخفيني وهمت في حب عزون فمزوني
ثم ارحمني برحون فان ظلمت نفسي الى ريق حسون فحسوني

٢ - - السرقسطي الشاعر : هو صاحبنا منشيء المقامات اللزومية المار ذكره في الفصل السابق شاعر مكتر يلتزم في شعره على الاكثر ما لا يلزم ومن شعره امثلة عثرنا عليها في كتب الادب جلها على ما نظن مقتبس من مقاماته اللزومية .
للسرقسطي في معاهد التنصيص (٩) اربعة ابيات لزومية مهد لها صاحب المعاهد بقوله ، ولابي طاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطي وهو مصنف المقامات اللزومية وهي خمسون مقامة بناها على لزوم ما لا يلزم واول الايات :

(١) طبع في المطبعة الادبية بيروت سنة ١٩٠١

(٢) طبع مصر سنة ١٣١٩

(٣) نقل المقرئ صاحب قح الطيب وأزهار الرياض هذه الرسالة بروتها في كتابه الأخير

(٤) ص ١٩٣

١٠٣ : ١٢٩

(٥) ص ٢٨٨

٢٧٢ : ٣

(٦) ابو العلاء المعري لأحمد تيمور ٦٨ (٨) ازهار الرياض ٣ : ١٣٢

(٩) معاهد التنصيص ٢ : ١٠٩

ياهاثما بالدلال والخفر الصقت خد العزيز بالعفر
ومن شعره في المقامات اللزومية وهو مما رواه ابن الأثير (١) والأبيات
خمس أولها:

هيات من ذنب المنيء تأسف وله على حول الذنوب تمسف
وله قصيدة من هذا الباب أولها:

دعا بك الدهر لو تحيب يا حبذا السامع الحبيب
منها: المجد فوز الفتى يحظ فما تميم وما تحيب

٣- ابن الشيخ البلوي (٢): اسمه يوسف بن محمد أبو الحجاج القضاعي
البلوي يعرف بابن الشيخ عالم لغوي من محفوظاته سقط الزند عن اللزوميات في
شعره. أم ما وصل من مصنفاته (الف باء) (٣) في الأدب واللغة وهو كتاب
غريب الوضع والترتيب التزم في ترتيبه ما لا يلزم وفيه نقل عن شرح للبعلبيوسي
على لزوم ما لا يلزم للمعري والبلوي المذكور مولع بالنظم على هذه الطريقة
كأستاذ الفقيه أبي محمد الخطيب (٤). توفي ابن الشيخ البلوي سنة ٦٥٣ ومن
لزومياته في شيخ فقير خطب جارية غنية:

أخطب من قدها غصن بان ومن كالسجنجل منها اللبان
تضاف إلى الشمس من حسنها وتنسب في العز للمرزابان
وأنت عديم أخو عيسلة مشيك في عارضيك استبان

وليكن هذا آخر البحث في تاريخ لزوم ما لا يلزم وهو فيما نظن قليل
من كثير وربما فاتنا منه ما يعادل هذه الصفحات وقد حالت حوائل القاهرة
دون استكمال البحث مضافاً إلى كلال الدهن وتشتت البال والله المستعان
على إتمامه في المستقبل إنه ولي التوفيق .

محمد رضا الشيباني

(بغداد)

رئيس مجلس النواب

(١) المعجم في اصحاب القاضي الصدي لابن الأثير ١٢١

(٢) انظر بنية الوعاة ٣٥٣

(٣) طبع هذا الكتاب في مصر سنة ١٢٧٧ بمجلدين

(٤) الف باء ٢ : ٣٢١ و ٣٢٢ وانظر أيضاً ١٥٢ و ٢٧٢ و ٣٢٢

أبو العلاء المصري وعالم النحو

كتب لأبي العلاء صنوف من المجد العلمي .
كان شاعراً مكثرًا مفيضاً خلف ديوانين من أوسع الدواوين في العربية —
ومع ذلك وجد من العلماء من يقول — أبو العلاء حكيم وليس بشاعر — وكان
فيلسوفاً حكيمًا حدد لنفسه رأياً في الحياة وأملى عليه رأيه خطة من العيش
الترمها وصبر عليها ووفى بها — ومع ذلك جحدت عليه فلسفته وقيل مضطرب في
الرأي متقلب في الحكم وقيل برم بالحياة تملي عليه السوداء — ودع عنك من رماه
باللحاد والزنيغ وسوء الايمان .

وكان عالماً لغوياً فكان هذا أين مجد له واشرقه . ومذ كان أبو العلاء بهر
الناس علمه باللغة وتصرفه فيها واحاطته بعلومها ولم يتطرق عليه في هذا متعلق .
ولكن البحث الجديد يبدو كأنه يمسك الطريق على السابقين في تقدير علم أبي
العلاء وتقويم مواهبه ودرس آثاره .

فاما فلسفته فقد وجدت من استنبطها واحاط بها وصورها وحدة متاملة متكاملة
تستحق أن تجد منزلتها في تاريخ الفلسفة وتاريخ الفكر وتاريخ الحياة أيضا .
ومذ بدأ الدكتور طه حسين — وهو ناشئ — يكشف عن فلسفة المصري
ويؤلف بين اشتاتها ويظهر الناس على جملتها ، وفلسفة أبي العلاء حقيقة ماثلة لدى
الناس لا يجحدونها وان اختلفوا في تقويمها .

وأما شعر أبي العلاء فللادباء اليوم رأي حسن في تقديره وأنه الشعر علا عن
اللغو وسما بما فيه من رأي وبحث في أمور الحياة .

وأنه الشعر العربي الذي يقدم للناس ثراً فيقبلون عليه راضين يتمتعون بمعانيه
قلوبهم وعقولهم .

وإن الغربيين اذا ترجوا من الشعر العربي لم يجدوا لديهم أقوم من شعر
المصري .

فقد كشفت فلسفة المري وقوم شعره — أما علومه اللغوية وهي المع آيات مجده فإذا دُرس منها ؟ لقد زحزحت عن مكانها وكانت الأولى . وكأنما نشر أبو الملاء فيلسوفاً وشاعراً وقد كان يحيا عالماً لغوياً .
وانا أحاول هنا أن أدرس طرفاً يسيراً من أطراف علوم أبي الملاء اللغوية — وهو العلم الذي سماه المتقدمون (بالعربية) وشمله كتاب سيويه ونسميه الآن علم النحو والصرف أو « علم النحو » ونكتفي .
وأريد أن أكتفي من البحث ببيان موقف أبي الملاء من هذا العلم ومن سبل بحثه في فقه العربية .

أرضي أبو الملاء هذا الأسلوب من البحث أم كرهه ؟ فإن كان قد رضي فهل أحدث فيه بحثاً أو زاده فصلاً ؟ وإن كان كرهه فهل بدل منه شيئاً أو حاول أن يبدله ؟ .

تعلم أبي الملاء النحو بالشام

بكر أبو الملاء إلى درس النحو صبيّاً — كما كان الناشئون يبكرون — وتلقى أول دروسه على والده الشيخ عبد الله بن سليمان ولم يكن نحوياً مذكوراً ولا عرف له رأي في النحو وإنما تعلم منه ما كان ينبغي أن يتعلم فقيه يتهياً للقضاء .
وكان الشيخ عبد الله فقيهاً قاضياً عربي النجر يفتخر بنسبه من تنوخ .
وكان أشياخ العرب يقبلون على نحو الكوفة ويمرضون عن نحو البصرة نحو الموالى وكان الفقهاء يحبون نحو الكوفة أيضاً لأن الكوفيين أكثر رواية وحماً للآثار وحفظاً للحديث ولأن البصريين اقلوا الرواية وتورطوا في الفلسفة والجدل واطرحوا الحديث ان يحتجوا به ولحنوا المحدثين .
لذلك أخذ الشيخ يعلم ولده كتاب النحو الذي تعلمه من قبل وهو « مختصر محمد بن سمدان الضرير الكوفي النحوي » المتوفى سنة ٢٣٦ وكان هذا الكتاب مما يتدارسه الناشئون بالشام ويؤثره الفقهاء .
وكان يدرّس الشام موجز آخر يسمى « الجمل » الفه عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي وكان الزجاجي من أئمة النحاة وقصد إلى الشام واقام بطبرية وتوفي به سنة ٢٣٩ هـ وترك له مدرسة وتلاميذ يدرسون كتابه « الجمل » فدرسه أبو الملاء .

وكذلك كان باشام كتاب في النحو مختصر يسمى «الكافي» ورد اليهم من مصر ألفه الشيخ أحمد بن محمد المرادي المصري المتوفي بمصر سنة ٣٣٨ قالوا «كان شيخاً تقياً ورعاً انتفع به خلق كثير» وتقل تلاميذه كتابه الى الشام فكان مما يدرس بها ولقيه أبو الملاء وقرأه ايضاً وقد بقيت هذه المختصرات تدرس بالشام الى أن جلس أبو الملاء بالمرعة استاذاً يعلم الناس فعلها لتلاميذه كما سنراه بعد.

انتقل هذا الفتي المستكبر من العلم الى «حلب» قالوا «دخل أبو الملاء حلب وهو صبي فقراً بها على محمد بن عبد الله بن سعد النحوي» ولم يقولوا ما قرأ عليه ولكن ابن سعد لم يكن نحويّاً ولا ذكر في النحاة وان سمي نحويّاً وانما كانت رواية لديوان المتنبي.

وكان شعر المتنبي متغنى أهل الشام وهتاف عاطفتهم وذاكريهم فاجبه الشباب واجبه أبو الملاء ثم زاده فيه حبا ان معانيه لامت نفسه فأكب عليه جمعا وحفظاً ثم قصد ابن سعد هذا الذي لقي المتنبي وسمع منه وحفظ عنه وعد رواية له ولكن الفتي كان أجمع لشعر المتنبي وأروى له من روايته.

قالوا «ان ابن سعد كان يروي من ديوان المتنبي قصيدته التي مطلعها :
«أزائر يا خيال أم عائد»

فقال منها .

أَوْ مَوْضِعاً فِي فَنَانِ نَاجِيَةٍ

فرد عليه أبو الملاء — وقد اجتمع معه بحلب وهو صبي — وقال بل هو

أَوْ مَوْضِعاً فِي فَنَانِ نَاجِيَةٍ

فلم يقبل ذلك ابن سعد ومضى الى نسخة عراقية سمعت مع أبي علي بن ادريس من المراق فوجد القول ما قال أبو الملاء ولم تكن القصيدة مما قرأه على المتنبي ولكن بما بث اليه .

فلم يجد أبو الملاء في حلب استاذاً له لا في الرواية ولا في النحو .

وانما كان في حلب آثار مدرسة نحوية عظيمة أساسها أبو عبد الله الحسين بن احمد بن خالويه سنة ٣٧٠ وأبو الفتح عثمان بن جني المتوفي سنة ٣٩٢ ولهذه المدرسة اسلوب في البحث يتميز بمنائيتها بالقرآن وجمع روايته وتوجيه ماسمى منها

شاذاً وعمل الامامين في هذا الباب هو مرجع الدارسين له وقد تأثر أبو العلاء بأسلوب هذه المدرسة في البحث وإن لم يلق احداً من أئمتها وألف كتاباً سماه «نظم السور» يتكلم فيه عن لسان السور وتنظم كل سورة بمن قرأها بالشواذ ويتعرض لوجه الشاذ .

لم يفلح المعري في أن يلقى استاذاً بالشام فامحدر الى بغداد على وعناء الطريق وعناء الرحلة ومشقة السفر عليه خاصة ولكن لقاء الشيوخ كان من تمام العلم وربما كان الرجل عالماً مليئاً ثبثاً ثم عيباً به لالقاء له وبأنه صحفي لم يأخذ عن كبار الشيوخ .

بغداد ونحاتها

كانت بغداد تصطبغ بأصوات العلماء وعلماء النحو خاصة كان فيها قبيل مقدم أبي العلاء الامام أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرا في المتوفي سنة ٣٦٨ كان الى امامته في النحو فقيهاً قاضياً ورعاً وشرح كتاب سيويه فجاء اوسع شرح واسيره وابقاء الى الآن وهو يبلغ حجم «الكتاب» اضعافاً ثلاثة أو أربعة والناس يحرصون عليه ويجاهدون في تحصيله ويتفخرون باقتنائه .

وكان إلى جانبه ، الامام أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي المتوفي سنة ٣٧٧ وكان بلقب سيويه الثاني وقالوا «لم يشهد النحو بعد سيويه اعلم به ولا أدق نظراً في قياسه من أبي علي» .

كان الشيخان يتنازعان رياسة النحو في الدنيا ولكل منهما فابو سعيد أكبر رواية وأوفر حظاً من الشعر واللغة والسماح وإن كان نحوه نحو البصريين وجنهم وقياسهم .

والفارسي أدق نظراً وأصح قياساً وأغوص على أسرار العربية وكان يقول «أخطي في خمسين مسألة مما تأتي به الرواية أحب إلي من أن أخطي في مسألة واحدة مما يأتي به القياس» .

وكان إلى جانب هذين الامامين الشيخ أبو الفتح عثمان بن جني المتوفي سنة ٣٩٢ وهو تلميذ الفارسي وفي طريقته . ثم الرماني علي بن عيسى المتوفي سنة ٣٨٤ وهو ذو طريقة وحده كان اعمق من الفارسي غوصاً على القياس وعلته حتى كان الفارسي يقول .

« ان كان النحو بما بأيدينا فليس مع الرماني شي* منه وان كان النحو ما عنده فما بأيدينا منه شي* » .

كل هذا يبين عن كثرة المدارس النحوية وتفرع المذاهب ونشاط الجدل اللغوي ولكن ابا الملاء زل بنداو وقد تخرمت المنية هؤلاء الائمة . السيرا في سنة ٣٦٨ ، والفارسي سنة ٣٧٧ ، والرماني سنة ٣٨٨ ، وابن جني سنة ٣٩٢ . فكانما كتب له الايلي مدارس النحو الا في أعقابها وكان الموت كان يساقه إلى لقاء الشيوخ .

كانت رئاسة النحاة قد انتهت الى الشيخ علي بن عيسى الربي المتوفي سنة ٤٢٠ وكان شيخاً كبيراً وكان اماماً واسع العلم ولكنه كان ضيق الصدر غير محمود المشرة ولم يكن لأبي الملاء بد من ان يقصد اليه ويحكون ان ابا الملاء منذ استأذن على الشيخ اذن له في عبارة تسي* اليه فكر راجعاً ولم يعد ولم يلق عن الربي شيئاً . ونحن نعلم خلق الربي وانه صرف عنه بعض التابهين من تلاميذه مثل ابن برهان « لم تأخذ النحو عن أصحاب الربي وتترك الشيخ وقد أدركته . فقال بمنعني جنونه وما تعلمون مني » . (انظر يا قوت . ترجمة ابن برهان) . وكذلك نعلم طريقة الربي في الجدل النحوي واتباعه سبيل استاذة أبي علي الفارسي .

وكلا الامرين لا يلائم أبا الملاء فلم يكن من سبيل الى أن تطول الصعبة بينها . وعندي ان أبا الملاء قصد الى الربي وأخذ عنه قليلاً ثم انصرف وابن المديم ينص على أنه تلقى عن الربي . أما القصة فانها أبدعت في تصوير هذا النفور وسرعة وبث اللقاء كأن لم يكن لقاء .

لم يجد أبو الملاء اذن استاذاً له في بنداو كما لم يجد من قبل استاذاً في الشام واضطر ان يطلب النحو من الكتب وان يكون قارئاً لامتلقياً .

وسنحاول ان نعلم ما اتصل به من كتب النحو وكيف اتصل بها وزى كيف قدرها وقدر أصحابها .

الكتابات وسببويه

نعلم من بعض رسائل المعري (ص ٢٦ مرجليوث) أن أبا الملاء كتب الى أحد أخواله — أبي طاهر بن سبيكة — يسأله أن يحصل له نسخة من « الكتاب »

ومن شرحه وإن ظاله لقي عناء في تحصيله وكأنه كتب إليه بما لقي فأرسل إليه المري رسالة منها « وفهمت ما ذكره الشيخ من أمر النسخة المحصلة وهو — ادام الله عزه — الكريم المتكرم وأنا المثقل المتبرم جرى في التفضل على الرسم والحجت الحاح الوشم فاما الشرح فلان سمح القدر والا فهو هدر »

وكنيت قلت في بعض كتبي الى سيدي ان كانت الخطوط مختلفة والابواب مؤتلفة فلا بأس يعني عن السرق ثوب من خلق ماعدا خط علي بن عيسى فانه رجل اتكل على ما في صدره قهوان في سطره .

وهو — ادام الله تأييده — من الملامة في احسن لامة فلا يعمته تمنر الحاجة على اللجاجة اهو الكتاب المكنون الذي لا يعمه الا المطهرون انما هو اباطيل إياه

وتعليق في أيام الحياة ، اهـ

اما تقديره سيويه رحمه الله فانه لم يزل يتعرض له بالنقد والتخطئة في مواضع من رسائله منها :

« ان ابن القارح سأل ابا ليلى نابغة جمدة كيف تشدد قولك :

فليس بمعروف لنا ان زردها صحاحا ولا مستنكرا ان تعقرا

أقول :— « ولا مستنكرا » ام « ولا مستنكر » فيقول الجمدي بل « مستنكرا » فيقول الشيخ فان انشدكم منشد « مستنكر » فما تصنع قال « أجزره وازبره فطلق بامر لا يخبره » فيقول الشيخ انا لله وانا اليه راجعون ما أرى سيويه الا وهو في

هذا البيت لان أبا ليلى ادرك جاهلية واسلاما وغذي بالفصاحة غلاما .

وامانا سيويه يذكر هذا البيت في كتابه (ج ١ ص ٣٣)

ويجيز فيه « مستنكر » بالجر ويتكلم في توجيهه

ومثل هذا ما زراه في سؤاله عدي بن سعد عن بيته :

ارواح مودع ام بكور انت فانظر لاي امر نصير

وأن سيويه يزعم ان « أنت » يجوز ان ترفع بفعل مضمر يفسره قولك فانظر

فيقول عدي بن زيد دعني من هذه الاباطيل .

وقد ينبغي ان تثبت عند هذين التقدين قليلا ففيها أسلان يرجع اليها اكثر ما

تقدمه ابو الملاء من نحو البصرة الاول أن نحاة البصرة بقياسهم قد قولوا العرب مالا يقولون وأجروا على السنتهم غير ما يرضون .
والثاني أنهم تكلفوا في توجيه الكلام وتخريجه بما اوقفه في الاباطيل .
واذ كان هذا بين عن رأي أبي الملاء في سيويوه وفي الكتاب فلنتحاول أن نتعرف الى رأيه في أبي سعيد والشرح .

السيرافي وشرحه

طلب أبو الملاء شرح السيرافي من خاله أبي طاهر مع الكتاب كما قرأنا في الرسالة السابقة وقال في تقديره « أما الشرح فلان سمح القدر والا فهو هدر » .
وطلبه ايضا من صديق له آخر هو أبو عمر الاسترأبادي وكأنه لقي في تحصيل الشرح عناء ايضا كما يفهم من رسالة أبي الملاء (ص ٣٨ مرجليوث) .
« كان أيسر من عنائه في ذلك قذف الشرح في سبيح ... »

انما هو اثنان كلام اصبح وهو مجموع المقيس فيه والمسموع لا يخلد من رواء قد عاش الناس بسواه ... ولا أقول لمن غاب ريش سهمه اللغاب ولا أقول للكتاب ابي سعيد — « اولئك ينادون من مكان بعيد » بل انا من التثقيل حذر ، مشفق من ذلك معتذر ، وانما سالت أن يستسمد برأيه لقلّة نظرائه وهو عندي أجل والكتاب أيسر وأقل من أن يكلف خطوات ولو كن كديب القطوات » .
وأبو الملاء لا يزهّد في الشرح زهده في الكتاب ولا يجعله كما جعل الكتاب « اباطيل إياه » وانما اشفق من التثقيل وعاب من الشرح انه « أصبح وهو مجموع المقيس فيه والمسموع » ، وأبو الملاء يضيق بالقياس صدرا ولا يمدل بالمسموع شيئا ولكن الشرح مع ما فيه من القياس غزير الرواية والشيخ أبو سعيد فياض الاستشهاد وذلك اغرى أبا الملاء بتحصيله .

أما الرأي في أبي سعيد فانك قد تراه في ثنايا ما نقص عليك قال ابو سعيد في الجزء الاول من الشرح عند ترجمة سيويوه « باب ما يكون في اللفظ من الاعراض »
مالصه :

حضرت أبا بكر بن دريد وقد أنشد أمانا تنحل آدم وهي :
تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الارض منبر قبيح
تغير كل ذي لون وطعم وقل بشاشة الوجه الملمح

فقال أبو بكر أول ما قال الشعر أقوى فقلت له انشاد البيهقي على وجه لا يكون فيه اقواء وانما هو :

..... وقل " بشاشة اوجه المليح "

على تقدير وقل بشاشة " ففتحين وجعل يستشهد لحذف التنوين في هذا الموضع اذا تلاه ساكن بشواهد عدة من الشعر ومن القرآن الكريم ثم قال وحذف التنوين عند الالتقاء بساكن غير داخل في ضرورة الشعر وقد رأيت بعض من ذكر ضرورة الشعر أدخل فيه حذف التنوين وهو عندي ليس كذلك . اهـ . من تفصيل المعري وفي " روي " .

وابو الملاء يعرض لهذه القصة حين يلتقي ابن القارح بأبينا آدم ثم يقول ما نصه :
قلت انا هذا الوجه الذي ذكره ابو سعيد شر من اقواء عشر مرات في القصيدة
الواحدة اهـ . (رسالة الغفران ص ١٠٩ و ١١٠) .

أبو علي الفارسي وكتبه

ونحن مضطرون ان نطيل عليك بنقل من نص رسالة الغفران ص ٥٧ لتعلم تقدير أبي الملاء للفارسي وكتبه .

« قال ابن القارح : وكنت قد رأيت في المحضر شيخاً لنا كان يدرس النحو في الدار العاجلة يعرف بأبي علي الفارسي وقد امترس به قوم يطالبونه ويقولون تأولت علينا وظلمتنا فلما رأني أشار بيده فحشته فاذا عنده طبقة منهم يزيد ابن الحكم الكلابي وهو يقول ويحك أنشدت علي هذا البيت برفع الماء يعني قوله :
فليت كفافاً كان شرك كله وحيرك عني ما ارتوى الماء مرئوي
ولم أقل إلا « الماء » . وكذلك زعمت اني فتحت الميم في قولي :

تبدل خليلاً بي كشكلك شكله فاني — خليلاً صالحاً بك — مقتوي
ولما قلت « مقتوي » بضم الميم . وإذا هناك راجز يقول تأولت علي أني قلت :
يا ابلي ما ذنبه فتأنيبه ماء رواء ونصي حويله (١)

(١) يروي هذا البيت أبو سعيد في الفرح :

يا ابلي ما ذامه فتأنيبه ماء رواء ونصي حويله .

شاهدنا على ثنية « حول »

فحركت الياء في « تأيه » ووالله ما فعلت ولا غيري من العرب
 وإذا رجل آخر يقول أدعيت علي أن الهاء راجعة على الدرس في قولي :
 هذا سراقاة للقرآن يدرسه والمرء عند الرشي أن يلقها ذيب
 أمجنون أنا حتى أعتقد ذلك . وإذا جماعة من هذا الجنس كلهم يلومونه
 على تأويله . فقلت يا قوم ان هذه أمور هينة فلا تفتنوا هذا الشيخ فإنه يمت
 بكتابه في القرآن المعروف « بالحجة » وأنه ما سفك لكم دماً ولا احتجن
 عنكم مالا فتفرقوا عنه وشغلت بخطابهم والنظر في حورم فستط من الكتاب
 الذي فيه ذكر التوبة فرجعت اطلبه فما وجدته فأظهرت الوله والخزع ، اه .
 فهو يخطئه في روايته ويكره منه تأويله ويزعم أنه يقول العرب ما لم يقولوا
 ويحمل كلامهم ما لم يريدوا وأنه انما يرضى من عمله (كتاب الحجة) وهو في
 اعراب القرآن وتوجيه قراءاته .

وكذلك انصرف المري عن بغداد لم يتلق عن أحد من ائمة النحويها وقراً
 كتبهم فضاق صدرأ بما فيها . وكان أشد ما ضاق به التكلف في التأويل والفلو في
 التمليل والمضي مع القياس مضياً يراه المري متنبهاً إلى أن يميز في الدرية ما ليس منها

تدريسه النحو بالمعرة

عاد أبو الملاء الى المعرة واستقر بها استازا فإذا علمهم من النحو ؟
 جعل يعلم من شاء منهم كتب النحو الموجزة التي تعلمها من قبل في المعرة
 وفيما حولها من بلاد الشام وهي .

(١) الجمل — للزجاجي — (٢) الكافي — للنجاش (٣) المختصر —
 لابن سمدان .

وجعل يؤلف الكتب شرحاً لها أو بياناً لشواهداها . فألف لكتاب الجمل :

(أ) — عون الجمل (ب) — اسعاف الصديق

وألف على « الكافي » كتاباً سماه « قاضي الحق » . وعلى مختصر ابن سمدان
 كتاباً سماه « المختصر الفتحي » ألفه لآبي الفتح ابن كانه .

فإن املى كتاباً مبتدئاً به فهو على مثال هذه الكتب من الايجاز — وعلى هذا
 ألف كتاب « الحقيير النافع » كتاب مختصر في خمس كراسات . ثم ألف كتاباً

يتصل به سماء « الطال الطاهري » كتبه لأبي طاهر المسلم بن علي من رجال الدولة وهو قريب في الحجم من الكتاب الأول وقد يخلط الكتابان كتاباً واحداً. لم يؤلف كتاباً موسماً ولا تعرض لهذه الكتب النحوية المطولة التي اتصل بها في بغداد إلا أن يكون كتاب سيبويه ثم بشرحه فشرح قليلاً منه أو من شواهد ثم انصرف عنه ولم يتمه .

وكان يعلمي هذه المختصرات ويهديها إلى أصدقائه أو إلى أحد من رجال الدولة قضاء لحق أو جزاء على معروف أو برأ بصاحب كما ترى في تسمية كتبه « اسعاف الصديق » و « قاضي الحق » وكما نقرأ في اخباره ففي ترجمته في كثير من الكتب التي ترجمته — « قال الشيخ أبو العلاء لزم مسكني منذ سنة أو بعمائة واجتهدت أن أتوفر على تسييح الله وتمجيده إلا أن اضطر إلى غير ذلك فأملت أشياء وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم أحسن الله معونته فالزمني بذلك حقوقاً جمة وأيادي بيضا لأنه افنى في زمنه ولم يأخذ عما صنع ثمنه والله يحسن له الجزاء ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء » اهـ .

وقد كتب لولد هذا الشيخ كتابين في النحو « المختصر الفتحى » و « عون الجمل » قالوا وكان هذا الكتاب آخر ما أملاه الشيخ وما شغله من التأليف رحمه الله .

الخلاصة

طفنا مع أبي العلاء حينما اتصل بالنحو متعلماً أو معلماً قارئاً أو محلياً ورأينا أنه لم يتلق عن أستاذ يحترمه ويقدره ويتأثر بتوجيهه إلا أن يكون أباه فقد وجهه إلى نحو الكوفيين وحببه في الرواية والسباع ثم أورشته المدرسة الشامية الميل إلى إعراب القرآن وإلى توجيه قراءاته .

أما في بغداد فقد تفر من المدارس النحوية البصرية وذاق بما فيها من قياس وتلميل وجدل .

ولما عاد إلى المرة اكتفى أن يعلم من النحو المختصرات أو يعلمي الجمل وأخذ يث في رسائله نقده لمذاهب البصريين وما فيها من تلميل وتكلف في التأويل. أما اجتراء أبي العلاء بالمختصرات والجمل فقد يكون مذهباً تعليمياً نافماً

وقد يصلح لمن شاء أن ينال من النحو حظاً ثم ينصرف إلى غيره مما قد يحتاج إلى النحو كالفقه والأدب . أما من شاء النحو على أنه فقه اللغة وكشف أسرارها وخصائصها وتعليل قوانينها ومجاريها فإن ذلك لا يجديه شيئاً ولا يصله بشيء .

وأما نقد أبي الملاء للنحاة للمبالغة في التعليل والتكاف في التأويل فقد يكون له من ذلك ما يتقده على أنه نقد لم يكن دقيق المسلك ولا خفي المكان وكل ما ابتدعه المعري هو أسلوبه الشرعي في هذا الانتقاد .

وأستطيع الآن أن أقرر مطمئناً أن أبا الملاء كان عالماً بالنحو وأنت أقرر — كذلك — أنه لم يكن نحويّاً ولا أراد أن يكون نحويّاً وإنما كان ناقداً لغويّاً درس النحو فغابه وضاق به وانصرف عنه واكتفى من قواعده بما يمكنه من العمل الذي وافق هواه وسار طبعه وهو — النقد — ونظرات في مثل (عبث الوليد) أو (ذكرى حبيب) تبين أنه انصرف إلى النقد ولم يمن بمسائل النحو ولا بتخريج النحاة .

من بعد أبي الملاء

لم يذهب مع الريح نقد أبي الملاء للنحاة وأسلوبه الشرعي الذي اتبعه في النقد زاد من أثره فشاع وتندر الناس به .

ولو أنه كان نقداً أعنف من هذا وأعمق بحثاً ثم مضى في بطون الكتب النحوية لما بلغ هذا المدى من الذبوع ومن الأثر .

نرى عقب زمن أبي الملاء عرساً ظاهراً في كتب النحو — وكتب الاثمة منهم — يبدؤون كتبهم بالدفاع عن النحو والذود دونه ذوداً عنيفاً يرى أنه درء لهجوم قوي مر .

فالامام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧٤ يبدأ دلائل الاعجاز — وهو كتاب يمدد الجرجاني ونمده معه كتاباً في النحو — يبدأ هذا الكتاب بمجمل قوي لمن زهد في النحو واحتقره واصفر أمره وتهاون فيه — وإن صنيع هؤلاء أشبه بالصد عن كتاب الله وتصرف ممانيه ثم يفصل ما عابوه من النحو بما لا يمدد بما نقد به ابو الملاء — (وانظر تفصيل ذلك في اول الدلائل) .

والامام ابو القاسم محمد بن عمر الزنجشري المتوفى سنة ٥٣٨ يبدأ كتابه «المفصل» بمثل هذا الدفاع ويجعل الذين ينمضون من العربية ويضمون من مقدارها ويريدون ان يخفضوا ما رفع الله من منارها لا يبعدون عن الشوعية منابذة للحق الابليج وزينا عن سواء المنهج وذلك لانهم لا يجدون علما من العلوم الاسلامية فقها وكلامها وتفسيرها واخبارها الا وافتقاره الى العربية لا يدفع ويرون الكلام في معظمها مبنيا على علم الاعراب

والزنجشري رحمه الله يتحكك بابي الملاء في مواضع اخرى في تفسيره للرسالات عند آية « ترمي بشرور كالقصر كأنه جمالات صفر » . جلب ذكر أبي الملاء لأدنى مناسبة — كما يقول النحاة — فذكر بيت المعري :

حمراء ساطعة الذوائب بالضحي ترمي بكل شرارة كطراف

وجعل يعيب المعري ويلعزه لسوء تشبيهه وهو ظاهر التجانف والميل . وتودنا من الزنجشري رحمه الله ان يمرض لخصوم المعتزلة وليس ابو الملاء منهم ولكن الزنجشري كان رجلاً أديباً قرأ رسائل المعري وفطن لموقفه من النحاة فحمله كرهه على التحرش به .

وهذه الخصومة النحوية قد جنت على ابي الملاء ايضا فان النحاة اهلوا شعره ونذر جداً ان تعرضوا له بشرح أو استشهاد أو نقد وقد عنوا بشعر ابي تمام والمتنبي لما فيها من تصرف في اللغة وفي الاساليب النحوية وقد كان في شعر ابي الملاء من ذلك ما يغريهم بدرسه ولكنهم اعرضوا عنه .

وأظهر من هذا اعراضهم عن كتبه في النحو فلم يدرسوها ولا نقلوا عنها حتى لم يبق منها كتاب ولا أثر من نقل . وتلك خصومة جنت على المتخاصمين ولم يحن العلم منها شيئاً .

ولقد أرى أن ابا الملاء فكر في النحو بالطبيعة التي فكر بها في كل امور الحياة يحس العيب — فيما يراه عيباً — فيعبر عنه ويندبه وربما التزم ان يتجنبه ويمص نفسه منه ولكن رأيه في اليأس والقنوط يمنعه ان يشور الى شيء من الاصلاح .

واذا ما نهض النحو — واظنه ينهض — فانه سيشهد ان النحاه المتقدمين
والبصريه منهم خاصة قد ابلوا في كشف اسرار اللغة ووصلوا من فقهها الى قيم كثير
وان آثارهم قد طمت تحت ركام من الاعراض والفتور وان ابا الملاء كان شيئاً مما
فقر الناس عنها ...

* * *

وكتب بالاسكندرية في رمضان من سنة ١٣٦٣ وقدم الى المهرجان الألفي
المقام لأبي الملاء في سورية وأملاه ابراهيم مصطفى
« مندوب جامعة فاروق الأول »



بعض ملاحظات

تعلق بحياة أبي العلاء وآثاره

« نشرفت بدعوة المجمع العلمي العربي بدمشق ابائي لحضور مهرجان الشاعر الحكيم العظيم أبي العلاء العربي . وأنا أشكر المجمع العلمي الموقر دعوته باسمي وباسم أديباء فارس وعلمائها ورجالها . وأعتذر لحضوري متأخراً فما كل ما يشغلي المرء يدركه .
لقد هيأت بحثاً موجزاً كتبته بالفرنسية لألقيه إبان المهرجان فلم أتمكن من ذلك وقد طلت إل صديقي الدكتور أسعد طلس أن يترجم إلي العربية فقل مشكوراً .
وسأرجع إل طهران حاملاً اني بلادي أطيب التكريات لرجال سورية الأفاضل الذين غمروني بطفهم وبخاصة رجال المجمع العلمي العربي وأديباء دمشق » .

* * *

قال بعض شعراء فارس متنبئاً بحظ الشعراء بعد موتهم :
« حينما يكون الشاعر حياً لا يقدر الناس شعره حق قدره، بل ان بعضهم ينقد لفظه كما ان آخرين يتهجمون على آرائه .

ولكنه إذا مات أصبح قوله أغلى من الدر واثمن من الابرز .
فياحبذا تلك الحالة الحسنة التي يصبح فيها الموت افضل من الحياة » .
لاشك في ان هذا الشاعر يتألم من حال كثير من معاصريه الذين لا يقدرون قيمة شعره وعبقريته لما في نفوسهم من الحسد والفكر الضيق . كما لم يقدر كثير من الاقدمين عبقرية غيره من الشعراء والنوايع .

إن ابا العلاء هو واحد من هؤلاء الشعراء الذين لقوا من معاصريهم ما لقيه هذا الشاعر فانهم تهجموا على عبقريته وضيقوا عليه انفاسه في حياته ومنعوه أن يظهر بصورته الحقيقية . وذلك ان ابا العلاء ما كان يشبه قليلا او كثيراً من تقدمه من الشعراء إما بأسلوبه الخالص او بأفكاره الجريئة فكان طبيعياً أن ينظر الناس اليه نظرة قاسية ويتهجموا عليه ويشتموه ويلعنوه ويكفروه لاشيء سوى انهم حاسدون او متعصبون رأى ذلك أبو العلاء من معاصريه فتب منهم وتألم من مجتمعاتهم

واحتقرهم فازوي في « محبسه » بعيش عيشة نساك وانزواء ويعبر عن آرائه بالفاظ غامضة واسلوب مبهم كل ذلك يعتمد منه اثلا يطلع على مذهبه وافكاره من ليسوا لها اهلا .

اشتهر ابو العلاء شهرة واسعة في حياته على الرغم من ذلك الانزواء الشديد الشديد وهو بحق اهل لتلك الشهرة لان قدره لم يكن قط بحاجة الى مرور الازمان ليعرفه المسلمون في كافة نواحي الارض .

ان الذين قدروا ابا العلاء في حياته هم كثيرون كما ان العلماء الذين كانوا يفتخرون بالنسبة اليه والاستفادة منه كانوا لا يحصون ، اما الملوك والامراء الذين كانوا يحبون ان يتشرفوا به وزيارته فهم كثيرون أيضاً .

اما لا يستطيع ان يحدث طويلا عن ابي العلاء في هذا الجمع الخافل من علماء الشرق والمشرقيات لقلة بضاعتي ولكنني حثت التي بمض ملاحظات تتعلق بحياة ابي العلاء احد كبار مفكري الشرق واحد مفاخره . وانا آمل أن اكون في بحني هذا قد امطت اللثام عن بعض الأمور المهمة في ادب ابي العلاء .

على الرغم من انزواء ابي العلاء في معرة النعمان فان صيته كان قد وصل الى اقصى حدود خراسان وما وراء النهر وذلك قبل نصف قرن من وفاته .

اذا استثنينا رحلة ابي العلاء القصيرة الى بغداد فانتالانجد، رحل الى بلد وراء بلاد الشرق الاسلامي ولكن هذا لم يمنع مواطني الفرس من ان يرحلوا الى بغداد من كل الجهات ليقيدوا من اقامته القصيرة في تلك المدينة . وكثير منهم من استعمل الصواب فقصص معرة النعمان ليقراً على الشيخ في داره .

وانه لمن الفخر ان يكون هؤلاء الفرس هم الذين نشروا آثاره وكتبه في بلاد الشرق الاسلامي في حياته وبعدها . وانه لمن الخير ان نلاحظ انهم كانوا اسبق من غيرهم في نشر ادب ابي العلاء .

ان من اول من تحدث عن المعري فيما اعرف من ادباء فارس هو ابو منصور الثعالبي في كتاب «تتمة اليتيمة» الذي نشرته في طهران [انظر ج ٩/١] . والذي الفه بين عامي ٤٠٤ و ٤٠٧ للهجرة اي قبل موت ابي العلاء باربين او خمس واربعين سنة . وقد خصص الثعالبي فصلا عن حياة الشيخ كما روى لنا بعض شعره واليك نص كلامه [كان حدثني ابو الحسن الداني المصيصي الشاعر وهو من لقيته

قديماً وحديثاً في مدة ثلاثين سنة قال لقيت بعمره النعمان عجباً من العجب رأيت
اعمى شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والتدو ويدخل في كل فن من الجدل والمزحل
يكنى أبا العلاء سمته يقول أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيره على البصر فقد
صنع لي واحسن بي اذ كفاني رؤية الثقلاء البغضاء قال وحضرته يوماً وهو يملي في
جواب كتاب ورد عليه من بعض الرؤساء :

وإني الكتاب فأوجب الشكراً فضمته ولثمته عشراً
وفضضته وقرأته فإذا أجلى كتاب في الورى يقرا
فمحاه دمي من تحدره شوقاً اليك فلم يدع سطراً
فتحفظها واستمعتها كثيراً في مكاتبات الاخوان اهـ]

وقد أورد ياقوت نص الثعالب باختصار في معجم أدبائه [ج ١ / ١٧٢ - ١٧٣]
وقد أضاف على ذلك (قال أنشدني لنفسه :

لست أدري ولا المنجم يدري ما يريد القضاء بالانسان
غير أنني أقول قول محق قد يرى الغيب فيه مثل العيان
إن من كان محسناً قابلته بحميل عواقب الاحسان .

وإذا قارنا عبارة ياقوت بعبارة تمة اليتيمة وجدنا أن هذه المقطوعة التي
أوردها ياقوت ليست لأبي العلاء وإنما هي للمحسن بن عمرو بن المولى الذي
ترجمه الثعالب في التتمة بعد أبي العلاء مباشرة . والراوي لهذه المقطوعة على
قول الثعالب هو أبو يعلى البصري لا أبو الحسن الدلفي كما زعم ياقوت . وتفسير
هذا ان نسخة التتمة التي رآها ياقوت كانت مخرومة ينقصها بعض مقاطع
فاشبهه الأمر على ياقوت فخلط بين شعر أبي العلاء وشعر المحسن . فأنبه العلماء
على هذه الخلطة التي وقع فيها ياقوت وأرجوهم أن يصححوا ما قاله لئلا يقعوا
في الفخ الذي وقع فيه .

بعد الثعالب جاء ناصر خسرو الداعي الباطني والشاعر الفارسي المشهور الذي
زار معرة النعمان في ١٥ رجب سنة ٤٣٨ أي قبل موت أبي العلاء بأحدى عشرة
سنة وقد حدثنا في رحلته « سفرنامه » بأخبار هامة عن شيخ المعرة وقد اعتمد
عليها كثير من المستشرقين والشرقيين في دراساتهم ولذا فاني لا أحب أن أقف
طويلاً أمامها وأناقشها .

ونحن إذا رحنا نفقش عن الملاء الفرس الذين ترجوا لأبي الملاء وشرحوه
وشروا آثاره تقف أمام عالم كبير هو أبو زكريا بن الخطيب التبريزي
(٤٢١ - ٥٠٢) الذي سار على قدميه من تبريز إلى المرة ليلقي حكيهما
وفيد منه مع أنه لم يكن له من العمر أيامئذ إلا قريب من سبعة عشر عاماً
ولكن القدر قد عاكسه فإن مدة استفادته من الشيخ لم تطل أكثر من سنة
أو سنتين على أقصى تقدير. وهذا يفسر حملة صاحب التنوير على كتاب ضوء
السقط للتبريزي واليك نص كلامه عن هذا الكتاب [غير واف بالمقصود ولا
دال على الفرض المطلوب لتقصيره عن بلوغ ما يجب من الإبانة والايضاح
وقصوره على إشارات من مواضع معدودات لا تكشف الغطاء من مشكلة ولا
تشفي ذاغلة، قد عني الشارح فيه بشرح الألفاظ وتفصيل ما غمض من اللغات
غير أنه حرم توفيق الاتقان فيما نقله ولم يصب شاكلة الصواب فيما استنبته
وأصله، ولما لم يكن ضوءه كافلاً باضائة المعنى ولا معترفاً على ما هو المقصود
من إبانة الفحوى ...] (طبع مصر سنة ١٣٢٤ ص ٥). وستكلم مفصلاً فيما
صاحب التنوير.

وهناك مؤلف فارسي آخر تحدث عن أبي الملاء ونقل شيئاً كثيراً من
مختار شعره وهو الباخريزي صاحب كتاب دمية القصر المؤلف في سنة ٤٦٤
أي بعد موت أبي الملاء بخمس عشرة سنة، فقد حدثنا الباخريزي بأخباره
منقولة عن أبي عثمان الصابوني الذي زار شاعرنا في مرة النعمان.

بعد أن انتشر كتاب ضوء السقط في العالم الاسلامي أصبحنا نجد عدداً
كثيراً من الشراح الفرس ولن أتحدث اليكم في هذه الفترة عن شروحيهم
الكثيرة فإن الوقت أضيق من ذلك ولكني أحب أن أقف وقفة طويلة أمام
شارح واحد وهو صاحب التنوير الذي لا يزال إلى عهدنا هذا مجهولاً.

إن هذا الشرح القيم قد انتهى منه صاحبه في شهر محرم سنة ٥٤١ وقد
نشر للمرة الأولى مطبوعاً على الحجر في تبريز سنة ١٢٧٦ ثم نشر في القاهرة
مرات عديدة وقد ذكر صاحب معجم المطبوعات العربية ومفهرس دار الكتب
المصرية أن صاحب هذا الشرح هو ابن طاهر النحوي أبو يعقوب يوسف

ولكنهم لا يعرفوننا شيئاً عن أخبار أبي طاهر هذا ولا عن مصادرهم التي اعتمدوا عليها في هذا القول .

إن قولهم انه [نحوي] هو تحريف ظاهر عن كلمة (خويي) لأن المؤلف كان من [خوي] وهي بلدة لا تزال موجودة الى ايامنا هذه في الشمال الغربي من بلاد آذربيجان في فارس وقد ذكر السمعاني في كتاب الانساب في نسبة [النحوي] ما يأتي : « من المنسوين الى خوي احدي بلاد آذربيجان صاحبنا ابو يعقوب يوسف ابن محمد — كذا وهو تحريف ظاهر لكلمة طاهر — ابن النحوي من اهل خوي سكن طوس وكان حسن السيرة فاضلاً كتبت عنه اقتطاعاً من الشعر بنوقان وكان ينوب عن القاضي » [كتاب الانساب ورقة ٢١٢ ب] وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان [٥٠١/٢] في مادة خوي : « يوسف بن طاهر بن يوسف بن الحسن النحوي الاديب ابو يعقوب من اهل خوي اديب فاضل وفقه بارع حسن السيرة رقيق الطبع مليح الشعر مستحسن النظم كتب لابي سعد الاجازة وقد كان سكن نوقان طوس ولي نيابة القضاء بها وحمدت سيرته في ذلك وله تصانيف من جملتها رسالة تنزيه القرآن الشريف عن وصمة اللحن والتحريف وقال ابو سعد وظني انه قتل في وقعة الغزاة بطوس سنة ٥٤٩ أو قبلها يسير » .

واذا نحن قارنا عبارة ياقوت بمباراة السمعاني عن ابي يعقوب نجد ان ما اورده ياقوت عن السمعاني إما ان يكون من نسخة كاملة من كتاب الانساب لم تصل الينا وإما ان يكون من كتاب آخر للسمعاني .

وما يجدر قوله انه قد بقي لنا كتاب ثانٍ من آثار أبي يعقوب وهو مجموعة أمثال عربية عنوانها — فرائد الخرائد — ومن الكتاب نسخة في المكتبة الوطنية بباريس رقمها ٣٩٦٨ . وفي مقدمة هذا الكتاب نجد اسم المؤلف هكذا يوسف ابن طاهر النحوي . ويذكر الحاج خليفة هذا الكتاب فيقول : « فرائد الخرائد في الأمثال والحكم لابي يعقوب يوسف بن طاهر النحوي فرغ منه سنة ٥٣٢ ذكر في اوله ان ابا الفضل احمد بن محمد الميداني وانه استاذه ألف كتاباً لكنه اطل فيه فذكر فيه ما اهل من الامثال وألفه على ترتيب الحروف وادرج فيه الابيات السائرة والحكم » .

وبلاحظ المرء أن الحاج خليفة كان يعرف كتاب التنوير كما كان يعرف أبابيعقوب الخوي مؤلف الفرائد ولكنه لم ينسب كتاب التنوير إليه لأن اسم المؤلف لم يكن مذكوراً في صدر كتاب التنوير .

ولاشك في أن مؤلف كتاب التنوير هو نفس مؤلف كتاب الفرائد الذي ذكره الحاج خليفة، كما أنه لاشك في أن مؤلف التنوير هو نفس الرجل الذي ترجمه ياقوت والسهماني. قد لاحظنا أن ياقوتاً والسهماني لم يذكر كتاب التنوير في عداد مؤلفات أبي يعقوب الخوي ولكن نلاحظ في مقدمة التنوير أن مؤلف هذا الكتاب كان مضطرباً بعلوم الدين والعقائد والطب فضلاً عن الآداب . وأنه كان يعيش في خراسان . وليس هناك ما يمنع أن يكون نائب القاضي في طوس وأنه ألف كتاباً دينياً اسمه تنزيه القرآن . [انظر: كلمان ٢٨٩/١ الذيل ٤٥٣/١ و ٥٠٧] . وخلاصة ما سبق :

١ - أن مؤلف كتاب التنوير هو أبو يعقوب يوسف بن طاهر بن يوسف بن حسن الخوي من خوي إحدى بلاد آذربيجان .

٢ - كان شاعراً ومحدثاً وأديباً وفقهياً وكان مقبلاً في طوس يشغل وظيفة نائب القاضي .

٣ - كان تلميذاً لأبي الفضل الميداني صاحب مجمع الأمثال وكان السهماني صاحب الانساب ممن أخذوا منه اجازة .

٤ - إنه ألف كتاب فرائد الفرائد ليرتب كتاب أستاذه ويتممه في سنة ٥٣٢ هـ ، وألف كتاب «تنزيه القرآن الشريف عن وصمة اللحن والتجريف» .

٥ - إن كتاب تنوير سقط الزند قد تم تأليفه في خراسان في شهر المحرم سنة ٥٤١ هـ وأن المؤلف قتله الفز في أواخر سنة ٥٤٨ هـ أو أوائل سنة ٥٤٩ هـ بطوس وكان ذلك بعد استيلاء الفز على خراسان وأسرهم ، أحبها السلطان سنجر .

ومن أغرب الحوادث أن هناك شارحاً آخر لسقط الزند هو صدر الأفاضل القاسم بن الحسين الخوارزمي (٥٥٥-٦١٧) مؤلف ضرام السقط الذي أتم تأليفه سنة ٥٩٧ هـ أي بعد تأليف التنوير بست وأربعين سنة ، قتله التتار في سنة ٦١٧ هـ في خوارزم .

وقد أشار صدر الأفاضل في ضرام السقط [المطبوع بتبريز سنة ١٢٧٦
على هامش كتاب التنوير] إلى شراح السقط قبله وهم ابن الخطيب التبريزي
صاحب التنوير . وهو قد حمل حملة على صاحب التنوير . كما حمل على صاحب
شرح آخر هو الايضاح لمؤلف لا نعرفه .
أيها السادة الأفاضل

أختم كلتي بالاعتذار اليكم لأنني لم أجشكم بشيء ذي قيمة في بحثي هذا .
فقد كنت أحب أن أتحدث اليكم عن الخيام وعلاقة أدبه بالمعري لأنها يقشاهان
في مواضع كثيرة ولكن ضيق الوقت وقلة البضاعة مناني من ذلك فأعذر
اليكم ثانية والسلام عليكم ورحمة الله .

عباس اقبال



مخطوطات أبي العلاء المهرى

في مكتبة جامعة برنستون

تمتاز مكتبة جامعة برنستون بخزانة كتبها العربية التي شرع في تأسيسها عام ١٩٠٠ المستر غريت من تلامذة الجامعة سابقاً وأمنائها حالياً . فالخزانة تستوعب اليوم مانيف على عشرة آلاف مخطوط عربي مما يجعلها حق "تبوء المقام الأول بين خزائن جامعات العالم . على أن مكاتها ليست بكثرة مخطوطاتها بحسب بل بمدد الآمات والوارد منها .

فن هذه التفائس « كتاب الصناعة الطبية لحنين بن اسحق الببادي . نسخته عثمان بن علي بن محمد السمرقندي عام ٥٧٢/١١٧٦ - ٧٧ . وهو ترجمة كتب جالينوس الطبية ويحوي مواد لا وجود لها في مخطوطات جالينوس اليونانية واللاتينية . فضلاً عن ذلك فالمخطوطة العربية أقدم من كل المخطوطات اليونانية واللاتينية الباقية اليوم . ومنها « الكتاب الملكي » لعلي بن عباس الهوسني نقله ركات بن ثابت عام ٥٨٦/١١٩٠ . وهو النسخة الوحيدة الكاملة في هذا الكتاب على ما نعلم باستثناء نسخة في حوزة الدكتور سامي حداد في بيروت . ومن طريف أمر هذا الكتاب أنه التأليف العلمي الرئدي الوحيد الذي حفل الصليبيون بنقله إلى اللاتينية وذلك في أنطاكية عام ١١٢٧ . ومنها « الموجز في الطب » لابن النفيس الدمشقي المتوفى عام ١٢٨٨ وهو بخط مسعود ابن محمد القزويني نسخته عام ٧٩٥/١٣٩٣ وابن النفيس هو الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل سرفيتوس البرتغالي المنسوب هذا الاكتشاف له بمائتين وثلاثين سنة . ومنها « المدخل إلى صناعة الموسيقى » للفارابي نسخته أحمد بن محمد ... عام ٨٦٦/١٤٦١ وهو مزدان بالرسوم والرموز الموسيقية التي لا يستطيع أحد اليوم قراءتها .

وبين مخطوطات هذه المجموعة تأليفات وتعليقات يد عدد من اعلام التاريخ

الاسلامي في التأليف والخط بينهم ياقوت الحموي الجعفي وابن الاثير المؤرخ وابن النفيس المتطبب وابن عربي الفيلسوف المتصوف والفيرو زابادي اللغوي وابن حجر المسقلاني الفقيه .

ولما تكرم الاستاذ رئيس المجمع العلمي العربي وطلب اليّ إعداد كلة لمهرجان أبي الملاء راجعت الفهرس الذي كتنا نشرناه بالطبع عام ١٩٣٨ لمجموعة (غرير) العربية التي كانت يومئذ في حوزة مكتبة جامعة برنستون فوجدت فيه ذكر ثلاث مخطوطات تحمل اسم المرعي فرأيت أن اصفها واتحف المجمع بمصور بمض صفحاتها . ولا بد من ان نذكر في هذا المقام ان الجامعة اقتنت بمذ طبع هذا الفهرس مجموعة ثانية من المخطوطات العربية تبلغ نحواً من ستة آلاف لم يتيسر لنا الآن درسها ووضع فهرسها لذلك لا ندرى ما إذا كان فيها نسخ غير هذه من مؤلفات أبي الملاء .

إن أحدث مخطوطات المرعي في جامعة برنستون هي « ارسالة الاغريضية » (رقمها ٢١٩١ في فهرس مجموعة غرير المطبوع . والاغريض زهر النخل وكل أبيض طري) . نسخها عام ١٢٧٥/١٨٥٨ في المدينة محمد علي بن حسين بن عمر الدمشقي وضمها مع غيرها من الرسائل في مجلد واحد كلها منقولة من مجموعة وجدها في خزانة شيخ الاسلام بالمدينة . وهي رسالة في اللغة والشعر والمنطق نشرها (مرغليوث) مع رسائل غيرها لأبي الملاء في او كسفورد عام ١٨٩٨ ولا نعرف لها أختاً سوى مخطوطة في خزانة الاسكوريال بمدريد (وصفها دريفبورخ في فهرس هذه الخزانة تحت رقم ٤٧٠ - ٢) . ومخطوطتنا تقع في ٤ ورقات طول كل ورقة منها ٢٧٠٦ سنتيمتراً . و عرضها ١٨٠٥ سنتيمتراً . وطول المكتوب من الصفحة ٢٢ و عرضها ١١٨ . وعدد السطور في الصفحة يختلف بين ٢٩ و ٣١ . ورقها أوري صقيل وحبرها أسود باستثناء العنوان وعلامات الوقف فانها بحبر أحمر .
جاء في مستهلها :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه

رسالة أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المرعي وتسمى الاغريضية كتبها جواباً عن الرسالة التي كتبها الوزير أبو القاسم هبة الله المغربي . والمغربي هذا توفي سنة ٤١٨/١٠٢٧ على ما ترجم له ابن خلكان .

وفي نهايتها :

وكان تمامها في يوم الاثنين المبارك الموافق خمسة وعشرون [كذا] خلون من محرم الحرام من شهور افتتاح سنة الف ومائتين [و] خمسة وسبعون [كذا] على يد ناقلها لنفسه أضيف الوري محمد علي بن حسين بن عمر الدمشقي نزيل المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام .

وعلى هامش المخطوطة بعض التصحيحات . وهي في حال حسنة . غلافها من الطراز الشرقي الأزرق له ردة وعليه طوايع حمراء . والمخطوطة مشتراة من بريل الكتبي المعروف في هولاند . عام ١٩٠٠ . وكان بريل اشتراها مع غيرها من السيد امين بن حسن الحلواني المدني الحنفي عام ١٨٨٣ لمناسبة افتتاح المرض الاستعماري في امستردام . وبريل استشار المستشرق الاسوجي لاندبرغ في امر مجموعة الحلواني لدى اقتنائها .

أما اقدم نسخة من مخطوطات المري في مجموعة رنستون فهي من « لزوم ما لا يلزم » ام مجموعة شعرية لابي الملاء (رقمها ٢٨ في فهرس مجموعة غريت المطبوع) نقلها حسين بن احمد بن حسين الجزري بتاريخ ١٠١٣/١٦٠٥ . عدد اوراقها ٢٠٠ الواحدة منها ٥ ، ٢٠ × ١٤ سنتيمتراً والمكتوب منها ٥ ، ١٧ × ٧ ، ٢ . وتشتمل كل صفحة على ٣١ سطراً بالخط النسخي المضبوط بالشكل على ورق اوروبي صقيل . جاء في مستهلها :

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد رسوله وعلى الائمة الابرار من عترته قال ابو الملاء احمد بن عبد الله بن سليمان التتوخي المري رهن الحبسين [البيت والمعنى] تجاوز الله عنه .

وفي نهايتها :

وكان الفراغ منه يوم الجمعة المبارك في اواخر شهر شعبان من شهور سنة ثلث عشر بعد الالف على يد افقر الوري الى رحمة الله تعالى حسين بن احمد بن حسين الجزري غفر الله له ولوالده ولجميع المسلمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين والحمد لله وحده .

وفي حواشها ثماليق وتقييدات من مقتنيها ومطالعها . وهي في حالة حسنة

وجيدة التجليد . وعلى دفتي غلافها مطبوع مداليتان مذهبتان . ولغلافها ردة مطبوع عليها أيضاً مدالية مذهبة . والمخطوطة مشتراة من خزانة مراد البارودي في بيروت عام ١٩٢٥ .

وهناك مخطوطة ثالثة للمعري في برنستون وهي « سقط الزند » (رقها ٢٩ في فهرس مجموعة (غريت) المطبوع . وهي أول مجموعة اشعار نظمها (المعري) نسخها عام ١٠٥٣/١٦٤٣ علي الراشدي سبط المروفي . عدد اوراقها ٧٨ الواحدة منها ١٩٠٥ × ١٣٠٥ سنتيمتراً والمكتوب منها ١٢٠٥ × ٦٠٥ . وعلى كل صفحة ١٩ سطراً بالخط النسخي المضبوط بالشكل على ورق اوربي صقيل بحبر أسود فيما سوى العناوين وعلامات الوقف فبحبر أحمر أو أزرق . والمخطوطة مخرومة من اولها والصفحة الاولى منقولة ثانية بخط ناسخ متأخر . جاء في مستهلها:

بسم الله الرحمن الرحيم وبه العون

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين اما بعد . . . وفي نهايتها: تم الديوان المعروف بسقط الزند من شعر أبي العلاء احمد بن عبد الله المعري على يد الفقير الحقير علي الراشدي سبط المروفي وكان الفراغ من تليقه يوم الاثنين الخامس عشر شوال من شهور سنة ثلاثاً [كذا] وخمسين والالف احسن الله تعالى ختامها آمين يارب العالمين .

ويتلو ذلك حاشية مؤداها ان النسخة هذه منقولة من نسخة بخط القاضي عبد اللطيف بن القاضي محب الدين في معرة النعمان . وعلى هامش المخطوطة عناوين ضمن دوائر حمراء وكثير من التعليقات والاضافات والشروح . ولقد عبث المثلث بمدد من صفحاتها . وغلافها من الطراز الشرقي مطبوع على دفتيه مداليتان والمخطوطة مشتراة من البارودي في بيروت عام ١٩٢٥ .

جامعة برنستون ٢٠ تموز عام ١٩٤٤ فيليب مني

«الناس تخطب في عراك ونفسهم»

لضي ألف من سنك أحمد
ذي (مهرجانات) تقام بجلاقي
الوفد تلو الوفد جاء مشاركا
جاؤك من شرق البلاد وغيرها
يحيون ذكرك بعد موتك أعصراً
شيخ المرة والحوادث جمّة

الناس تخطب في عراك وتنشد
ونظيرها من حول قبرك تعقد
فيها وكل عن بلاد موفد
وشعارم لأبي الملاء المقصد
طاب المات وطاب منك المولد
وكفاك أنك لم تنك لها يد

* * *

يا صاحب العلم العزيز ومن رأى
والخلق لا يفنون بعد مماتهم
يا من عجمت من البرية عودها
ووصفت فلسفة الحياة بصورة
هل أنت تسمع منشديك قريضهم
أترى عرفت بأن شعرك لم يمت
في كل بيت من بيوتك حكمة
شعريهم — السامعين نشيده
جلت معانيه وأفصح لفظه

سرّ الحياة حواء حتى الجلمد
لكننا أعمارم تجدد
وخبرت جيلك غوروا أو انجدوا
فيها تساوى يوم وصفك والنفد
أم أنت فاني لا تمي من ينشد
فله بالسنة الأنام تردد
للناس بالغة وشعر جيد
شعر تقوم له النفوس وتقدم
وكانه في السبك ثوب مؤجد

* * *

مات الملوك ولم تمش اخبارهم
روي حديثك مؤمن ومنافق
شعراً وفلسفة وزهداً صادقاً
لله من صيتٍ بعيدٍ نلته

وقديم ذكرك في الوجود مخلد
ومحابدون ومفرضون وحسد
في كلها عجب لمن يتفقد
أعلى مكاتته الحجي والسودد

شيدت مجداً لم تشده أئمة
وبلغت من كرم الطباع مكانة
ودّ الملوك لو أنّ فضلك فضلهم
خطبوا اليك ودادهم ووصالهم
وغدوت عنهم راغباً مترفعاً
وسلكت في دنياك غير سلوكهم
ورغبت عن أكل الاحوم زهادة
وحبست نفسك لا تروود ديارهم
يأتون نادبك الندي ليأخذوا
فيسارحونك قاصدين ديارهم

* * *

حسدتك أقوام وأب فتية
وسمي لخصبك جاهل ومناوي
الناس فيك مؤالف ومخالف
وكذا العظيم بموته وحياته
شاهدت شر الناس في أفعالهم
تقدأ تنزه عن غلو أو هوى
وسخرت من فتك الطفلة وبطشهم
هذي لعمرك جرأة نبوية

* * *

أبأ الملاء وما عليك غضاضة
لترى بينك كيف يقتل الورى
فيها النساء مع الرجال تجندت
ساروا إلى الهيجاء صفأ واحداً
يصلون نار الحرب لا يخشونها
لا درع داود تقيهم من ردى

ان عدت للدنيا فعودك أحمد
وجيوشهم للموت كيف تمحشّد
وعلى النضال تدربوا وتموّدوا
ما منهم إلا الكمي الاصيد
والحرب تحترم الجسوم وتحصد
كلاً ولا درع كوصفك تسعد

ناهيك من حقدٍ لهم وتطاحن
في كل ثانية وكل دقيقة
في الأرض حربهم وحرب في السما
ركبوا القلاع الطائرات كأنها ال
يرمون بمضهم لمض من عل
دكت بها للأبرياء منازل
وئهاك (قنبلة) تطير بنفسها
لا تستطيع الطائرات لحاقها
تهوي فتفجر انفجاراً هائلاً
قتل الرضيع بها ومات أمه
كم نائم في بيته مع أهله
وجرت كصخر السيل دباباتهم
أما بوارجهم فهت حوارس

* * *

قالوا نحارب حرب سلم دائم
وعدالة بين الشعوب جميعها
كل يبرر بالدعاية دينه
أبا العلاء فذي حكاية حالهم
نم في ثراك ورح فؤادك من عني

طاهر الرميلى
قنصل العراق في تبريز

تبريز ٢١ آب سنة ١٩٤٤



المصري والموسيقي

قد يستغرب هذا العنوان وحق للسامع ان يستغرب فابو الملاء شاعر وابو الملاء
فيلسوف حكيم وابو الملاء زاهد وابو الملاء لغوي ونحوي وصرفي .

ولكن ماحيلتي وانا امروء ولع بالموسيقى وايقن ان الطبيعة البشرية لاغنى لها
عنها الا اذا كانت شوهاء او بتراء وابو الملاء ذو طبيعة رقيقة في الطباع وذوق
كريم بين القلوب فاذا كان قد اخذ نفسه بالامتناع عن طيات الحياة فانه لم يفعل
ذلك لنقص في شعوره بما امتنع عنه ولا لخلل في جسمه يباعد بينه وبين تفهم تلك
الطيات وانما امتنع عنها وهو بها شاعر واي شاعر ولها مدرك واي مدرك . وما
اعتقد ان ابانواس ذكر الحجر ووصفها باكثر من ذكر ووصف أبي الملاء لها وان

اختلفت بينها الغاية واساليب العرض وما ارى صريح الغواني وعمر بن ابي ربيعة
ألا بنوامض غرائز النساء واخلاقهن كما ألم أبو الملاء بها وتحليلها وان اختلفت
بينهم الاساليب والغايات . فابو الملاء كان عالما بما اتى من زهد وكان عالما جدا بما
ترك من طيات حتى نرى ان شعره ونثره قد فاضا بتحليل ما ترك ولم يأت الا قليلا
بتحليل ما آثر لنفسه من طرائق العيش فلم يصف ولم يحلل اثر المعظم الجشب واللباس
الحشن والعزلة القاسية في نفسه بمثل ما حلل اثر الحجر والمرأة والمال والمجد .

فهذا بعض ما جماني ابحت عن الموسيقى في حياة هذا الانسان العظيم وشيء آخر
هو ادعى لان ابحت عن اثر الموسيقى في نفس المصري خاصة وهو انه رحمه الله كان
بصيرا انقطعت بينه وبين الدنيا الاسباب الاسبب من اذنه ولمسه فكان بالحري ان
تراعي هذه الاذن الموهبة كل نامة من حوله وكل هيعة . وهو لم ينقطع عن خوض
ما كان يخوض فيه جميع الناس من مجتمعات عامة وخاصة الا بعد ان شارف على الاربعين
من عمره فهو اذن قبل ذلك قد استمع الى الموسيقى ساعيا لسماعها او غير ساع سمعها
في الافراح وسمعها في المآدب العامة وسمعها على افواه الخداة في القوافل التي كانت
تحمله بين الشام والعراق وسمعها من صديق يعدم او جار يترنم على الاقل .

ولم يمهني المعري ان اسأل عن موسيقاه الرسوم والاطلال فهو قد أثبت تذوقه لها وتحليله لأنارها واطلاعه على ضروبها والحنانها في شتى اشعاره ومؤلفاته .
اما اطلاعه على ضروب والحنان موسيقى عصره فقد انبأنا به كتاب الفصول والغايات بتفصيل لانجده عند مؤلفي ذلك العصر حتى المغنين منهم والملحنين فقد جاء في الصحيفة الثامنة بعد الثمانين من ذلك المؤلف بعد ذكر شيء عما ينطق به العود من طرائق الفناء مايلي :

« والطرائق الثماني . الثقيل الاول وابقاعه ثلاث نقرات متساويات الاقدار على مثال مفعولن (مف) نكرة (عو) نكرة (لن) نكرة وهي نقرات تقال وانت تثبته بالوتد المفروق أوضح مما تثبته بالسبب المضطرب وذلك ان الوتد المفروق ثلاثة احرف اوسطها الساكن والسبب حرفان فانت اذا وقفت على الوتد المفروق سكنت سكونا اطول من السكون الذي على السبب مثل قولك حنجر بجردهر فملى هذا يجري الثقيل الاول . وخفيف الثقيل الاول وحقيقته ثلاث نقرات متواليات وهي اخف من التي ذكرنا واسرع تواليا كقولك مفعولن بلا فصل والثقل الثاني وقد اختلفوا في ايقاعه فاسحاق يوقعه ثلاث نقرات نقرتان متساويتان بمسكتان وواحدة ثقيلة على وزن مفعولان ومنهم من يوقعه اربع نقرات متساويات الاقدار لاختلاف محمولات ولا تقال مسكات على مثال مفعو مفعو ومنهم من يوقعه اربع نقرات ثلاث متساويات والرابعة اثقل منهن على مثال مفعولان .

وخفيف الثقيل الثاني وحقيقته اسرع حثامنه وهو نقرتان خفيفتان والثالثة ثقيلة وهو الخفيف الذي اختاره اسحاق ويسمى الماخوري وهو عكس الرمل ووزنه مفعولان .

والرمل هو نكرة ثقيلة واثنان محمولتان (لان مفعو) ومثله في الكلام (مل)

وصلي صد عني

وخفيف الرمل . وخفيف الرمل جاء على غير جنسه وذلك ان خفيف كل نوع جاء على غير جنسه وذلك ان خفيف كل نوع مثل ثقيله الا انه اخف حث الايقاع فالما الرمل فلم يحج خفيفه على عدد نقراته وهو على نقرتين بينهما فصل ووزنه على مثال فـلـان فـلـان

والهزج . وهو على نقرة نقرة . واحدة ثقيلة وأخرى خفيفة على وزن (قال لي) .
وخفيف الهزج . وخفيف الهزج مثله الا انه اسرع حثاً منه . . .
ولسنا نعلم ما كانت تضم في هذا الباب المؤلفات الكثيرة التي فقدت لأبي الملاء
على أن فيما انتقل لا يدبنا بعض الفنية عن افتقاد ماضع فشمرة وثره يؤكدان لنا
أن المري لم يكتف بان يلم بطرق الالحان وضروبها بل هو يتذوقها ويحلل آثارها
في نفوس السامعين . استمع له في لزومياته وهو بنمى التكبر على الانسان فيقول:
ماكبره وتقبل اللحن بمنه من سرعة الفهم ترسيل وتمديد

فالمري لا يكتفي أن يعدد ضروب اللحن من ثقيل وخفيف الثقيل والرميل
والهزج وغيرها بل أنه ليعرف طبائع هذه الضروب معرفة من تختلط هذه الالحان
سمعه الى قلبه وشعوره . فهو قد وعي طبيعة اللحن الثقيل وشعر أن من طبيعة هذا
اللحن أن لا يكون سريعاً الى الفهم اطول الترسل والتديد فيه .

ولا ابالغ إذا قلت لكم إن واحداً من المئة من المغنين حتى الحذاق منهم لا
يعرفون تأثير صفات الغناء - التي منها الاسترسال . والتديد . ولا باس من أن
مذكر الان بمض صفات الغناء لتروا من ذلك ان أبا الملاء كان في هذا الفن من
الملاء فنها الاجتهاد . والاستهلال . والاسترسال . والمناضلة . والمخاتلة . والتفريد
والتفخيم . والترخيم . والمراسلة . والمطاولة . والترجيع . والتفريع . والتقدير .
والتوطئة . والاتقاء . وتقدير الانقاس . والاضماف والتذلل . والتدلل . والاتصال
والتحرش . ولا ابتداع الى غير ذلك مما لا يعرفه الا الراسخون في هذا الفن والمري
لا يكتفي بذلك أيضاً بل انه يطالعك على خبرته بعلاقات الالحان بعضها ببعض وبانه
خبير بقواعد الانتقال من لحن الى لحن حتى يأتي على آخرها في رسالة الغفران
يقول على لسان ابن الفارح لاحدى قيان الجنية (اعلمي قول ابي أمامة) .

أمن آل مية رائج او مقتد عجلان ذا زاد وغير مزود

تقيلاً أول (فتصنمه فتجي به مطرباً وفي اعضاء السامع متسرباً ولو نحت صنم
من الحجر ثم سمع ذلك الصوت - لرقص فيقول (هلم خفيف الثقيل الاول)
فتنبعث فيه بنهم لوسمه الغريص لاقران ما ترنم به مريض فاذا اجادته قال (عليك بالثقيل
الثاني) فتأتي به فاذا رأى ذلك قال (سبحان الله كلما كشفت القدرة بدت لها عجائب

فصيري الى خفيف الثقيل الثاني فانك لمجيدة محسنة ثم يقترح عليها امل وخفيفه وأخاه المزج فاذا تيقن لها حذاقة وعرف منها بالعود لباقة هلال وكبر واطال حذر به واعتبر ا. ه. فمن هذا الخبر يظهر لنا أن المعري كان عارفاً بأصول الخروج من لحن الى لحن اذ ان بين الانغام توافقاً وتنافراً وليست كل نغمة توافق السير مع غيرها من النغات بل أن هناك نغات لا تأتلف مع غيرها البتة ونرى الجهبلاء اليوم لفن الموسيقى يقترحون على مغن اغنية من مقام (السيكاه) بينما يكون المغني آخذاً بالنشاد اغنية من الحجاز كار مثلاً في مثل هذا الحال لا يعلم الا الله مقدار ما يصيب المغني من التأثير التنافري الواقع بين النغمتين وهذا ما لم يغفل عنه أبو الملاء كما ظهر لنا في الخبر السابق وقد جاء في رسائل اخوان الصفا ان الخروج من لحن الى لحن والانتقال منه ليس له طريق الا على احد الوجهين اما أن ينقطع ويسكت ويصلح اللسانين والاولى بالحدق والارخاء ويبدأ ويستأنف لحناً آخر ويترك الامر لحاله ويخرج من ذلك اللحن الى لحن قريب منه مشاكلاً له — وهو ان ينقل من الثقيل الى خفيفه او من الخفيف الى ثقيله او الى ما قارب منه .

اما تحليله لآثر الموسيقى في النفس فظاهر في شعره ونثره على صورة تدعونا الى ان نقف عند هذا التحليل متأينين غير مستعجلين فابو الملاء في لزومياته وفي فصوله وغاياته وفي غير ذلك من مؤلفاته يدعو الى اجتناب اللهو والتمتع بمفاتيح الحياة واجتناب كل ما يمين على ذلك وفي جملتها الموسيقى فهو اذن — يدعو الى اجتنابها لانها كالخمر والنساء من افتن مفاتيح الحياة ولان لها سحراً لا يمتنع منه اصعب القلوب ولا اشد الاعصاب ولأنها لا تغلاء الحياة آمالاً واحلاماً وهو لا يرى بحكم زهده وتشاؤمه أن يسمح للحياة ان تلمب بناهذه الامال والاحلام التي تزينها لنا بالموسيقى أو بالخر أو بالنساء أو بها جميعاً .

ولكن الموسيقى لذة منزهة لا تخاب الاب كما تفعل الخمر ولا تلثم الشرف او تنقص العيش كما يحتمل أن تفعل النساء وانما هي لذة منزهة كما قلت تسمو بالروح ولا تهيج الجسد الا اذا استعانت بمعاني الشعر أو بحرارة الخمر أو بقرب الكواعب الفرس .
فالمعري من ذلك بين نارين النار الاولى هي أنه ليؤثر الموسيقى لو كان يمكن ان تكون اللذة المنزهة الوحيدة التي ياجأ اليها الناس وهو لا يمتنع في كبت اغجابها بل يقول مثلاً :

وهواك عندي كالفناء فانه حسن لدي ثقيله وخفيفه
ويسترسل مع شعوره وخياله في عالم الالخان فيقول :
وغنت لنا في دار سابور قينة من الورق مطراب الاصاائل مهال
أتزهر أغصافها اجت بزهر مشانيه احشاء لطنن واوصال
فهذا كلام من افصح لحسه ولشعوره المجال الى مداه في لحظة من تلك اللحظات
التي كان يتناسى فيها أخذه بالزهد كل خشن من قول او عمل .
والنار الثانية هي التي اكتوى بها المعري رضاه واراد ان يكوي بها جميع
العالمين وهي الاحتشاد بكل قوى الارادة لخلق الفرائز وكبت المشاعر واجتباب
الذائد والابتعاد عن كل مايفرى بالاستسلام لمفاتيح الحياة :
والموسيقى أجل خطرأ من أن نهمل شأنها في هذا الباب فهي مفتاح لكثير من
الاخلية والذائد — والشهوات

طربت لقمريني مربع على غصني ضالة غنتا
بدت لها زهرات الربيع فاحسنتا القول واقتنتا
وتعذر نفسك عن الحنين وتعذر عنك أن حتتا
فهواذن على تذوقه لها وفهمه لرفعة شأنها مضطرا الى أن لايجعها تكأة الى غيرها
من اللذائد الجسدية الدموية ولا مغريا يحرك الفرائز ويدوق الاماني والاحلام .
ولهذا فهو اذا ذكر لك الموسيقى في أي موضع من شعره ونثره فانه لايعمل
مطلقا ان يذكر الى — جنب ذلك بانها ضرب من النذب والنواح أو باعث على
النذب والنواح فهو ما يفتاء يردد :

وشبيه صوت النعمي اذا قيد — س بصوت البشير في كل ناد
ابكت تلكم الحمامة أم غن — ت على فرع غصنها المياد
ويقول :

ردي كلامك ما املاات مستمعا وهل يمل من الانفاس ترديد
هاجت بكاي اغاني القيان بها كأنها من ذوات الشكل تعديد
ويقول :

تسمى رشيداً من لؤي بن غالب امير وهل في العالمين رشيد
فان أغاني اليايالي نيساحة ومنها بسيط مقتضى ونشيد

وقوله :

تخالفت الفرائز والمعاني فكيف توافق المتجسّدات
فما بين المقابر ناديات وما بين الشروب مفردات
او هو على الاقل يذكر في تلك اللحظة التي تنعم فيها بالموسيقى ان الاحداث
والفواجع ملء برديك فلا تذهب مع تنعمك الى مداه
هي النفس عذّاها من الدهر فاجع برزء وغنّاها لتطرب ساجع
فنفسك يا بن آدم لا تزيد على انها الموبة بيد الحياة ماتفتنها السواجع الا لتنميتها
الفواجع رحمتك الله ابا العلاء فلقد انشأك الله عقلاً جباراً لا يفتن الا بان يحيط بجميع
ما حوله وشموراً عميقاً زاخراً يتقد كالكوكب الخالد ولا يسطع كالهشيم المحترق
رحمة سابعة وسمت العالمين والسلام

فخري البارودي

الفهرس

الصفحة	
٥	المقدمة الأستاذ خليل مردم بك .
٩	الحفلة الأولى في دمشق
١٢	كلمة نخامة رئيس الجمهورية
١٤	كلمة وزير المعارف
١٧	كلمة رئيس المجمع العلمي العربي
١٩	الفصول والفتايات للدكتور طه حسين .
٢٦	الفياسوف الحر (قصيدة) للأستاذ محمد مهدي الجواهري
٣٠	أبو العلاء المعري شاعر أم فيلسوف ؟ أحمد الشايب .
٤٦	الحفلة الثانية في دمشق
٤٨	سلطان العقل عند أبي العلاء للأستاذ أحمد أمين .
٦٥	التفاؤل والاثنية في كلام الشيخ محمد اسعاف النشاشيبي
١٠٥	أبو العلاء (قصيدة) محمد البرم .
١١٧	المعري في نظر المستشرقين الفريد غليوم .
١٢٤	المعري وآراؤه في الإصلاح الاجتماعي عارف النكدي .
١٣٥	الحفلة الثالثة في معرة النعمان على ضريح أبي العلاء
١٣٧	شاعر البشر (قصيدة) للأستاذ معروف الرصافي .
١٣٩	على قبر أبي العلاء الدكتور مهدي البصير .

١٤٤	الحفلة الرابعة في حلب
١٤٦	أبو العلاء شاعر انساني للاستاذ ابراهيم عبدالقادر المازني
١٦٤	سر الخلود في شعر أبي العلاء طه الراوي . . .
١٧٥	الفيلسوف (قصيدة) عمر أبو ريشة . . .
١٧٩	الاضطراب السياسي في عصر أبي العلاء سامي الكيالي . .
١٩٠	الحفلة الخامسة في المزدقية
١٩٣	ناحية التاريخ من أدب أبي العلاء للأستاذ عبد الحميد العبادي .
٢٠٢	فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء للدكتور جميل صليبا . . .
٢١٣	الدهر ملك العبقرية (قصيدة) للأستاذ بدوي الجبل . . .
٢١٧	أسلوب الممرى ومنهاجه محمد الصريحي . . .
٢٣١	الروح الملائية وأثرها في أدبنا الحديث أنيس المقدسي . . .
٢٠٧	الحفلة السادسة في دمشق
٢٥٢	لزوم ما لا يلزم متى نظم وكيف نظم ورتب للدكتور عبد الوهاب عزام .
٢٧٠	شيخ المعرة والشيخ الذرا للأستاذ عبد القادر المغربي . . .
٢٨٠	دين أبي العلاء محمد سليم الجندي . . .
٢٩٣	اختلاف الآراء في فلسفة أبي العلاء هنري لاوست . . .
٣٠١	ذكرى أبي العلاء (قصيدة) شفيق جبري . . .

تكملة

(الكلمات التي وردت متأخرة فأُخفَّت بالحفلة السادسة)

٣٠٦	من ضحايا العقول للأستاذ فؤاد افرام البستاني .
٣٢٢	من هو أبو العلاء الممرى أديب وهبة . . .
٣٢٩	الممرى والمرأة للآنسة جهان الموصلي . . .
٣٣٣	أبو العلاء وأقطاب الفكر المحدثون للأستاذ عارف العارف . . .
٣٣٨	كلمة الاذاعة الفلسطينية عزمي النشاشيبي . . .

(الكلمات التي بها أوصافها لتفسر في الكتاب

بأن أنذر حضورهم الى دمشق في أسبوع المهرجان)

- ٣٤٠ لزوم ما لا يلزم في الادب العربي . . . للاستاذ محمد رضا الشبيبي . .
- ٣٦٢ ابو العلاء المعري وعلم النحو . . . = ابراهيم مصطفى . .
- ٣٧٥ بعض ملاحظات تتعلق بحياة ابي العلاء وآثاره = عباس اقبال . . .
- ٣٨٢ مخطوطات ابي العلاء المعري في مكتبة جامعة برنستون للدكتور فيليب حتي .
- ٣٨٦ الناس تخطب في علاك وتنشد (قصيدة) للشيخ كاظم الدجيلي . . .
- ٣٨٩ المعري والموسيقى للاستاذ فخري البارودي . .



MILLENARY FESTIVAL
OF
ABŪ AL-‘ALĀ’ AL-MA‘ARRĪ

DAR SADER *PUBLISHERS*
P.O.Box 10
BEIRUT